

الدولة الإسلامية  
بين  
الواجب والممكن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الدولة الإسلامية بين الواجب والممكن

الشيخ  
د. جاسم بن محمد بن مهمل الياسين

شركة السماحة للدعاية والإعلان والنشر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف

شركة السماحة للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع والإنتاج الفني

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور  
جاسم بن محمد بن مهمل الياسين

من المكتبات التالية:

هاتف: ٢١١٥٠٤٥ — ٢٦٥٤٦٣٩

الكويت: مكتبة المنار الإسلامية

فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤

الكويت — جولي — شارع المشي

لبنان: مؤسسة الريان

ص.ب: ٤٢٠٩٩ جولي

للطباعة والنشر والتوزيع

الرمز البريدي: ٢٢٠٩٥



## محتويات الكتاب

أولاً: مقدمة.

ثانياً: إهداء.

ثالثاً: كلمات قلب (اسمحي لي يا أماء).

رابعاً: تقديم الكتاب للأستاذ الدكتور (عجيل جاسم النشمي).

خامساً: مدخل لمبحث الدولة الإسلامية بين الواجب والممكن (تاريخ ونتائج):

وفيه بعض الإيضاحات لبعض المفاهيم الهامة التي ينبنى عليها غيرها:

١ - الدولة الإسلامية.

٢ - الواجب.

٣ - الممكن.

٤ - إيضاح بعض القواعد الفقهية وأدلتها كتاباً وسنة:

الأولى: المشقة تجلب التيسير.

الثانية: الميسور لا يسقط بالمعسور. «وفيه الكلام على سنة التدرج».

سادساً: فصول الكتاب ومباحثه:

١ - الفصل الأول: مراحل تطور الدولة الإسلامية.

- المبحث الأول: ملامح الدولة الإسلامية في زمن النبوة.

- المبحث الثاني: الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين.
- المبحث الثالث: الدولة الإسلامية في عهد الأسر المالكة.
- المبحث الرابع: خلاصة المباحث السابقة.
- ٢ - الفصل الثاني: حركات إصلاحية ودولة إسلامية
- المبحث الأول: واقع وتاريخ «دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى».
- المبحث الثاني: «دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» والدولة السعودية.
- المبحث الثالث: دعوات بين الإصلاح والدولة.
- ٣ - الفصل الثالث: الحركات الإسلامية وواقعنا المعاصر
- المبحث الأول: انهيار الدولة العثمانية.
- المبحث الثاني: جماعة الإخوان المسلمين في مصر.
- المبحث الثالث: الحركة الإسلامية والتغيير في دول غير جمهورية مصر العربية.
- ٤ - الخاتمة:
- الكلام على الهدف من الكتاب والغاية منه.
- نتائج مستخلصة في موضوع الدولة الإسلامية.
- علاقة الحركات الإسلامية بالأنظمة الموجودة.
- ٥ - الملاحق:
- الملحق رقم (١): وهو رسالة من الباحث إلى العلماء الأفاضل وردود العلماء عليها.
- الملحق رقم (٢): قصد مجيء محمد علي إلى حكم مصر.

- الملحق رقم (٣): انقلاب الضباط الأحرار.

٦ - المراجع:

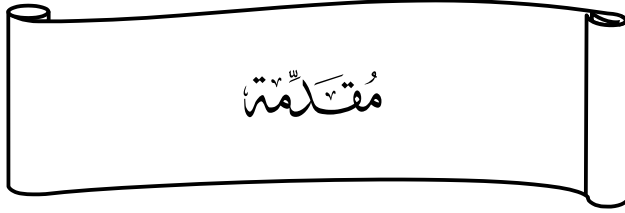
أ - الكتاب.

ب - السنة.

٧ - الفهرس.







الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد بن عبد الله  
وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فأنا لا أكتب تاريخاً ولا أذكر حوادث وما كان هذا مقصدي فكتب  
التاريخ والكتب الأخرى التي تكتب عن حوادث الزمان كثيرة جداً. وإن كان  
القارئ سيجد في كتابي تاريخاً وحوادث ولكنها ليست مقصودة لذاتها ولو  
كانت كذلك لما أضفت جديداً ولكانت تكراراً لمن سبقني ولكن الكتاب  
يعالج في مجمله قضية أساسية تحتاج إلى تأصيل وبحث من قبل الدعاة  
وهي: «الدولة الإسلامية» التي يريدونها الدعاة بين ما هو موجود في ذهن  
من خلال استقراء النصوص وبين ما هو واقع، فالواجب بلا شك هو أن  
نعمل على إيجاد دولة الخلافة بدلها والتزامها ولكن إن لم نصل إلى هذا  
الأمر لكونه ليس داخلياً في دائرة المقدور الآن فلا حرج أن نعمل على  
إيجاد دولة الممكن، فإن كان الوضوء بالماء واجباً لدخول الصلاة فالتيمم  
عند عدمه يحل مكانه في رفع حكم النجاسة. وهذه المسألة لا أدعي أنني  
قد أشبعتها بحثاً ولكنني فتحت الأبواب لدراستها والتعمق فيها والوصول إلى  
أدبيات جديدة تُطرح في قاموس الدعاة. والأمر غير مقطوع به في أي  
الاتجاهين ولكن على الأقل نفتح نوافذ للرؤى والنظر والدراسة وليس  
بالضرورة أن كل ما ذكرناه أو أخذناه من الماضي يكون صحيحاً في زماننا  
هذا وخصوصاً في مجال الدعوة والفكر حيث إنها نتاج بشري لمفاهيم  
الكتاب والسنة في إطار واقع وحركة الدعوة والمجتمع.

وحسبي أنني نبهت وركزت الفكر للبحث والتنقيب، فإن أصبت  
فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان.

والله الموفق.

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين





إلى والدتي منيرة، التي لها من اسمها نصيب، فقد أنارت لي طريق حياتي فعرفت ربي، وسلكت منهج النبي محمد بن عبدالله ﷺ.

إلى والدتي التي أَرْضَعْتَنِي معاني الخير كلها، فكانت مدرسة في كل شيء، فهي التي علمتني كيف يكون بر الوالدين، وعلمتني الإحسان إلى الآخرين وإن أسأؤوا، وأَرْضَعْتَنِي معاني الصبر التي قرأناها في المجلدات وكتبناها. لقد علمتني معنى الإنفاق مما كان في يدها فأدخلت به السرور على الآخرين.

إلى والدتي التي لم تعرف الشكوى في حياتها، ولم تكن مع كثرة أمراضها.

إلى والدتي التي كنا - قبل وفاتها رحمها الله - بدعائها نتنعم... وإني أقول: لئن تنعمتُ بدعاء أُمِّي في حياتها فإني أتُنعِمُ بالدعاء لها بعد وفاتها، وكلما ازدادت لها دعاء ازدادت نفسي إحساساً بالنعيم، وفي الحاليتين فإني أتُنعِمُ بخيرها في الحياة والممات، ولست أعرف لإنسان فضلاً علي فيما أنعمُ به من فضل وخير يعادل أو يقارب فضل والدتي رحمها الله تعالى، وأسأل الله - سبحانه - أن يستجيب دعائها لي، ويستجيب دعائي لها.

لقد تعلمت منها الصبر والتجلد. فقد شطبت من حياتها ما يسمى بالإيذاء فكانت لا تؤذي أحداً ولا شيئاً حتى الأرض التي كانت تمشي

عليها. علمتني معاني كثيرة، قدمتها وهي تُضحى بصحتها ووقتها وسعادتها.

**إلى والدتي** التي أعرف من مدرستها الكثير لا يعز ذكره في هذا الإهداء وسأفرد له رسالة خاصة إن شاء الله.

- **إلى والدتي** أهدي ثواب هذه الرسالة لعلني أؤدي زفرة من زفراتها عند ولادتي.

- وأهدي هذه الرسائل إلى والدي رحمه الله الذي كان عنواناً للجود والعطاء والحرص على توفير كل ما هو خير لأولاده، وكان يشتغل بالليل والنهار في السعي على أسرته وعلى الفقراء والمحتاجين وكل ذلك بصمت، فكان سكوته كثيراً وعمله كبيراً لا ينمق العبارة ويزين الجمل، وإنما كان يجاهد ليحسن العمل، ووضع في أحسن صورة، كان نموذجاً في الجود والعطاء في أول حياته ثم حينما كان كبيراً كان قلبه معلقاً في المسجد فما أن يرجع إلى البيت من المسجد حتى يستعد للذهاب إليه مرة أخرى.

- أهدي هذه الرسائل إلى رفيقة الدرب أم معاذ التي كانت لي عوناً في صبرها على سهري وسفري.

- وأهدي هذه الرسائل إلى أولادي جميعاً ذكوراً وإناثاً.

- وأهدي هذه الرسائل إلى كل من ساهم في إخراجها. وجعلها بين يدي الناس في المشرق والمغرب، وإنني إذ أكتب هذا الإهداء أرجو من إخواني الذين يكون بين أيديهم هذا الكتاب ألا ينسونا جميعاً من صالح دعائهم.

والحمد لله رب العالمين.

الشيخ

د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين



## اسمحي لي يا أماه:

أُمَاهُ كُنْتُ مُنِيرَةً وَمَنَارَةً  
قَدْ كُنْتُ مَدْرَسَةً تُعِدُّ نُفُوسَنَا  
قَدْ كُنْتُ لَلْإِيْتَامِ أُمًّا بَرَّةً  
أَزْضَعْتَنَا الْأَخْلَاقَ شَهْدًا سَلْسَلًا  
عَلَّمْتَنَا الصَّبْرَ الْجَمِيلَ خَلِيقَةً  
عُلْيَا وَصَرَحًا ثَابِتًا الْأَرْكَانِ  
لِصَّنَائِعِ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ  
وَالْجَارِ وَالْمُسْكِينِ أَرْأَفَ حَانَ  
تَدْنُو ثِمَارُ قُطُوفِهَا لِلْجَانِي  
وَالْقَوْلَ لِلْحُسْنَى وَكَفَّ لِسَانَ



أَبْتَاهُ قَدْ رَبَّيْتَنِي وَأَحْطَطَنِي  
وَفَرَّتْ أَسْبَابُ السَّعَادَةِ وَالْهَنَا  
فَجَزَاكَ رَبُّ الْعَرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ  
بِرِعَايَةٍ فِي غِبْطَةٍ وَأَمَانٍ  
فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الْأَقْرَانِ  
وَبَقِيَتْ فِي حِفْظٍ مِنَ الرَّحْمَانِ



نَوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَا سُبُلَ الْعُلَا  
كَمْ ذَا تُقَابِلُ بِالسُّرُورِ تَدْلِيلِي  
أَحْبَبْتَنِي قَرَّبْتَنِي رَبَّيْتَنِي  
بِالْفَضْلِ لَا فَظًّا وَلَا مَنَانٍ  
بِمَحَبَّةٍ وَبِرَأْفَةٍ وَحَنَانٍ  
بِالْعِزِّ فِي ثِقَةٍ وَفِي اطمِنَّانٍ



أَرْفِيقَتِي كُنْتُ الشُّعَاعَ إِذَا دَجَا  
قَدْ كُنْتُ خَيْرَ شَرِيكَةٍ وَمُعِينَةٍ  
الصَّبْرُ فِيكَ مَعَ الْوَفَاءِ سَجِيَّةً  
لَيْلُ الْحَيَاةِ بِمُظْلِمِ الْحَدَثَانِ  
فِي الْبِرِّ عِنْدَ تَقَاعُسِ الْأَعْوَانِ  
بِتَعَاقُبِ الْأَفْرَاحِ وَالْأَحْزَانِ



يَا حَبَّذَا فَلَذَاتُ أَكْبَادٍ بِهَا      كَمُلَ الْمُرَادُ وَقَرَّتِ الْعَيْنَانِ  
فَاحْفَظْ مُعَاذًا وَاحْفَظْنِ مُهْلِهَلًا      أَمَدَ الزَّمَانِ وَعَابِدَ الرَّحْمَانِ  
لَا زَالَ عَبْدُ اللَّهِ فِي حِفْظٍ وَلَا      زَالُوا جَمِيعًا غُرَّةَ الْفَتَيَانِ  
وَلْتُحَظْ عَائِشَةُ وَفَاطِمَةُ بِمَا      قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ  
وَاحْفَظْ هِيَا وَمُنِيرَةً يَا رَبَّنَا      مِنْ مُبْطِنِ الْبَغْضَاءِ وَالشَّنَانِ



يَا رَبِّ لَا زَالَ الْجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ      وَقِيهِمْ شُرُورَ الْحَاسِدِ الْمَعْيَانِ  
صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ      وَالْأَلِ وَالْأَصْحَابِ كُلِّ أَوَانِ

الشيخ د. جاسم بن محمد بن مهمل الياسين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم الكتاب

أتشرف بتقديم هذا الكتاب لأخي الشيخ الداعية الذي ما فتى مذكرفه  
يجول بنظره في ميادين الدعوة، فيسبر كل غور، مآل النظر فيه صلاح دينه  
ودعوته، ولطالما أجال النظر في مواطن دعوية عدة، فصدر عنها بكتب، بها  
عرفه المربون والسالكون على مدرجة الدعوة.

واليوم ينظر للدعوة أيضاً، ولكن من منظار التاريخ، وما أدراك ما  
التاريخ! سجل للماضي مذكور، ومرآة للحاضر والمستقبل منظور، والنظر  
فيه لا كالنظر في ميدان غيره، إنه يحتاج إلى أدوات علمية، وملكات متنوعة  
كما يستطيع الناظر سبر الغور، واستدلال العظات والدروس من خلال ركام  
ضخم من الآثار العلمية كالموج المتلاطم، وهذا ليس لكل أحد أجال النظر  
في أسفار التاريخ، وإنا لنظن - ولا نزكي على الله أحداً - أن صاحبنا من  
ملاك تلك الأدوات والملكات، بل من فرسان الميادين حيثما نزل وإن كان  
ميدان التاريخ.

ومن يقرأ التاريخ ثقافة ليس كمن يقرؤه عظة ودرسا، واستدلالات على  
واقع يعيشه، كيف يتفق هذا ومن ينظر فيه ليني عليه عملاً وحركة وموقفاً،  
فإن هو رام ذلك فإنما يرتقي مرتقا صعباً، إذ ينحت من النظر في فن  
التاريخ تاريخاً للحاضر، ولذا قال ابن خلدون في استهلال مقدمته مرشداً  
أصحاب المراقبي الصعبة «اعلم أن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد،

شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم، وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا»<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن من معضلات التاريخ - كما ألمح ابن خلدون - القدرة على الربط بين الماضي والحاضر، واستلال دروس أو منهج يتبع لا حياة فرد، وإنما لمسير جماعة، بل جمهرة دعاة يرومون توجيه مجتمع المسلمين، فآثار دعوتهم للمجتمع كله، هم دعاة إلى استئناف حياة إسلامية، ووصل ماضيها بما انقطع من حاضرها، وهذه غاية دونها مفاوز جمعة، لا يردّها إلا أصحاب الهمم العوالي السامقة، ثم لا يجتازها إلا من رعاه الله ووفقه.

فالبحت الدعوي في التاريخ الحديث للإسلام وواقع المسلمين، وربطه بما مضى حديث عن تاريخ لا يصنعه أهله اليوم، ولا قدرة لهم مطلقاً على المبادرات فيه، وإنما القياد لخصومهم أو أعداء دينهم، ممن صنعوا تاريخهم الحديث على أنقاض تاريخ الإسلام وسيرة المسلمين في آخر أيام مجدهم، ولا يزالون يكيلون الافتراء ويرمون الإسلام وأهله عن قوس واحدة، ويكيدون كيد الليل والنهار وهذا منهجهم وخططهم مذ أسقطوا خلافة المسلمين، كما أفصح عن هذا وأبان الأمير شكيب أرسلان، وصدق كلامه اليوم أجلى عما مضى من أيامه حين قال: «العالم الإسلامي لا يزال محور سياستهم قهره وإعفاؤه وتجريده من السلاح بكل وسيلة، والحيلولة بينه وبين الاتحاد والتماسك بكل حيلة، احتياطاً من وراء رَسْفَانِه في قيوده الحاضرة، وأمان على ديمومة خنوعه لسلطتهم القاهرة، لا يصح أن يقال: إنه بلغ من النهضة الدرجة التي تكفل له حطم سلاسله الثقيلة، واسترداد ممالكه العريضة الطويلة، واستئناف معاليه الخالية، ومصيره مع العالم الأوربي حالة متساوية ولا أدرك بهذه السنين القلائل من اليقظة ما يكفي لتجديد ما أخلق من حاله

(١) ٣٦٢ / ١ تحقيق الدكتور عبدالواحد وافي - الطبعة الثانية - مطبعة لجنة البيان ١٣٨٤ -

واستثنى<sup>(١)</sup> من شأنه، بل لا يزال ويا للأسف الجهل مخيما على أكثر آفاقه وما برحت العصبية الجاهلية عاملة عملها في تفكيك عراه وبعثة أجزائه، كما أن الرعب من سطوة الأجانب إلا من رحم ربك ملء الجوانح، واليأس من استطاعة القيام، فاش في الأفكار والخواطر، وكأنه إلى هذه الحالة بعينها نظر النبي ﷺ حينما قال: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى الْقِصَاعِ، قَالُوا: أَوْ مِنْ قِلَّةٍ مِنَّا يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّكُمْ غُنَاءٌ كَغُنَاءِ السَّيْلِ يَجْعَلُ الْوَهْنَ فِي قُلُوبِكُمْ، وَيَنْزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ أَعْدَائِكُمْ مِنْ حُبِّكُمْ لِلدُّنْيَا وَكَرَاهِيَّتِكُمُ الْمَوْتَ» أو كما قال. نعم صار المسلمون، إلا الأقل منهم إلى زمان لا تغني عنهم كثرتهم شيئا، بل صارت الفئة القليلة من غيرهم تتحكم في الفئة الكثيرة منهم، وتخططهم بكل عصا، وهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، وراح الأجنبي يفتح بلدانهم بهم، ويسلط بعضهم على بعض، يقتل هذا بذاك مستفيدا من قتل الاثنين، الذي يقاتله والذي يقاتل معه<sup>(٢)</sup> هذه حال واقع لا يمارى فيه غير مكابر، لكنه واقع لا يستلزم التشبث والخنوع والاستسلام، إلا لأقوام انهزموا من داخلهم لأول هبة، فكانوا تبعاً، وجعلوا من عدوهم القوي المتحضر المثل القدوة.

وهذه وإن كانت طبائع المغلوب أن يذهل بانتصار وقوة عدوه، إلا أن استمراره وإخلاده إلى الهزيمة يورده الغفلة وهلكة نفسه، فيندم ولات ساعة مندم، كما قال ابن خلدون: «إن المحاكاة للإنسان طبيعة معروفة، ومن الغلط غير مأمونة تُخرجه من الذهول والغفلة عن قصده، وتخرج به عن مرامه»<sup>(٣)</sup> وهذه وإن كانت طبائع المغلوب المنهزم في نفسه، إلا أنها لا تعني أصحاب المبادئ السامية في شيء، بل تشحذ همهم، وتوقظ فيهم التشمير عن ساعد التغيير، تغيير الواقع والمنهج والقيادة، وإن ملامح هذا

(١) الشن: القرية الخلق، والمراد هنا ما ضعف وبلى من شأن.

(٢) حاضر العالم الإسلامي للعالم لوثرور ستودارد، تعليق الأمير شكيب أرسلان، المقدمة

(ز) الطبعة الرابعة ١٣٩٤ - ٩١٧٣ دار الفكر - بيروت.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٤٠١.

التغيير بادية اليوم، وإن حملة منهج التغيير قد جاوزوا مرحلة التنظير إلى مرحلة الترميم والتعمير لوقائع عدة تربوية ودعوية واجتماعية واقتصادية وغير ذلك مما هو ملموس معاين، وهم إلى الاتساع ماضون بمضي دينهم كما شهد بذلك الخصوم قبل غيرهم.

إن استمرار هذا الجهد بهمة ومنهجية هو محل النظر، ومعقد الأمل، فإن مسيره معترض بمفاذات وأهوال دونها تلکم المفازات الماضية في عصر يسمونه اليوم عصر التكتلات أو العولمة وما هو من عولمة الخير بقریب، بل هو صيغة جديدة للهيمنة والاستعمار البائد، إنه الاستعمار الجماعي بديل الاستعمار المتفرق القديم.

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب الذي لم يجرؤ مؤلفه - صدقاً - على ادعاء الكمال في موضوعه من وصف العلاقة بين ماضي الدولة والسلطة، وواقع الدول والحكومات الإسلامية اليوم، ومنهج العلاقة الأمثل بينها وبين الحركات الإسلامية وتحديد ما يجب أو ما يمكن، فإن المسلك صعب، ومحاذيره كثر، وحسب أخينا أنه أرسى لبنة البناء، ودعا من خلاله من يكمل ويُعَلِّي.

ولا أزال أدعو الله العلي القدير أن يجزل العطاء موفوراً لمن دل على هذا الخير، ورفع مناره، وأن يثقل به ميزانه إنه سميع للدعاء مجيب.

أ. د. عجيل جاسم النشمي

## مدخل

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فمن المعروف أنه حتى الربع الأول من القرن العشرين كانت الدولة في الإسلام جزءاً من بنائه، لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه وقد انفردت الدولة الإسلامية بالسبق والريادة عدة قرون.

غير أن الذي حدث بعدما استفاق المسلمون بوعي ثقافي غربي أنهم أخذوا يبحثون عن ذاتهم ومكانتهم ودولتهم، وكان من نتيجة ذلك أن انقسموا إلى فريقين كل منهما يتحدث عن الدولة بمنظور خاص، فالفريق الأول عمل على التوفيق بين الشريعة الإسلامية وفكرة الدولة الغربية، والفريق الثاني فرق بين الإسلام كدين والدولة كمؤسسة سياسية.

أما الفريق الأول فلم تكن ردة فعله إلا صدى لما هو واقع في الدول الأوروبية التي «سطع نجمها في أفق العالم المعاصر، وبسبب الضعف من جهة والحنين إلى تراثه وإثبات هويته التي أحس بفقدانها من جهة أخرى، تجلّى له ذلك حينما وجد نفسه ورقة شجر خريفية وسط عاصفة هوجاء، وفي هذا الإطار يحسن بنا أن نستذكر ما قاله خير الدين التونسي نقلاً عن أحد أعيان أوروبا: «إن التمدن الأوروبي تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصله، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار»<sup>(١)</sup>

(١) خير الدين التونسي، مقدمة «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» تحقيق معن زيادة، =

إن هذا الجرف الأوروبي وضع أمة العالم الإسلامي في حالة اغتراب، وهذا هو حالهم ليس فقط إزاء مؤسسة الدولة بل تجاه كثير من أدبيات المجتمع الأوروبي مثل حقوق الإنسان، وتحرير المرأة، والحرية والعدالة، والمساواة والديمقراطية، والنظريات العلمية، ففي كل مسألة كتب مفكرون مسلمون مجلدات وهم يدافعون عن الإسلام من منظور المقولات الغربية.

إن الفكر السياسي الغربي عندما تحدث عن مقومات الدولة فصلها من حيث الواقع، فتحدث عن الجماعة التي تقيم على الدوام في إقليم معين، ويمثلون إلى سلطة منظمة تتولى تدبير شؤونهم الداخلية والخارجية، وفرعوا أركان الدولة إلى ما هو قائم بالأصل «الشعب والإقليم» أي الأرض والسلطة السياسية، وجريا على منهجهم في وصف ما هو كائن، قالوا بأن من خصائص الدولة السيادة المستقلة عن أي مؤثر خارجي وعدم الخضوع لسلطة أعلى منها، وأنها مطلقة في الشأين «الداخلي والخارجي» ولها شخصية معنوية تسمح لها بتحمل المسؤوليات والالتزام بالحقوق بشكل منفصل عن شخصية الأفراد الذين يمارسون الحكم<sup>(١)</sup>.

وأما الفريق الثاني فقد ذهب مذهباً كنسياً ليس كما كان حال الكنيسة في ذروة قوتها، بل كما هو حالها عندما تراجعت أمام الزحف العلمي الذي شهدته أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، حيث انكفأت المسيحية إلى داخل الكنيسة وتخلت عن مهماتها الإنسانية المتعلقة بالإنسان وواقعه في الحياة، حيث حصر دورها في الحديث الروحاني التطهري، وتحضير الأذهان لسلوك طريق الخلاص يوم الدينونة.

= دار الطليعة بيروت ط ١٩٧٨، ص ١٦٨، و «خير الدين التونسي هو أحد رجال الإصلاح في القرن التاسع عشر ومن نظراته الثابتة أنه كان يعارض الاتفاقات الدبلوماسية مع أوربة والاعتماد عليها ويطالب بالتوجه إلى التنمية الداخلية، رئيس الوزراء من ١٨٧٣-١٨٧٧».

(١) انظر: طعيمة الجرف، نظرية الدولة والأسس العامة للتنظيم السياسي ص ٩٣ - ص ٩٥ بتصرف.

انظر: عبدالفتاح ساير داير: القانون الدستوري ص ٦٤ بتصرف.



لقد تم إسقاط حال الكنيسة على الإسلام، وطالب هذا الفريق بتخصيص «الإسلام» في مجالات الطقوس العبادية، والأخلاق التي أساسها الزهد الهروبي من الواقع، والدعوة إلى البعد عن الكون ومشاكله باعتباره سجن المؤمن وفق المفهوم الهندوسي الهندي، ومجال تطبيقه لا يتعدى المسجد.

وهكذا نجد أنه قد مضى ربح كبير من الزمن، كان العالم الإسلامي يموت فيه موتاً بطيئاً أرسى واقعاً من القطيعة بين الجيل الإسلامي في غروب عزه وأفول شمس من أفق الكون، جعل تلك الأجيال تحس بعظمة ليل لن تضيئه إلا شموع الغرب، ولن تؤنس سكونه إلا حركة الآلة التي كانت أصوات محرركاتها تقطع ذلك الصمت المخيف، تشد الأبواب والجوارح إلى مستقبل بدا فجره صادقاً حين سطع نوره من جهة أوروبا الغربية، ولم يكن يومها في أفق العالم الإسلامي إلا شفق المغيب الأحمر، عندها اندفع هؤلاء وهم في حالة خواء ينعمون بالنظر، ويُسرُّون باستعمال منتجات الغرب وأدوات الرفاهية عنده، ويحلمون بهجرة إليه كي ينعموا بعبق حرية، طالما حرّمهم إياها جهل واقع حالهم، وذلك للتخلص من ظلم بعضهم لبعضهم الآخر، ومن التخبط في دياجير هذا الظلم والظلام، ثم كرس هذا التوجه اختراق أفكار عقيمة لجدارهم الإسلامي الصلب.

إن تلك الحالة أوجدت عندهم روح الانهزام والانكباب على دراسة ما عند غيرهم، وكأنهم ولدوا من فراغ...

### الإسلام منهج أمة «دين ودولة»<sup>(١)</sup>:

إن الإسلام بمقدماته وبتنتائج على مدى ثلاثة عشر قرناً من الزمن يثبت لكل ذي بصر وبصيرة أنه دين ودولة.

وبهذا قال الإمام البنا رحمه الله في الأصل الأول من الأصول العشرين

(١) مصطلح الأمة أو حدثته في القاموس الإسلامي بينه الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات في رسالته «الأمة».

ما نصه: «الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة سواء بسواء.

لوضوح هذا الأصل كان الاهتمام الكبير في دين الله بأمر الولاية والحكم فقد كان نداء إبراهيم عليه السلام وهو يرفع مع ابنه إسماعيل قواعد البيت الحرام ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وأمر الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وكذلك ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ووصف الله تعالى المسلمين بقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران: ١١٠].

وحكمه القاطع ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٩٢] والأمة معناها الطائفة أو المجموعة المنظمة، وقد أنيطت بها مهمة «الأمر» والنهي، والأمة معناها الطريقة أي المنهج والدين، والإمام معناه القائد وهو كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين<sup>(١)</sup>.

ولعل حديث رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب عندما حضرته الوفاة: وجاءه وفد من قريش يفاوضونه بشأن ابن أخيه، فرد عليه الصلاة والسلام: «أي عم: أولاً أدعوهم إلى ما هو خير لهم، كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب ويملكون رقاب العجم»<sup>(٢)</sup> والرسول ﷺ إنما يتحدث عن القيادة التي يمكن أن تؤول للعرب إن استجابوا لدعوة الإسلام.

(١) انظر لسان العرب لابن منظور، مادة أمة.

(٢) انظر، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ١٩٨٢م، ص ٦٥.

إن عرب الجاهلية عرفوا ملامح الدعوة الجديدة والمصير الذي ستؤول إليه، لقد فهموا أنها الدولة مع أنه لم تكن لديهم الخبرات الموجودة عند أناس اليوم، فعندما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل العربية قال فراس بن عبدالله بن سلمة بن عامر بن صعصعة: «والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: رأييت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال ﷺ: «الأمْرُ إِلَى اللَّهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، قَالَ لَهُ: أَفَنَهْدَفُ نَحْرُنَا لِلْعَرَبِ دُونَكَ، فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللَّهُ كَانَ الْأَمْرُ لَغَيْرِنَا؟! لا حاجة لنا بأمرك»<sup>(١)</sup>.

والأمر تعني النظام السياسي، فالأمر مصطلح ذو صلة بالائتمار أي التشاور، ومنه سمي الحاكم الأمير، والقادة أولي الأمر.

وكل ما ورد في السيرة هو استعمال مصطلح «الأمر» للتعبير عن النظام السياسي، قال أبو بكر رضي الله عنه: «إن محمداً قد مضى لسبيله، ولا بد لهذا الأمر من قائم يقوم به»<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية عمر رضي الله تعالى عنه أن أبا بكر قال: «ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً»<sup>(٣)</sup>، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: «وإن الله قد جمع أمركم على خيركم»<sup>(٤)</sup>.

وغداة طعنه من قبل أبي لؤلؤة المجوسي، وهو على فراش الموت، دعا علياً وعثمان وسعداً وعبدالرحمن والزبير وطلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنهم، وقال لهم «إني نظرتكم فوجدتكم رؤساء الناس، وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض،

(١) ابن هشام - السيرة، دار إحياء التراث العربي - بيروت بدون تاريخ م ٢، ص ٦٦.  
(٢) الشهرستاني - نهاية الأقدام - ص ٤٧٩ - تحقيق الفرد جيوم، بدون تاريخ وبدون مكان النشر.

(٣) ابن هشام السيرة «م ٤ ص ٣١٠.

(٤) المرجع نفسه ص ٣١١.

وإني لا أخاف عليكم إن استقمتم، ولكنني أخاف اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذنها فتشاوروا فيها، ووضع رأسه وقد نزفه الدم»<sup>(١)</sup>.

وكان قبيل موته قد سمع مناجاتهم وارتفاع أصواتهم، فقال لهم: «ألا أعرضوا عن هذا، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهييب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم»<sup>(٢)</sup>، وقال لأبي طلحة الأنصاري «يا أبا طلحة، إن الله تعالى طالما أعز بكم الإسلام، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم».

وقال للمقداد بن الأسود «إذا وضعتُموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً».

وقال لصهييب «صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشحذ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، وإن رضي ثلاثة وعارض ثلاثة فحكموا عبدالله بن عمر، فإن لم يرضوا.. فكونوا مع الذين منهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقيين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس».

ونلاحظ فيما قاله عمر رضي الله تعالى عنه أنه حدد:

أولاً: الإمارة في المجموعة التي كانت تمثل مجلساً يلتف حول رسول الله ﷺ وهم العشرة المبشرون بالجنة، وكان قد مات منهم أبو بكر وأبو عبيدة رضي الله تعالى عنهما.

ثانياً: ليس أمام المجلس المنعقد لاختيار الأمير إلا ثلاثة أيام فقط، بعدها يقدم قائد الحرس أبو طلحة بإلزامهم بذلك بالقوة، ولما اشتدت المنافسة بينهم، قال لهم أبو طلحة «لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها، والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ - م ٣ ص ٦٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٦٧.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار القلم بيروت، م ٣ ج ٥ ص ٣٦.

ثالثاً: وجوب الأخذ برأي الأكثرية، وعند التعادل يؤخذ برأي الفريق الذي معه عبدالرحمن بن عوف وكان أكبرهم سناً.

رابعاً: هدر دم كل من يخرج على رأي الأكثرية «واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس».

خامساً: تكليف إمام للصلاة وهو صهيب حتى اختيار الأمير الجديد، لأن الصلاة لا تؤخر إقامتها.

والملاحظ أن عمر رضي الله تعالى عنه، ما كان ليقول ذلك لولا علمه بمقاصد الشريعة وطبيعة المنهج الرباني، وهو من المجموعة المبشرة بالجنة، وثاني الخلفاء وأول رجل يتحدى قريشاً بالجهر بالدعوة فور إعلان إسلامه أمام رسول الله ﷺ في دار الأرقم، وهو الفاروق عمر...

لقد كان العقد الأول بين رسول الله ﷺ وبين مجموعة من مسلمي يثرب في العقبة الثانية قبل الهجرة، هو عقد بيعة للإمارة، والتزام من الأمير تجاه من أؤكلوا إليه أمرهم، ويتضح ذلك جلياً من خلال الحوار التالي: «ثم قال رسول الله ﷺ: أَبَايَعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، أَجَابَ أَحَدُ أَعْضَاءِ الْوَفْدِ: «نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرنا «نساءنا» فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة «السلاح» ورثناها كابراً عن كابر... قال عضو آخر من الوفد وهو أبو الهيثم بن التيهان: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبلاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي أَحَارِبُ مِنْ حَارِبَتُمْ، وَأَسَالِمُ مِنْ سَالِمَتُمْ».

قال ابن هشام: ويقال الهدم الهدم: يعني الحرمة، أي ذمتي من ذمتكم وحرمتي من حرمتكم<sup>(١)</sup> وهذه المصطلحات التي تعني المؤسسة

(١) ابن هشام، السيرة، م ٢ ص ٨٤- ص ٨٥ قال ابن قتيبة: كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمك، وهدمي هدمك، أي ما هدمته من الدماء هدمته أنا كني ابن هشام عن حرمة الرجل وأهله «بالهدم» لأنهم كانوا أهل نجعة وارتحال.

السياسية في أجل معانيها إنما أعلنت قبل الهجرة إلى يثرب حيث تمت ترجمتها إلى واقع مؤسسي كامل بدأ كالنور يشع من مركز انبعائه ثم أخذت دائرته تتسع رويداً رويداً، وخلافاً لمنهج الاقتباس يستحسن إثبات مشهد البيعة كما رواه أبو إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة لقد قال رسول الله ﷺ للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي...» وقال عبادة ابن نضلة الأنصاري.. يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تباعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس... فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة»<sup>(١)</sup>.

ومضى رسول الله ﷺ في دعوته، ولم تمض سنتان على بيعة العقبة الأولى حتى كان الإسلام ينتشر انتشاراً سريعاً، وما كاد ﷺ يصل إلى يثرب «المدينة المنورة» حتى بنى مسجداً وأخذ في وضع دستور الحكم للمدينة المنورة والذي عرف تاريخياً باسم الصحيفة والتي تضمنت تحديد العلاقات بين المسلمين وقبائل اليهود تحديداً دقيقاً، وبذلك قامت الدولة الإسلامية الأولى دون وجود سلطة مركزية تحول دونها أو تعترض سبيلها، لأن الجزيرة العربية لم تكن تعرف ما هو قائم يومها في بلاد فارس والروم ويمكننا أن نحدد منهج الرسول ﷺ في الوصول إلى الحكم بما يلي:

١ - إن الرسول ﷺ بدأ بدعوة الناس إلى الإسلام حتى تكونت له قاعدة صلبة من المسلمين «المهاجرون».

٢ - لم يقبل الملك حين عرض عليه من قبل الجاهلية لأنه سيكون والياً من قبلها، ولن يكون له أي نفوذ عليهم لعدم وجود قاعدة مؤمنة يرتكز عليها في نشر الدعوة الإسلامية.

٣ - لم يخض الرسول ﷺ مع الجاهلية حرباً عسكرية لحين قيام الدولة.

(١) انظر، ابن هشام السيرة م ٢ ص ٨٨ - ٨٩.

٤ - لقد كانت المدينة المنورة موقع الصدام مع الجاهلية، بعدما تهيأت كقوة حقيقية قادرة على ذلك<sup>(١)</sup>.

وهنا نقول: إن موضوع السياسة الشرعية محفوف بالكثير من المخاطر حتى يكاد لا ينجو أحد ممن كتب فيه من النقد، والراضي عما يكتب في الموضوع قليل، ولكنه بحر لا بد من ولوجه والخوض فيه وخصوصاً في زمننا هذا، حيث أصبح الحديث عن حكم الإسلام ودولته مما تمتليء به أحاديث فتيان الدعوة، ناهيك عن رجالاتها وساساتها، وإن كان سادتنا وعلمائنا لا يجيزون لأحد أن يتكلم في نواقض الوضوء إلا بعلم ودليل. فمن باب أولى ألا يتحدث أحد في إثبات الحكم ونواقضه إلا بعلم ودليل، كما أن الدخول في دهاليز وأبواب الحكم والسياسة الشرعية من غير أصحاب الاختصاص والتمحيص، سبيل إلى التخطي، لا على مستوى الفرد بل على مستوى الأمة، فما خرجت الخوارج ولا انتشرت الفتن وكثر الهرج إلا بدخول هذا الباب من غير علم ولا دليل من قبل عوام المسلمين، واليوم والدعوة قد انتشرت وأصبحت هناك حركات ملء السمع والبصر، بل وتشعبت وتشققت إلى فصائل ومجاميع، وما زالت متوالية الانقسام تعبت في جسم الحركة الإسلامية، وعند التحقيق في كثير من الانشاقات نجد أن السبب هو الموقف من الحكومات الحالية وكيفية التعامل معها، وكذلك طبيعة النظرة الشرعية لها، وأصبح كل واحد من هذه الجماعات ينظر إلى نفسه على أنه هو صاحب الحق وغيره على باطل إن لم يكن خارجاً عن الملة والجماعة، ودمه مستباح.

ومن التاريخ يظهر لنا أنه يحدث في أيام الفتنة وتسلط الغوغاء ما لا يحدث في أيام العافية وإسناد الأمر إلى أهله.

ففي الفتن تُراق الدماء بغير وجه حق ظلماً وعدواناً، ويحدث طيش مثل طيش الخوارج الذين كانوا إذا مر بهم أبناء الصحابة قتلوهم، وإذا مر بهم المشرك، قالوا: مشرك مستجير!!

(١) وهذه الأمور مذكورة وموجودة في كثير من مصادر السيرة والتاريخ وكتب الدعوة.

وأنا هنا لا أدعي أنني أكتب في السياسة الشرعية، ولكنها محاولة لقراءة التاريخ القديم والجديد المتعلق بالدول والجماعات فيما يتعلق بالحكم ومتعلقاته .

وللأستاذ المعلم محمد عبده فيمن ذكرنا كلام جميل، ذكره في مبحث الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية سنة ١٣٧٥هـ من منشورات المؤتمر الإسلامي ص ١٢٣ يقول فيه الشيخ رحمه الله: «إن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله، فتضطرب السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه، بل أراد أن يقيد غيره لما رآه من الحرية لنفسه، مع أن غيره غني عما يراه هو حقا له، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعي الحرية في غلوائه، فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن يُنقَى منهم المجتمع، صونا له عما يزعزع أركانه» .

ويرى الشيخ أنه بالطريقة التي كان يدرس بها الطالب ويطبق فيها التعليم عند المسلمين يمكن وقاية المجتمع من الغلو، وهذه الطريقة تعتمد على الحوار والنقاش في حضرة المدرس وتنقل حرفيا ما قاله .

ويعيد الشيخ محمد عبده كل حالات الإيذاء والوشاية التي كانت تقع من بعض أو لبعض الفقهاء فيكون من نتيجتها تنكيل الحكام بهم، ويرد ذلك إلى الحسد والغيرة وليس الدين .

ومبحثنا هو محاولة للوصول إلى نظرية يكتمل فيها النظر العاطفي المثالي مع البعد العقلاني المنطقي في إطار الظروف والوقائع ليأتي الحكم بعد ذلك بعيداً عن زحام القضايا والهموم، وطغيان عموميات الطرح الإسلامي الابتدائي في إطار من التوازن بين البعد العالمي والبعد المحلي للدعوة، وبهذا يرسم خط استراتيجي يراعي الحدود والإمكانات والقدرات، لتأتي بعد ذلك بدائل متنوعة بعيدة عن النمطية والجمود على نوعية محددة من البدائل متشكلة تحت وطأة ضغط الواقع وأهمية النظر الاستراتيجي في



تحليل هذا الواقع، مع فتح كل النوافذ والنظر من خلالها للعلاج، وتلك قضية حتمية حيث إن واقعنا الذي نعيشه ليس واقعاً بسيطاً في تركيبته بل هو واقع غاية في التعقيد والتشابك بين مدخلاته المختلفة.

إن التعامل مع منهج دعوي متكامل ينظر إلى كل الإمكانيات والقوى الموجودة في المجتمع من أجل إنجاح المشروع الإسلامي العام، هذا المنهج بينه أستاذ الدعوة في العصر الحديث الإمام البنا - رحمه الله - في قوله في رسالة المؤتمر الخامس سنة ١٩٤١: «أما غاية الإخوان الأساسية، أما هدف الإخوان الأسمى، أما الإصلاح الذي يريده الإخوان ويهيئون له أنفسهم، فهو إصلاح شامل كامل تتعاون عليه قوى الأمة جميعاً، وتتجه نحوه الأمة جميعاً يتناول كل الأوضاع القائمة بالتغيير والتبديل» نعم عملية الإصلاح متكاملة من جميع العاملين في الدولة وبهذا جاء نداء الإمام البنا رحمه الله في قوله: «وقد اشتد ساعد الدعوة وصلب عودها وأصبحت تستطيع أن توجه ولا توجه وأن تؤثر ولا تتأثر نهيب بالكبراء والأعيان والهيئات والأحزاب أن ينضموا إلينا وأن يسلكوا سبيلنا وأن يعملوا معنا، وأن يتركوا هذه المظاهر الفارغة التي لا غناء فيها... وتستطيع الدعوة بهم أن تختصر الوقت فمن المعلوم بداهة أنه ليس ثمة مسار يغني، ولا وسيلة تغني عن وسيلة وأخيراً نقول: إن مبحثنا هذا والذي نحاول أن نبين فيه ما الدولة الإسلامية وما آلت إليه وكيفية تعامل الحركات الإسلامية مع الأنظمة والحكومات، وهذه المحاولة ما هي إلا قراءة الماضي لرسم المستقبل، قد تصيب وقد تخطئ والكاتب فيها يدور بين الأجرين إن شاء الله، والكتاب لا يعني أصحاب الآراء الجاهزة حول ما نكتب، وحسبنا أننا نشد الصدق والوضوح والتقرب إلى الله، كما أننا نرجو ممن قرأ ألا يقع في المستنقع الأسن من سوء الظن، ورداءة التأويل لنوايانا، فنحن حين نكتب نؤكد أننا لسنا أوصياء على الدعوة، وننكر على المتنطعين أن يكونوا أوصياء على النصوص الدعوية فهما وتفسيراً وتنفيذاً، فالحق وإن كان عند الله واحد فهو في أفهام الناس متعدد، وكما يقول العلماء: كلامنا صواب يحتمل الخطأ وكلام غيرنا خطأ يحتمل الصواب،

وما من شك أن كل كاتب في ميدان الدعوة يعلم أن له ربا يستعين به ويستهديه في أمره كله ويعلم كذلك أن للشيطان أنفا طويلا يحشره في كل أمر صغير أو كبير، وهو لا يملك حينذاك إلا أن يقول: اللهم يا مصرف القلوب والأبصار صرف قلوبنا إلى طاعتك، كما أننا نستعيذ بالله من شخص إذا تكلم أخوه المخالف له في اجتهاده تمنى أن يتلعثم ويطيئش وينسى النحو والصرف والفصاحة والبلاغة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



وفي نهاية تجوالنا وقبل أن نختم مدخلنا إلى البحث نقول إنه لمن المسلمات أن تكون الدولة في الإسلام جزءا منه، ولا يتصور أحد وجود إسلام تام بغير وجود سلطة تنفذه، وتحافظ على حدوده، وتقيم تعاليمه وتظهره بين الناس وإن كره ذلك الكارهون الجاحدون.

وأحكام الإسلام المتعلقة بـ«الإمام» والمنوطة به، تجعل إيجاد هذا الإمام وإقامته واجبا شرعيا لا تبرأ الذمة بدونه، ولا يسلم المجتمع من الانحرافات بغيره، وكانت سلامة المجتمع من الانحراف هي المهمة الأولى للخليفة أبي بكر، حين حارب المرتدين فقضى على الانحراف وأمن الناس على عقيدتهم وشريعتهم التي يحتكمون إليها في حياتهم، وستظل سلامة الناس من الانحراف عن العقيدة والشريعة هي مطلب كل مسلم، مدرك لواجبه، عارف لشريعته، عامل على إظهار دعوة الله بين الناس، بل إنها مطلب الحركات الإسلامية الصحيحة التي قامت في العالم الإسلامي في العقود الأخيرة تدعو كل «إمام» صالح ليقود الناس في ضوء التعاليم الإسلامية، بعيداً عن الانحراف الفكري السلوكي، الذي يكاد يقضي على المجتمعات الإسلامية، ويطمس هويتها، دون أن تجد إماما كأبي بكر يردها عن انحرافها، ويعيدها إلى رشدها، ويقيم فيها الحق والعدل بين الناس أجمعين، وهذا هو الهدف الأول للدولة في الإسلام، الذي لا ينبغي أن تنحرف عنه أبداً.

ومنذ تحولت الخلافة إلى ملك عضوض، كما في الحديث عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيًّا، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ»<sup>(١)</sup>. والدولة الإسلامية بين مد وجزر تتعدد فيها الاجتهادات الفكرية المبنية على العديد من التجارب المتضاربة، مما أوجد تراثا سياسيا ضخما ينبغي النظر إليه بعين الباحث المتفحص الذي لا تغيب عنه ظروف الزمان أو المكان، وغيرهما من العوامل التي تركت آثارها واضحة في التراث السياسي للأمة الإسلامية عبر قرون وقرون وصدق فيها حديث النبي ﷺ: «خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»<sup>(٢)</sup> وهذا ما يستدعي قيام حركات إسلامية تصحيحية تعيد للإسلام جدته، وتوقظه في نفوس المسلمين، سواء تمثلت هذه الحركات الإصلاحية في فرد معين أو جماعة معينة أو صحوه عامة، فإنها تحدث يقظة، تجعل الناس يدركون أهمية هذا الدين، ويدركون أهمية هذه المسألة ويأخذونها بعين الاعتبار في الدراسة والتمحيص والبحث.

وقد كانت التجارب التاريخية الواقعية للمهتمين بالإسلام وللحركات الإسلامية فيها شيء من الإحباط، ولن نعود بالقارئ الكريم في هذه المقدمة إلى الأحداث التاريخية في العصور الإسلامية المختلفة، مما سيجده القارئ في ثنايا هذا الكتاب، ولكن سنقف معه كاشفين موقف دعاة الإصلاح منذ فشل الحملة الفرنسية على مصر وما ترتب عليها لنرى أن خديعة العاملين للإسلام تمت على يد كثير من الثورات التي استمالت العلماء فأيدوها فقامت - بعد أن ساهموا في إيجادها بدور كبير - بتجاهلهم وإبعادهم والانتقام منهم، ومن ذا ينكر دور العلماء في إيقاظ المد الشعبي المقاوم للحملة

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٧٢.

(٢) صحيح الجامع الصغير رقم ٣٢٨٨ - ٣٢٩٠.

الفرنسية على مصر؟ لقد استمر هذا المد الشعبي يقوده العلماء فيسقطون الوالى ويعينون «محمد علي» بدلا منه، بل ويفرضون ذلك على السلطان العثماني، وما إن ثبتت أقدام «محمد علي» في حكم مصر حتى تخلص من السيد/ عمر مكرم، الذي كان زعيم الثورة الشعبية، ونفاه بعيداً عن القاهرة وأفرغ هذا المد الشعبي من محتواه، ولم يصل الشعب إلى مبتغاه، لقد أراد الشعب بزعامة العلماء إقامة ولاية عادلة تقيم الشرع وتضمن حقوق الرعية تحت رقابة أهل الحل والعقد، وأراد «محمد علي» استثمار شعبية العلماء للوصول إلى الحكم ثم التخلص منهم بعد ذلك، وقد تم له ذلك فتخلص من العلماء بعدما أضعف مكانتهم الاجتماعية وألغى بعض النظم الاقتصادية التي كانوا يشرفون عليها<sup>(١)</sup>.

وهذه الصورة وغيرها مما تكرر في عالمنا الإسلامي تستدعى رؤية جديدة تقوم على أن العبرة ليست بالمسميات فليسم نظام الحكم نفسه ما يشاء.. . ليكون نظاما ملكيا، أو سلطانيا أو رئاسيا أو أميريا أو جمهوريا أو ما شئت من أسماء، ثم ليكون البحث والسؤال ماذا حقق ويحقق للإسلام؟ إن الحركة الإسلامية - بعد التجارب المريرة التي مرت بها - مدعوة اليوم إلى أن تتبنى منهج الإصلاح وأن تتعامل مع الواقع الذي لا تستطيع أن تقفز فوقه، على ألا تتخلى عن مكتسباتها التي حققتها خلال العقود ولا عن أصولها التي أخذتها من الكتاب والسنة وفهمتها من أقوال الفحول من العلماء.

وأن تدرس بجدية مدى أهمية التعامل مع الأنظمة التي ترتبط بالإسلام ولا تحارب وجوده، بصيغة تضمن استمرارية الأمن والاستقرار اللذين هما ركيزتا النجاح الدعوي فأجواء الحرية والاستقرار هبة البيئة الصالحة.

إن الحركة الإسلامية مدعوة اليوم، إلى أن تدعو الجميع - حكاماً ومحكومين - إلى كلمة سواء تستطيع بواسطتها أن تقدم مشروعها الحضاري، الذي تنعقد عليه آمال المجتمعات لإنقاذها من الظلم والخراب والدمار.

(١) انظر ملحق رقم ١.

هذه الكلمة ينبغي أن تنطق - وهي برنامج مدروس من إعادة التقييم العلمي الجاد للواقع الدولي والمحلي من جهة، وللمجتمع الإسلامي وتجاربه وتجربتها هي رغم قصرها من جهة أخرى.

كما أن عليها أن تقف بحزم حتى لا تُسرق مجهوداتها مرة أخرى وخصوصاً أن الخطاب الإسلامي ظهر جلياً أنه وحده القادر على الاستمرار، والعطاء الفياض، وأنه الحقيقة الحضارية الوحيدة التي تمضي إليها المجتمعات وتجلو ذلك في إفلاس كافة الأيدولوجيات والنحل والمبادئ التي هزت العالم قرابة عقد من الزمن، وانتهت بإفلاس وحسرات على معتنقيها، لقد حان لمرحلة الشعارات ومرحلة العواطف أن تنتهي ليحل محلها العمل الجاد المعقد، المحدد لأهدافه الاستراتيجية على جميع المستويات، وذلك بغية إعادة تقويم وصياغة شخصية الحركة الإسلامية من جديد، ومن هنا ينبغي للحركة الإسلامية ألا تشترك في غرس بذرة لا تجني ثمارها الطيبة أبداً، بل لا تجني منها غالباً - كما وقع تاريخياً - إلا الحنظل والعلقم.

والملاحظ أنه على مدار الخمسين سنة الماضية لم تستفد الحركة الإسلامية الاستفادة المناسبة لحجمها من النظم القائمة والأحزاب المعارضة، إذ إن التعاون والتحالف بينها وبين النظم والأحزاب غالباً ما يتم على غير برنامج وعلى غير أسس دقيقة مكتوبة أو معلنة.

وهكذا بذلت الحركة الإسلامية جهوداً جبارة في الإطاحة بأنظمة كثيرة وفي استقلال بلاد كثيرة، واستقرار أنظمة كانت منهارة دون أن تستفيد من هؤلاء أو أولئك، بل على العكس من ذلك كثيراً ما قلب لها ظهر المجن من طرف الجميع، فصار صديق الأمس عدو اليوم، وإن العمل على نجاح أي طرف من الأطراف ينبغي أن ينطلق من معطيات علمية موضوعية دقيقة في مقدمتها محاولة بناء الإنسان المسلم، والأخذ بمنهج الاستمرارية وطول النفس، وحمل المشعل للأجيال بعد الأجيال، والتحذير من التعجل في قطف الثمرة قبل نضجها وقبل حصول وسائل لجنيهاً وحفظها بعد الحصول عليها، وقد كان للانقلابات أثر كبير في تأخر الأمة فقد لقيت الانقلابات العسكرية

دعم ومباركة القوات الاستعمارية المتربصة بالأمة ومصالحها، رأينا ذلك مع انقلاب بورقية على الملكية في تونس بدعم من فرنسا، وسنين دعم أمريكا وقبول بريطانيا بالانقلاب الناصري على الملكية في مصر سنة ١٩٥٢<sup>(١)</sup>.

وبعد هذه الاستطرادة يحسن بنا الوقوف على بعض المفاهيم الهامة التي ينبغي عليها فهم موضوعنا:

### أولاً: الدولة الإسلامية:

ونعني بها الدولة التي يحكمها شرع الله عز وجل وفيها تُقام حدود الله وتطبق شعائر الدين، ويهنأ الناس بعدل الإسلام وأمن الإيمان ويأمنوا على دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]. ويقول تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤] وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥، ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

(١) انظر ملحق رقم ٢.

## ثانياً: الواجب:

يعرف الواجب شرعاً: (بأنه ما يثاب المرء على فعله، ويأثم على تركه) ويقصد به هنا: (ما يتحتم القيام به من كل شعائر الدين عقيدة وشريعة وأخلاقاً) على منهاج النبوة وسنن خلفائه الراشدين المهديين.

## ثالثاً: الممكن:

يقصد بالممكن هنا تحصيل ما هو مستطاع بعد استفراغ ما في الوسع دون تقصير.

### (بين الواجب والممكن):

ننطلق في كلامنا هذا من فكرة الواجب والممكن كما ورد في التطبيقات الفقهية والأصولية حيث لا يمكن أداء الحكم الإسلامي مائة في المائة على ما سنه النبي ﷺ وما درج عليه خلفاؤه الراشدون المهديون من بعده ولكن يمكن تطبيقه في حدود الممكن من الفعل تمهيداً لتطبيقه على الوجه الصحيح الكامل والذي يمثل الواجب.

وهنا نريد أن نؤكد على أن الواجب والممكن الوارد في كتب الفقه في المسائل التعبدية الفردية يمكن أن ينسحب على فكرة الدولة الإسلامية في عصرنا الحديث، إذ إننا نرى أنه يجب أن نسقط الخيار في السعي لإقامة الدولة الإسلامية في حدود الممكن كمرحلة وتمهيداً لإقامتها على ما يقتضيه الأمر الواجب وفي الأسطر القادمة تفصيل وبيان لتلك الأطروحة.

### (بين المصالح والمفاسد):

أ - تعريف المصلحة في اللغة:

المصلحة في اللغة هي المنفعة جلباً وإبقاءً<sup>(١)</sup>.

(١) المصباح المنير.

## ب - المصلحة في الاصطلاح:

قيل: هي المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم. وقيل هي: جلب المنفعة لدفع المصرة<sup>(١)</sup>.

سن في الابتداء أن نقول إنه قد بُني الشرع الحكيم على درء المفساد وجلب المصالح، والمفساد والمصالح من الأمور النسبية التي لا يحددها معيار منضبط متواتر إذ إنها متفاوتة الحجم والقدر والزمان والمكان... وقد جاءت قواعد الفقهاء في هذا الموضوع مسلمات عند الباحثين والتي منها (عند الضرورة يرتكب أخف الضررين) وهذه قاعدة مدلل عليها من القرآن قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وتشير هذه الآية إلى قضية متعلقها «المصلحة والمفسدة»، حيث إن الجهاد باللسان مشروع وواجب، وكذلك ذكر عيوب وحقارة وصغار الآلهة التي تعبد من دون الله وبيان بطلان عبادتها واجب... غير أن ذلك لو أفضى إلى ضرر كبير يربو على المصلحة منه فإنه يمنع وهذا ما تشير له الآية الكريمة.

وشاهد آخر من السنة أيضاً وهو ما كان من النبي ﷺ حيث عرض على غطفان أن يعطيهم نصف ثمار المدينة ليرجعوا عنه عام الأحزاب، ومعلوم أن دفع المسلمين مالا للكفار ليستعينوا به على كفرهم وعداوتهم لله ورسوله حرام في الأصل، غير أن هذا الحرام كان ضرره أقل من ضرر حشد كل الكفار في وقت واحد على المسلمين لإجهاض المشروع الإسلامي، ألا وهو مشروع الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة.

وهنا يستلزم الأمر أن نقول إن العلماء يحصرون تقسيم المصلحة من حيث الاعتبار الإلغاء إلى ثلاثة أقسام:

(١) المصالح المعتبرة: وهي ما شهد الشارع باعتبارها، بأن وضع من

(١) الناظر (١/٤١٢).



الأحكام التفصيلية ما يوصل إليها ويحققها، وقام الدليل على اعتبارها ورعايتها سواء نصاً أو إجماعاً، وترجع إلى حفظ الضرورات الخمس (الدين والنفس والعقل والنسل والمال) ومن أمثلتها: الجهاد لحفظ الدين، والقصاص لحفظ النفس، والحدود لحفظ النفس والعقل، والبيع والشراء لحفظ المال.

(٢) **المصالح الملغاة:** وهي ما شهد الشارع بإلغائها وعدم اعتبارها كالربا وجعل الطلاق في يد المرأة.

(٣) **المصالح المرسلة:** وهي المصالح التي لم يتم دليل جزئي معين على اعتبارها بذاتها ولا على إلغائها، ولكنها داخلية ضمن مقاصد الشرع، أي أن لها دليلاً واعتباراً وإن لم يكن مباشراً وصريحاً بمعنى أن هذه المصالح تدخل تحت أصل كلي دلت عليه نصوص شرعية كثيرة لا حصر لها. ومن أمثلتها: جمع القرآن، وفرض أموال على الرعية لتجهيز الجيوش عند عجز بيت مال المسلمين عن نفقات الجهاد حفظاً للدين، ومنها القوانين المتعلقة بالمرور والسير<sup>(١)</sup>.

وقبل الانتقال إلى الفقرة الثانية نذكر الفرق بين المصلحة والضرورة من أجل تحديد المصطلحات الواردة في المبحث حيث إن هناك فرقاً بين الضرورة والمصلحة، فالضرورة: هي التي تصل فيها درجة الاحتياج إلى أشد المراتب وأشق الحالات، فيصبح الإنسان في خطر حقيقي يحيط بنفسه أو ماله ونحوهما، وأما المصلحة: فهي أعم وهي في الأصل عبارة عن جلب منفعة أو دفع مضرة، ويراد بها في اصطلاح الشرعيين: (المحافظة على مقصود الشرع بدفع المفاسد عن الخلق) كما قال خوارزمي أو هي «المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم ونسلهم وعقولهم وأموالهم. طبق ترتيب معين فيما بينهما» كما قال الرازي، وعلى هذا (فالمصلحة تشمل مراتب الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وأما الضرورة فهي قاصرة على المرتبة الأولى)<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: أثر الأدلة المختلف فيها (٣٦)، ضوابط المصلحة (٢٠٣)، مقاصد الشريعة (٢٦).

(٢) نظرية الضرورة الشرعية (٥٤).

## الدولة الإسلامية الواجب<sup>(١)</sup>:

نستطيع أن نطلق هذا المسمى على تلك الدولة التي نشأت في عهد النبوة في المدينة تحت إمرة القائد الأعظم ذي الخلق العظيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي ﷺ، وما تلاها من موجات مد لمنهجه الكريم ﷺ في عصر خلفائه الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

فهذا رسول الله محمد ﷺ يقيم دولة الإسلام على أسس ومعايير تمثل نموذج العدالة وقاعدة الخلافة وذروة ما وصلت إليه البشرية وهذه هي:

### ١ - القيام بالحق:

وهذه الصفة العظيمة منوطة بالشرع الإسلامي، فهو شرع الله الحق الذي يستسلم الناس له عن رضا ورغبة، وقد أشار الله لذلك فقال سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال سبحانه: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

### ٢ - القيام على العدل:

وتلك خصيصة ربانية قامت عليها دولة الرسول ﷺ وكيف لا وهو رسول الله الذي أمر بالعدل وجعله ميزاناً توزن به الأشياء وتعرف به قيمتها، والعدل في الفكر الإسلامي ذو مفهوم واسع يشمل الحاكم والمحكوم والراعي والرعية جميعاً فهو وضع الشيء في موضعه، وإعطاء كل ذي حق حقه.

ولله در رسول الله لما سرقت شريفة قرشية فسعى بعض الناس لدرء الحد عنها وبعثوا بأسامة بن زيد ليشفع لها عند رسول الله، فهب رسول الله

(١) وهنا نود أن نطرح سؤالاً للتفكير بصوت عال وهو: هل دولة النبوة والخلافة هي دولة الواجب، أم أنها دولة المثال والأنموذج، وأن الواجب هو ما استقرت عليه الأمة بعد الخلافة الراشدة لأنه يتناسب مع طبيعة البشر التي خلقت من ضعف، وأن الدول الإسلامية على مر العصور تقاس قربها أو بعدها من المنهج والأصول الإسلامية.

مغضباً لله ولانتهاك قيم العدل وصاح في أسامة ومن وراءه (أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟!!!)، ثم ذكر أن ذلك مدخل للهلاك والضياع فقال (إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه وإذا سرق الضعيف أخذوه...)، وهكذا يكشف رسول الله عن أدواء وعلل الأمم السابقة ومسببات دمار المجتمعات الإسلامية ثم أعلن المبدأ الإسلامي الدستوري الخالد لدولته الإسلامية (والله لو سرق فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها) صدقت يا رسول الله وبلغت وأبلغت فصلى الله عليك وسلم وبأبي وأمي أنت.

وقد انطلق النبي في قيمه العدلية هذه عن سياسة القرآن الكريم ونهجه في تأصيل المنظور العدلي حيث قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُوءًا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

### ٣. الموازنة بين الهيأتين الدنيا والآخرة:

وتلك أيضاً من مزايا دولة الإسلام المثالية في عهد رسول الله وصحابته فهي دولة الدنيا قيادة وريادة وإمامة واستطلاعاً وعلماء وفضلاً ودولة الآخرة تقيم حدود الله وتراعي شرائعه وشعائره وتتقيه وترفع كلمته عليا... وهذه ملامح من ذلك تتمثل في:

- حرص الإسلام على إشباع حاجات الإنسان وتنظيمها فقال سبحانه مراعيًا لحاجات خلقه الفطرية المشروعة من ملابس وزينة ومتاع طيب، بل جعل الله سبحانه مسحة الطيب والحلال واسعة وجعله الأصل، والاستثناء هو المحرم حيث ضاقت مساحته قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ

الْقِيَمَةُ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وهذا رسول الله - ﷺ - يؤسس في سنته الدستور الإسلامي من خلال سنته كما في قصة الثلاثة الرهط الذين جاءوا يسألون عن عبادته ﷺ فتقالوها وعزم أحدهم على صيام الدهر وعزم الآخر على قيام الليل دائماً بلا نوم وعزم الثالث على هجر النساء واعتزالهم والترهب لله فقال ﷺ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْفُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»<sup>(١)</sup>.

### دولة الراشدين:

وإذا كانت سيرة رسول الله ﷺ تمثل سيرة القائد العادل ورعيته تمثل الرعية المطيعة العابدة، فكَذَلِكَ كانت سيرة الخلفاء الراشدين بعده أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم جميعاً.

حيث كان شعارهم (الإمارة تكليف لا تشريف)، (لو عثرت بغلة في العراق لخشيت أن يسألني ربي لماذا لم تفسح لها الطريق يا عمر)، وقول الصديق يوم ولي الخلافة (إن أقواكم عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق له)، وناهيك ما كانت من عدالة هؤلاء الراشدين مع أنفسهم أو ذويهم وأقاربهم من إقامة العدل وتقويم النفس والبدء بها ثم بالأقربين كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ولذلك طابوا أحياء وطابوا أمواتاً وغنموا الأجر وحسن الثناء وهذا رسول كسرى الفرس يقولها كلمة مدوية عن عمر لما سأل عن أمير القوم ورئيسهم فدلوه على عمر وكان نائماً تحت

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠٦٣ كتاب النكاح، ومسلم في صحيحه رقم ١٤٠١ بكتاب النكاح باب استحباب النكاح.

شجرة، لا حرس، ولا حشم، ولا خدم، فتعجب وقال (عَدَلْتُ، فَأُمِيتَ، فَتَمَّتْ يَا عُمَرُ) والحق ما شهدت به الأعداء.

ثم كان قدر الله من انحسار مساحة العدالة، وتقلص ظل شجرتها..

وحلول الدخن.. حتى غدت الخلافة ملكاً عضوداً وفيها أثرة.. وحل السيف في الأمة على ما جاءت بذلك أحاديث النبي ﷺ كما في أبواب الفتن والملاحم وآخر الزمان من كتب السنة.. فمن ذلك ما رواه مسلم عن خديفة رضي الله عنه قال - في مجلس عمر بن الخطاب - سمعت رسول الله ﷺ يقول «تُعْرَضُ الْفِتْنُ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلَ الصِّفَاءِ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ كَالْكُوزِ مُجَخِيّاً لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ» ثُمَّ قَالَ خَدِيفَةُ وَحَدَّثْتُهُ - أَيُّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - عَنِ الْفِتَنِ وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابٌ مُغْلَقٌ يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ، قَالَ عُمَرُ: أَكْسَرًا لَا أَبَا لَكَ! فَلَوْ أَنَّهُ فَتَحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ، قُلْتُ: لَا بَلْ يُكْسَرُ، وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ، حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَعْلِيَّ (١).

وهكذا حل الدخن، وذهبت الخلافة الرشيدة، وصارت أثراً بعد عين، وخبراً بعد حقيقة وأصبحنا - ولا حول ولا قوة إلا بالله - فريسة تتداعى علينا الأكلة لا خليفة ولا خلافة.. فأين المخرج وكيف السبيل إليه؟!

### مشروع الدولة الإسلامية حديثاً:

أصابنا الأمة الإسلامية فاجعة كبرى حين سقوط الخلافة الإسلامية بل يعد ذلك الحدث هو أخطر أحداث القرن العشرين الميلادي على الإطلاق، لأنه بسقوط الخلافة سقطت أمة وضاعت حضارة، وليست أي حضارة إنها حضارة مهادها السماء وامتدادها على الأرض حضارة الدنيا

(١) (رواه مسلم في كتاب الفتن باب عرض الفتن على القلوب ونكتها فيه).

والآخرة حضارة الروح والجسد حضارة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، حضارة ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، حضارة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، حضارة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، حضارة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، حضارة ﴿فَإِذَا فُضِّتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. تجمع بين الروح والجسد، والدنيا والآخرة، والعقيدة العقلية الروحية، والأخلاق العلمية النظرية ذات الفضائل الجمّة التي هي وسط بين رذيلتين... وليرجع من أراد التعرف على خسارة العالم بسبب سقوط الحضارة الإسلامية إلى كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لأبي الحسن الندوي..

وهكذا ضاعت الحضارة في الربع الأول من القرن العشرين، وبعدها طوقت أوروبا المسيحية يديها على عنق العالم الإسلامي لتتقاسم تركة الرجل المريض (إشارة للخلافة العثمانية في تركيا) فاحتلت أوروبا العالم الإسلامي كله من شرقه لغربه وأعملت خيلها ورجلها وكل ما أتيح لها في تنصير شعوبه ومص خيراته فهذه الفلبين تشهد بما حدث فيها إذ نصرت الكنيسة الكاثوليكية أكثر من نصف سكانها وكذلك نصرت عددا كبيرا من مسلمي إندونيسيا وهؤلاء البروتستانت في بريطانيا وأمريكا لا يبرحون عن إرسال البعثات التبشيرية إلى دول أفريقيا خاصة ليجتالوا الناس عن دينهم.

والقصة طويلة ودامية.. ولتركها لمقال آخر أكثر تفصيلاً..

وبناء على تلك الفواجع والكوارث التي حاقت بالأمّة فإن الله سبحانه لن يأذن لدينه بالاندثار ولا بالانقهار ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّ ثَوْرُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ [التوبة: ٣٢]، فيهب بقية المخلصين في السعي إلى خلاص ومخرج لجمع شمل الأمة فيخرج مجدون ممن بشر بهم رسول الله ليعيدوا الأمة إلى صوابها ويجددوا معالم دينها فهذا الإمام محمد بن عبد الوهاب يرفع راية التوحيد علياء في جزيرة العرب وهذا الإمام جمال الدين ومحمد عبده ومن هذا حذوهم يرفعون شعار الجامعة الإسلامية، وهذا الإمام الشهيد حسن البنا يرفع راية عالمية الإسلام شرعية وعقيدة ودينا ودنيا، إلى غير هؤلاء من مصلحين.. غير أن الفاجعة كبرى ومصاب المسلمين أعظم من أن تقوم به حركة أو جماعة واحدة فتعددت الرؤى وكثرت الأطروحات، وتشعبت المسالك.. بما يمكن التمييز بين اتجاهات رئيسية في مشروع الدولة الإسلامية.

### الأمكن والممكن:

نرى أن الجماعات والحركات والمؤسسات الإسلامية تُجمع على ضرورة إقامة الخلافة الإسلامية.. وهذا شيء هام جداً وأساس يتفق عليه الجميع غير أن الوسائل والآليات تختلف في كيفية إقامتها وإعادتها وهذا شيء طبيعي شريطة ألا تبعد الوسائل شططا عن دائرة الغاية... وألا يعظم بعضها على حساب البعض الآخر وألا تزعم كل طائفة لنفسها الوسيلة الخالصة وتنقص وتسفه وسائل الآخرين فلكل دور ولكل مجال وكل يقف على ثغرة من ثغور الإسلام ما دام مقيدا بنصوص الكتاب وصحيح نصوص السنة، ثم نقول هل بالإمكان تنصيب خليفة مسلم يسير بالناس على منهاج النبوة وتدين له الشعوب الإسلامية جمعاء في أقطاب المعمورة بالولاء والسمع والطاعة... هذا واجب وإن أمكن فلا مناص عنه...

ولكن هل هو الممكن...؟!

أسئلة كثيرة يطرح بعضها بعضا ويولد كبيرها الصغير منها... وهكذا.

وعليه فإننا استنادا إلى نصوص الشريعة نرى:

١ - ضرورة السعي إلى إقامة الدولة الإسلامية بما هو ممكن أولاً لتحقيق

ما هو واجب... وعدم مغالطة الواقع والغفلة عن معطياته ومرتسباته والتميز بين عالم الأذهان وعالم الكلام وبين عالم الواقع وعالم الممكن.

٢ - ضرورة التنسيق بين القوى الإسلامية على اختلاف اتجاهاتها وأماكنها لتوحيد الأطروحات والاتفاق على أسس مشتركة لإقامة دولة الممكن سعياً إلى التمكن من دولة الواجب.

٣ - توسيع مساحة الاتفاق وتضييق هوة الخلاف والشقاق بين الاتجاهات الإسلامية وإلا كان الفشل حليفنا ونصيبنا ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وسنزيد هذا الأمر وضوحاً بالحديث عن موضوعين:

#### (١) العجز

#### (٢) التدرج

وقبل الدخول في الموضوعين سنمر على موضوع التيمم لنستلهم منه الانتقال من الواجب إلى الممكن في بناء الدولة حيث إن التيمم ينتقل من الأصل وهو الماء الذي يستخدم للوضوء إلى الصعيد الطيب عند وجود الأسباب المبيحة نحو (المرض المخوف - خوف زيادة أو تلف) لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقول النبي ﷺ لمن أصابه جرح في رأسه (إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يُعَصَّبَ عَلَى جُرْحِهِ وَيَتَيَمَّمُ)<sup>(١)</sup>.

وكذلك من أسباب الانتقال إلى التيمم إذا خاف التيمم العطش فيحبس الماء للشرب ويتيمم ولا إعادة عليه، وقد وضع العلماء شروطاً لصحة التيمم:

#### (١) دخول وقت الصلاة المكتوبة

#### (٢) طلب الماء وعدم وجوده

وبعد هذا البيان في الانتقال من الواجب إلى الممكن في الوضوء

(١) رواه أبو داود (٣٣٦).



والتي يمكن أن نرى بوضوح منهج الإسلام في التيسير ورفع الحرج في مسائل الحياة المختلفة والتي منها موضوعنا عن الدولة.

### العجز:

لا شك أن الواجب هو: العمل على إيجاد دولة إسلامية تحكم الناس على منهاج النبوة، ملتزمين بهدي الكتاب والسنة، ولكن إذا تعذر الوصول إلى هذا الأمر لسبب كالعجز وعدم القدرة على التمام، فلا مانع من أن نجتهد على إيجاد (دولة الممكن)<sup>(١)</sup>. والتعامل معها، فهي (البديل الذي يعاد إليه عند تعذر الأصل).

والعجز ليس عدم الإمكان فقط، بل كما قال الرافعي<sup>(٢)</sup>. (لا نعني بالعجز عدم الإمكان فقط، بل في معناه: خوف الهلاك ولذلك قال الأصوليون: (جواز التكليف مبني على القدرة التي يوجد بها الفعل المأمور به، وهذا شرط في أداء حكم كل أمر، حتى أجمعوا على أن الطهارة بالماء لا تجب على العاجز عنها ببدنه، بأن لم يقدر على استعماله له حقيقة، ولا على من عجز عند استعماله إلا بنقصان يحل به أو مرض يزداد به)<sup>(٣)</sup>.

### أثر العجز:

العجز سبب من أسباب التخفيف والتيسير في العبادات والمعاملات والحدود والقضاء، وغير ذلك فكل ما عجز عنه الإنسان يسرته له الشريعة، تفضلاً من الله سبحانه وتعالى ورحمة بعباده، ورفعاً للحرج والمشقة عنهم.

(١) نعني (بالممكن): الواقع الموجود الآن في بعض من الدول الإسلامية، وهو: الحكم الذي يجمع بين الصالح والطالح، وبين الإيمان والمعصية، وبين العدل والجور... إلخ، فنختار الأخف في الجور عملاً بالضرورة.

(٢) انظر بتوسع إلى كتاب (مغني المحتاج) ج ١ - ص ١٥٤ - شركة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده - مصر - وصحة الإحالة.

(٣) انظر بتوسع إلى كتاب (كشف الأسرار) للبزدوي ج ١ - ص ١٩٢ - الناشر - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة. وراجع (الموسوعة الفقهية) ج ٢٩ - ص ٢٨٤ - حرف العين - مصطلح (عجز) - الأولى - وزارة الأوقاف (الكويت) بتصرف.

والأصل في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال الجصاص: في هذه الآية نص على أن الله تعالى لا يكلف أحداً ما لا يقدر عليه ولا يطيقه، ولو كلف أحداً ما لا يقدر عليها ولا يستطيعه لكان مكلفاً له ما ليس في وسعه<sup>(١)</sup>.

### أنواع التخفيف التي ترتب على العجز:

تختلف أنواع التخفيف المترتبة على العجز وذلك على الوجه الآتي:

أولاً: سقوط المطلوب إن لم يكن له بدل: فإذا عجز الإنسان عند أداء المطلوب، ولم يكن له بدل فإنه يسقط، ويسمى: (تخفيف إسقاط) ومن أمثله ذلك: إسقاط الحج على الفقير<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً: الانتقال إلى بدل المطلوب:

إذا عجز الإنسان عن فعل المطلوب وكان له بدل، فإنه ينتقل إلى البدل، كالعجز عن استعمال الماء للوضوء أو الغسل فإنه ينتقل إلى التيمم، وقد جاء النص بذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

(١) انظر بتوسع إلى كتاب (أحكام القرآن) للجصاص ج ١ - ص ٥٣٧ - ٥٣٨ دار الكتب العلمية - بيروت - ضبط نصه وخرج آياته عبدالسلام علي شاهين - وراجع الموسوعة الفقهية - وزارة الأوقاف - ص ٢٨٧ - حرف العين - مصطلح عجز - ج ٢٩ - ص (١) الكويت.

(٢) انظر بتوسع إلى كتاب (المنثور) للزركشي - ج ١ - ص ٢٥٣ - ط ٢ - ١٤٠٥ - ١٩٨٥ م شركة الكويت للصحافة (الأبناء).

وكتاب (الأشباه والنظائر) لابن نجيم - ص ٨٣ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م. حديث (صل قائماً فإن لم تستطع...) أخرجه البخاري (فتح الباري) لابن حجر ج ٢ - ص ٥٨٧ - دار المعرفة - بيروت - راجع الموسوعة الفقهية - وزارة الأوقاف - ج ٢ - ص ٢٨٩ - حرف العين - مصطلح عجز.

وكذلك من لم يقدر على القيام في الصلاة انتقل إلى القعود، ومن لم يقدر على القعود انتقل إلى الاضطجاع، ومن لم يقدر على الركوع والسجود انتقل إلى الإيماء، وبهذا قال النبي ﷺ لعمران بن حصين: (صَلِّ قَائِماً فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ) ومن عجز عن الصيام انتقل إلى الإطعام<sup>(١)</sup>.

وقد وضع الفقهاء والأصوليون من القواعد ما يجمع الكثير من أسباب العجز، ووضحوا التخفيفات التي تنبني على كل سبب، ومن هذه القواعد:

### القاعدة الأولى: المشقة تجلب التيسير:

#### أ - المشقة لغة واصطلاحاً:

المشقة لغة: العسر والعناء الخارجين عن حد العادة في الاحتمال<sup>(٢)</sup>.

المشقة اصطلاحاً: هي المشقة التي تنفك عنها التكاليف الشرعية. أما المشقة التي لا تنفك عنها التكاليف الشرعية كمشقة الجهاد وألم الحدود، ورجم الزناة، وقتل البغاة فلا أثر لها في جلب تيسير ولا تخفيف<sup>(٣)</sup>.

التيسير لغة: السهولة واليسر<sup>(٤)</sup>.

التيسير اصطلاحاً: هو ما يؤدي إلى رفع الحرج بشرط عدم مصادمته نصاً، فإذا صادمت نصاً<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر بتوسع إلى كتاب (الأشباه والنظائر) لابن نجيم ص ٨٣ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م وكتاب (الذخيرة) للقرافي - ص ٣٣٩ - نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ط ٢ ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م - مطبعة الموسوعة الفقهية - الكويت - وكتاب (أحكام القرآن) للجصاص ج ١ - ص ٥٣٨ - دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) مختار الصحاح (٣٤٣) ومعجم لغة الفقهاء (٤٣١).

(٣) شرح القواعد الفقهية، الزرقاء (١٥٧).

(٤) مختار الصحاح (٧٤٢).

(٥) شرح القواعد الفقهية، الزرقاء (١٥٧).

والمقصود من هذه القاعدة بيان تيسير الشريعة الإسلامية وأمرها للمكلف بما يستطيع دون إيقاعه في حرج، وبما يتوافق مع طبيعته وفطرته. كما أنها تراعي أحواله وظروفه، وكل ذلك في حدود الضوابط مبينة في مكانها.

وهذا أصل عظيم من أصول الشرع، ومعظم الرخص منبثقة عنه، بل إنه من الدعائم والأسس التي يقوم عليها صرح الفقه الإسلامي، فهي قاعدة فقهية وأصولية عامة: وصارت أصلاً مقطوعاً به لتوافر الأدلة عليها<sup>(١)</sup>.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: (إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع)<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضاً: إذا فرضنا أن رفع الحرج في الدين مثلاً مفقود فيه صفة العموم، فإننا نستفيده من نوازل متعددة خاصة مختلفة الجهات، متفقة في أصل رفع الحرج - كما إذا وجدنا التيمم شرع عند مشقة طلب الماء، والصلاة قاعداً عند مشقة طلب القيام، والقصر والفطر في السفر، والجمع بين الصلاتين في السفر والمرض والمطر، والنطق بكلمة الكفر عند مشقة القتل والتألم، وإباحة الميتة وغيرها عند خوف التلف الذي هو أعظم المشقات، والصلاة إلى أي جهة كان لعسر استخراج القبلة، والمسح على الجبائر والخفين لمشقة النزع ولرفع الضرر، والفطر في الصيام عما يعسر الاحتراز منه من المفطرات كغبار الطريق ونحوه - إلى جزئيات كثيرة جداً يحصل من مجموعها قصد الشارع لرفع الحرج، فإننا نحكم بمطلق رفع الحرج في الأبواب كلها عملاً بالاستقراء، فكأنه عموم لفظي فإذا ثبت اعتبار التواتر المعنوي ثبت في ضمنه ما نحن فيه<sup>(٣)</sup>.

- 
- (١) (القواعد الفقهية) الشيخ علي أحمد الندوي - ط ١ - ص ٢٦٥ - دار القلم - دمشق.
- (٢) كتاب (الموافقات) للشاطبي - ج ٣ - ص ٣ - تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد - مصر - مطبعة محمد علي صبيح.
- (٣) كتاب (الموافقات) ج ٣ - ص ٣ - تحقيق: عبدالله دراز - المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
- راجع كتاب (مقاصد الشريعة وعلاقتها بالأدلة الشرعية) بتصرف يسير - للدكتور محمد سعد اليوبي - دار الهجرة للنشر والتوزيع - ط ١

وهذه القاعدة فيها تفسير للأحكام التي روعي فيها التيسير والمرونة، وإن الشريعة لم تكلف الناس بما لا يستطيعون أو بما يوقعهم في الحرج، وربما لا يتفق مع غرائزهم وطبائعهم وأن المراعاة والتيسير والتخفيف مرادة ومطلوبة من الشارع الحكيم.

ومن خلال التأمل والدراسة للأسباب التي أدت إلى التخفيف في المسائل الشرعية نجد أن لها ارتباطاً مهماً ووثيقاً بمسألة الضرورة والحاجة، فالمضطر لقول كلمة الكفر عند سلطان جائر أبيح له ذلك بناء على الإكراه ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان فقد أخذ بالرخصة وهو أحد أسباب التخفيف.

والمشقة الحاصلة لمن لم يجد الطعام وهو مضطر إليه ولا يستطيع إنقاذ نفسه من الهلاك إلا بالسرقة، فنتيجة لهذه المشقة الحاصلة رخص له أكل طعام الغير من غير إذنه.

مما سبق إذن يتبين لنا مدى الارتباط الوثيق بين مفهوم «الضرورة والحاجة» وقاعدة (المشقة تجلب التيسير).

### الدليل على قاعدة (المشقة تجلب التيسير):

قد دل على هذه القاعدة، وعلى بعض القواعد الفرعية الأخرى التي هي امتداد لهذه القاعدة الجليلة - نصوص من الذكر الحكيم، وأحاديث النبي ﷺ.

أولاً: من القرآن الكريم:

قوله تعالى:

١ - ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٢ - ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٣ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦].

٥ - ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٦ - ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨].

٧ - ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مِفْتَاحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً ۚ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور: ٦١].

ووجه الدلالة فيها وفيما سواها من الآيات الأخرى التي تضافرت في

هذا الموضوع: أن الشريعة الإسلامية تتوخى دائماً رفع الحرج عن الناس وليس في أحكامها ما يجاوز قوى الإنسان الضعيفة.

ومن هذه النصوص استنبط الفقهاء هذه القاعدة، وجعلوها بمثابة نبراس يستضيئون به عند النوازل والوقائع، ويعالجون كثيراً من المسائل والقضايا على أساسها.

جاء في «تفسير المنار»<sup>(١)</sup>. عند قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أن الآية تشعر بأن الأفضل أن يصوم إذا لم تلحقه مشقة أو عسر لانتفاء علة الرخصة وإلا كان الأفضل أن يفطر لوجود علتها... ذلك بأن الله لا يريد إعنات الناس بأحكامه وإنما يريد اليسر بهم وخيرهم. وهذا أصل في الدين يرجع إلى غيره ومن هذه الآية أخذ العلماء قاعدة (المشقة تجلب التيسير)

#### ثانياً: من السنة النبوية:

وفي مجال السنة المطهرة إذا تصفحت الأحاديث، وجدت كثيراً منها تصرح أو تشير إلى معاني هذه القاعدة الشرعية، وليس أدل على ذلك من أن الرسول ﷺ وصف هذا الدين بالحنيفية السمحة.

فهناك روايات وردت بهذه الصيغة، والتي من أجودها:

(إن الدين عند الله الحنيفية السمحة لا اليهودية ولا النصرانية)<sup>(٢)</sup>.

(وسمي - أي الدين - بالحنيفية لما فيها من التسهيل والتيسير)<sup>(٣)</sup>.

(١) «تفسير المنار» للشيخ محمد رشيد رضا - طبعة القاهرة - مطبعة المنار - ١٣٧٣ هـ ص ١٦٤/٢.

راجع كتاب (القواعد الفقهية للندوي) - ص ٢٦٦.

(٢) عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: أقرأني النبي ﷺ أن الدين عند الله الحنيفية السمحة لا اليهودية ولا النصرانية، وهذا مما نسخ لفظه وبقي معناه - أصول الفقه - راجع (القواعد الفقهية) للندوي - ص ٢٦٧.

(٣) كتاب (الموافقات) للشاطبي - ج ١ - ص ٢٣٢ - ت: محمد محي الدين عبد الحميد - مصر مطبعة علي صبيح.

وجاء في حديث أسامة بن شريك التغلبي رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فجاءته الأعراب من جوانب تسأله عن أشياء، فقالوا: هل علينا حرج من كذا؟ فقال: «عباد الله! وضع الله الحرج إلا امرء اقترض امرء ظملاً فذاك يحرجه ويهلك»<sup>(١)</sup>.

وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله باباً في صحيحه بعنوان «الدين يسر».

وتناول فيه ما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» قال الإمام ابن حجر رحمه الله: «وسمي الدين يسراً مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله لأن الله وضع عن هذه الأمة الأمر الذي كان على من قبلهم، ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم»<sup>(٢)</sup>.

ومن هذا الباب: ما روى البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: (يَسْرُوا وَلَا تَعْسَرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا)<sup>(٣)</sup>.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون...»<sup>(٤)</sup>.

وتفصيل هذا المعنى نجده فيما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ «دخل عليها وعندها امرأة قال: «من هذه؟» قالت: فلانة تذكر من

(١) كتاب (فيض القدير) للمناوي - ج ٢ - ص ١٤٨ - ط ٢ - بيروت - دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م، أخرجه أبو داود الطيالسي من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك... ورواه عنه أيضاً ابن منيع والطبراني والديلمي. ورمز السيوطي إلى صحته.

(٢) كتاب (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) لابن حجر ج ١ ط ١٠ ترقيم فؤاد عبد الباقي - بيروت دار الفكر.

(٣) كتاب (الجامع الصحيح) للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ج ١ ص ٢٧ مطبوعات دار ومطابع الشعب.

(٤) المصدر نفسه ج ١ - ص ١١.



صلاتها، قال: «مَهْ عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»<sup>(١)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَى زَحَامًا وَرَجُلًا قَدْ ظَلَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ مَا هَذَا؟ قَالُوا: صَائِمٌ، قَالَ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّيَامُ فِي السَّفَرِ» وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى «وَعَلَيْكُمْ بِرِخْصَةِ اللَّهِ الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ»<sup>(٢)</sup>.

### القاعدة الثانية: الميسور لا يسقط بالمعسور:

هذه قاعدة مهمة من قواعد الفقه تمسك بها جماهير الفقهاء، ويتمثل فيها جانب التيسير والتخفيف.

ويذهب الفقهاء في استنباط هذه القاعدة إلى الشرط الثاني من الحديث التالي: (عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتُّوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكرها الإمام تاج الدين السبكي (في أشباهه)<sup>(٤)</sup>. وقال: وهي من أسهل القواعد المستنبطة من قوله ﷺ «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتُّوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»

قال العلامة ابن حجر الهيتمي في شرح الحديث المذكور: «وهذا من قواعد الإسلام المهمة مما أوتي به ﷺ من جوامع الكلم، لأنه يدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام، وبالحديث وبآلية الموافقة له يخفي عموم قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٧.

(٢) المصدر نفسه ج ٢١ ص ٦٨٧ - حديث رقم ١٨٤٤ (ط بيروت - دار القلم).

راجع (القواعد الفقهية) للندوي ص ٢٦٥ - ٢٦٨ بتصرف واختصار.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ: ... (فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - ج ٤/٢٥٨).

(٤) كتاب (الأشباه والنظائر) وهو مخطوط و: ٤٧، الوجه الأول - رقمه في المركز ١٦٨ - فقه شافعي - مصدره: مصور عن المكتبة الأزهرية رقم ٩٣٧/٥٢.

وَابْنُ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا ءَانَتْكُمْ الرُّسُلُ فَحُدُّوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ [الحشر: ٧].

وعلى أساس الأصل المذكور قد يختلف بعض الأحكام العملية حسب اختلاف الأشخاص وأوضاعهم وإلى هذا وقعت الإشارة في قوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَانَتْهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَتْهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

فإذا عجز عن ركن أو شرط كنحو وضوء، أو صلاة، أو قدر على غسل أو مسح بعض الأعضاء أو التيمم أو على ستر بعض العورة أو على بعض الفطرة لا عن الرقبة في الكفارة لأن لها بدلا، أو بعض الفاتحة أو إزالة بعض المنكر، أتى بالممكن وصحت عبادته مع وجوب القضاء تارة وعدمه تارة أخرى.

#### من شواهد هذه القاعدة:

ومن شواهد هذه القاعدة وتطبيقاتها ما رواه البخاري عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: «كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»<sup>(١)</sup>.

فإنه يستفاد من الحديث أن «الميسور لا يسقط بالمعسور» لأن وجوب الصلاة منوط بوجود العقل، فحيث كان حاضرا لا يسقط التكليف عن المكلف كما لا يسقط الركوع والسجود بالعجز عن قيام، وقد وضع من الترتيب المذكور، أنه: «إذا عجز عن الأعلى، وأتى بالأدنى، كان آتيا بما استطاع من الصلاة».

والحديث الوارد في النص عن المنكر أيضاً يحتمل هذا المعنى.

(١) (صحيح الإمام البخاري) بفتح الباري للإمام ابن حجر - ترقيم فؤاد عبد الباقي ٥٨٧/٢ -

وهو ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضعفُ الإيمان»<sup>(١)</sup>.

ولما كانت الاستطاعة بالقلب وهي: النفرة عن المنكر والتنكر له بإظهار الأمارات الدالة على ذلك كإراقة الخمر ومقاطعة الشارب في مقدور كل شخص، فإنها لم تسقط عنهم في حال من الأحوال.

وفي كل ما سبق إشارة جلية إلى أنه اشترطت القدرة في جميع ما أوجبه الله تعالى على العباد فمن لم يقدر على شيء فلا يكلفه الله بما يعجز عنه<sup>(٢)</sup>.

**ابن تيمية يبين قاعدة الميسر لا يسقط بالمعسر والانتقال بين الواجب والممكن:**

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في موضوع بحثنا في الانتقال من الواجب إلى الممكن: «وأولو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء. وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس، فعلى كل منها أن يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة لله ورسوله واتباع كتاب الله ما أمكن في الحوادث المشككة لمعرفة ما دل عليه الكتاب والسنة كان هو (الواجب) وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب، أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك فله أن يقلد من يرتضي علمه ودينه.. ثم قال: كذلك ما يشترط في القضاة والولاة من الشروط، يجب فعله بحسب الإمكان، بل وسائر شروط العبادات من الصلاة والجهد، وغير ذلك، كل ذلك مع القدرة، أما مع العجز فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولهذا أمر الله المصلي أن يتطهر بالماء، فإن عدمه أو خاف الضرر باستعماله لشدة البرد أو جراحة أو غير ذلك، تيمم الصعيد فمسح بوجهه ويديه منه وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين «صل قائماً فإن لم تستطع

(١) أخرجه البخاري في (صحيحه) في (العلم والتعبير) وأخرجه الإمام مسلم أيضاً في صحيحه في (الإيمان)

كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) القواعد الفقهية للشيخ علي أحمد الندوي - ص ٢٨٣ - ٢٨٦ - ط ١ - دار القلم - دمشق.

فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»<sup>(١)</sup>. وقد أوجب الله تعالى فعل الصلاة في الوقت على أي حال أمكن كما قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾ (٢٢٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

فأوجب الله الصلاة على الآمن والخائف، والصحيح والمريض، والغني والفقير، والمقيم والمسافر، وخففها على المسافر، والخائف والمريض، كما جاء به الكتاب والسنة، وكذلك أوجب فيها واجبات من الطهارة والستارة واستقبال القبلة، وأسقط ما يعجز عنه العبد من ذلك، فلو انكسرت سفينة قوم، أو سلبهم المحاربون ثيابهم، ظلوا عراة بحسب أحوالهم، وقام إمامهم وسطهم، لثلا يرى الباكون عورته.

ولو اشتبهت عليهم القبلة، اجتهدوا في الاستدلال عليها، فلو عميت الدلائل، صلوا كيفما أمكنهم، كما روي أنهم فعلوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ، فهكذا الجهاد والولايات، وسائر أمور الدين، وذلك كله في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وفي قول النبي ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»<sup>(٢)</sup>. كما أن الله تعالى: لما حرم المطاعم الخبيثة قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

(١) صحيح، الحديث أخرجه البخاري (فتح) في كتاب تقصير الصلاة حديث رقم (١١١٧) في باب إذا لم يصل قاعدا صلى على جنب - عن عمران بن حصين قال: كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فذكر الحديث، راجع تخريج أحاديث كتاب (السياسة الشرعية) لمحققه أبي عبد الله المغربي - ص ٢١٥ - دار الإيمان - الإسكندرية.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام حديث رقم (٧٢٨٨) (فتح) باب الاقتداء بسبيل رسول الله ﷺ عن أبي هريرة مرفوعاً: دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم عن أنبيائهم - ص ٢٤ - دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع - الإسكندرية.

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

فلم يوجب ما لا يستطيع، ولم يحرم ما يضطر إليه، إذا كانت الضرورة بغير معصية من العبد.. فالواجب على المسلم أن يجتهد في ذلك بحسب وسعه، فمن ولي ولاية يقصد بها طاعة الله وإقامة ما يمكنه من دينه، ومصالح المسلمين، وأقام فيها ما يمكنه من ترك المحرمات، لم يؤاخذ بما يعجز عنه، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار ومن كان عاجزا عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد ففعل ما يقدر عليه من النصيحة بقلبه والدعاء للأمة، ومحبة الخير وفعل ما يقدر عليه من الخير لم يكلف بما يعجز عنه، فإن قوام الدين بالكتاب الهادي والحديث الناصر كما ذكره الله تعالى<sup>(١)</sup>.

#### النزول على الواقع المرهق عند تعذر الأصل:

مع تعاقب الأجيال<sup>(٢)</sup>. وانسحاب الإسلام من واقع الأمم والجماعات، ومن ضمائر الأفراد ضرب الفساد في الأرض، وتلبست الأهواء والأغراض بالإنسان، ومن هنا، فإذا اخترنا أقل المسلمين لبسا بالأهواء والأغراض ليتولى المناصب والولايات نكون وفقا لظروف الزمان قد اخترنا الأصلح وقدمنا من يستحق التقديم على الأعمال وتعبيرا عن ذلك ورد عن الإمام الماوردي<sup>(٣)</sup>.

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية - الإمام ابن تيمية ص ١٥٩ - ١٦٧ دار المعارف للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

(٢) من ملامح الثورة الإدارية في الإسلام - أ. عبدالعظيم منصور - ص ٥٧.

(٣) لعل الصواب - ابن تيمية - راجع كتابه (السياسة الشرعية) وهذا نصه: ومع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة، إذا كان أصلح الموجود فيجب مع ذلك السعي في إصلاح الأحوال، حتى يكمل في الناس ما لا بد لهم منه من أمور الولايات والإمارات ونحوها، كما يجب الاستعداد للجهاد، لإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب بخلاف الاستطاعة في الحج ونحوها، فإنه لا يجب تحصيلها، لأنه الوجوب هناك لا يتم إلا بها، هـ (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) لابن تيمية ص ٣٣ - ٣٤ تحقيق أبي عبدالله المغربي - دار الإيمان - الإسكندرية.

ومع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة إذا كان أصلح الموجود فيجب مع ذلك السعي في إصلاح الأحوال حتي يكمل في الناس ما لا بد لهم من أمور الولايات والإمارات ونحوها، كما يجب على المعسر السعي في وفاء دينه، وإن كان في الحال لا يطلب منه إلا ما يقدر عليه...

ثم إن هناك مثلاً علياً نصبها الشرع للإنسان المسلم ليرنو إليها بعينه، ويهفو إليها بقلبه، ويسعى إليها بحركته، ولكن الواقع كثيراً ما يغلبه، فيعجز عن الوصول إليها فيضطر إلى النزول عنها إلى ما دونها تحت ضغط الضرورة وعملاً بالممكن الميسور بعد تعذر الصعود إلى المثال المعسور.

ومن هنا تقررت القاعدة الشهيرة (الضرورات تبيح المحظورات) وقاعدة (المشقة تجلب التيسير) وقاعدة (لا ضرر ولا ضرار) وقاعدة (رفع الحرج) ومن قرأ القرآن واستقرأ السنة، وجد ذلك واضحاً كل الوضوح، فقد بين القرآن أن الله تعالى أقام أحكام شرعه على اليسر لا على العسر، على التخفيف لا التخليط، وعلى رعاية الظروف المخففة، والضرورات القاهرة، والحاجات الملحة.

كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمُ وُحْلَ الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلَّةَ أَيْكُمُ الْإِسْلَامُ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وفي الصحيح (يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا)<sup>(١)</sup>.

(إنما بُعثتم مُيسرين ولم تُبْعَثوا معسرين)<sup>(٢)</sup>. (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة).

ولهذا نجد الفقهاء يُجيزون للفرد المسلم وللمجتمع المسلم: (النزول للضرورة من المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى) حتى لا تتعطل مصالح الخلق، ولا تضيع حقوقهم، ويذهب دينهم وديناهم. مثال ذلك:

إجازة شهادة الفاسق إذا لم يوجد (العدل) الذي هو (الأصل) في الشهادة.

وإجازة ولاية القاضي المقلد إذا لم يوجد القاضي المجتهد الذي هو (الأصل) في القضاء. ومثله: الإمام (رئيس الدولة) فالأصل فيه أن يكون مجتهداً ولكنهم أجازوا إمامة المقلد بل الجاهل على أن يستعين بأهل العلم. وكذلك أجازوا الجهاد مع البار الفاجر، مع أن الأصل هو البار الصالح.

بل سئل الإمام أحمد: عن أمير قوي ولكنه فاجر، آخر صالح ولكنه ضعيف، مع أيهما يجاهد؟

(١) الحديث متفق عليه - أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العلم) كتاب رقم ٣ باب ١١ حديث ٦٩ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه راجع (صحيح البخاري) كما أخرجه الإمام مسلم في (صحيحه) بشرح النووي ص ٤٢ عن أنس بن مالك رضي الله عنه - (كتاب الجهاد واليسر) باب ٣ - ٤ حديث رقم ١٧٣٤ - دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) رواه البخاري والترمذي والنسائي عن أبي هريرة (كتاب الطهارة).

فقال رضي الله عنه: أما القوي الفاجر ففجوره على نفسه، وقوته للمسلمين، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين! يجاهد مع القوي وإن كان فاجراً..

فإذا نظرنا إلى واقع المسلمين وما هم فيه من وهن وتمزق وتخلف وإلى واقع أعدائهم وما يملكون من قوة وأسباب نرى هذا الواقع يفرض علينا أن نقبل في حال الضعف ما يجب أن نرفضه في حال القوة، ونقبل في حال التفرق ما يجب أن نرفضه في حال الوحدة، وقد قال تعالى: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

فأشار إلى أن الضعف من أسباب التخفيف وإن كان على المسلم أن يتطلع أبداً إلى القوة والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

ومن لم يستطع أن يصل إلى الحكم، وينفرد به من الجماعات الإسلامية كما هو الحال في أكثر البلاد الإسلامية اليوم فلا مانع أن ينزل على حكم الواقع، ويرضى بالمشاركة مع غيره إن كان من وراء ذلك خير للأمة<sup>(١)</sup>.

### وصوب الأخذ بالعدل - الممكن :-

يقول الإمام ابن قيم الجوزية: فإن الله تعالى أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة الفعل، وأسفر صحبه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، الله تعالى لم يحصر طرق العدل، وأدلته وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى وأدل وأظهر، بل تبين بما شرعه من الطرق أن مقصوده: إقامة الحق والعدل وقيام الناس

(١) من فقه الدولة في الإسلام - د. يوسف القرضاوي - ص ١٨١ - ط ١ - دار الشروق - بيروت.



بالقسط، فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها.

والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها التي هي المقاصد ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعه، وسبيل للدلالة عليها، وهل يظن بالشرعية الكاملة خلاف ذلك؟

ثم قال: ولا نقول إن السياسة العادلة مخالفة للشرعية الكاملة، بل هي جزء من أجزائها وباب من أبوابها<sup>(١)</sup>، ويعتبر ابن تيمية أن السياسة التي تسير على مبدأي (أداء الأمانات) و(الحكم بالعدل) إنما هي سياسة استطاعت أن تحقق الكمال في الحكم - فيقول (وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة والسياسة الصالحة).

وإن كان كلام ابن تيمية في مطلع (السياسة الشرعية) صريحاً في ذكر مبدأي أداء الأمانات، والحكم بالعدل، كل منهما على نحو مستقل عند الآخر فإنه في كثير من الأحيان لا سيما في (منهاج السنة)<sup>(٢)</sup>. يدمج مبدأ (أداء الأمانات) في مبدأ (الحكم بالعدل) ويعتبر أن الحكم بالعدل هو المقصود النهائي للشرعية باعتبار أن أداء الأمانة من العدل.

يقول: (والمقصود أن الحكم بالعدل واجب مطلقاً في كل زمان ومكان على كل أحد ولكل أحد، والحكم بما أنزل الله على محمد ﷺ هو عدل خاص، وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها والحكم به واجب على النبي ﷺ وكل من اتبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كاف).

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين - ابن قيم الجوزية ج ٤ - ص ٣٧٣ - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.

(٢) كتاب (منهاج السنة) ج ١/ ٣٢ - دار الكتب العلمية - بيروت.

ويقول أيضاً: (ولهذا يروى: إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة)<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجده قد جعل الحكم بالعدل مساوياً للشرعية، وبتعبير آخر فإن مقصود السياسة ومبدأها الأساسي هو العدل بالمعنى العام<sup>(٢)</sup>.

الإقدام على المصالح الضرورية أو الحاجة وإن اعترض طريقها بعض المنكرات:

يقول الإمام عز الدين بن عبد السلام: إذا تعذرت العدالة في الولاية العامة والخاصة بحيث لا يوجد عدل ولينا أقلهم فسقاً، وله أمثلة:

**أحدها:** أن تتعذر في الأئمة، فيقدم أقلهم فسوقاً عند الإمكان، فإن كان الأقل فسوقاً يفرط في المصالح العامة مثلاً، وغيره يفرط في خمسها، لم يجز تولية من يفرط في الخمس فما زاد عليه، وتجوز تولية من يفرط في العشر، وإنما جوزنا ذلك لأن تبعة الأعشار بتضييع العشر أصلح للأيتام ولأهل الإسلام من تضييع الجميع ومن تضييع الخمس أيضاً، فيكون هذا من باب (دفع أشد المفسدين بأخفهما).

وإذا استولى الكفار على إقليم عظيم فولوا القضاء لمن يقوم بمصالح المسلمين العامة فالذي يظهر إنفاذ ذلك كله، جلباً للمصالح العامة ودرءاً للمفاسد الشاملة، إذ يبعد عن رحمة الشارع ورعايته لمصالح عباده تعطيل المصالح العامة وتحمل المفاسد الشاملة لفوات كمال فيمن يتعاطى توليها لمن هو أهل لها، وفي ذلك احتمال بعيد.

**المثال الثاني:** الحكام إذا تفاوتوا في الفسوق قدمنا أقلهم فسوقاً، لأننا لو قدمنا غيره لفات من المصالح ما لنا عنه مندوحة، ولا يجوز تفويت مصالح الإسلام إلا عند تعذر القيام بها ولو لم يجز هذا وأمثاله لضاعت

(١) كتاب (الحسبة في الإسلام) للإمام ابن تيمية ص ٤ - المطبعة السلفية - القاهرة.

(٢) راجع كتاب (النظرية السياسية عند ابن تيمية) ص ١٥٤ - ١٥٥ - دكتور حسن كونا كاتا - دار الإخلاء - الدمام.

أموال الأيتام كلها وأموال المصالح بأسرها، وقد قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ومبنى هذه المسائل كلها على الضرورات ومسييس الحاجات، فقد يجوز في حال الاضطراب ما لا يجوز في حال الاختيار<sup>(١)</sup>.

### حفظ المهربرد أولى من تصصيل المفقود:

ويقول الإمام عز الدين بن عبد السلام أيضاً: إن حفظ الموجود أولى من تصصيل المفقود ودفع الضرر أولى من جلب النفع، وهذا معروف بالعادة وقد قال ﷺ: (مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً ثُمَّ لَمْ يَجْهَدْ لَهُمْ وَيَنْصَحْ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ مَعَهُمْ).

ولما اتهم خالد بن الوليد بأنه قتل مالك بن نويرة ليتزوج بامرأته... حرص عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أن يعزله أبو بكر رضي الله عنه وقال: قتل رجلاً من المسلمين ونزا على امرأته، فامتنع أبو بكر من عزله، لأنه كان الأصح في القيام بقتال أهل الردة من غيره، وهو أصوب مما رآه عمر، لأن تلك المسألة لم تكن قاذحة في كونه أقوم بالحرب من غيره، فلما تولى عمر عزله عن حرب الشام، وولى أبا عبيدة بن الجراح، فوصل كتاب العزل إلى أبي عبيدة والناس صفوف للقتال فلم يخبر به خالد حتى انقضت الحرب لعلمه بتقدمه في مكاييد الحروب وترتيب القتال، ولو أخبره بذلك لتشوش أمر المسلمين، وإنما لم يخبره لأنه أذن له في ذلك أو رأى أنه لا ينزل حتى يقف على الكتاب. اهـ.

ولقد نص الإمام ابن تيمية على أن الوالي ليس عليه إلا أن يستعمل أصلح الموجودين من أهل زمانه وقد لا يكون في الموجودين من هو صالح لتلك الولاية، فيختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام، وأخذ للولاية بحقها، فقد أدى الأمانة وقام بالواجب في

(١) (قواعد الأحكام في إصلاح الأنام) للإمام عز الدين بن عبد السلام ص ١١٣ - ج ٢ -

تحقيق نزيه حماد وعثمان جمعة ضميرية. دار القلم - دمشق.

هذا، وصار في هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله، وإن اختل بعض الأمور بسبب من غيره، إذا لم يمكن إلا ذلك، فإن الله يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِٓ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فمن أدى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى...

ولمزيد من الإيضاح نريد أن نلقي الضوء على بعض القواعد الفقهية التي لها صلة مباشرة بموضوعنا لربطها ببعض عناوين هذا الكتاب، ونختار منها:

**أولاً: قاعدة (درء المفاسد أولى من جلب المصالح)** وارتباطها بمفهوم الضرورة والحاجة، وهذه القاعدة في الحقيقة من الأهمية والخطورة معاً، إذ إن تقدير المصلحة والمفسدة لا يتأتى بسهولة، خصوصاً في المسائل والقضايا المستجدة الكبرى...

ويحسن بنا في هذا المقام أن نضع أيدينا على نصوص مهمة تمثل ضوابط ومفاهيم رئيسة في فهم هذه القاعدة، كي يتسنى لنا بعد ذلك ربطها بمفهوم الضرورة والحاجة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض حديثه عن تعارض المصالح والمفاسد، بأن لها اعتباراً (هو اعتبار مقادير المصالح والمفاسد بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع المنصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر)<sup>(١)</sup>.

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية ج ٢٨ ص ١٢٩ جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم. ط. المكتب التعليمي السعودي المغربي بدون ذكر رقم الطبعة أو سنة الطبع.

وهذه اللفتة المهمة من شيخ الإسلام تبين لنا أهمية الانطلاق من نصوص الشريعة الإسلامية حلاً وحرمة، عند بداية الموازنة بين المصلحة والمفسدة أو حين تعارضهما «وهذه المصالح ليست ما يراه الإنسان مصلحة له ونفعاً حسب هواه، وإنما المصلحة ما كانت في ميزان الشرع لا في ميزان الأهواء والشهوات، فالإنسان قد يرى مدفوعاً بهواه - النافع ضاراً، والضرار نافعاً، متأثراً بشهواته النفسية وتطلعه واستشرافه إلى النفع العاجل اليسير، دون التفات إلى الضرر الآجل الجسيم، فقد يرى أن من النفع له أكل مال الناس بالباطل بالأساليب الخفية الملتوية، أو باحتكار أقواتهم أو بأخذ الربا ليزيد ماله بهذا الطريق المحرم الخبيث، أو يقعد عن الجهاد ل يتمتع بمتع الحياة، وينسى هذا الإنسان أن هذه المنافع صورية لا حقيقية، إذ هي في جوهرها ضرر محض في العاجل والآجل.

من أجل هذا كله كان لا بد من بيان مقاصد الشريعة العامة ليكون المكلف على علم بها فيعرف ما يأخذ وما يذر، ويزن بها مصالحه وأضراره<sup>(١)</sup>.

وقاعدة المصالح والمفاسد نستطيع أن نضع لها معياراً من خلال تأملنا ودراستنا للقواعد السابقة، ففيما يتعلق بمسألة «الأخذ بالضرورة» فيكون المعيار هو الموازنة بين مفسدة ارتكاب المحظور عملاً بالضرورة والمفسدة المترتبة على عدم العمل بها، فإن كانت مفسدة ارتكاب المحظور أعظم من مفسدة عدم الأخذ بالضرورة لم يلتفت إلى الضرورة ولم يعمل بها، إذ هي حينئذ ضرورة ناقصة واستباحة المحظور بالضرورة بشرط عدم نقصانها، فالمضطر مثلاً إلى الطعام لا يجوز له أخذ طعام مضطر آخر كما قال العز بن عبد السلام.

أما إذا كانت المفسدة المترتبة على عدم العمل بالضرورة أعظم من مفسدة ارتكاب المحظور فللمكلف حينئذ الأخذ بالضرورة، وهنا ينبغي

(١) الوجيز في أصول الفقه (ص ٣٧٨) عبد الكريم زيدان - مؤسسة الرسالة - ط ٧ (١٤٢٠هـ).

الإشارة إلى أن ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها<sup>(١)</sup>. وأن تراعى ضوابط الأخذ بالضرورة السابق ذكرها.

وفي قاعدتنا «درء المفاسد أولى من جلب المصالح» نرى أن درء المفاسد يكون أولى من جلب المصلحة أحياناً للضرورة وأحياناً للحاجة، ومثال ذلك: أكل لحم الميتة فيه مفسدة، ولكنه أبيح للضرورة وهو أولى من مصلحة عدم أكله، وكذلك شرب الخمر لإساعة اللقمة<sup>(٢)</sup>.

وكذلك من جاز له اقتناء كلب لحاجة الصيد لم يجز له أن يقتني زيادة على القدر الذي يصطاده<sup>(٣)</sup>.

**وكذلك مسألة ترس الكفار بجماعة من أسرى تعارضت فيها مفسدتان:**

مفسدة قتل مسلم معصوم لم يذنب ذنباً، ومفسدة تسلط الكفار على كافة المسلمين بالقتل، إذا لم يقتل المسلمون الترس فالتزام المفسدة الأولى، وهي قتل الترس يكون لتفويت المفسدة الأعظم، وهي قتل جميع المسلمين، ذلك لأنه حال ضرورة لا مناص عن احتمال أولى المفسدتين، ومقصود الشرع تقليل القتل، كما يقصد حسم سبيله عند الإمكان، فإن لم نقدر على الحسم قدرنا على التقليل<sup>(٤)</sup>.

ومثله جواز انعقاد الإمامة الكبرى لمن قصر عن رتبة الاجتهاد دفعاً لأشد الضررين.

ومن خلال فهم هذه القاعدة ومعرفة معاييرها والتأمل في أمثلتها،

(١) الضرر في الفقه الإسلامي - أحمد موافي - دار ابن عفان - الخبر - ط ١٤١٨هـ - ج ١ ص ٧١٠.

(٢) الأشباه والنظائر - السيوطي - مكتبة نزار الباز - مكة المكرمة - ص ٨٤ - دون رقم طبعة أو سنة طباعة.

(٣) الأشباه والنظائر - السيوطي - ص ٨٤.

(٤) المستصفي من علم الأصول - الغزالي - دار صابر - مصر - ص ٦٤ - ط ١.

يمكن فهم بقية القواعد الفقهية المتفرعة عن القاعدة الكبرى (لا ضرر ولا ضرار) وهذه القواعد هي:

- ١ - قاعدة (الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف)
- ٢ - قاعدة (يختار أهون الشرين أو أخف الضررين)
- ٣ - قاعدة (إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمها ضرراً بارتكاب أخفهما)

(وهذه القواعد الثلاث تباينت ألفاظها وصيغها، واتحدت معانيها ومغزاها ومؤداها واحد، وهو أن الأمر إذا دار بين ضررين، أحدهما أشد من الآخر فيتحمل الضرر الأخف ولا يرتكب الأشد، وهي منبثقة من القاعدة الشرعية الفقهية السابقة «درء المفسدات أولى من جلب المصالح» ومتفرعة عن القاعدة الكلية (لا ضرر ولا ضرار)<sup>(١)</sup>.

ثانياً: قاعدة (الإقدام على المصالح الضرورية أو الحاجة وإن اعترض طريقها بعض المنكرات):

هذه القاعدة يبين معناها لنا الإمام الشاطبي ويمثل لها ببعض الأمثلة المهمة فيقول: (ويمكن التمثيل لذلك بتعاطي البيع والشراء والتعامل مع الناس والإقدام على الزواج مع تعرض المسلم في هذه المعاملات لبعض المنكرات ووقوعه في الشبهات وذلك لما في ترك هذه المصالح الضرورية والحاجة من الفساد والضرر الذي يربو كثيراً على مصلحة التحرز من المنكرات واتقاء الشبهات ويعمل جهده في تحرى وجه الكسب الحلال، أما أن يترك البيع والشراء والزواج والمعاملات حذراً من الوقوع في بعض المناكر التي عمت في الأسواق وبعداً عن بعض الشبهات في طريق الكسب فذلك لا يجوز، لأنه ترك لمصلحة أصلية تشوفاً لمصلحة كمالية، والمكمل إذا عاد على أصله بالبطلان لا يلتفت إليه)<sup>(٢)</sup>.

(١) القواعد الفقهية الكبرى - د. صالح بن غانم السدلان - دار بلنسية - الرياض ص ١٤١٧هـ.

(٢) فقد المصلحة وتطبيقاته المعاصرة - ص ٧١ - حسين حامد حسان - مطبوعات المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب - جدة - ط ١ - ١٤١٥هـ.

وكذلك يقول الشاطبي: (إن الأمور الضرورية أو غيرها من الحاجة والتكميلية إذا اكتنفتها من الخارج أمور لا ترضى شرعاً، فإن الإقدام على جلب المصالح صحيح على شرط التحفظ بحسب الاستطاعة من غير حرج، كالنكاح الذي يلزمه طلب قوت العيال مع ضيق طرق الحلال واتساع أوجه الحرام والشبهات، وكثيراً ما يلجأ إلى الدخول في الاكتساب لهم بما لا يجوز ولكنه غير مانع لما يؤول إليه التحرز من المفسدة المريبة على توقيع مفسدة التعرض، ولو اعتبر مثل هذا في النكاح في مثل زماننا لأدى إلى إبطال أصله، وذلك غير صحيح، وكذلك طلب العلم إذا كان في طريقه منكر يسمعها طالب العلم، وشهود الجنائز وإقامة الوظائف الشرعية إذا لم يقدر على إقامتها إلا بمشاهدة ما لا يُرتضى، فلا يخرج هذا العارض عن تلك الأمور عن أصولها، لأنها أصول الدين وقواعد المصالح، وهو المفهوم من مقاصد الشارع<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض والإيضاح لمعاني هاتين القاعدتين، سنقوم بربطها بواقعنا اليوم كتطبيقات جزئية متفرعة عنهما وعمما سبقتهما وسيكون تناولنا فيها من خلال المشاريع الآتية:

١) مشروعية تولي الولاية العامة في الدول الظالمة مع عدم التمكن من إقامة العدل الواجب:

لا شك أن منهج الرسل في دعوتهم إلى الله هو في تحصيل المصالح وتكميلها، والدعوة إلى الله حسب الاستطاعة، وليس كل أحد بمستطيع أن يقيم العدل كاملاً، ويفعل كل ما يريد على أكمل الوجوه.

فكان تقليل الشرور على أقل حد ممكن وتحصيل المصالح لأكبر حد ممكن منها هو منهج الرسل والأنبياء عليهم السلام.

ومن هنا يقرر ابن تيمية أن تولي الولاية العامة مع عدم التمكن من

(١) الموافقات للشاطبي ج ٢ ص ٣٤٨ ط ١ - دار ابن عفان - الخبر.



إقامة العدل الواجب جائزة بل واجبة أحياناً إذا كان فيها تخفيفاً للظلم، ومنعاً لمن يتولاها ويقصد بها الظلم.

واستدل شيخ الإسلام على ذلك بما أقدم عليه نبي الله الكريم ابن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم فقال<sup>(١)</sup>: (ومن هذا الباب تولى يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض وكان هو وقومه كفاراً كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

وقال تعالى عنه: ﴿يَصْحَبِي السَّجْنَاءُ أَزْوَاجٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [٣٩] مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]، ومعلوم أنه مع كفرهم لا بد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال، وصرفها على حاشية الملك، وأهل بيته وجنده، ورعيته، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته مما لم يكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ويقول شيخ الإسلام كذلك (وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذا الحال محرماً في الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر، ويقال في هذا مثل هذا ترك الواجب لعذر وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو للضرورة، أو لدفع ما هو أحرم)<sup>(٢)</sup>.

(١) فتاوي شيخ الإسلام ج ٢/٥٦.

(٢) فتاوي شيخ الإسلام ج ٢٠/٥٧.

وتأتي أهمية هذا الكلام من الشيخ على اعتبارين:

**الاعتبار الأول:** مكانته العلمية في مذهب الإمام أحمد وحصوله على رتبة الاجتهاد المطلق بشهادة المحب والكاره.

**الاعتبار الثاني:** أن الزمان الذي عاشه ابن تيمية يشبه في بعض صورهِ واقعنا اليوم وخصوصاً في تسلط الكفار وحكم الفاسق والانهازمية العامة في الأمة وسقوط الخلافة العباسية بأيدي التتر، واستقلال حكام الأقاليم والدويلات بدولهم، وغلبة الجهل والظلم على حكام الولايات، وحكمهم بالإسلام تارة وبالأعراف والتقاليد وتشريعاتهم تارة أخرى، واستئثارهم بكثير من الأموال لأنفسهم دون المسلمين، فلم يكن توزيع المال على الطريقة النبوية والخلافة الراشدة...

وكان شيخ الإسلام يفتي بأنه لا يجوز التخلي عن تولي الولايات العامة في مثل هذه الدويلات على ما فيها، حتى وإن كان لا يستطيع المتولي أن يقيم العدل كما أمر الله به.

**(٢) مشروعية حيازة الولاية العامة للمسلم الصالح المريد للخير وإن اشتملت على بعض الباطل والظلم:**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وهو في معرض بيان قاعدة: (ارتكاب أخف الضررين)<sup>(١)</sup>:

(إذا كان المتولي للسلطان العام أو بعض فروعه كالإمارة والولاية والقضاء ونحو ذلك، إذا كان لا يمكنه أداء واجباته وترك محرماته، ولكن يتعمد ذلك - في حرصه على فعل الواجب وترك المنكر - ما لا يفعله غيره قصداً وقدره: جازت له الولاية وربما وجبت وذلك لأن الولاية إذا كانت من الواجبات التي يجب تحصيل مصالحها، من جهاد العدو وقسم الفئ، وإقامة الحدود، وأمن السبيل، كان فعلها واجب، فإذا لم يكن ذلك مستلزماً لتولية بعض من لا يستحق، وأخذ بعض ما لا يحل وإعطاء بعض من لا

(١) فتاوي ابن تيمية ٥٥/٢٠.

ينبغي، ولا يمكنه ترك ذلك، صار هذا من باب ما لا يتم الواجب أو المستحب إلا به فيكون واجباً أو مستحباً. وإذا كانت مفسدته دون مصلحة ذلك الواجب أو المستحب، بل لو كانت الولاية غير واجبة وهي مشتملة على ظلم، ومن تولوها أقام الظلم فتولوها شخص قصده بذلك تخفيف الظلم فيها ودفع أكثره باحتمال يسيره، كان ذلك حسناً مع هذه النية، وكان فعله لما يفعله من السيئة بنية دفع ما هو أشد منها جيداً.

سئل شيخ الإسلام رحمه الله (عند رجل متولّ ولايات ومقطع إقطاعات، وعليها من الكلف السلطانية ما جرت به العادة، وهو يختار أن يسقط الظلم كله، ويجتهد في ذلك بحسب ما قدر عليه، وهو يعلم أنه إن ترك ذلك وأقطعها غيره ووَلَّى غيره، فإن الظلم لا يترك منه شيء، بل ربما يزداد وهو يمكنه أن يخفف تلك المكوس التي في إقطاعه، فهل يجوز لمثل هذا بقاؤه على ولايته وإقطاعه؟ وقد عرفت نيته واجتهاده، وما رفعه من الظلم بحسب إمكانه، أم عليه أن يرفع يده عن هذه الولاية والإقطاع؟ وهل عليه إثم في هذا الفعل أم لا؟ وإذا لم يكن عليه إثم فهل يطالب على ذلك أم لا؟ وأي الأمرين خير له: أن يستمر مع اجتهاده في رفع الظلم وتقليله أم رفع يده مع بقاء الظلم وزيادة؟

وإذا كانت الرعية تختار بقاء يده لما لها من المنفعة به، ورفع ما رفعه من الظلم، فهل الأولى أن يبقى ويزداد برفع يده؟

فأجاب رحمه الله: الحمد لله، نعم إذا كان مجتهداً في العدل ورفع الظلم بحسب مكانه، وولايته خير وأصلح للمسلمين من ولاية غيره، واستيلاؤه على الإقطاع خير من استيلاء غيره، كما قد ذكر: فإنه يجوز له البقاء على الولاية والإقطاع، ولا إثم عليه في ذلك بل بقاؤه على ذلك أفضل من تركه إذا لم يشتغل إذا تركه بما هو أفضل منه.

وقد يكون ذلك عليه واجباً إذا لم يقدّر به غيره قادراً عليه، فنشر العدل بحسب الإمكان ورفع الظلم بحسب الإمكان - فرض على الكفاية - يقوم كل إنسان بما يقدر عليه من ذلك إذا لم يقدّر غيره في ذلك مقامه ولا يطالب والحالة هذه بما يعجز عنه من رفع الظلم.

وما يقرره المملوك من الوظائف التي لا يمكنه رفعها، وإذا كانوا هم ونوابهم يطلبون أموالاً لا يمكن دفعها إلا بإقرار بعض تلك الوظائف، وإذا لم يدفع إليهم أعطوا تلك الإقطاعات، والولاية لمن يقرر الظلم أو يزيده، ولا يخففه، كان أخذ تلك الوظائف ودفعها إليهم خيراً للمسلمين من إقرارها كلها، ومن صُرف من هذه إلى العدل والإحسان: فهو أقرب من غيره، ومن تناوله من هذا شيء أبعد عن العدل والإحسان من الظلم ويدفع شر الشرير بأخذ بعض ما يطلب منهم، فما لا يمكنه رفعه هو محسن إلى المسلمين غير ظالم لهم، يثاب ولا إثم عليه فيما يأخذه على ما ذكره، ولا ضمان عليه فيما أخذه، ولا إثم عليه في الدنيا والآخرة إذا كان مجتهداً في العدل والإحسان بحسب الإمكان. وهذا كوصي اليتيم وناظر الوقف والعامل في المضاربة والشريك، وغير هؤلاء ممن يتصرف لغيره بحكم الولاية أو الوكالة إذا كان لا يمكنه فعل مصلحتهم إلا بأداء بعض من أموالهم للقدار الظالم: فإنه محسن في ذلك غير مسيء، وذلك مثل ما يعطي هؤلاء المساكين وغيرهم في الطرقات، فلو كان لا يجوز لأحد أن يتصرف لغيره لزم من ذلك فساد العباد وفوات مصالحهم.

والذي ينهي عن ذلك - لئلا يقع ظلم قليل - لو قبل الناس منه، تضاعف الظلم والفساد عليهم، فهو بمنزلة من كانوا في طريق وخرج عليهم قطاع الطريق، فإن لم يرضوهم ببعض المال أخذوا أموالهم وقتلوهم، فمن قال لتلك القافلة: لا يحل لكم أن تعطوا لهؤلاء شيئاً من الأموال التي معكم للناس، فإنه يقصد بهذا حفظ ذلك القليل الذي ينهي عن دفعه، ولكن لو عملوا بما قال لهم ذهب القليل والكثير، وسلبوا مع ذلك، فهذا مما لا يشير به عاقل، فضلاً أن تأتي به الشرائع، فإن الله تعالى بعث الرسل لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان.

وهذا بمنزلة وصي اليتيم، وناظر الوقف الذي لا يمكنه إقامة مصلحتهم إلا بدفع ما يوصل من المظالم السلطانية وإذا رفع يده تولى من يجور ويزيد الظلم، فولايته جائزة، ولا إثم عليه فيما يدفعه، بل قد تجب عليه هذه الولاية. ثم يقول رحمه الله:

«والمجتهد من هؤلاء المقطعين كلهم في العدل والإحسان بحسب

الإمكان يجزيه الله على ما فعل من الخير ولا يعاقبه على ما عجز عنه، ولا يؤاخذ به بما يأخذ ويعرف إذا لم يمكن إلا ذلك: إذا كان ترك ذلك يوجب شراً أعظم منه...»<sup>(١)</sup>.

### سنة التدرج:

إن لله تعالى سنة من سننه في خلقه لا ينبغي لنا أن نغفلها وهي: سنة التدرج وكل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر، ضعيفاً ثم يقوى.

نرى هذه السنة في النبات والحيوان والإنسان.

فالإنسان لا يولد بالغاً عاقلاً بل يبدأ وليداً فرضيعاً، ففطيماً، فصبياً، فمراهقاً، فشاباً فكهالاً... الخ

وقبل ذلك يبدأ في بطن أمه نطفة، فعلقة، فمضغة، يكسوها الله لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر، تبارك الله أحسن الخالقين<sup>(٢)</sup>.

والشرع الحنيف قد راعى هذه السنة، فتدرج مع المكلفين في فرض الفرائض، كما تدرج معهم في تحريم المحرمات، رحمة بهم، وتيسيراً عليهم.

وقد لا يستطيع الإنسان رغم طموحه الوصول إلى أهدافه الكبيرة مرة واحدة، ولكنه قد يمكنه الوصول إلى شيء منها بعد شيء وفق قدراته وظروفه، فلا يرفض ذلك ولا يمنعه منه شرع ولا عرف ولا عقل، فقد اتفق العقلاء على أن ما لا يدرك كله لا يترك جله. الوصول إلى الحكم الإسلامي الكامل هدف كبير ولا ريب، يجب أن يكون نصب الأعين وملء القلوب، ولكن قد يتعسر الوصول إليه دفعة واحدة، فما المانع أن يصل إلى بعضه من يستطيع الوصول، ليعطي للناس الأسوة، ويضرب المثل ويحقق ما

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية ج ٣٠ ص ٣٥٦ - ٣٦٠.

(٢) انظر بتوسع في كتاب (فقه الدولة الإسلامية للعلامة د. يوسف القرضاوي) دار الشروق.

أمكنه من إقامة الحق، وإشاعة الخير، ونشر العدل، فيفتح الباب لغيره، ويرغب الناس في تشجيع مثله<sup>(١)</sup>.

### منهج القرآن الكريم في التدرج:

وردت في القرآن بعض الآيات الكريمة التي تدل على مشروعية التدرج في التشريع وهي قوله تعالى:

١ - ﴿فَأَنفِقُوا لِمَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: ١٦].

٢ - وقوله تعالى: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٣ - وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨].

٤ - وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى مَكَتُوبٍ عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(١) ملخص من كتاب «فقه الدولة في الإسلام»، د. يوسف القرضاوي ص ١٨٣ - دار الشروق. ط (١).

وهذه الآيات الكريمة تدل على التدرج في التشريع الأول، وتدل ثانياً على التدرج في العودة إلى التطبيق في كل وقت.

ونؤكد إلى ذلك بذكر بعض الآيات الأخرى:

١ - قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَهُم بِالنِّقَاطِ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال القرطبي: «هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة، فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين، وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار وروجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة<sup>(١)</sup>».

وقال القاسمي: «بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق الذي لا شبهة فيه والعبر اللطيفة. والطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وحسن الخطاب من غير عنف فإن ذلك أبلغ في تسكين لهم<sup>(٢)</sup>».

وأن الله تعالى حكيم يضع الأشياء في محلها وأمر بالحكمة في آيات

(١) تفسير القرطبي ج/ ص ٢٢٠ الجامع لأحكام القرآن - دار الكتاب العربي - القاهرة (١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧م).

- وتفسير الإمام ابن كثير ج/ ص ٥٧٢ - نشر دار الحديث - القاهرة - ط ٧ - ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- وتفسير الإمام القاسمي /محاسن التأويل ج (٦) / ص ٤٢٢- دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٢) (تفسير القاسمي) ج ٦/ ص ٤٢٢ - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.  
راجع كتاب التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية - أ.د. محمد مصطفى الزحيلي ص ٧٣ طبعة خاصة باللجنة الاستشارية العليا.

كثيرة وإن التدرج في التطبيق من لوازم الحكمة التي عرفها ابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى فقال:

(فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي وعلى الشكل الذي ينبغي)<sup>(١)</sup>.

ولا ينكر أحد أن التدرج في التطبيق من الحكمة التي يجب على الحكام مراعاتها، والعمل بموجبها.

٢ - قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال القرطبي: «أي قل يا محمد: هذه طريقتي وسنتي ومنهاجي . ودعوتي . . وديني أي الذي أنا عليه، وأدعو إليه، يؤدي إلى الجنة، «على بصيرة» أي على يقين وحق<sup>(٢)</sup> وإن العمل على تطبيق الشريعة ينبغي أن يكون على بصيرة من الأمر ودراية في أحواله.

٣ - قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قال أبو العالية: (مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفاً هو وأصحابه، يدعون إلى الله سراً وجهراً، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة. . . . وقال قوم: هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلها تحت كلمة الإسلام. . . واستخلافهم هو أن يمكنهم البلاد، ويجعلهم أهلها. . .) ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام<sup>(٣)</sup>.

(١) كتاب (مدراج السالكين) للإمام ابن قيم الجوزية ج ٢/ ص ٤٩٩ طبع دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٣م

(٢) (تفسير القرطبي) ج ٩/ ص ٢٧٩ - دار الكتاب العربي - القاهرة - (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) تصوير عن طبعة - دار الكتب المصرية.

(٣) «تفسير القرطبي» ج ١٢ ص ٣٠٠.



وهذا الاستخلاف والتمكين والتبديل للأمن لا يتم إلا بالتدرج في التطبيق شيئاً فشيئاً وهو ما حصل قديماً مع المسلمين أكثر من مرة ويحصل مع غيرهم أيضاً.

### منهج الرسول ﷺ في التدرج:

وردت أحاديث كثيرة تدل على سماحة الإسلام والتيسير فيه والسهولة المحمودة في أحكامه نذكر طرفاً منها:

١ - قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ دِينَ اللَّهِ يَسْرُ، وَلَنْ يُشَادَ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»<sup>(١)</sup>.

فأحكام الدين ميسرة، وتطبيقها يسير، والمنهج للعمل بها يسير وإن التشدد فيه يؤدي إلى عكس النتائج قال النووي رحمه الله: «إلا غلبه: أي الدين، وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه»<sup>(٢)</sup>.

٢ - عن عائشة رضي الله عنها قالت: (مَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا)<sup>(٣)</sup>.

فالتخيير بين أمرين من الأحكام والتكاليف والأعمال يقتضي اختيار الأسهل على الناس والمكلفين للأخذ بيدهم إلى الاستجابة وحسن التطبيق والالتزام.

(١) «صحيح الإمام البخاري» ج ١/ص ٢٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه - ترقيم د. مصطفى البغا - دار القلم - دمشق - ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٢) كتاب «نزهة المتقين شرح رياض الصالحين» للنووي ج ١/ص ١٦٨.

(٣) «صحيح الإمام البخاري» ج ٣/ص ١٣٠٦ - ترقيم د. مصطفى البغا - دار القلم - دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

«صحيح الإمام مسلم» ج ١٥/ص ١٠٩ بشرح الإمام النووي - المطبعة المصرية - القاهرة - ط ١ - ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.

وإلى مسند الإمام أحمد بن حنبل» ج ٦/ص ٨٥ ١١٣ - تصوير المكتب الإسلامي - بيروت - ط الثانية - ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٣ - قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغُلُوا بِهِ بِرْفِقٍ)<sup>(١)</sup>.

وهذا أمر للأفراد أن يسيروا بالدين برفق ويسر، وبدون تكلف وتشدد ومغالة تؤدي بهم إلى الانقطاع وترك العمل، ويكون ذلك بالنسبة للدولة والحكام وأولي الأمر بالأولى بأن يأخذوا الناس باللين والتدرج.

قال الغزالي: (أراد بهذا الحديث أن لا يكلف نفسه في أعماله الدينية ما يخالف العادة، بل يكون بتلطف وتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبدل، فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه الرديئة إلا شيئاً فشيئاً حتى تنفصم تلك الصفات المذمومة الراسخة فيه، ومن لم يدع التدرج، وتوغل دفعة واحدة ترقى إلى حالة تشق عليه فتعكس أموره، فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً، وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا ينفّر منه، وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق)<sup>(٢)</sup>.

٤ - روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه)<sup>(٣)</sup>.

فالأمر بأداء الأوامر والأعمال يكون حسب الاستطاعة مع بذل الوسع في ذلك وقال بعض أهل العلم:

يؤخذ منه أنّ النهي أشد من الأمر، لأن النهي لم يرخص في ارتكاب شيء منه والأمر قيد بحسب الاستطاعة وروي هذا عن الإمام أحمد رحمه الله، وقالت طائفة: لأن الامتثال للأمر لا يسهل إلا بعمل والعمل يتوقف وجوده على شروط وأسباب وبعضها قد لا يستطاع، ولذلك قيده

(١) «مسند الإمام أحمد بن حنبل» ج ٣/ ص ١٩٩ تصوير المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٢ - ١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) كتاب «فيض القدير» شرح الجامع الصغير للإمام محمد المناوي ج ٢/ ص ٥٤٤ تصوير دار المعرفة - بيروت - راجع كتاب «التدرج».

(٣) «صحيح البخاري» ج ٦/ ٢٦٥٨ ترقيم د. مصطفى البغا - دار القلم - دمشق - ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م وإلى «صحيح مسلم» ج ٥/ ١٠٩ بشرح النووي - المطبعة المصرية - القاهرة - ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٩م.

بالاستطاعة، كما قيد الأمر بالتقوى بالاستطاعة، قال الله عز وجل: ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وتأكد ذلك بما رواه ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (استقيموا ولن تحصوا)<sup>(١)</sup>.

يعنى لن تقدرُوا على الاستقامة كلها<sup>(٢)</sup>.

٥ - عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (لولا أن قومك حديثو عهدٍ بجاهليةٍ لأمرت بالبيتِ فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم)<sup>(٣)</sup>.

وهذا من أصرح الأدلة على التدرج في التطبيق لأن النبي ﷺ ترك هذا الأمر الذي يراه الأفضل دفعا للمفسدة التي قد تقع من المسلمين لقرب عهدهم بالإسلام، وتأثرهم بما ألقوه في بناء البيت، فيكون التغير مُنفراً لهم، ومفسدة في دينهم، فدرء المفسدة مقدم على تحقيق المصلحة<sup>(٤)</sup>.

ومن تتبع الأحاديث الشريفة وهدى رسول الله ﷺ يتأكد من مشروعية التدرج في التطبيق ويدرك مسوغاته كاملة.

### عمل الخلفاء في التدرج في التطبيق:

حرص الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم على تطبيق الشريعة كاملة كما عمل سائر الخلفاء على الالتزام بشرع الله، ولكن الظروف والأحوال لم

(١) «مسند الإمام أحمد بن حنبل» ج ٥/ص ٢٧٧، ٢٨٢) تصوير المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٢.

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي - تحقيق د. محمد الأحمد أبو النور - دار السلام - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٨ م.

(٣) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر ج ١/ص ٣٢٤ نشر دار المعرفة - بيروت - إشراف العلامة عبدالعزيز ابن باز رحمه الله - ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

(٤) كتاب «التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية» الدكتور محمد عبدالغفار الشريف - نشر إدارة البحوث والدراسات في اللجنة الاستشارية العليا على استكمال تطبيق الشريعة الإسلامية - سلسلة تهيئة الأجواء ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م ص ٥٧.

تكن على وتيرة واحدة ولم تقتصر على الحالة التي كانت في العهد النبوي فاقترضت الحكمة والفهم العميق للدين على تطبيق الأحكام بصورة تتفق مع العصر والأحداث، ونقتصر ذكر مثالين من الخلفاء يدل على عملهما على أخذ التدرج في التطبيق يعين الاعتبار.

#### ١ - منهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

إن تطبيق الأحكام الشرعية يتوقف على وجود أسبابها وتوفر شروطها وانتفاء موانعها وحدثت في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقائع غريبة دفعته إلى الاجتهاد في تطبيق بعض الأحكام فيها ونذكر ثلاثة منها:

أ - منع عمر رضي الله عنه تقسيم الأراضي المفتوحة على المجاهدين الفاتحين الذين طالبوا بتقسيمها حسب ظواهر النصوص في القرآن والسنة في تقسيم الغنائم، وخشي انشغال المجاهدين بزراعة الأرض والعمل بها عن مثابرة الجهاد، وأدرك أن هذه الأراضي تتعلق بها حقوق المسلمين عامة، حاضرهم وآتيهم في المستقبل، فإذا تملكها الفاتحون حرمت الأجيال الآتية منها مع ثبوت حقهم أيضاً فيها بالنص الذي احتج به عمر في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠].

فقرر ترك الأرض في يد أهلها وفرض عليهم ضريبة الخراج، وهذا أصلح لإحيائها وأعم وأدوم لنفعها سائر المسلمين بها، وفتح عمر رضي الله عنه باباً جديداً لتطبيق أحكام الفئ والغنيمة والخراج، وخالفه بعض الصحابة، ثم وافقوه على ذلك وأجمعوا على رأيه<sup>(١)</sup>.

(١) «المدخل في تطبيق الشريعة الإسلامية» للدكتور عبدالغفار الشريف ص ٥٩ - نشر إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية - سلسلة تهيئة الأجواء - ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

- وإلى «تفسير ابن كثير» ٣٣٧/٤، ٣٣٩ - نشر دار الحديث - القاهرة - ط ٧ - ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

- و «تفسير القرطبي» الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٣ - دار الكاتب العربي - القاهرة - ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م

- و «تفسير القاسمي» ٩/١٨٩ - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١-١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ب - منع عمر رضي الله عنه المؤلفه قلوبهم من سهم الزكاة لأنه وجد أن الغاية قد فقدت في زمنه بدفع الزكاة لهم، لأن دين الله تعالى ظهر والأمر قد استقر، ولم يجد في عصره من يستحق التأليف في نظره ولم يبق دور للمؤلفة قلوبهم الذين كانوا يأخذون هذا السهم عندما كان الإسلام ضعيفاً وأراد أن يؤلفهم، فلما قويت دولة الإسلام زال السبب إلى إعطائهم ولم يبق للإسلام حاجة في تأييدهم، بل صاروا على العكس في حاجة إلى الاعتزاز به، وبذلك فقد تغيرت الحاجة والمصلحة، وفقد السبب، فتغير الحكم لفقدان سببه أو توفر شرطه<sup>(١)</sup>.

ج - وقف عمر رضي الله عنه تنفيذ حدّ السرقة في عام المجاعة، المسمى عام الرمادة، واكتفي بتعزير السارق، كما منع تطبيق الحد على العبيد الذين سرقوا بسبب الجوع نتيجة لبخل سيدهم وتجويعهم، واعتبر ذلك شبهة تدرأ الحد لقوله ﷺ: (ادْرؤُوا الحدودَ بالشبهات)<sup>(٢)</sup>.

ويؤيد ذلك ما ثبت في السنة أن صاحب بستان جاء بسارق سرق شيئاً من سنابل القمح من بستانه، وطلب منه النبي ﷺ أن يقطع يده وبعد التحقيق عرف النبي ﷺ أن الذي دفعه للسرقة إنما هو الجوع، فالتفت رسول الله ﷺ إلى صاحب البستان، وقال موبخاً له: (ما علمته إذ كان جاهلاً، ولا أطعمته إذ كان جائعاً، أردد عليه كساءه)<sup>(٣)</sup>. فكان عمر رضي الله عنه يجتهد في تطبيق شروط العقوبة وانتفاء موانعها<sup>(٤)</sup>.

وهكذا يظهر أن الإمام يبحث عن أسباب الأحكام فإن وجدت رتب

(١) «المدخل الفقهي العام» ١٦١/١ للشيخ مصطفى الزرقاء - (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) دار الفكر - دمشق.

(٢) الحديث «جامع الإمام الترمذي» ٦٨٨/٤ بشرح تحفة الأحوذى للمبار كفوري - مطبعة المدني - القاهرة - ط ٢ ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م - رواه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً.

(٣) الحديث «سنن الإمام أبي داود السجستاني» ٢٦٥/٣.

(٤) «المدخل الفقهي العام» للشيخ مصطفى الزرقاء ١٦١/١ - دار الفكر - دمشق - (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

الحكم عليها وإلا منع تطبيق الحكم فإن وجد المانع انتفى الحكم، وهذا مطلوب من كل حاكم وخليفة وإمام للمسلمين فيجتهد في التدرج في تطبيق الأحكام بحسب ما يراه من مصلحة الأمة، لأنه موظف لحفظ الدين والدنيا وتصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

## ٢ - منهج عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى:

ولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة سنة ٩٩هـ وقد وقع قبله كثير من الأخطاء والانحراف والظلمات والابتعاد عن شرع الله وأحكامه، فأراد عمر رحمه الله أن يصلح الأمور ويعيد تطبيق الأحكام الشرعية كاملة واتخذ مبدأ التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية منهجاً له، ولذلك يصلح منهجه في ذلك أن يكون مثالا ومثلاً مباشراً لعصرنا الحاضر.

وسار عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى على هذا المنهج في الإصلاح وصرح به فقال: (لو أقمت فيكم خمسين عاما ما استكملت فيكم العدل، إني لأريد الأمر وأخاف أن لا تحمله قلوبكم، فأخرج معه طمعا من الدنيا، فإن أنكرت قلوبكم هذا سكنت إلى هذا)<sup>(١)</sup>.

فيرى عمر بن عبدالعزيز أنه يحتاج إلى مدة طويلة لإعادة الأمور إلى مجاريها، وإقامة العدل الذي يطلبه الشرع. وأنه يسعى لذلك شيئا فشيئا حتى ولو تسامح مع الناس في المباحات.

وتوسع معهم فيها حتى يستدرجهم إلى التزام الأوامر والطاعات، وترك المناهي والمحرمات ويقول: (ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئا)<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى على منهجه في حوارهِ مع ابنه

(١) كتاب «التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية» ص ٤٥ د. محمد عبدالغفار الشريف عن كتاب «تاريخ الخلفاء» للإمام السيوطي ص ٢١٨.

(٢) كتاب «التدرج في تطبيق الشريعة» د. محمد عبدالغفار الشريف - ص ٤٥ عن كتاب «حلية الأولياء» للإمام ابن نعيم الأصفهاني ٢٩٠/٥.

عبدالملك وكان شاباً تقياً ورعاً متحمساً، ويرغب من والده أن يسرع في الإصلاح ويقيم الحق والعدل دفعة واحدة مهما كانت النتائج والعواقب فيقول لأبيه: (يا أبت ما لك لا تنفذ الأمور؟ واللّه ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق) فيجابه والده بحكمة ويرشده إلى المنهج الإلهي في التغيير والإصلاح فيقول له: لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدعونه جملة، ويكون من ذلك فتنة<sup>(١)</sup>. فالخليفة الراشد يريد أن يعالج الأمور بحكمة وتدرج على هدي القرآن الكريم في تحريم الخمر وذلك جرعة جرعة ليمضى بهم إلى الغاية المنشودة خطوة خطوة<sup>(٢)</sup>. ويعود الحماس مرة ثانية إلى الولد البار المتقد إيماناً ويعاود سؤال أبيه فيقول: (يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك، فقال: رأيت بدعة فلم تمتها، وسنة فلم تحيها؟) فيسر الوالد الخليفة بابنه ويدعو له بخير ويذكره بالمنهج القديم في الإصلاح وهو التدرج في التطبيق والعمل بتؤدة شيئاً فشيئاً دون كلل ولا ملل، فيقول له: (رَحِمَكَ اللَّهُ)، وجزاك من ولد خيرا واللّه لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة ومتى أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقا تكثر فيه الدماء، واللّه لزوال الدنيا أهون على من أن يراق في سببي محجمة من دم ثم قرر المبدأ والمنهج الذي يسير عليه فقال: (أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيي فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين)<sup>(٣)</sup>.

(١) كتاب «التدرج في تطبيق الشريعة» د. محمد عبدالغفار الشريف - ص ٤٧ نشر إدارة البحوث والدراسات في اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق الشريعة الإسلامية - سلسلة تهيئة الأجواء - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م عن كتاب «العقد الفريد» ١/١٤.

(٢) كتاب «في فقه الأولويات» د. يوسف القرضاوي - نشر مكتبة وهبة - القاهرة - ط١ - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ص ٩٣.

(٣) كتاب «التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية» ص ٤٦ د. عبدالغفار الشريف عن كتاب «حلية الأولياء» ٢٨٢/٥ وكتاب «صفة الصفوة» لابن الجوزي ١٢٨/٢.

وفي مقابلة ثانية، وحوار آخر بين عبدالملك وأبيه، يعلن الخليفة الراشد منهجه في الإصلاح، ويرشد ابنه إلى منهج القرآن في التدرج والحكمة في تطبيق الأحكام على الوقائع فيقول له: (يا بني، إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلغني، إني إن أتعبت نفسي وأعواني لم يكن ذلك إلا قليلا حتى أسقط ويسقطوا وأني أحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي، وإن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزك القرآن جملة واحدة لأنزله ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى استكمل الإيمان في قلوبهم، ثم قال: يا بني، ما أنا فيه أمر هو أهم إليّ من أهل بيتك، هم أهل العدة والعدد، وقبّلهم ما قبّلهم فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي، ولكنني أنصف الرجل والرجلين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له، فإن يرد الله إتمام هذا الأمر أتمه، وإن تكن الأخرى فحسب عبد أن يعلم أنه يحب أن ينصف جميع رعيته)<sup>(١)</sup>.

فالخليفة الراشد يعلم الهدف والغاية ويحب الوصول إليها ولكنه يحذر من الطفرة في العمل والفجأة في التغيير ويستفيد من التجارب ويلتزم التدرج في التغيير لتطبيق الحق والعدل، مرحلة فمرحلة حتى يتم الله الأمر ولذلك اعتبر خامس الخلفاء الراشدين، وأصبح مثلاً سامياً لكل من يريد الإصلاح بعد الفساد، وتطبيق الشريعة بعد التكرار لها، أو التنكب عنها، أو الإعراض عن الالتزام بها.

وهذا المنهج في التدرج لإعادة تطبيق الشريعة هو ما سار عليه كثير من الخلفاء والسلاطين والولاة في الدولة الإسلامية سواء كان ذلك من خلفاء بني العباس كالمنصور والرشيد والمقتدر بالله، أم من خلفاء الدولة الأموية في الأندلس، أو غيرهم كالسلطان نور الدين الزنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وهو ما يراه بعض الحكماء المسلمين في عصرنا الحاضر الذين يتجهون صوب الشريعة لتطبيقها وإعادتها إلى الحياة في بلاد المسلمين<sup>(٢)</sup>.

(١) كتاب التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية د. عبدالغفار الشريف ص ٤٨ عن سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ١٠٦.

(٢) «التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية» أ. د. مصطفى الزحيلي ص ٧٣ ص ٨٤.



## المعقول:

إن منهج التدرج في التطبيق منهج منطقي وعقلي وتقتضيه الحكمة ويدعو إليه المفكرون والمصلحون والحكماء ويتفق مع الطباع السليمة ويظهر ذلك في النقاط التالية:

### ١ - التدرج سنة في الكون:

إن التدرج في الحياة عامة - (كما سبقت الإشارة إليه في المقدمة) هذا من كلام الباحث - سنة من سنن الله عز وجل في الكون وأن الله تعالى أقام الأسباب ورتب عليها المسببات والأحكام وأن بعضها يتدرج إثر بعض، ويعتمد وجود بعضها على وجود الآخر، وأن المقدمات تسبق النتائج لتكون الأمور منطقية وعقلية، ليتدرب الناس على هذا المنهج الإلهي في الكون، ويقتفون خطاه في الحياة، فالمسبب لا بد له من سبب والنتيجة لا تتحقق بدون مقدماتها وإذا عدم السبب عدم المسبب، وإذا فقدت المقدمة انعدمت النتيجة.

فالإنسان يزرع ليحصد، ويتزوج لينجب ويستمر النسل، والمطر ينزل ليخرج النبات والرياح تجري لتلقح الأشجار ويتشكل السحاب ليخرج الودق من خلاله ويهطل على الأرض، وهذا يؤكد وجوب التدرج والتتابع في الأعمال لتحقيق الوصول إلى الغابات.

### ٢ - فعل الممكن:

إن المسلمين عامة، والحاكم منهم خاصة لا يُكَلَّفُ شرعاً إلا بما يمكنه، وهذا الإمكان متتابع ويتم مع الزمن وليس له قدرة خارقة ليكون عمله (كن فيكون) بل يجتهد ويسعى للوصول إلى هدفه بحسب إمكانه.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فالواجب على المسلم أن يجتهد وسعه فمن ولي ولاية يقصد بها طاعة الله وإقامة ما يمكنه من دينه ومصالح المسلمين، وأقام فيها ما يمكنه من ترك المحرمات، لم يؤاخذ بها يعجز عنه، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار).

### ٣ - التطبيق الجزئي سبيل للتطبيق الكلي :

إن التدرج في التطبيق يعني إقامة الشرع جزءاً فجزءاً، فإذا حانت الفرصة واستكملت عناصر جانب من الشرع فيجب تطبيقه والعمل به، ولا يجوز تأجيله وتأخيرته لاستكمال جميع الجوانب التي لا ترتبط به ارتباطاً مباشراً.

يقول الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله تعالى عن العقوبات الشرعية مثلاً: (فإذا لوحظ أن تطبيق عقوبة الحدود الأربعة أصبح متعذراً في زمان أو مكان، فمن الممكن تطبيق عقوبة أخرى، ولا يوجب هذا ترك الشريعة أجمع)<sup>(١)</sup>.

### ٤ - مراعاة الواقع :

إن واقع المسلمين اليوم يختلط فيه الحلال مع الحرام وتعدد فيه القوانين والأنظمة المختلطة من الشريعة الإسلامية، ومن غيرها وإن المجتمع اليوم لا يمكن تسميته مجتمعاً إسلامياً، وبالتالي فلا يمكن تطبيق الأحكام الشرعية عليه دفعة واحدة ولا بد من التدرج والروية.

يقول الدكتور عجيل النشمي: (وإذا كان من المستحيل أن يطبق هذا النظام على مجتمع لا يدين بالإسلام فإنه من العسير تحقيق أحكام هذا القانون في مجتمع إسلامي تكدرت فيه بعض المشارب الأسرية والاجتماعية وبعدت عنه في بعض النواحي، فلا بد من إزالة هذا الكدر، وتقريب هذا البعد حتى يزاوِل التشريع الإسلامي مهمته)<sup>(٢)</sup>.

وإن كثيراً من المسلمين: أفراداً وجماعات يتفاوتون في معرفة الشرع والتمسك بأحكامه وكثير منهم لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، وبعضهم يقتصر على العبادات، وبعضهم يلتزم بمجرد الأخلاق، وأغلبهم لا يطبق أحكام الشرع فكانت الحكمة والمنطق والعقل يفرض وضع الجداول الزمنية لتطبيق الشريعة للأخذ بيد هؤلاء نحو التطبيق خطوة خطوة<sup>(٣)</sup>.

(١) كتاب «المدخل الفقهي العام» ج ١/ص ٥١ للشيخ مصطفى الزرقا - دار الفكر - دمشق.

(٢) كتاب «التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية» د. عجيل النشمي/ص ١.

(٣) كتاب «التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية» أ. د. محمد مصطفى الزحيلي من ص ٧٣ إلى ص ٨٧ بتصرف يسير.

## الفصل الأول:

# مراحل تطور الدولة الإسلامية

- المبحث الأول: ملامح الدولة الإسلامية في زمن النبوة.
- المبحث الثاني: الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين.
- المبحث الثالث: الدولة الإسلامية في عهد الأسر المالكة.
- خلاصة الفصل.





## المبحث الأول،

## ملامح الدولة الإسلامية في زمن النبوة

## ١ - الإفادة من المحيط :

لقد أفاد رسول الله ﷺ من قيم العرب في مكة المكرمة، من حيث كراهيتهم للظلم وأهله وانتصارهم للمظلوم ومن حيث العادات والتقاليد مثل الإجارة والتحالف فما إن فكر أبو طالب بما طالبه به وجهاء قريش الذين هددوه بمنازلة محمد، أو محمد وأبي طالب معاً إذا تعذر كفه عنهم، أو السماح لهم بالتفرد به، وظن محمد ﷺ أن عمه خاذله فوقف وقال: «يا عماء لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه ثم بكى رسول الله ﷺ وقام» عندها رق قلب عمه أبي طالب وناداه حتى أقبل عليه وقال له «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً».

وبعد مفاوضة جديدة بين وجهاء قريش وأبي طالب، حيث عرضوا عليه بأن يأخذ فتى من أجمل فتيان قريش ويتخلى عن محمد ﷺ، فأجابهم «أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكُم ابني تقتلونه؟».

عندها قامت كل قبيلة تعذب من أسلم من أبنائها، بينما قام أبو طالب بدعوة بنى هاشم إلى حماية محمد ﷺ ففعلوا، وهم على شركهم وما شذ إلا أبو لهب<sup>(١)</sup>.

(١) يراجع ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢م ص ٦٤ - ٦٥.

لقد أفاد محمد ﷺ من شرعة القبيلة، وأمن لنفسه حماية أعطته حرية الدعوة وتبليغ رسالة ربه، تحت حراسة سيوف المشركين من بنى هاشم، وكان هذا حظ كل المسلمين الذين ينتمون إلى عشائر قوية بينما كان مصير الذين ليست لهم عشائر تحميهم الحبس والتعذيب بالضرب والجوع والعطش في رمضاء مكة، كي يفتنوا عن دينهم.

وقصص التعذيب معروفة ويتم التداول في شأنها في كل مناسبة<sup>(١)</sup> لكن ما يمكن توظيفه في هذا المجال هو أن التعذيب جعل العطف على المسلمين شديدا فقام أبو بكر بإعتاق بلال بن رباح الحبشي وهذه بادرة غرست الأمل في نفوس كل المستضعفين والمسترقين، وما حصل لأسرة ياسر التي نالت حظا عظيما من التعذيب واستشهدت زوجته أم عمار نتيجة لطعنة أصابتها من أبي جهل في موقع عفتها، كل ذلك ترك بالغ الأسى في نفوس كل من شهد أو سمع بما حصل، وأما خباب بن الارت رضي الله عنه، فقد عذب عذاباً شديداً، وكذا صهيب بن سنان الرومي الذي كلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن يصلي بالناس غداة انعقاد مجلس الشورى لاختيار خليفة من بعده، لقد افتدى نفسه بكل ما يملك مقابل السماح له بالهجرة واللاحاق برسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة<sup>(٢)</sup>.

لقد كانت نتيجة تحمل الأذى أن تربي المسلمون الجدد على الصبر والطاعة، وفي الجهة المقابلة أخذت قلوب المشركين تتحرر من الخوف ومن العبودية لأصنام لا تضر ولا تنفع.

## ٢ - الإفادة من النظام الأمني الموجود «الأشهر الحرم - الجوار»:

كانت الجزيرة العربية تعرف نظاماً أمنياً قد يتعذر وجود مثيل له في عصرنا الحاضر، فمن عاداتها أن يأمن الناس على حياتهم في:

أولاً: الأشهر الحرم، ثانياً: الإجارة:

ففي الأشهر الحرم يتوقف القتال ويتهادن المتقاتلون وتضع الحرب

(١) نفس المرجع ص ٦٦ - وما بعدها.

(٢) راجع ابن الأثير المرجع السابق ص ٦٦ وما بعدها.

أوزارها بين جميع القبائل في تلك الأشهر، ويتم تناسي الأحقاد والضغائن، ولا تراق الدماء، ولا تنتهك الحرمات «فيقابل الأصدقاء والأعداء لا يذكر أحدهم للآخر في تلك الفترة من السلم ضغنا أو موجدة...».

وكان العرب يجتمعون في أوقات معينة وأماكن معروفة للقيام ببعض النسك والشعائر الدينية<sup>(١)</sup>.

وأما الجوار: فهو أن يدخل أحد في حماية الآخر من أهل البلد، كما فعل بعض الذين عادوا من الحبشة فدخل عثمان في جوار أبي أحيحة سعيد بن العاصي بن أمية، ودخل حذيفة بن عتبة بجوار أبيه.

ولما عاد رسول الله ﷺ من الطائف وحيداً لا سند له، وكان عمه أبو طالب قد مات، أرسل لعدد من القرشيين كي يجيروه ليدخل مكة فأبوا إلا المطعم بن عدي الذي دخل مكة مع رسول الله ﷺ ومعه بنوه الستة أو السبعة وهم يتقلدون سيوفهم، وبعد دخولهم المسجد قال المطعم «وهو مشرك» لرسول الله: طف، وهم يمسكون بسيوفهم، فأقبل أبو سفيان وقال لمطعم: أمجير أم تابع؟ قال: لا، بل مجير، قال: إذا لا تخفر.

ومات مطعم بعد الهجرة، وقال عنه رسول الله ﷺ يوم بدر: «لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيِّ حَيًّا ثُمَّ سَأَلَنِي فِي هَؤُلَاءِ النُّبَاءِ لَوَهَبْتُ لَهُ»<sup>(٢)</sup>.

وبقي رسول الله ﷺ في منعة من قريش بسبب إجارة المطعم بن عدي له حتى هاجر.

### ٣ - الإفادة من المصاهرة:

تزوج رسول الله ﷺ من خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي بنت أربعين سنة<sup>(٣)</sup>، ولقد خدم ذلك الزواج الدعوة الإسلامية التي مولتها

(١) انظر حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام دار النهضة المصرية، ط ٧، ١٩٦٤ - ص ٦٩ -

٨٦، والأشهر الحرم هي «ذو القعدة - ذو الحجة - المحرم وشهر رجب».

(٢) انظر ابن كثير البداية والنهاية المرجع السابق ج ٣ - م ٣ ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٣) الطبري - تاريخ الأمم والملوك، م ١ ج ٢ ص ١٦٩.

خديجة بمالها وبجاهها، وبما قدمته من نصح لرسول الله ﷺ، ويكفي أن يذكر ذلك غداة نزول الوحي عليه، ولقد ماتت خديجة رضي الله تعالى عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات مستبقة أبا طالب بخمسة وثلاثين يوماً، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بعدها إلا وهو في الثالثة والخمسين من عمره<sup>(١)</sup> وعائشة رضي الله تعالى عنها هي البكر الوحيدة، ثم توزع زواجه على نساء من قبائل مختلفة ولظروف مختلفة وكلها في فترة منتصف الخمسينيات من عمره وحتى وفاته ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

إن ذلك الزواج أكسب الدولة الإسلامية الفتية درعاً واقية من خلال الروابط التي أقامها من بني خويلد، وبني تيم ومع بني عبدشمس، وبني أسد، وبني أمية، وبني عدي، ومع أبي سفيان بن حرب وبني خزاعة وبني المصطلق ويهود، وقبيلة عامر بن صعصعة وليس بالإمكان أن يفسر ذلك ألا جرياً على عادات ذلك الزمان حيث للمصاهرة دورها في شد أواصر القربى وتمتين الروابط<sup>(٢)</sup>.

#### ٤ - حلف الفضول واستمرار الوفاء به حتى بعد الإسلام:

لقد ترك الرسول ﷺ للمسلمين حرية الوفاء بالعهود السابقة على الإسلام، ومنها حلف الفضول الذي قال عنه: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ جَدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحْبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أَدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ».

وبنود ذلك الحلف الذي تم التعاهد بموجبه بين قبائل قريش تلزم كل الأطراف بالعمل على رفع الظلم «فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير م ٢٢ ص ٩٠ - ٩١: انظر: بنت الشاطيء، نساء النبي دار الكتاب بيروت/ ١٩٦٧ - ص ٧٦.

(٢) انظر سيرة ابن هشام، م ٤ - ص ٢٩٣ - ٢٩٨.



على من ظلمه، حتى ترد عليه مظلّمته» ولقد حدث هذا الحلف قبل بعثة الرسول ﷺ وفيه قال عمرو بن عوف الجرهمي:

إِنَّ الْفُضُولَ تَحَالَفُوا وَتَعَاقَدُوا      أَلَّا يُقَرَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ ظَالِمٌ  
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاهَدُوا وَتَوَاتَقُوا      فَأَلْجَأُوا وَالْمُعْتَرُ فِيهِمْ سَالِمٌ

واستمر سريان الحلف حتى إن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما هدد والي معاوية على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بالدعوة إليه كي يأخذ حقه منه، قال الحسين: «أقسم بالله لتنصفني أو لأخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول، فقال عبدالله بن الزبير: وأنا أحلف بالله لو دعا به لأجبتة حتى ينصف من حقه أو نموت»<sup>(١)</sup>.

## ٥ - التوجه إلى أرض تحكم بالعدل:

إن من طبيعة العرب كما ذكر من قبل الانتصار للمظلوم، وعملية ترك الديار والهجرة إلى بلاد أخرى هي مما يؤثر في نفوسهم أيضاً، وإزاء واقع الذين لا منعة لهم من قبيلة أو إجارة، فقد أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة، فقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق - حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه<sup>(٢)</sup>.

### ◆ ولهذه الهجرة أكثر من بعد:

- البعد الأول: هو نشر الرسالة إلى أبعد من مكة وأبعد من الجزيرة العربية.

- البعد الثاني: هو إمكانية طلب الأمن والحماية مع البقاء على العقيدة في أية أرض يحل فيها العدل والصدق.

(١) انظر ابن الأثير في التاريخ، ص ٤١ - ٤٢ انظر سيرة ابن هشام ١ ص ١٤٠ وما بعدها.  
(٢) انظر: الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت ط ٥ سنة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م، ج ٣ ص ٦٦ انظر، ابن الأثير المرجع السابق م ٢ ص ٧٦ - انظر، ابن هشام السيرة م ١ ص ٣٤٤.

- البعد الثالث: تجلّى بطرح قضية المسلمين في مكة وما تمارسه السلطة في قريش من اضطهاد وتنكيل.

والحوار الذي دار بين وفد قريش الذي أرسلته لاستعادة المهاجرين المسلمين الذين قادهم جعفر بن أبي طالب وبين النجاشي في حضور بطارقه أحدث واقعاً جديداً في الحبشة، حتى قال النجاشي أمام حشد من البطارقة الذين شهدوا معه هذا الحوار بعدما أخذ عوداً من الأرض: «ما عدا عيسى هذا العود» وقال للمسلمين: «اذهبوا فأنتم آمنون، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنني آذيت رجلاً منكم».

ورد هدية قريش وقال: ما أخذ الله الرشوة مني حتى أخذها منكم، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه<sup>(١)</sup> وبلغ عدد الجالية المسلمة التي هاجرت إلى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً ما عدا الأبناء والزوجات، ولما مات النجاشي في رجب سنة تسع للهجرة، نعاه رسول الله ﷺ إلى الناس في اليوم الذي مات فيه، وصلى عليه بالقيع، ولما احتج بعض المنافقين نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾<sup>(٢)</sup> [آل عمران: ١٩٩].

وكان من أهم نتائج هذه الهجرة كسر حدة الصراع مع أهل الكتاب وخاصة من النصارى مع ما في ذلك من تشجيع لليهود كي يخففوا من عدائهم لدعوة محمد ﷺ.

## ٦ - الإفادة من علم المشركين:

لقد جعل رسول الله ﷺ مفاداة الأسير أن يعلم عدداً من أولاد المسلمين كما حصل يوم بدر «روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -

(١) انظر ابن الأثير المرجع السابق م ٢ ص ٨١.

(٢) انظر ابن هاشم السيرة، م ١٠ ابن كثير تحقيق محمد الصابوني دار القرآن الكريم بيروت ط

٧- ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ - م ١ ص ٣٥٠.

قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ، فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة<sup>(١)</sup>.

## ٧ - العهد مع يهود المدينة:

إن أول لائحة تصدر عن سلطة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة إنما كانت منظمة للعلاقة بين المهاجرين والأنصار من جهة وبينهم وبين اليهود في المدينة المنورة من جهة أخرى، لقد «وَادَعَ فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ يَهُودًا وَعَاهَدَهُمْ، وَأَقْرَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَشَرَطَ لَهُمْ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فَلِحَقِّ بِهِمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ.. وَأَنْ لَا يَحَالِفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ، وَإِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً «عَظِيمَةً» ظَلَمَ أَوْ إِثْمَ، أَوْ عَدْوَانَ، أَوْ فَسَادَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدٌ أَحَدِهِمْ.. يَجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَإِنْ الْمُؤْمِنِينَ، بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونِ النَّاسِ.. وَإِنَّهُ لَا يَجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ وَلَا نَفْسًا.. وَإِنْ الْيَهُودُ يَنْفَقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا غَيْرَ مُحَارِبِينَ، وَإِنْ يَهُودُ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ..» وبعد ذكر كل قبائل يهود، قال: «.. وَإِنْ بَطَانَةُ يَهُودٍ كَأَنْفُسِهِمْ..» وإنه بين المسلمين واليهود: «النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة» وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا غير محاربين.. وإن الجار كالنفس غير مضار ولا إثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها..» واشترط الرسول ﷺ على اليهود بأنه: «لا تجار قریش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب» وانتهى الكتاب بأنه «لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وإثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم.

(١) الحديث رواه أحمد. نقلًا عن نيل الأوطار: لمحمد بن علي الشوكاني مطبعة مصطفى الحلبي الطبعة الأخيرة ص ٧ - ٣٤٨ - انظر إسماعيل أبو شريفة المرجع السابق ص ٥٢٦.

«وإن الله جار لمن بر واتقى»

وهكذا يكون رسول الله ﷺ قد أصدر دستوراً للعلاقة بين أهل يثرب من مسلمين، مهاجرين وأنصار، ويهود، ولأول مرة تعرف الجزيرة العربية مثل هذا النمط من العلاقات المنظمة والمكتوبة بشكل مفصل.

## ٨ - الإفادة من الشعائر والعادات:

غداة عسكرة الجيش الإسلامي في الحديبية، أرادت قريش أن توقعهم في بأس قوة يحسب لها، وهي قبيلة الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فأرسلت سيدها وهو الحليس إلى رسول الله ﷺ، بعدها قابل عددا من موفدى قريش ومنهم وفد خزاعة الذى عاد وقال لقريش بأن محمداً لم يأت مقاتلاً وإنما جاء زائراً للبيت، ولما وصل الحليس ورآه رسول الله ﷺ قال لقومه من المسلمين: الله إن هذا من قوم يتألهون «يعظمون أمر الإله»، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه» ولما رأى ذلك الحليس «رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى» ثم عاد إلى قريش وكلمهم بما رأى فلما قالوا له إنك أعرابي لا علم لك، غضب وقال: «يا معشر قريش»، والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له! والذي نفس الحليس بيده، لَتُخْلَنَ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له: كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به<sup>(١)</sup>.

## ٩ - الرسول ﷺ يحرك مشاعر الكرم في نفس عدي بن حاتم الطائي:

لقد كان عدي بن حاتم الطائي كما أخبر عن نفسه نصرانياً، ومن أشد الناس كراهية للرسول ﷺ، وكان ملكاً في قومه، لما علم بقدوم خيل المسلمين فر إلى بلاد الشام لكن أخته وقعت في الأسر، وكانت من بين سبايا طيء، وبينما رسول الله ﷺ يمر، إذا بها تقف وتقول «يا رسول الله،

(١) راجع سيرة ابن هشام، ٣م - ص ٣٢٦.

هلك الوالد وغاب الوافد «الزائر»، فامنن علي من الله عليك» ولما علم بأن وافدها هو عدي بن حاتم الطائي قال لها «الفار من الله ورسوله؟» وبعد يومين من عليها رسول الله ﷺ، ولما وجدت قافلة تطمئن إليها خبرت الرسول بذلك، كساها وأعطاهما مالا ونوقاً، وخرجت مع القافلة حتى وصلت دمشق.

ولما قابلت عديا وكان قد وصله خبر إكرام الرسول ﷺ لأخته وسألها وأجابته، بعد أن أثبتت لتركه إياها وهربه بماله وعياله «أرى والله أن تلحق به سريعاً» فإن كان نبياً فعليك اتباعه وإن كان ملكاً فلا يذل عنده أحد<sup>(١)</sup>.

هكذا استطاع رسول الله ﷺ أن يعيد عدي بن حاتم الطائي من دمشق إلى المدينة المنورة عبر رسالة بعثها إليه، خالجت مشاعره وأثارت شجونه «الكرم».....

## ١٠ - التحالف مع المشركين:

لقد كان من بنود اتفاق صلح الحديبية أنه «من أحب أن يدخل في عهد رسول الله دخل. ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل»، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش<sup>(٢)</sup>، وكما هو معلوم فإن علاقة خزاعة مع رسول الله ﷺ كانت سابقة، ولقد قام أحد أبناء هذه القبيلة بدور عظيم جدا عندما خوف أبا سفيان من جيش رسول الله غداة يوم أحد، حيث إن الرسول ﷺ كان قد أمر كل الذين اشتركوا في معركة أحد أن يلحقوا بالمشركين ولما وصل إلى حمراء الأسد مر به «معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه، لا يخفون عنه شيئا كان بها، ومعبد يومئذ مشرك<sup>(٣)</sup>».

(١) سيرة ابن هشام، م ٤ ص ٣٢٦ - ٢٢٧.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ م ٢ ص ٢٠٤.

(٣) ابن هشام السيرة م ٣ ص ١٠٨.

والجيش الإسلامي الذي فتح مكة بقيادة الرسول ﷺ إنما جاء للوفاء بالعهد مع خزاعة التي اعتدت عليها بكر بمساعدة قريش، وهذا يخالف أحد بنود صلح الحديبية الذي فرض الهدنة، لمدة عشر سنوات، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي مع وفد من خزاعة، وذهبوا إلى المدينة المنورة، حيث رسول الله ﷺ وطالبوه بما بينهم من حلف، ومما قاله عمرو بن سالم:

يَا رَبِّي إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّداً حِلْفَ آبَائِنَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا  
والأتلد هو القديم، وهكذا فإن فتح مكة جاء نتيجة للنجدة التي قدمها رسول الله ﷺ لخزاعة «المشركة»<sup>(١)</sup>.

## ١١ - إبرام المعاهدات مع المشركين

في غزوة ذي العشيرة من بطن ينبع، وادع بها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة وكتب بينه وبينهم كتابا، وكذلك عاهد بني ضمرة على أنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من داهمهم، وعاهد سيد بني ضمرة واستقرت المصالحة على ألا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعاً، ولا يعينوا عليه عدوا، وفي معاهدة مع عمرو بن فحش الضمري، ورد بند ينص على النصرة المتبادلة بين المسلمين والمشركين من بني ضمرة، وهذه القبائل كانت تعيش بين المدينة المنورة وساحل البحر الأحمر<sup>(٢)</sup>.

لقد كان رسول الله ﷺ يتمتع بحرية الحركة فيعاهد المشركين أو يمنح عطاءات للمسلمين الجدد كي يشجعهم على المضي بإسلامهم دونما إحساس بخسارة مكاسب كانت لهم قبل الإسلام فمن بنود الكتاب الذي كتبه لثقيف:

- إن واديهم حرام محرم لله كله.

(١) ابن هشام السيرة - م ٤ ص ٣١ - وما بعدها.

(٢) انظر محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية - بيروت ط - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ص ٢٦٦ وما بعدها... انظر: إسماعيل إبراهيم أبو شريفة، «نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية» مكتبة الفلاح الكويت - ص ١ - ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

- وثقيف أحق الناس بوج «الطائف» ولا يعبر طائفهم ولا يدخله عليهم أحد من المسلمين يغلبهم عليه، وما شاءوا أحدثوا في طائفهم من بنيان أو سواه بواديهم.

- وهم أمة من المسلمين، يتولجون من المسلمين حيث ما شاءوا وأين ما تولجوا ولجوا.

- وما كان لهم من أسير فهو لهم، هم أحق الناس به حتى يفعلوا به ما شاؤوا<sup>(١)</sup>.

إن هذه المعاهدات جعلته في المركز الأقوى على قریش التي بدت معزولة، وتجلّى ذلك يوم الفتح والحمد لله رب العالمين.

وفي خلاصة هذا الفصل يكون البحث قد وصل إلى تركيز الضوء على ملامح الدولة الإسلامية التي تكاملت بعد فتح مكة المكرمة فقد كان عيّن الرسول ﷺ الولاة، وراسل كل ملوك الأرض يومها، وهم المهيمنون على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ومن يستظل بظلهما من الملوك والمماليك ولم ينقص ﷺ من احترامه في قومه شيئاً وهذه نماذج لبعض كتبه ﷺ:

### بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد عبدالله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم.. فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم... الآية<sup>(٢)</sup>».

وكان قد كتب إلى النجاشي ملك الحبشة:

### بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله، إلى النجاشي أوصمة ملك الحبشة<sup>(٣)</sup>».

(١) تراجع الوثيقة محمد حميد الله المرجع السابق ص ٢٨٣ - ٢٨٧.

(٢) انظر محمد حميد الله المرجع السابق ص ١٠٩.

(٣) انظر محمد حميد الله المرجع السابق ص ١٠٠.

وفي رسالة أخرى... إلى النجاشي أصحمة عظيم الحبشة<sup>(١)</sup>.  
ومن رسالة له إلى أسقف الروم في القسطنطينية:  
إلى ضغاطر الأسقف «سلام على من آمن، أما على أثر ذلك، فإن  
عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية...»<sup>(٢)</sup>.  
وعاهد أهالي أيلة:

### بسم الله الرحمن الرحيم

هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه «يوحنا» بن رؤية وأهل  
أيلة سننهم وسيادتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان  
معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر<sup>(٣)</sup>.  
وعاهد أهل مقنا وعاهد بني ثعلبة من غسان.



(١) المرجع نفسه ص ١٠٣.

(٢) المرجع نفسه ص ١١٥ ضغاطر: أكبر مركز ديني عند الروم يومها وهي تعريب لكلمة:  
autociaton.

(٣) المرجع نفسه ص ١١٧ - ١١٨.



## المبحث الثاني:

## الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين

ما إن مات النبي ﷺ حتى اجتمع المسلمون في اليوم نفسه واختاروا لهم خليفة له، وبذلك لم يشغل مكان القيادة ولو ليوم واحد، و «كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة»<sup>(١)</sup>. وتم اختيار أبي بكر رضي الله تعالى عنه في جو جماعي في سقيفة بني ساعدة حيث اجتمع الأنصار، وأتاهم أبو بكر ومعه عمر رضي الله تعالى عنهما، وذكر أبو بكر كل ما قاله الرسول ﷺ بحق الأنصار ثم خاطب سعد بن عبادَةَ بقوله «ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد: «قريش ولالة هذا الأمر بر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، قال سعد: صدقت فنحن الوزراء وأنتم الأمراء.. ففتح عمر يد أبي بكر وقال إن لك قوتي مع قوتك، قال فبايع الناس...»<sup>(٢)</sup>.

قال السيوطي إن أبا بكر هو أول من عهد بالخلافة لمن بعده «عمر بن الخطاب» وهو أول من اتخذ بيت المال، وأول من سُمي المصحف مصحفًا<sup>(٣)</sup>.

ومن مبادراته السياسية الجزئية كأول قائد يلي رسول الله ﷺ كما قال.

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م ٢ ج ٣ ص ٢٠١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٩.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء - ط ١ سنة ١٩٥٢ - مصر، ص ٢٣.

أولاً: بعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام وتصميمه على ذلك.

ثانياً: قام بقتال أهل الردة وناظر الصحابة وحجهم في بذلك.

ثالثاً: جهز الجيوش ودفعها لفتح بلاد الشام.

رابعاً: استخلف على المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه<sup>(١)</sup> وهذا التحيز القيادي لأبي بكر لم يكن بالغريب فقد قال عنه السيوطي: «وكان من رؤساء قريش في الجاهلية، وأهل مشاورتهم، ومحبا فيهم وأعلم لمعالمهم<sup>(٢)</sup>»، وكذلك في الإسلام ففي الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَمَنِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَام».

من هذا الحديث يتضح أن الرسول الكريم لم يعهد لأحد من بعده، وأن الإسلام أرسى دعائم الأخوة في الله عز وجل، وأن أمر الأمة لها، توليه من ترى لما فيه خير ورضى....

وأفضل ما اختص به أبو بكر هو تصديقه لرسول الله ﷺ يوم قال له الناس: «كذبت». قال ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَقُلْتُ: كَذَبْتُ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقْتُ».

### استخلاف عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه:

كان أبو بكر خلال فترة حكمه يعتمد على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما، في كثير من الأمور التي تتعلق بسياسة الدولة، ولما مرض خشي أن يموت، ويحصل اختلاف من بعده، عزم على أن يتم اختيار من يخلفه في حياته، فدعا عبدالرحمن بن عوف فقال: «أخبرني عن عمر بن الخطاب؟ فقال: ... هو والله أفضل من رأيك فيه ثم دعا عثمان بن عفان

(١) السيوطي، المرجع السابق - ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٣١.

فقال إنه ليس فينا مثله وكذلك استشار سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وفريقا من المهاجرين والأنصار، ومما قاله أسيد: . . ولن يلي هذا الأمر أقوى عليه منه».

وعلل أبو بكر اختياره لعمر أنه كان خير أهل ذلك الزمان وأمر عثمان بن عفان أن يكتب كتاب العهد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وختم الكتاب ثم دفعه لعثمان بن عفان الذي خرج به للناس وتمت البيعة العامة، بعد ذلك التقى أبو بكر بعمر وأوصاه، وبعد خروج عمر، رفع أبو بكر يديه وقال: «اللهم إني لم أرد إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأياً، فوليت عليهم خيرهم، وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح اللهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح رعيته»<sup>(١)</sup>.

وظاهر من صيغة كتاب العهد الذي أملاه أبو بكر على عثمان أنه أراد المصلحة، وخشي الاختلاف من بعده، وفي رواية ابن الأثير أن أبا بكر أغمي عليه وهو يملي العهد، فلما استفاق ووجد عثمان قد كتب ما قاله، كبر وقال: «أراك خفت أن يختلف الناس إن مت عشيتي قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله».

(١) انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ٨٢-٨٣ - انظر ابن كثير البداية والنهاية ج ٧ ص ١٨ - انظر ابن الأثير الكامل في التاريخ م ٢ ص ٤٢٥-٤٢٦.

ولنا وقفة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه في مناجاته لربه عز وجل حين قال: «وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيا، فوليت عليهم خيرهم» إن تصرف أبي بكر يعتبر مصدرا من مصادر التشريع السياسي في الإسلام، فهو الأقرب لرسول الله ﷺ، والأعلم بمقاصد الشريعة ومراميها، لذلك فقد اتخذ قرارا استثنائيا في حياته، وأسلم الروح وهو مطمئن لاستقرار دولة الإسلام من بعده.

وبعد أن طعن عمر رضي الله تعالى عنه، وهو في الصلاة، وذلك على يد أبي لؤلؤة المجوسي، وأيقن عمر بالهلاك، رد على ثناء الناس بقوله: «أما والله وددت أنني خرجت منها كفافا لا علي ولا لي، وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي»<sup>(١)</sup>.

ولما طلبوا منه أن يستخلف لأحد من بعده، أجابهم بأنه يخشى عذاب الآخرة، وغير راغب بتحمل المزيد من المسؤوليات تجاه ربه عز وجل، «... فما أريد أن أتحمّلها حيا وميتا، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: إِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وهؤلاء هم بقية العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله تعالى عنهم، لكنه أخرج منهم صهره سعيد بن زيد<sup>(٢)</sup> وعند الصباح اجتمع بعلي وعثمان وغيرهم من الستة وقال: «إني نظرتكم فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس»<sup>(٣)</sup>.

وبذلك يكون عمر رضي الله تعالى عنه قد عهد للسته، الذين أمهلهم ثلاثة أيام فقط كي يختاروا من بينهم أميراً.

(١) انظر السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ١٣٤.

(٢) العشرة المبشرون بالجنة هم «أبو بكر - عمر - عثمان - علي - عبدالرحمن بن عوف - سعد بن أبي وقاص - الزبير بن العوام - طلحة بن عبدالله - أبو عبيدة بن الجراح - سعيد بن زيد».

(٣) انظر - الطبري - تاريخ الأمم والملوك - م ٣ ص ٣٤.

ويستفاد من سنة عمر رضي الله تعالى عنه، بأن الأمير يتم اختياره من أفضل القادة البارزين والمجربين وليس من عامة الناس ممن ليست لهم تجربة سابقة أو فضل سبق في خدمة الأمة... وهذا من أفضل الضوابط التي تفتقر إليها الديمقراطية في منهجها السياسي المبني على قرار الأكثرية العددية للناس، دونما الأخذ بعين الاعتبار ضوابط المصلحة التي لا يدركها عوام الأمة.

### خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

بعد مداولات مجلس الشورى<sup>(١)</sup> دعا عبدالرحمن بن عوف الذي كان بمثابة رئيس للمجلس، عليا رضي الله تعالى عنه وقال له: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده» فأجاب علي كرم الله تعالى وجهه: «أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي».

ثم دعا عثمان رضي الله تعالى عنه وقال له مثل ما قال لعلي؟ فأجاب: نعم فتمت البيعة له، ولما أبدى علي رضي الله عنه ملاحظات قال فيها لعبدالرحمن بن عوف: «حبوته حبو دهر، ليس هذا أول يوم تظاهر تم فيه علينا...».

فأجاب عبدالرحمن «يا علي لا تجعل على نفسك سبيلاً فإني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان».

وأما عن نسب «القرشية» الذي اعتد به أبو بكر رضي الله تعالى عنه في وجه الأنصار، فإن عليا قال بشأنه: «إن الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها» وهو يقصد بني هاشم.

ثم بعد أن أجمعت قريش على عثمان رضي الله تعالى عنه قام علي وبايع<sup>(٢)</sup>.

(١) لمن أراد أن يقف على كامل المشهد يراجع - الطبري - تاريخ الأمم والملوك م ٣ - ص ٣٧.

(٢) انظر الطبري المرجع السابق، م ٣ ص ٣٧ - ٣٨.

**الفتنة: إنهم بشر:**

كان عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه في السبعين من عمره حين آلت إليه الخلافة وكان رقيقاً هيناً، وقدره أنه زامن مرحلة تحول العرب من معيشة البساطة والزهد إلى معيشة الغنى والترف، وسط تدفق الأموال من البلاد المفتوحة، وقد لاقى زمن عثمان رضي الله عنه ارتياحاً عند المسلمين بعد وصولهم للوضع الاجتماعي والاقتصادي الجديد، وسمح عثمان رضي الله تعالى عنه بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها، بينما كان عمر رضي الله تعالى عنه يتشدد في ذلك، ومما قاله: «ألا إن الإسلام قد بزل، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة، ألا وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلّاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار»<sup>(١)</sup>.

وبقي الناس على ذلك حتى كانت ولاية عثمان رضي الله تعالى عنه، وجاءت الدنيا بين أيدي أناس ما زالوا حديثي عهد بشظف العيش وقساوة حياة البداوة.

ثم قضى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه شهيداً في فتنة ليس بمقدوره تجاوزها أو التحكم في مراحلها وقد زاد عمره على الثمانين عاماً، وقد جرح الحسن بن علي رضي الله عنهما وهو يدافع عن بيت الخليفة وكذلك محمد بن طلحة.

وهكذا تحرك الجبل من مكانه.. وبدأت الأحداث تترى، وما تبقى من ذلك هو أن الناس كلهم بشر، والخطأ والصواب جائزان على الجميع، ما عدا رسول الله ﷺ وقد مضوا إلى خالقهم... وبقي الإرث المثلث بالجراح والآلام.. وتم إغراق المسلمين في فتنة الحلیم فيها حيران<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر - الطبري - تاريخ الأمم والملوك، ج ٥ - ٣ - ص ١٣٤ - انظر حسن إبراهيم حسن - م. س ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٢) راجع: السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص ١٥٦ - ١٦٠ راجع حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام ص ٣٥٥ - ٣٥٨ - وذلك للوقوف على وجهة نظر ليس لاعتبار رأيه سنداً في هذه المسألة.

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، وقد شكّا إليه ما لقي الناس من الحجاج فقال: اصبرُوا فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا والذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم محمد ﷺ<sup>(١)</sup>.

### وقفة:

إن هذا البحث لم يكتب للحكم على الماضي أو كي يكون رزمة من الصفحات تضاف لمثيلاتها من الكتب والمجلدات... وزيادة على ذلك فإنه ليس لدى كاتبه الجرأة أو الرغبة في خوض غمار مهالك لا يعلم مداها إلا الله تعالى، إن المقصد منه هو استقراء العظات والعبر من تاريخ هذه الأمة كي تضاف إلى كل العبر التي علمنا إياها القرآن الكريم من قصص الأمم الغابرة، لعل ذلك يكون معيناً لأمتنا المعاصرة كي يتزود علماءؤها وقادتها بمصاييح حسنة الإضاءة، تمكنهم من رسم طريق سليم للخروج من حالة الانهيار التام، والفتن التي تتلاحق فصولها، والخنوع التام أمام أعدائهم المتربصين بهم شراً من أجل ذلك كان هذا الجهد المبذول، وإذا كانت الفتنة التي أودت بحال المسلمين في نهاية خلافة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وما أعقبها من أحداث، سهلت على المصطادين في الماء العكر تسديد رماحهم، واختراق المسلمين وجعلهم أحزاباً وشيعاً، فليس من الصعب على مريدي الخير أن يفيدوا من ذلك ويحولوا مجرى التاريخ مرة أخرى، ويعيدوا للأمة مجدها وإشراقها.

لذلك، وانسجاماً مع أهداف البحث سنسجل المحاولة التالية، على طريق الاتعاض والإفادة من أحداث التاريخ، لعل ذلك يختصر المسافة بين جيلنا وأوان العودة إلى سدة مجد الأمة، التي أراد الله تعالى لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

أولاً: الرقوع في الفتنة من طبيعة البشر:

- فتنة أولاد آدم عليه السلام:

لقد قص علينا القرآن الكريم ما حدث لابني آدم عليه السلام، والعظة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن.

الواجب الإفادة منها والتأسي بها: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup> [المائدة: ٢٨] ونتيجة الاستسلام لنزوات الشيطان، سيكون حتماً الخسران المبين:

﴿... قَالَ يَوَلَّيْتَ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

### - فتنه أولاد يعقوب عليه السلام:

لقد قص يوسف عليه السلام على أبيه نبي الله تعالى يعقوب ما رآه في المنام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

فكان جواب والده:

﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

لقد تصور إخوة يوسف أنهم إذا قتلوه يخلص لهم أبوهم، الذي رأوا فيه حبا كبيراً لأخيه، مع أنهم عصبه، واعتبروا أن أباهم في ضلال مبين: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَجَّهٌ مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].

وبعد الرحلة الطويلة، واللقاء الذي تم بينهم وبينه في مصر، وعند وضعه الكيل في رحل أخيه، لحكمة أرادها عليه السلام، قالوا له مرة أخرى: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

وفي نهاية المطاف، فإن يوسف عليه السلام قابل شرهم، وهو قادر

(١) راجع الآيات من سورة المائدة - ٢٧ - ٣١ - ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ ... ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.



عليهم بالتسامح والطمع في رضا الله عز وجل: ﴿قَالُوا أَيْنَ نَتَّبِعُ يُونُسَ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴿٩١﴾ [يوسف: ٩٠، ٩١].

ماذا قال لهم؟ قال عليه السلام: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ أَلْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢) [يوسف: ٩٢].

وساعة قابلوا والدهم وطلبوا منه أن يستغفر لهم قال لهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٨) [يوسف: ٩٨].

لقد كانت نتيجة الحدث الذي حدث هي.....، الندامة، كما حصل لابني آدم، والاستغفار والتراحم، كما فعل يوسف مع إخوته ويعقوب مع أبنائه عليهما السلام.

#### - فتنه أصحاب موسى عليه السلام:

بينما كان موسى عليه السلام يكلم ربه، قال له البارئ عز وجل: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥) [طه: ٨٥]، ولما عاد إليهم ورأى ما فعله لهم السامري عندما صنع عجلا من ذهب وقال لهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (٨٨) [طه: ٨٨].

ولما أئب موسى هارون عليهما السلام قائلاً له: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (٩٢) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٩٣) [طه: ٩٢، ٩٣].

فكان جواب هارون: ﴿... إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفُضْ قَوْلِي﴾ (٩٤) [طه: ٩٤].

وحكم الله تعالى عليهم بأن يقتلوا أنفسهم، وبعد أن تطهروا من عبادة العجل غفر الله تعالى لهم إنه هو التواب الرحيم.

إن الفتنة ليست بعيدة عن بشرية البشر حتى ولو كانوا أبناء الأنبياء أو صحابتهم المجتبيين. وهناك تعليل ورد على لسان برنابا أحد حواربي عيسى عليه السلام، يعلل فيه الحكمة من حصول عملية الصلب التي شبهت لهم

من خلال عملية تشبه، حل فيها يهوذا الأسخريوطي مكان عيسى عليه السلام، وحسبه الناس أنه هو.

يقول برنابا إن هذه العملية تمت حتى تسقط الهالة من رؤوس الناس الذين كادوا أن يُفْتَنُوا بعيسى عليه السلام ويحسبوه إلها من دون الله عز وجل.

إن البشرية تميل دائما لاتخاذ آلهة من حجر وشجر وجبال وأصنام وهوى وملوك.....و.....

ثم ما الذي يمنع من أن تكون فتنة كتلك التي أصابت الصحابة إنما هي لتأكيد بشريتهم، وأنه لا نبي بعد محمد ﷺ؟.

### مراحل فتنة استشهاد عثمان رضي الله تعالى عنه:

#### كرة الثلج:

- أ - تفاقم الهنات والاختلافات وبروز المطامع في الدنيا.
- ب - إن إلقاء تبعات الفتنة على أشباح وأغيار وطابور خامس... لا يفيد شيئا، بل بالعكس فإن ذلك يزيد من فداحة الخسارة، إذ لا يجوز أن ينسى أحد قوة الدولة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، حيث كانت سيبريا في أقصى شمالي الكرة الأرضية ولاية إسلامية، ولولا أن خلافا قد نشب في داخل مؤسسة الحكم لما كان بمقدور موتور، أو يهودي متلبس أو... أن يندس حتى يصل خنجره إلى صدر الخليفة.
- ج - لقد كان عثمان رضي الله تعالى عنه صادقا ينفي علمه بمسألة الكتاب أو بالجهة التي أمرت الغلام بالتوجه إلى مصر، «واعلموا أن عثمان لا يحلف بباطل».

لقد تدرجت كرة ثلج الفتنة، وانتهت فصولها إلى ما انتهت إليه من كارثة ما زالت آثارها تتوالد حتى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى أن

تكون، ثم ما الذي حصده الناس نتيجة ذلك الاحتقان فيما بينهم؟ هل أدى الغضب الذي سيطر على سلوكهم إلى تحسين أحوال المسلمين؟ بالتأكيد لا... والخسارة كانت مؤكدة، فلماذا لا يستفاد من تلك التجربة؟ لماذا لا نحول تلك الدماء الزكية إلى مصابيح تنير لنا دروبنا وتحول دون الوقوع في حمأة الفتنة مرة أخرى؟

وخير ما نختم به هذه الوقفة ما ورد عن رسول الله ﷺ! عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئاً فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مِنْ خَرَجٍ مِنَ السُّلْطَانِ (طَاعَةِ السُّلْطَانِ) شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، وفي رواية أخرى عنه قال: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مِنْ فَارَقِ الْجَمَاعَةِ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»<sup>(١)</sup>.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال: «فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان»<sup>(٢)</sup> وأخيرا فإن إشراك العوام في القضايا الكبرى للأمة فيه مهلكة وضياح لها، وهذا ما وقع في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه<sup>(٣)</sup>.

### ومسك الختام آخر خطبة خطبها الخليفة الشهيد!

«.. إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركوا إليها، إن الدنيا تنفى والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله، واتقوا الله عز وجل، فإن تقواه جنة من بأسه، ووسيلة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن.

(٢) المرجع نفسه ويلاحظ أن الحديث يأمر بعدم الخروج على الأمير حتى ولو فضل أناسا على آخرين وأثرة علينا.

(٣) انظر البخاري كتاب الفتن، راجع الطبري م ٥٠٣ - ص ١٧٥.

عنده، واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً»<sup>(١)</sup>.

وفي إبان الشغب على باب الخليفة قال لهم ناصح: «.. يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم فوالله إن سللتموه لا تغمدوه، ويلكم إن سلطانكم اليوم بقوة الدرة، فإن قتلتموه لا يقيم إلا بالسيف، ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله والله لئن قتلتموه لتركنها»<sup>(٢)</sup>.

لقد تم انتقاء هذه النصوص كي نسلط الأضواء على نتائج الفتنة والفرقة.

كما أنه علنا بذلك نتمكن من قراءة الواقع قراءة سليمة ومنتجة، حيث إن المواقف المبنية على أسس ثابتة وواضحة تكون أجدى وأنفع لأصحابها.

### خلافة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه:

بعد استشهاد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، جاء الناس يهرعون إلى علي رضي الله عنه، مطالبين إياه بقبول بيعتهم له كخليفة لعثمان، فما كان منه رضي الله تعالى عنه إلا أن قال لهم: «ليس ذلك لكم، إنما ذلك إلى أهل بدر، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة» والسبب في جوابه ذلك إليهم، هو أنه لم يبق من المجلس الأعلى الذي كان يتحلق حول رسول الله ﷺ من العشرة المبشرين بالجنة إلا الأقلون. لهذا أعاد علي رضي الله عنه الأمر إلى ما يشبه الهيئة التأسيسية، وهم المشاركون في معركة بدر الكبرى، وهذا يعني المجموعة الأولى من المهاجرين والأنصار، وبهذا يضع حدا لمشاركة حديثي العهد بالإسلام أو الذين دخلوا فيه بعد الفتح راضخين للأمر الواقع، وقَبِلَ علي البيعة بعد أن أتنه من البدرين، وكان أول عمل قام فيه هو التحقيق في استشهاد أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى

(١) انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ - م ٣ ص ٣٥٧.

(٢) الطبري المرجع السابق ص ١٣٠.

عنه، فأخبرته زوجته بأنها لا تعرف الرجلين اللذين فعلا ذلك، غير أن ابن عساكر أورد رواية تقول بأن القاتل هو رجل من مصر أزرق أشقر يقال له حمار<sup>(١)</sup>.

### انفراط حبات العقد:

عند تولية علي رضي الله تعالى عنه، كان أكثر الصحابة متفرقين في الأمصار، ولم يكن في المدينة منهم سوى عدد قليل وعلى رأسهم طلحة والزبير رضي الله تعالى عنهما.

واتخذ أمير المؤمنين علي قرارا بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مشار الفتنة وسبب خروج البعض عليه، ولقد كان بعض الصحابة قد نصحوه بالتريث والإبقاء عليهم حتى تهدأ الحالة وتستقر الأمور.

ثم إن عليا رضي الله عنه عاد لسيرة عمر رضي الله تعالى عنه في تطبيق قواعد توزيع الأرزاق، ثم قامت في وجه علي رضي الله عنه مطالبة بوجوب تعقب قتلة عثمان رضي الله عنه ورأى علي في هذه المسألة وجوب اتباع الشرع وذلك بأن يقيم أهل الدم دعواهم، وأن تجري المحاكمة «إذ كان يرى أن القصاص من غير دعوى ولا إقامة بينة مخالف لكتاب الله<sup>(٢)</sup>».

وبدأ صراع جديد وبدأت بقعة الزيت تنتشر وخرجت الخوارج، ونشبت بينهم معارك في النهروان وفي خطة دبرها هؤلاء عزموا فيها على اغتيال علي، ومعاوية وعمرو بن العاص، لكن عبدالرحمن بن ملجم وحده تمكن من تنفيذ اغتيال أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه<sup>(٣)</sup>.

### عام الجماعة:

بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، بايع أهل الكوفة الحسن من بعده، وبعد ستة أشهر ونيف، قرر الحسن

(١) راجع السيوطي تاريخ الخلفاء - ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٣) السيوطي تاريخ الخلفاء - ص ١٧٤ - ١٧٥.

رضي الله عنه ألا يستعمل أحداً بقتال من أجل ملكه، وأنه ترك الإمارة حقناً  
لدماء المسلمين وابتغاء لوجه الله تعالى.

وفي هذا العام اجتمعت الأمة على أمير واحد (٤١هـ) وفي هذا العام  
ولى معاوية مروان بن الحكم إمارة المدينة المنورة<sup>(١)</sup>.

وتحقق حديث النبي ﷺ «ابني هذا سيدٌ وسيصلحُ الله به بين طائفتين  
من المسلمين»

#### دروس وعبر:

إن العبرة الكبيرة التي يمكن اتخاذها والخروج بها من الفتنة هي عدم  
الدخول في فتنة، أما كيف ذلك، وما السبيل إلى عدم حصولها؟ فهذا أمر  
في غاية التعقيد والصعوبة، حتى إن المسلمين بعد تلك الفترة، كانوا يميلون  
إلى عدم الخوض فيها، ولقد قال سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه: تلك  
دماء طهر الله تعالى منها أيدينا فلنطهر منها ألسنتنا.



(١) راجع السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص ١٩١ - ١٩٦.

## المبحث الثالث:

## الدولة الإسلامية في عهد الأسر المالكية

## أولاً: العهد الأموي «٤٠ - ١٣٢ هـ - ٦٦٠ - ٧٥٠ م»:

ليست مهمة البحث العرض التاريخي لكل مراحل تطور مؤسسة الدولة الإسلامية بكل دقائقها، نحو الأحداث والردود عليها، وردها أو قبولها، وإنما مهمة البحث الأساسية هي رصد حركة ما حصل وما اعتبره أهل عصره حلاً مناسباً لمشكلاتهم، سواء بالرضى التام النابع من صميم قناعاتهم أو باللجوء للصبر والقبول بواقع أمر حالهم درءاً للمفاسد وجلباً للمنافع.

إن التطور الجديد الذي طرأ على مؤسسة الدولة هو عهد معاوية لابنه يزيد من بعده بالخلافة، وتذكر المصادر أن المغيرة بن شعبة هو الذي أشار عليه بذلك، بحجة وجود مشاكل اجتماعية معقدة، وبسبب صراع التيارات الحزبية والقبلية على السلطة، وعدم وجود أسلوب محدد للوصول إلى الحكم، هذا بالإضافة إلى رغبة معاوية في إبقاء الخلافة في أسرته<sup>(١)</sup> ولقد أثار فعل معاوية ردة فعل ومعارضة حتى عند الأمويين أنفسهم كما عند أهل الحجاز، فالعرف القبلي يعترف بحفظ السلطة في القبيلة أو الفخذ، وليس من الأب لابن، ولهذا السبب كانت معارضة الأمويين، إلا أن الأمر استتب لخيار معاوية بعد تفاهمه مع القبائل وخاصة الشامية.

(١) انظر الطبري - تاريخ الأمم والملوك - ج ٦ - ص ١٦٩ - انظر السيوطي - تاريخ الخلفاء

أما معاوية رضي الله تعالى عنه، فقد دافع عن قراره مستندا إلى أن أبا بكر قد صنع ما لم يصنعه رسول الله ﷺ باستخلافه لعمر بن الخطاب وأن عمر صنع ما لم يصنعه أبو بكر، «كل ذلك يضعونه للمسلمين فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من اختلاف»<sup>(١)</sup> وبذلك يكون معاوية رضي الله تعالى عنه قد أدخل مبدأ الوراثة في تقاليد الخلافة بدلا من الشورى، وتأكد مبدأ الوراثة عندما بايع يزيد لابنه معاوية بولاية العهد.

غير أن معاوية الثاني رفض أن يعهد لأحد من بعده وترك الأمر شورى للناس يولون أمرهم من يشاءون وقال لهم: (فأنتم أولى بأمركم فاختراروا من أحببتم)<sup>(٢)</sup>.

وعند موت معاوية الثاني نشب صراع داخل الأسرة الأموية انعكس بدوره على عرب الشام - وأول مرة ظهر الخلاف علانية بين القيسية الذين مالوا إلى عبدالله بن الزبير، واليمينية الذين توحدوا حول مروان بن الحكم - وبدأ نزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وتمت تسمية خالد بن يزيد وعمر بن سعيد بن العاص كوريثين من بعد مروان الذي كان طاعنا في السن<sup>(٣)</sup>. . وأصبح الحكم في الفرع المرواني من بنى أمية بدلا من الفرع السفيفاني، وبالرغم منبيعة الناس للذين ذكرنا، إلا أن مروان خالفهم في ذلك وأخذ البيعة من بعده لابنه عبدالملك الذي خلفه ابنه الوليد على أن تكون ولاية العهد من بعده لأخيه سليمان، ولقد قام سليمان بتولية عمر بن عبدالعزيز بن مروان من بعده على أن يكون العهد من بعده لشقيق سليمان يزيد بن عبدالملك، ثم انتقل الحكم إلى هشام بن عبدالملك شقيق يزيد ومن بعده للوليد بن يزيد بن عبدالملك ثم لإبراهيم بن الوليد ومن بعده لمروان بن محمد<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر، تطور الفكر السياسي عند أهل السنة، خير الدين يوجه سوى، دار البشير - ط ١

سنة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م - ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق - ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٤) راجع - السيوطي - المرجع السابق من ص ٢٠٥ - ٢٥٥.



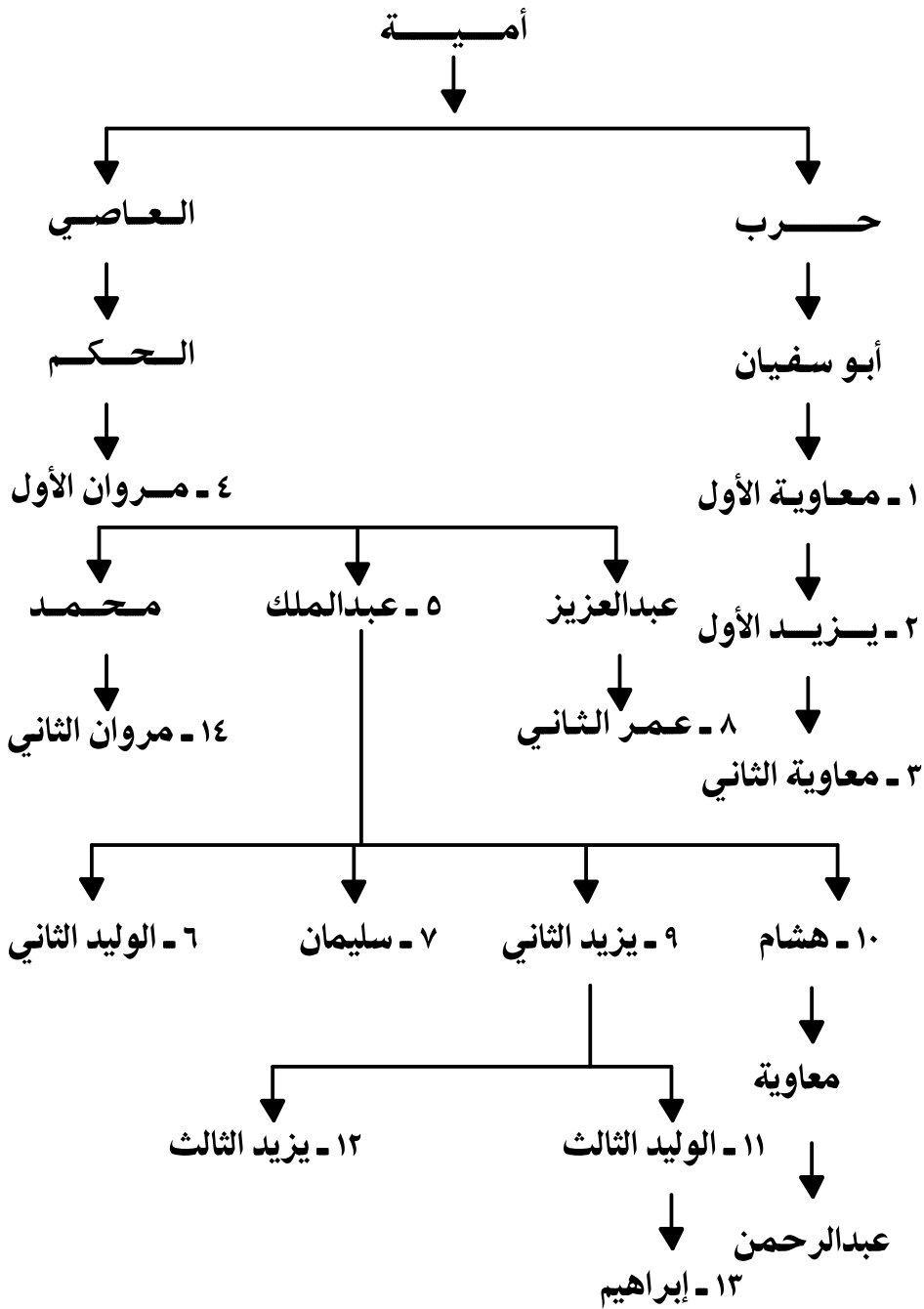
ومن هنا نقول إن إدخال الأمويين لمبدأ الوراثة في الحكم دفعهم إلى (تأكيد مفهوم الدولة، والتركيز عليه، وتحقيق المركزية في إدارة الأطراف وترسيخها، وفرض سيطرة الدولة على الأمصار، وقد استوجب ذلك - بالضرورة - توسيع سلطات الخليفة وصلاحياته، كما استوجب مقابل ذلك تضيق المكان الذاتي للأمصار، والقبائل المتوطنة فيها)<sup>(١)</sup> كل ذلك كان سبباً للوقوف في وجه المعارضة الشديدة التي واجهتهم، وقد اتجهت الخلافة إلى تطوير الإدارة، فكان تعريب الدواوين والنقود، وتم ربط الأجهزة الإدارية بالخليفة، ولعدم وجود المؤسسات السياسية أصبح الخليفة هو المتفرد بالسلطة وحده.

ولقد رفع الأمويون في وجه معارضيهم شعار مصلحة الجماعة ووجوب الوحدة والطاعة وتجنب الفتنة، والرضى بقدر الله وعدم عصيانه وأكدوا أن خلافتهم قائمة بأمر الله، وأنها واجبة الطاعة، غير أن قوى المعارضة رفعت في وجه الحكم الأموي مبدأ الاختيار وحرية الإرادة، وهذا ما أدى إلى تأمين دعم لعهد جديد، سيطر على السلطة، وخلف الأمويين في حكمهم.

ومن المفيد أن ننقل رسماً يوضح انتقال الخلافة في بني أمية<sup>(٢)</sup>:

(١) خير الدين يوجه سوي، المرجع السابق ص ٥٦.

(٢) حسن إبراهيم حسن، بتصرف شديد المرجع السابق ص ٢٧٦.



## ثانياً: العهد العباسي ١٣٢: ٦٥٦هـ:

## الشعارات جسر عبور

إذا رأيت قصراً عظيماً ونال إعجابك، وأردت أن تعرف لمن سيؤول هذا القصر، ففتش عن الخدم فيه، فهؤلاء أو أمثالهم هم من سيرثه، وإذا رأيت سلطة قوية ومنيعة وفكرت من سيخلفها ففتش عن الموالي فيها، ويمكنك أيضاً أن تفتش عن المضطهدين والمظلومين، فقد يكون منهم الحاكم وتكون منهم السلطة.

والمتطلعون إلى السلطة من المعارضة يركزون اهتمامهم على المستضعفين وأصحاب المظالم، والطامحين في تغيير واقعهم الاجتماعي والسياسي، من أجل ذلك فقد كان تركيز العباسيين على هؤلاء جميعاً.

فالفرس من المسلمين كانوا هم ملاك الأراضي وقد أسند إليهم بنو أمية المناصب الإدارية الهامة، وأوكلوا إليهم جباية الخراج، لأن العرب كانوا لا يحترفون سوى مهنة الحرب وكانوا ينظرون إلى الموالي نظرة غير مساوية لهم! إنهم موالي<sup>(١)</sup> ولقد تمكن الموالي من إنهاك الخلافة الأموية بثوراتهم المتلاحقة<sup>(٢)</sup> وانتهى العهد الأموي الذي استمر منذ «٤٠هـ - ١٣٢هـ» كي يحل محله عهد العباسيين من بني هاشم الذين عمر عهدهم زهاء خمسمائة سنة كان الحكم فيها بداية للعباسيين فعلاً وإن كانت كل بطانتهم من الفرس والموالي، غير أن ذلك تحول إلى اسم دون مضمون، وتقلصت مهمة الخليفة حتى بات يخلع الألقاب ويقوم بالباس بردة النبي ﷺ إلى القادة الجدد من أمراء الجند «غير العرب» الذين كانت تقوى شوكتهم وتؤول السلطة الفعلية إليهم.

إن العباسيين حرصوا منذ البداية على جعل الخلافة فيهم، وكرسوا المبدأ الوراثي بطريقة لم يشهد لها تاريخ الدولة الإسلامية مثيلاً، وطوي

(١) انظر - حسن إبراهيم حسن - ج ٢ - ص ١٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن - م. س. ص ١٥.

شعار الشورى والاختيار الذي كان سلاحاً كبيراً في يد المعارضة في العصر الأموي<sup>(١)</sup>.. وهكذا كان ذلك الشعار جسر عبور ليس غير..

### شجرة الحكم الوراثي في العهد العباسي:

لقد كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس الذي يعود في نسبه إلى العباس رضي الله تعالى عنه ابن عبد المطلب بن هاشم، ووالده هو أول من قام بمهمة الدعوة العباسية في أواخر العصر الأموي، ولقد عهد بالخلافة من بعده إلى شقيقه أبي جعفر المنصور، ثم إلى عيسى بن موسى - غير أن أبا جعفر المنصور قام بخلع ولي العهد وولى مكانه ابنه المهدي والذي عهد لابنه الهادي ثم لهارون بعده، وعهد هارون الرشيد من بعده لأبنائه الثلاثة «الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن» وكتب بذلك صحيفة أشهد فيها القضاة والفقهاء وأكابر بني هاشم وعلقها في الكعبة<sup>(٢)</sup>.

والأمين كان من السلالة الهاشمية لأمه وأبيه، يقول المسعودي «ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء إلى وقتنا هذا «٣٣٢هـ» من أبوه وأمه من بني هاشم إلا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومحمد بن زبيدة<sup>(٣)</sup>».

وخلف المأمون الأمين بعد صراعات وثورات عنيفة حدثت في أرجاء الدولة كلها، غير أن المأمون قام بخلع شقيقه المؤتمن ثالث أبناء هارون الرشيد المعهود لهم، وعهد إلى علي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وقام بنو العباس بمبايعة عم المأمون وهو إبراهيم بن المهدي غير

(١) خير الدين يوجه سوى - المرجع السابق ص ٦٥ ولعلنا نقول: إن اختلاف الدرجة في الحكم الملكي الوراثي يبين المصطلحين الواردين في حديث النبي ﷺ وستكون الخلافة ما شاء الله أن تكون - فالحكم العاض نموذج بني أمية لما فيه من صور الحريات والملك الجبري في بني العباس.

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن - ج ٢ ص ٢١ - ٦٣.

(٣) انظر السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٠٣ - انظر المسعودي - مروج الذهب - دار الأندلس - بيروت - ط ٥ سنة ١٩٨٣ - ج ٣ ص ٢١ - ٦٣. زبيدة هي بنت جعفر بن أبي المنصور واسمها أمة العزيز، وزبيدة لقب لها - يقول عنه إسحاق الموصلي «كان أحسن الناس وجهاً... وأشرف الخلفاء أباً وأماً...».

أن هذا الأخير توارى عن الأنظار واختفى، وبعد مرض أصاب المأمون عَهْدَ بالخلافة من بعده إلى أخيه المعتصم الذي أكمل طريق سلفه بالقول بخلق القرآن، واضطهد العلماء، وضرب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه، وهو أول من قام بجلب الترك إلى الخدمة في الدولة الإسلامية وأدخلهم الديوان<sup>(١)</sup> وخلفه ابنه الواثق بالله الذي حكم الدولة العباسية ست سنين ولم يول عهده أحداً، ولما سئل أن يعهد لابنه قال: «لا أتحمّل أمركم حياً وميتاً»، وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية بسبب إدخال والده المعتصم الترك وإحلالهم محل العرب من المسلمين.. غير أن عهده شهد عمليات قتالية بين المسلمين وإزهاق أرواح كثيرة بسبب تعصبه للقول بخلق القرآن وبأن الله تعالى لا يُرى يوم القيامة<sup>(٢)</sup>.

وعمر فقط ستا وثلاثين سنة، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر ويقول عنه ابن كثير «فهكذا أيام أهل الظلم والفساد والبدع قليلة قصيرة»<sup>(٣)</sup>.

وفي رواية أنه تاب عند موته عن القول بخلق القرآن<sup>(٤)</sup>.

وفي عهد الواثق بالله عام «٢٣٦هـ» تجرأ المشركون والمجوس على مهاجمة بلاد المسلمين في الأندلس<sup>(٥)</sup> وبمساعدة الترك تم قتل الخليفة المتوكل الذي خلف شقيقه الواثق بالله وتقلد الخلافة ابنه المنتصر الذي بعد موته تمت مبايعة المستعين ابن عم المنتصر ثم آلت الخلافة لابن المتوكل المعتز ثم المهدي بن الواثق، ثم المعتمد بن المتوكل شقيق المعتز، ثم المعتضد ابن شقيقه الموفق ثم خلفه ابنه المكتفى الذي خلفه شقيقه وعمره ثلاث عشرة سنة فتم خلع بوبيع مكانه المقتدر ثم الراضي بن المقتدر ثم المتقي والمستكفي وابنه المطيع ثم ابنه الطائع ثم ابن المتقي القادر ثم القائم ثم المقتدي..

(١) انظر السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٢) انظر ابن كثير البداية والنهاية ج ١٠ - ص ٣٠٨.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠٨.

(٤) المرجع نفسه ص ٣٠٩.

(٥) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - م ٧ ص ١٦٠.

هكذا نرى مسيرة مركز الإمارة في العهد العباسي من «١٣٢هـ - ٤٤٧هـ» (٧٥ - ١٠٧٥م)، تنتقل بالعهد والوراثة، هذا في الشكل أما حقيقة السلطة الفعلية فقد آلت بعد المتوكل إلى الجند، وبدرجة أقل في يد الوزراء والكتاب، وبدأت السلطة الحقيقية للخليفة بالتلاشي مع بداية العهد البويهي، فالجند هم الذين يختارون ويبيعون، وإذا اضطروا فإنهم يلجؤون إلى سمل عيون الخليفة أو قتله ونتج عن ذلك قيام إمارات مستقلة أو شبه مستقلة مثل الأدارسة والأغالبة والطاهريين والصفاريين والسامانيين وال طولونيين، وجاء أمير الأمراء الذي سلب الخليفة ما تبقى له من سلطة، وجعل الخليفة موظفاً يتقاضى راتباً شهرياً.. وتحولت السلطة إلى الجند بشكل نهائي تقريباً<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: الدولة العثمانية:

قال تعالى: ﴿... فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ﴾ (٤٣) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: ٤٣، ٤٤].

يرى ابن خلدون أن الترف ضرورة حتمية بعد عهد البداوة حيث الشدة وقوة البأس، وأن الأمم يأخذ منها الخلف عن السلف، فلقد أخذ العرب من حضارة الفرس والروم، وبالتالي فإنهم يخضعون لذات السنن<sup>(٢)</sup>.

لقد بدأ العهد الأموي بمعاوية رضي الله تعالى عنه، وتألق نجم الدولة في طورها الأول، وانتهى عهدها بآخر خليفة، مروان بن محمد «١٢٧ - ١٣٢هـ/ ٧٤٤ - ٧٤٩م» وهو طريد تلاحقه الرايات السود من خراسان، ويقتل في مصر وبدأ عهد الدولة العباسية قوياً باندفاع مجموعة جديدة إلى السلطة

(١) راجع - خير الدين يوجه سوي - مرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) راجع - ابن خلدون المقدمة دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ «ص ١٧٢ - ١٧٣» ولقد أورد وصفاً خيالياً للترف في بلاط الخليفة المأمون وفي دار عمه «والد عروسته» الحسن بن سهل...

بقيادة أبي العباس (١٣٢ - ١٣٦هـ) الذي أمضى معظم عهده في القضاء على القادة من الذين ساعدوا الأمويين، ثم تغيرت الأحوال وشوهد أحد خلفاء العباسيين «القاهر» يتسول بقرب المسجد في بغداد ثم أودعه المستكفي السجن حتى مات «٣٢٩هـ» وكانت نهاية العهد العباسي كما تم ذكره من قبل . .

ولما كانت نوااميس التغيير تجرى في الدائرتين الكبرى والصغرى، فإنه أطل في سماء الدولة الإسلامية أحد قادة قبائل الترك الذين استعان بهم العباسيون ليحظى بمكافأة أحد أمراء السلجوقيين عقب مساعدة له على أحد خصومه، وذلك بإقطاعه عدة أقاليم ومدن، بعد وفاته وهو أرطغرل بن سليمان شاه التركماني «٦٨٧هـ/١٢٨٨م» حيث عين الملك علاء الدين أكبر أولاده وهو «عثمان» وفي عهده قتل علاء الدين آخر أمراء السلاجقة على يد التتار وكذلك قتل ابنه غياث، عند ذلك انفتح المجال لعثمان كي يبدأ في بناء دولة جديدة كان من نتيجتها أن وقع أمير المؤمنين العباسي «المتوكل» ضمن الأسرى الذين غنمهم السلطان سليم «محرم ٩٢٣هـ/١٥١٦م» في معركة مرج دابق - فتم إكرامه وفي الأستانة تمت المبايعة منه للسلطان سليم العثماني<sup>(١)</sup>.

وتوول تلك القوة العظمى التي اجتاحت بفتوحاتها الشرق والغرب، ليصل أحد خلفائها السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله تعالى إلى أن يخلع من الخلافة على يد مجموعة من قادة الاتحاد والترقي، ذلك التنظيم اليهودي - الماسوني في ٢٤ نيسان ١٩٠٩م - ٧ ربيع الآخر ١٣٢٧هـ، والغريب ما في الأمر أن يتم الخلع بفتوى يوقعها مفتى الإسلام ضياء الدين، ويتم الترحيب بما حصل من قبل جماهير وقادة الأمة عرباً كانوا أم عجماء دونما إدراك منهم لحقيقة ما حصل<sup>(٢)</sup>.

(١) راجع محمد فريد بن الحامي - تاريخ الدولة العلية العثمانية - الجيل بيروت - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ص ٣٨ - ٤٠.

(٢) راجع، حسان حلاق - موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٠٩م، منشورات جامعة بيروت العربية ط ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م - ص ٣١٨ - وما بعدها. =

وتم تنصيب خلفاء من بعده، لم يكن لهم حول ولا قوة، وقضى أتاتورك على الخلافة نهائياً في عام ١٩٢٤م.

لكن التغيير هذه المرة كان في الدائرة الكبرى، وانتقلت السلطة إلى الأوروبيين الغربيين الذين مدوا يد العون إلى اليهود وكل عوامل الهدم التي نخر سوسها في هرم الدولة الإسلامية.

### نظام الحكم في الدولة العثمانية:

كان نظام الحكم وراثياً، فلقد أوصى عثمان الأول بالحكم من بعده إلى ابنه أورخان الأول ثاني أولاده «المولود سنة ٦٨٠هـ» وذلك في ٢١ رمضان عام ٧٢٦هـ، ومات عن عمر ٨١ سنة واستمر حكمه ٣٥ عاماً ولد عهد بالحكم من بعده إلى مرادخان الأول ٧٦١هـ/١٣٦٠م الذي استشهد على يد أحد الجنود الصرييين «ميلوك كوبلوفتش» الذي كان ممدداً بين القتلى والجرحى، حصل ذلك عندما كان السلطان رحمه الله تعالى يمر بين القتلى، فخلفه ابنه بايزيد خان الأول الذي مات أسيراً بين يدي تيمورلنك التتري في ١٥ شعبان «٨٠٥هـ/ ٩ مارس ١٤٠٣م».

### الفتوى الأولى بقتل أقرباء السلطان:

وبحق شقيق بايزيد الأول - يعقوب - صدرت أول فتوى من نوعها، عن أكبر مرجع إسلامي في الدولة، تقضى بقتل شقيق السلطان، وهو أصغر منه، كي لا ينافعه في الملك عندما يكبر، مع أنه كان شجاعاً ومتصفاً بالإقدام، والدولة بحاجة إلى أمثاله، وتم تعليل الفتوى بالحرص على عدم حصول أية فتنة في المستقبل، بناء على قوله تعالى: ﴿وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ﴾<sup>(١)</sup> [البقرة: ١٩١].

= راجع: مصطفى طوران، أسرار الانقلاب العثماني دار السلام ترجمة كمال خوجة « ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م » ط ١ - ص ٨٩ ..

(١) راجع - محمد فريد بن المحامي - تاريخ الدولة العلية، ص ٤٨ والآية من سورة البقرة «١٩١».



### السلطان محمد جليبي يعيد توحيد الملك:

بعد موت بايزيد - تنازع من بقي من أولاده الملك حتى استقر لابنه محمد الذي تمكن من قتل إخوته الثلاثة «عيسى وسليمان وموسى» ثم أوصى بالملك من بعده لابنه مراد خان الثاني الذي تزوج من بنت أمير الصرب المدعو «جورج برنكو فيتش» واسمها «مارا».

وأوصى بالعهد لابنه محمد الثاني الذي تولى العرش في محرم ٨٥٥هـ ٩ فبراير ١٤٤٥م» وكان أول عمل قام به هو إرجاع زوجة والده الصربية «مارا» إلى والدها، وقتل أخ رضيع له اسمه أحمد «ابن مارا»!!<sup>(١)</sup> وبعد عامين تمكن من فتح القسطنطينية ولقب بـ «محمد الثاني» الفاتح.

### أول تمرد للانكشارية والتدخل بتعيين الخليفة:

عند موت السلطان الفاتح عين الانكشاريون حفيده كركود نائباً عاماً عن أبيه بايزيد خان الثاني حتى عودته غير أن أبناء بايزيد عصوا والدهم وحصلت بينهم حروب عديدة، انتهت بدعم الانكشارية لابنه سليم وذلك عندما اضطره للتنازل له عن العرش «٨ صفر ٩١٨هـ/ ٢٥ نيسان ١٥١٢م» ولقد انشغل السلطان سليم الأول بمحاربة إخوته وقضى عليهم وعلى كل أبنائهم<sup>(٢)</sup> وفي عهده أصبحت القسطنطينية مقراً للخلافة الإسلامية.

### السجل الأسود:

### يهودية تدخل البلاط العثماني وتغير مجرى التاريخ:

تم إهداء السلطان سليمان القانوني فتاة يهودية روسية اسمها «روكسلان»، كانت قد أسرت في إحدى غزواته، ولشدة جمالها افتتن بها القانوني فاتخذها زوجة له وسماها «خرم سلطان»، وبفضل نفوذها في القصر زوجت ابنتها مهرماه من الكرواتي رستم باشا، وتمكنت من قتل الصدر

(١) المرجع السابق ص ٥٨ - ٨٩.

(٢) تاريخ الدولة العلية ص: ٧٣.

الأعظم إبراهيم باشا، وتم تنصيب صهرها رستم باشا مكانه، وتمكنت بفضل مساعدته في أن توقع ولي العهد الابن الأكبر لسليمان القانوني «مصطفى» في مكيدة جعلت والده يقدم على خنقه بواسطة بعض الحجاب في ١٢ شوال ٩٦٠هـ/ ٢١ سبتمبر ١٥٥٣م، فاستشهد رحمه الله تعالى عليه نتيجة لدسياسة «روكسلان» بواسطة صهرها رستم باشا «الصدر الأعظم» الذي أرسل تقريراً للسلطان يتهم فيه ولي العهد مصطفى بتدبير مؤامرة مع الانكشارية للإطاحة بوالده وبذلك تمكنت من جعل ولاية العهد لابنها سليم، الذي عرف فيما بعد بالسلطان سليم خان الثاني، وتمكنت أيضاً من قتل ابن مصطفى وهو طفل رضيع.

وبالرغم من احتجاج الانكشارية على رستم باشا، وإرغام السلطان على عزله وتعيين الوزير أحمد باشا مكانه، إلا أن زوجته اليهودية استطاعت قتله وإعادة صهرها لمكانه، ثم أعقب السلطان سليمان القانوني فعلته الشنعاء بقتل ابنه الثاني بايزيد وأولاده الخمسة - وذلك بدسياسة من سليم بن روكسلان ومع وصول السلطان سليم خان الثاني للسلطة بدأت الدولة العثمانية، بالتقهقر والانحطاط<sup>(١)</sup>.

وفي أواخر عهد سليمان القانوني أصبحت الانكشارية تخرج بغير قيادة السلطان، وكان هذا للمرة الأولى، اضمحل جهده العسكري تماماً، وتخلف السلطان عن حضور جلسة ديوان الوزراء وترك ذلك للصدر الأعظم.. وتحولت السلطة إلى غير الجنس العثماني، وباتت في أيدي أناس أسلموا ظاهرياً وهم من النصارى أو من غلمان السلاطين.

### السلطان سليم خان الثاني «١٥٦٦ - ١٥٧٤»:

في عهده بدأت الدولة العثمانية بالتراجع، وبدأ بتوقيع المعاهدات والمهادنات، وبدأت الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية، وأصبحت فرنسا

(١) راجع مصطفى طوران - أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خوم - المرجع السابق -

ملكة التجارة في البحر المتوسط، ونتيجة للمعاهدات التي تم عقدها مع الدولة العلية، تم إرسال عدة إرساليات دينية كاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة التي يوجد بها مسيحيون خصوصاً في بلاد الشام لتعليم أولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا وكانت هذه الامتيازات الموجبة لضعف الدولة بسبب تدخل القناصل في الإجراءات الداخلية بدعوى رفع المظالم عن المسيحيين، واتخاذها لها سبيلاً لامتناد نفوذها بين رعايا الدولة المسيحيين».

وهذه الإرساليات تمكنت من حفظ هوية هؤلاء ومساعدتهم على الاستقلال فيما بعد.

وفي عهده تمكن الفرنجة من إحراز أكبر انتصار عرفوه على الدولة العثمانية وأسروا ١٣٠ سفينة عثمانية وأحرقوا وأغرقوا ٩٤ وغنموا ٣٠٠ مدفع و٣٠ ألف أسير، وفي عهده أيضاً أفرط الانكشارية في شرب الخمر.

**السلطان مراد خان الثالث: «٩٨٢ - ١٠٠٣/١٥٧٤ - ١٥٩٦»:**

تزوج من جارية من البندقية اسمها «باو» سبأها قراصنة البحر وبيعت في السراي السلطانية، ولقد تدخلت كثيراً في السياسة وساعدت بلادها كثيراً وهي والدة السلطان محمد الثالث<sup>(١)</sup>.

**السلطان محمد الثالث: «١٠٠٣ - ١٠١٢/١٥٩٦ - ١٦٠٣»:**

هو ابن الإيطالية الأصل «باو» ولما مات والده كان له تسعة عشر أخاً غير الأخوات، فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه، ودفنوا معاً تجاه أياصوفيا، ومع أنه أنجز انتصارات عسكرية باهرة إلا أن الفوضى دبّت في البلاد، وكانت وفاته عن سبع وثلاثين سنة - وحكم تسع سنوات.

**العُث في استعمال الوراثة:**

**السلطان أحمد خان الأول «١٠١٢ - ١٠٢٦هـ»:**

تولى الحكم وعمره أربع عشرة سنة، ومن محاسنه أنه لم يأمر بقتل

(١) مرجع سابق - أسرار الانقلاب ص ١١٧.

أخيه مصطفى بل أمر بحجزه، وفي عهده ازدادت الاضطرابات وأرغمه الانكشارية على إلغاء فتوى المفتى التي منعت إدخال الدخان إلى الدولة، ووافق على إباحته، مات عن ٢٨ سنة، وأوصى بالملك من بعده لأخيه بسبب صغر سن ابنه الأكبر.

#### السلطان مصطفى خان الأول «١٠٢٦ - ١٠٢٧هـ/١٦١٧ - ١٦١٨»:

تولى السلطة ثلاثة أشهر فقط ولم يتعاط أشغلاً مطلقاً ولم يعلم من أمور المملكة شيئاً كما كانت عادة ملوك بني عثمان، وهي أن كل سلطان يتولى يأمر بقتل إخوته أو يحجزهم في السراي<sup>(١)</sup>.. عزله المفتى بمساعدة الانكشارية.

#### السلطان عثمان خان الثاني: خلعه ثم قتله: «١٠٢٧ - ١٠٣١هـ/١٦١٨ - ١٦٢٢»:

ولد عام ١٠١٣هـ تولى السلطة عام ١٠٢٨هـ أي أن عمره كان خمس عشرة سنة وبالرغم من صغر سنه فقد حاول ضم بولونيا إلى مملكته العلية، ولما فشل جيشه بذلك بسبب مصالحة الانكشارية للبولونيين، حاول أن يحشد جيشاً جديداً، فعزلته الانكشارية، وأعادوا السلطان مصطفى الأول ثم قتلوه بطريقة مشينة ومستقبحة في عام ١٠٣١هـ/١٦٢٢م بعدما حكم أربع سنوات وأربعة أشهر.

ولقد حاول في حياته الحد من صلاحية المفتى في عزل السلطان.

#### السلطان ألبو بيد الانكشارية:

لقد تحولت الانكشارية إلى سلطة فعلية، لكن بفوضى وعدم تنظيم، وبات حال السلطان العثماني كحال خلفاء بني العباس في آخر أيامهم على أيدي الترك.

وعلى أثر اضطرابات مروعة في عهد السلطان مصطفى الأول، وكان ضعيفاً للغاية تم خلعه وولوا مكانه ابن السلطان أحمد الأول ابن السلطان

(١) محمد فريد علي المحامي - تاريخ الدولة العلية - المرجع السابق ص ١٢٢ - ١٢٣.

محمد الثالث سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م، ولقد كان تحت رحمة الانكشارية أيضاً وبقي الحال كذلك عشر سنوات وكي لا نطيل البحث، فإنه من المفيد قراءة الصفحات الأخيرة من أيام الأمويين ثم الأكثر فالأكثر من أيام العباسيين «وتلك الأيام نداولها بين الناس...».

كما أن شاه العجم قد أنهك الدولة العلية في حربه المستمرة، غير أن السلطان مراد الرابع أعاد في آخر أيامه هيبة الدولة العلية، لكن المنية وافته وهو في الواحد والثلاثين من عمره، وليس له أولاد، فتولى مكانه أخوه إبراهيم الذي أبلى بلاء حسناً في فتح جزيرة كريت معيداً ما فعله المعتصم في فتح عمورية، غير أن تحالف المفتى عبدالرحيم أفندى والانكشارية قرر خلعه وتولية ابنه مكانه وهو لم يتم السابعة من عمره، ثم أعادوا إبراهيم للسلطة إلا أنهم خافوا من انتقامه فقتلوه في ١٠٨٥هـ/١٦٤٨م عن عمر ٣٤ سنة، وبسبب طفولة السلطان الجديد محمد الرابع عادت الفوضى سيرتها الأولى قبل استرداد مراد الرابع لهيبة الدولة، وأخذ الأعداء يسقطون بلاد المسلمين الواحدة تلو الأخرى... حتى تولى الوزير محمد باشا منصب الصدر الأعظم فتمكن من إعادة الهدوء والأمن للبلاد ثم خلفه في ذلك ابنه أحمد باشا، وعند عودة الفوضى إلى الدولة بعد الهزائم التي حلت بجيشها، قرر العلماء مع الوزير الثاني عزل السلطان محمد الرابع ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م بعد حكمه الذي استمر أربعين سنة وخمسة أشهر، وولوا بعده أخاه سليمان خان الثاني الذي خلفه أخوه أحمد خان الثاني لأنه مات بلا عقب<sup>(١)</sup>. هذه لمحات أساسية من طبيعة نظام الحكم في الدولة العثمانية وبسبب انعدام وجود المؤسسة السياسية التي تدير الدولة، وتحول دون التأثير السلبي للسلطان، إن كان ضعيفاً، ودون استبداده إن كان ظالماً، ودون تخلف الدولة إن كان جاهلاً، وتعمل على تأمين تجددتها باطراد، وإسباغ حياة الشباب الدائم عليها بفضل ما يفيض من عبقرية وخبرة أعضاء المؤسسة الذين يتم اختيارهم من أصحاب الكفاءات العالية والصفات المميزة.

(١) راجع محمد فريد بن المحامي - المرجع السابق ص ١٣٩ - ١٤٠.

إن عدم وجود هذه المؤسسة ربط حياة الدولة التي يرث الحكم فيها الابن عن أبيه بشكل تلقائي، بحياة الأسرة الذي ألمح إليه ابن خلدون في سفره القيم «المقدمة».

إن جعل السلطة بيد حاكم فرد دون تشكيل مجلس للشورى يعينه في تصريف شؤون الدولة والتخطيط لما يجب أن يكون، يؤدي بالدولة إلى الانحطاط والانحدار، وينطبق ذلك على الحكم بالوراثة أو بالاختيار، طالما تم تغييب المؤسسة السياسية التي ترفد الدولة بكل الطاقات والإمكانات.

### مؤامرة على الأمة:

عندما اقتنع السلطان عبدالعزيز خان رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup> بأن تحالفات الدولة الأوروبية مع الدولة العلية لم تؤد إلا إلى إضعافها بسبب التدخل في شؤونها الداخلية، ومساعدة الطوائف المسيحية الخاضعة لها على الانشقاق عنها، وبث الروح الطائفية والفتن كما حصل في البلاد والولايات الشرقية للدولة العلية عندما علم السلطان بذلك وغير من توجه الدولة وأراد التفاهم مع روسيا المستفيد الأول من الاضطرابات، ثارت عند ذلك ثائرة الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا التي راحت تبث عبر سفرائها وعملائها السريين الوسواس في عقول السذج من أهل الأستانة بأن السلطان مبذر ومسرف، حتى اقتنع الوزراء بوجوب عزله، والجدير بالذكر أن علماء المسلمين في داخل الدولة هم الذين كانوا أكثر استجابة لتلك الحملة الإنجليزية والأوروبية ضد السلطان فأصدر شيخ الإسلام حسن خير الله أفندي فتوى بوجوب خلع بناء على الإيحاء الوارد في السؤال: «إذا كان الذي هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له إمام في الأمور السياسية، وما برح ينفق الأموال الأميرية في مصاريفه بدرجة لا طاقة للملك والملكة على تحملها، وقد أخل بالأمور الدينية والدينية وشوشها وخرب الملك والملكة وكان بقاؤه مضراً بها فهل يصح خلعها؟

(١) السلطان عبدالعزيز خان شقيق السلطان عبدالمجيد خان ولد في ١٤ شعبان ١٢٤٥هـ/٩

فبراير ١٨٣٠ م

وتقلد السيف السلطاني في ١٨ ذي الحجة ١٢٧٧هـ/٢٦ يونيو ١٨٦١.

وكان جواب شيخ الإسلام: يصح، ووقع الفتوى كما يلي «كتبه الفقير حسن خير الله» كان ذلك في يوم ٦ جمادي الأول ١٢٩٣/٢٩ مايو ١٨٧٦م<sup>(١)</sup> هذه هي فتوى شيخ الإسلام، بينما حقيقة الأمر تفيد بأن المؤامرة دبّت بإيحاء أوروبي - بريطاني، وعمل على تنفيذها الصدر الأعظم وناظر الحربية وناظر البحرية أحمد مدحت، وبطريقة انقلابية تمت محاصرة قصر السلطان واحتجازه، ثم البيعة لمراد خان الخامس بن السلطان عبدالمجيد، وبعدها تم إبلاغ السلطان المخلوع بالخبر استسلم للأمر الواقع، وقد أيد جميع القناصل الأوروبيين ما حصل، إن الفتوى التي صدرت عن شيخ الإسلام حسن خير الله أفندى إنما صدرت عن نص أرسطى الأسلوب، مقدماته تحتم نتائجه، لكن هل تلك الصورة التي صورها النص هي من نسج أعداء الدولة العلية، أم أنها من ملاحظات واستنتاجات سماحته الدقيقة؟ إن النتائج التي آلت إليها الدولة العلية تثبت خطأ ما ذهب إليه السادة العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام، وأن فتواه لم تكن إلا جسرا لعبور الدولة الأوروبية إلى العالم الإسلامي واحتلاله والقضاء على كيانه والدليل على عدم

(١) راجع محمد فريد بن المحامي - تاريخ الدولة العلية ٣١٩ - ٣٢٠ لقد أفاد المتآمرون من حضور السلطان لمسرحيات راقصة في فرنسا، فأوغروا صدر العلماء عليه، وحدث ما كان... وبعد خلعه مات في ظروف غامضة، وبالرغم من ترويح أجهزة الإعلام «الصحف يومها» إلى أنه أصيب بالجنون بعد خلعه، غير أن هذا غير مؤكد، ذلك أن الرسالة التي كتبها قبل يوم واحد من موته تؤكد عدم صحة جنونه، ولقد أرسلها إلى السلطان الجديد «بعد اتكالي على الله تعالى وجهت اتكالي عليك فأهنتك بجلوسك على تخت السلطنة وأبين لك ما بي من الأسف على أنني لم أقدر على أن أحترم الأمة حسب مرادها فأؤمل أنك أنت الذي تبلغ هذا الأرب وأنك لا تنسى أنني تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها وأوصيك أن تتذكر أن من صيرني إلى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم أنا بيدي وحيث كان من دأبي دائما الرفق بالمظلوم وشملهم بالمعروف الذي تقتضيه الإنسانية أرغب إليك أن تنقذني من هذا المكان الضيق المعنى «بتشديد النون» الذي صرت إليه وتعين لي محلاً أكثر ملاءمة لي وأهنتك بأن الملك انتقل إلى ذرية أخي عبدالمجيد خان.

صدق نص الفتوى ما حصل عقب خلع السلطان عبدالعزيز من سفك دماء في داخل القصر حيث قتل حسين عوني، الذي أنيط به تنفيذ مهمة الخلع، وكذلك محمد باشا..

وبعد ثلاثة أشهر تصدر الفتوى من شيخ الإسلام والعلماء بخلع السلطان مراد الخامس وكان السؤال «إذا جن إمام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهده» «الجواب» يصح والله أعلم «كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه».

مع العلم بأن السلطان مراد كان معروفا بحبه للإصلاح والمساواة، وكان متعلما ومهذبا ومحبا للشرع والحرية، غير أن حالته الصحية تغيرت بعد أسبوع من ولايته، ثم حصول المجزرة التي قتل فيها الذين أوصلوه إلى العرش.. والطبيب الذي حكم بعدم لياقته هو النمساوي ليدزورف<sup>(١)</sup>.

فماذا حصل لهذا السلطان الطيب، الذي طلب شقيقه عبدالحميد عندما عرضوا عليه السلطة التمهل وعدم التسرع لعل الله تعالى يعيد له عافيته؟

فماذا كان يحدث في رأس سلطة الدولة العلية؟

إن المعلوم هو أن الصخرة الثابتة بدأت تتحرك.. وكرة الثلج الصغيرة بدأت تتدحرج..

### السلطان عبدالحميد الثاني:

لقد تولى السلطان عبدالحميد الثاني الخلافة في ١٨ شعبان ١٢٩٣ هـ ٦ أيلول ١٨٧٦م، وتقلد سيف السلطة باحتفال لم يشهد له مثل.

لقد أراد السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله تعالى إعادة الخلافة إلى مكانتها اللائقة، وكان يبغى استعادة ثقة المسلمين بدولتهم وتثبيت حكمها

(١) انظر، جورج انطونيوس، يقظة العرب، دار العلم للملايين - بيروت ط ٧ سنة ١٩٨٢ ص ١٢٨.

انظر محمد فريد بك المحامي - تاريخ الدولة العلية - ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

انظر: الأميرة عائشة عثمان أوغلي، والدة السلطان عبدالحميد ص ١٤.



بين الأمم<sup>(١)</sup> وفي آخر أيامه تم ربط مكة المكرمة بكامل بلدان العالم الإسلامي بواسطة سكة حديد الحجاز التي بدأ العمل فيها ربيع ١٩٠١ وانتهى خريف ١٩٠٨<sup>(٢)</sup> وحاول إيجاد مؤسسة تدير الخلافة ففي نوفمبر ١٨٧٩ أمر بتنظيم مجلس عمومي «البرلمان»، يكون من مجلسين ينتخب أحدهما من الأهالي «مجلس المبعوثان» وآخر يعين من الدولة «مجلس الأعيان»، وعزم على تطبيق الشورى في الحكم، وفي هذه الأثناء كانت كرة الثلج تكبر وتكبر، وازداد النفوذ الأوروبي، واشتد عضد غير المسلمين في أرجاء الدولة العلية، وبدأت القوميات في الانتعاش، وبدأ النواب المسيحيون يتحدّون النواب المسلمين في المجالس، وكان المجتمع الإسلامي يعاني من نقص كبير في عدد المثقفين، لذلك كان لا بد من إنشاء المعاهد والكتليات لتحديث الدولة، غير أن السلطان كان يدرك أن المناطق ذات الأكثرية المسيحية ستخرج عن سلطة الدولة، وكان يعد نفسه لذلك، غير أن قدرة الأوروبيين كانت أقوى من كل محاولة من جانب السلطان عبدالحميد الثاني لإعادة الحياة إلى الدولة العلية.. وبدأت الأحداث والمناوشات، وأخذت جمعية الاتحاد والترقي تقبض على زمام المبادرة داخل الجيش عبر عملية تسلل مخططة ومدروسة، ساهم فيها اليهود مساهمة قوية<sup>(٣)</sup> يقول زين نور الدين زين عن المخطط الذي تم إعداده لتدمير الدولة العلية: «.. ولم يكن هنالك من قاسم مشترك بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب سوى «العروبة»، فالعروبة كشعار كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعوراً بالقومية.. وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون في الجمعية الثورية السرية أن السبيل الوحيد للتحرر من الحكم التركي.. هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكر العروبة وتستطيع أن تقف في وجه الأتراك ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون إلى خطة أخرى، هي إدخال بعض الوجهاء المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت...».

(١) راجع جورج انطونيوس - المرجع السابق - ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٢.

(٣) انظر المرجع السابق - ص ١٤ - ٣٨.

وكانوا يأملون في استمالة المسلمين بعد انضمامهم للمحافل الماسونية، لينضموا إلى الجمعية الثورية السرية.. هكذا كان<sup>(١)</sup>. وفي أفضل دراسة وثقت لعهد السلطان عبدالحميد الثاني ودور جمعية الاتحاد والترقي يقول المؤرخ حسان حلاق: «وبواسطة المحافل الماسونية تمكن ضباط الاتحاد والترقي من التحرك بفعالية أكثر لأن وجودها في سلانيك كان يضمن لها الحماية الدولية على اعتبار أنها إحدى الولايات الثلاث الخاضعة للمراقبة الدولية<sup>(٢)</sup>».

وعلى هذا يمكن أن نستخلص من دراسة الوثائق التي بين أيدينا أن ثورة الاتحاد والترقي هي ثورة يهودية - دولية قبل أن تكون ثورة تركية أو عثمانية، لأن لجنة سالانيك الاتحادية تكونت تحت رعاية ماسونية دولية وبتأييد من اليهود ويهود الدونمة والجيش الزاحف باتجاه العاصمة كان بقيادة رمزي بيه وهو أحد يهود الدونمة<sup>(٣)</sup>.

ويقول السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله تعالى في مذكراته: «علينا أن نعترف - وبكل أسف - بأن الإنجليز استطاعوا بدعايتهم المسمومة أن ييثوا بذور القومية والعصبيية في بلادنا وقد تحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا، وظهر في سورية بوادر تحرك مماثل<sup>(٤)</sup>».

### فتوى شيخ الإسلام تقضى على دولة الإسلام:

يجب ألا يكون مستغرباً إذا تم فتح ملفات التاريخ الإسلامي وخصوصاً ما نحن بصدد بحثه وهو تاريخ الدولة الإسلامية، فإن ذلك قد

(١) راجع زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية - دار النهار بيروت ط ٣ سنة ١٩٧٩ - ص ٦١.

(٢) من أجل ذلك نسمع دائماً بالرغبة الأوروبية في تدويل أماكن المسلمين المقدسة مثل القدس.

(٣) راجع، حسان حلاق، مرجع سابق ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٤) السلطان عبدالحميد الثاني - مذكراتي السياسية - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م - ص ١٧٧.

يكون ثقيلاً على السمع عسيراً على الجوارح أن نتقبل هذا الأسلوب، غير أنها هي الحقيقة وعبثاً أن تحاول أمة أن تصحح مسرى حياتهم إذا لم يكن أهلها على بينة من أمرهم.

وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر، كما قال الإمام مالك رضي الله تعالى عنه ويقصد بذلك النبي ﷺ.

وبينما مسرى الدولة الإسلامية في العصر العثماني يقترب من نهاية السقوط والانحدار، كانت المشاكل تتفاقم والتدخلات الأجنبية تزداد. وكرة الثلج تتحرك. قالوا، وأفتى بذلك شيخ الإسلام، أن السلطان عبدالعزيز مبذر ومختل العقل عندما فكر في الحد من تدخلات الدولة الأوروبية بشأن الدولة العلية، بينما السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله تعالى كان يقول عنه عكس ذلك - ويقول بأن الأوراق التي نسبوها إليه مزورة بينما الوصية الحقيقية لم يعثر عليها حتى زمانه، وأنه متأكد من سلامة مسيرته والقواعد التي كان يركز عليها<sup>(١)</sup>.

ثم جاء دور السلطان عبدالحميد الثاني، وبعد الفتن والمجازر التي افتعلتها عصابات الاتحاد والترقي، رأت هذه الجمعية أنه يجب إلقاء المسؤولية على السلطان، وبالتالي يجب خلع، مع أن السلطان لم يكن له يد في تلك الأحداث من قريب أو بعيد.

غير أنه ليس بمقدور الاتحاد والترقي خلع السلطان بدون فتوى شرعية، فاستفتوا أولاً أحد النواب المعممين من مجلس المبعوثان، وهو شاب يدعى ألمالي حمدي أفندي، وكان من نتيجة ذلك أن قرر المجلس الوطني العام، بناء على فتوى موقعة أيضاً من شيخ الإسلام محمد ضيا أفندي، خلع السلطان وتولية ولي العهد محمد رشاد أفندي مقامي السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية باسم السلطان محمد الخامس<sup>(٢)</sup>.

(١) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسة ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) راجع الأميرة عائشة عثمان أو غلي - المرجع السابق ص ٣٨.

حصل ذلك والدولة على أبواب الحرب العالمية الأولى . . والدولة أمام استحقاق مميت .

### إلغاء الخلافة في آذار ١٩٢٤ :

بأكثر من ألف طريقة وطريقة تم تصنيع مصطفى كمال بطلاً أسطورياً وذلك من خلال انتصاره في بعض معارك الحرب العالمية الأولى ضد الجيش الإنجليزي، ثم بعد ذلك أخذ يتحدث عن ضرورة الانسحاب من الحلف مع الألمان وأن المصلحة تقضى بمصالحة الإنجليز .

وبعد أن عزم على إلغاء الخلافة، وتحويل تركيا إلى بلد جمهوري، قامت في وجهه عاصفة المعارضة، فلجأ الإنجليز إلى طريقة في منتهى الدهاء، إذ رفعت بريطانيا «أغا خان» زعيم الطائفة الإسماعيلية في الهند ومعه أمير علي كي يرفعا خطاب احتجاج باسم مسلمي الهند يطالبان فيه باحترام مقام الخليفة، فأفاد مصطفى كمال من ذلك، وراح يشرح تاريخ «أغا خان» السيء وعلاقته بالإنجليز، وأنه يعيش في أنجلترا ثم أخذ يثير حماس المجلس الوطني ضد الخليفة ورجال الدين، وأصدروا قراراً يقضى بالموت على كل من يتعاطف مع السلطان - وعندما تحدث بعض النواب عن فائدة الخلافة لتركيا من الوجهة الدبلوماسية خطب مصطفى كمال وقال: «أليس من أجل الخلافة والإسلام ورجال الدين قاتل القرويون الأتراك، وماتوا طيلة خمسة قرون؟

لقد آن الأوان لتنظر تركيا إلى مصالحها، وتتجاهل الهنود، والعرب وتنقذ نفسها من تزعم الدول الإسلامية<sup>(١)</sup> .

على إثر إفادته من خطاب آغا خان، استصدر يوم ٣ آذار ١٩٢٤ قراراً من الجمعية الوطنية بإلغاء الخلافة، وفي منتصف الليل جاءت سيارة إلى

(١) انظر عبد القديم زلوم، كيف هدمت الخلافة - دار الأمة للطباعة والنشر - بيروت - ط ٣/

قصر يلدز بصحبة حامية من رجال البوليس والجيش فحملت السلطان عبدالمجيد في ثياب نومه ومعه جميع أفراد آل عثمان وأخرجوهم خارج الحدود ومع خروج آل عثمان من بلادهم وتشردهم في الأرض أسدل الستار على تاريخ أسرة عظيمة خدمت الإسلام في كثير من الأوقات ورفعت رايته في كثير من البلدان.. وبدأ عهد النموذج الأول - الرجل والتجربة - الذي أقامه الغرب مثلاً تحتذيه دول الشرق الإسلامي<sup>(١)</sup> والإجراءات التي اتخذها مصطفى كمال هي:

- ١ - فصل الدين عن الدولة واعتماد القانون المدني السويسري وقانون العقوبات الإيطالي، والقانون التجاري الألماني بدلاً من الشريعة الإسلامية.
- ٢ - إلغاء الحروف العربية، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية وتصفية اللغة التركية من الكلمات العربية.
- ٣ - الأذان باللغة التركية وكذلك ترجم القرآن لهذه اللغة.
- ٤ - الأحد عطلة أسبوعية بدلاً من يوم الجمعة.
- ٥ - إلغاء الطربوش وحجاب المرأة المسلمة.
- ٦ - إلغاء وزارة الأوقاف والمدارس الدينية.
- ٧ - إحلال التقويم الأوروبي محل التقويم الهجري الإسلامي.
- ٨ - قبول نظم الحضارة الغربية بلا تحفظ.
- ٩ - الاتجاه كلياً نحو أوروبا والانفصال عن العالم الإسلامي.
- ١٠ - إلغاء الخلافة.
- ١١ - طرد آل عثمان من تركيا.

(١) انظر مصطفى العثمان - الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا ط ١ - ألمانيا الغربية سنة

ولقد سقط أكثر من نصف مليون شهيد في معارضة أتاتورك في هدم الخلافة، وتم تشكيل محاكم ثورية شعبية متنقلة تقوم بإعدام المعارضين في محاكمات هزلية صورية<sup>(١)</sup>.



(١) مصطفى محمد طحان - القومية بين النظرية والتطبيق - دار الوثائق الكويت - ط ١ سنة

١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ - ص ٣٠٢ - ٣٠٤.

## المبحث الرابع:

### النظرية السياسية في الإسلام «الخلافة»

#### مقدمة:

لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الشريفة تعريف جامع مانع لشكل النظام السياسي الإسلامي، إنما أساس هذا النظام هو الشورى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

إن هذا التعبير يجعل أمرهم كله شورى، والأمر من الإمارة كما سلف، وذلك كي يصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة، والوصف هنا هو للأنصار الذين استجابوا إلى الإيمان بالله تعالى حين أنفذ الرسول ﷺ اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة، فإن سمة تدبر أمورهم السياسية الشورى «فكانت الأنصار قبل قدوم النبي ﷺ إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه، فمدحهم الله تعالى به.. وقال الحسن: «أي أنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون» سبب ذلك أنه: (ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم)<sup>(١)</sup> ومن المعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فتصبح الشورى أمراً لكافة المؤمنين وليس للأنصار فقط.

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة -

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: (ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكراً، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها، إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية وهي من ألزم صفات القيادة).

وأما عن الشكل الذي تتم به الشورى فقد قال عنه أنه: (ليس مصوباً في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية، والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة، وليست نصوصاً حرفية، إنما هي قبل كل شيء روح تنشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة)<sup>(١)</sup>.

لكن الهدف محدد، ولا يجوز على الإطلاق التخلي عنه، أو التنكب عن أية طريقة موصلة إليه، إن وجوب الحصول على أرشد آراء أهل الجماعة المسلمة - إنها المسؤولية الكبرى التي إن لم تحصن وتؤد بأمانة، فإن مآل أهلها إلى الفشل والخسران المبين.

وعندما تتوفر القيادة الحكيمة العالمية التي تسوس الأمة بشرع الله عز وجل، مؤمنة كل الأسباب العقلية التي تنسج المجتمع، فتحيله إلى مجموعة متناسقة ومتوافقة، مطمئنة القلب، تسير على هدى من أمرها، فإن هذه القيادة تفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم أيضاً، فشرع الله مالك الملك ينفع في الحياة الدنيا وفي الآخرة<sup>(٢)</sup> وأما القيادة التي تكون (بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية في مرعاها فجوراً وعدواناً ومذموماً عنده) أي عند الله تعالى» كما هو مقتضى الحكمة السياسية والله سبحانه هو الأعلم (بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم).

﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾<sup>(٣)</sup> [النور: ٤٠].

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن - ط ٥ - ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م - ج ٢٥ - ص ٤٦ - ٤٧

(٢) الاقتباس من «ابن خلدون - المقدمة - ص ١٩٠».

(٣) المرجع نفسه ص ١٩.



وهذا يقودنا إلى وجوب معرفة الخلافة . . . .

## الخلافة<sup>(١)</sup>:

يقول الماوردي إنها موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا<sup>(٢)</sup>. ويعرف ابن خلدون هذا المصطلح السياسي بأنه (حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية إليها)<sup>(٣)</sup>. وبذلك تكون الخلافة قد جمعت بين النظر العقلي في تطبيق الشرع وحمل الناس في مصالحهم على أساس شرعي، فأبعدت الشهوة، وقربت المصلحة التي تجمع ما بين سعادتي الدنيا والآخرة.

### وجوب الخلافة:

جاء في كتاب الخلافة للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى: «أجمع سلف الأمة، وأهل السنة، وجمهور الطوائف الأخرى على أن تنصيب الإمام أي توليه على الأمة واجب على المسلمين شرعا وعقلا» ونقل على متن كتاب مقاصد الطالبين لسعد التفتازاني مبررات وجوبها ب:

الأول: الإجماع، هو إجماع الصحابة حتى إنهم قدموا اختيار الخليفة على دفن النبي ﷺ.

الثاني: أنه لا يتم إلا به ما وجب من إقامة الحدود وسد الثغور ونحو ذلك مما يتعلق بحفظ النظام.

الثالث: أن فيه جلب منافع ودفع مضار لا تُحصى وذلك واجب إجماعا.

(١) إن لفظ - أو مصطلح الخلافة - هو ذاته مصطلح الإمارة أو الإمامة.

(٢) الماوردي - الأحكام السلطانية - دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م - ص ٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٧١ - قال الشيخ محمد رشيد رضا: «الخلافة - والإمامة العظمى، وإمارة المؤمنين، ثلاث كلمات معناها واحد - وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا «الخلافة - محمد رشيد رضا - المنار - مصر - ١٣٤١ هـ ص ١٠».

الرابع: وجوب طاعته ومعرفته بالكتاب والسنة يقتضي وجوب حصوله وذلك قبل تنصيبه.

ويخرج محمد رشيد رضا إلى أن المعرفة بالكتاب والسنة هي من أهم الشروط الواجب توفرها فيمن يتولى أمر الأمة<sup>(١)</sup>.

إن الخطبة التي ألقاها الخليفة الأول، أبو بكر رضي الله تعالى عنه تؤكد إجماع الصحابة على وجوب إقامتها: (إن محمداً قد مضى بسبيله، ولا بد لهذا الأمر من قائم يقوم به) وفي هذا دلالة على إجماعهم عن بكرة أبيهم، والإجماع على هذا الوجه دلالة على وجوب الخلافة<sup>(٢)</sup> والقرآن الكريم بين أن التفويض هو لولي الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وكذلك فإن الرسول ﷺ ألزم المسلمين بالتزام الجماعة وإمامهم، وفي حديث رواه مسلم «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

### كيف تنعقد الإمارة؟

إن انعقاد الإمارة «هو فرض كفاية لله وراجع إلى اختيار أهل الحل والعقد الذين يتعين عليهم تنصيبه، وبعد ذلك يجب على الخلف جميعاً طاعته<sup>(٣)</sup>».

يقول الماوردي: والإمامة تنعقد من وجهين: أحدهما باختيار أهل العقد والحل والثاني بعهد الإمام من قبل<sup>(٤)</sup>.

وعن المبررات الشرعية لحكم العهد يقول: (وأما انعقاد الإمامة بعهد من قبله هو ما انعقد الإجماع على جوازه ووقع الاتفاق على صحته لأمرين

(١) الشيخ محمد رشيد رضا - الخلافة المنار - مصر - ١٣٤١هـ - ص ١٠ - ١١.

(٢) راجع: محمود حلمي - نظام الحكم الإسلامي - مقارنا بالنظم المعاصرة، دار الفكر القاهرة - ط ١٩٧٣/٢ - ص ٥٨ - ٥٩.

(٣) ابن خلدون، المقدمة ص ١٩٣.

(٤) الماوردي الأحكام السلطانية - المرجع السابق - ص ٦.

عمل المسلمون بهما ولم ينكروهما، أحدهما: أن أبا بكر رضي الله عنه عهد بها إلى أهل الشورى فقبلت الجماعة دخولهم فيها وهم أعيان العصر اعتقاداً لصحة العهد بها<sup>(١)</sup>.

ويقول أبو يعلى الفراء الحنبلي: «ويجوز للإمام أن يعهد إلى إمام من بعده، ولا يحتاج إلى شهادة أهل الحل والعقد...» ويقول: «ويجوز أن يعهد إلى من ينتسب إليه بأبوة أو بنوة، إذا كان المعهود له على صفات الأئمة، لأن الإمامة لا تنعقد للمعهود إليه بنفس العهد، وإنما تنعقد بعهد المسلمين» وكأنه يقصد البيعة من المسلمين بعد العهد عقب موت الإمام، ولا يجوز العهد للصغير، حيث إن الشروط يجب أن تكون متوفرة وقت العهد، وإن من حق الخليفة أن ينص على أهل الاختيار لأن ذلك من حقوق خلافته<sup>(٢)</sup> إن النظرية الإسلامية في شأن الحكم لم تقف عند شكل معين من أشكاله فلقد قالوا بالاختيار وبالعهد أي الوصية معاً، وإن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أكد أنه لا تنعقد بيعة إلا بمشورة من المسلمين، ففي حديث رواه البخاري قال عمر: (بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله لو مات عمر لبايعت فلاناً فلا يغترون امرؤ أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، ألا وإنها كانت كذلك ولكن وقى الله المؤمنين شرها، وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر - من بايع رجلاً من غير مشورة المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا).

ومن خلال رصد شامل للطرق التي اتبعت في انعقاد الخلافة نجد أنها في غالبها الأعم كانت العهد... والمسلمون راضون عن ذلك.

ولقد اشترط الفقهاء شروطاً يجب توافرها في الخليفة وفقدان أحدها يخل بإمامته، وهكذا فقد تساهلوا في الوسائل والأشكال وتشددوا في الصفات التي حصروها بـ:

١ - العدالة على شروطها الجامعة.

(١) المرجع نفسه ص ١٠.

(٢) أبو يعلى الفراء - الأحكام السلطانية - ص ٢٦.

- ٢ - العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.
- ٣ - سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يُدرك بها.
- ٤ - سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.
- ٥ - الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.
- ٦ - الشجاعة.
- ٧ - النسب وهو أن يكون من قریش<sup>(١)</sup>.

#### ابن تيمية: الولاية للأصلح:

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: يجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل، قال النبي ﷺ: «مَنْ وُلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً فَوَلَّى رَجُلًا وَهُوَ يَجِدُ مَنْ هُوَ أَصْلَحُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» وفي رواية (مَنْ قَلَّدَ رَجُلًا عَمَلًا عَلَى عَصَابَةٍ وَهُوَ يَجِدُ فِي تِلْكَ الْعَصَابَةِ أَرْضَى مِنْهُ، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَخَانَ رَسُولَهُ وَخَانَ الْمُؤْمِنِينَ)<sup>(٢)</sup>.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

وقياساً على واجب الإمام في ولاية الأصلح من المسلمين يمكن أن يسقط الحكم نفسه على أهل العقد والحل، فهؤلاء أيضاً عليهم أن يولوا

(١) الماوردي - الأحكام السلطانية ص ٦ وخلاصة ما يراه ابن خلدون في موضوع القرشية: أن هذا الشرط هو من باب المصلحة بسبب ما كانت عليه يومها قریش من قوى، بحيث إن الأمة تجتمع عليهم، وأن الفائدة من النسب هي العصبية، وعندما تذهب الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية «ابن خلدون المقدمة ص ١٩٤ - ص ١٩٥».

(٢) رواه الحاكم في صحيحه - انظر ابن تيمية - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية - دار المعرفة بدون تاريخ ص ٩.

الأصلح - والشروط التي ذكرت آنفا كما أوردتها الماوردي تؤمن هذا المطلب عند التقيد بها.

وأمر الأمة هي أمانة في أعناق أصحاب القرار فيها، والله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) [الأنفال: ٢٧].

وعكس خيانة الأمانة هو أداؤها على حقها، وفي ذلك يقول ابن تيمية: «إن المؤدي للأمانة مع مخالفة هواه يثبتته الله فيحفظه في أهله وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده فيذل أهله، ويذهب ماله<sup>(١)</sup> وما حدث لعمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه مع أبنائه خير شاهد على ذلك حين قال عن أولاده.. (وإنما هم أحد رجلين إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله).

وعند تعذر وجود الأصلح يتم اختيار الأمثل فالأمثل، والله تعالى يقول: ﴿فَأَنْفَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وضبطا للمصلحة فإنه يقدم لإمارة الحروب الرجل القوي الشجاع وإن كان فاجرا، على الرجل الضعيف العاجز وإن كان آمينا.

وقد قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ) وروي: «بأقوام لا خلاق لهم».

وروى مسلم أن الرسول ﷺ قال لأبي ذر: (يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أَحَبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي لَا تَأْمَرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوْلَيْنِ مَالَ يَتِيمٍ)<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نجد التشدد في ضبط المصلحة، دون وضع أطر محددة لشكل وممارسة الحكم.

(١) ابن تيمية - السياسة الشرعية - ص ١١.

(٢) راجع، ابن تيمية - المرجع السابق ص ١٧.

يقول الماوردي: «إذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار وتصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً، وأكملهم شروطاً، ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته، فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أداهم الاجتهاد إلى اختياره عرضوها عليه»<sup>(١)</sup>.

ويراعى في الاختيار «ما يوجبه حكم الوقت» فإن كانت الحاجة لقيادة الحروب كان اختيار الأشجع أولى، وإن كانت الحاجة إلى فضل العلم... كان الأعلم أحق<sup>(٢)</sup>.

### عزل الأمير أو الثورة عليه:

يقول الماوردي «وإذا قام الإمام بما ذكرنا من حقوق الأمة فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم، ووجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة ما لم يتغير حاله».

والحقوق الواجبة للأمة على الإمام هي: حفظ الدين وحراسته وإقامة الحدود، ثم تنفيذ الأحكام بين المتخاصمين وإقرار العدل، وحماية التجارة ونشر الأمن في ربوع البلاد، والدفاع ضد كل عدوان خارجي، وجباية الضرائب والصدقات، وإنفاقها على مصارفها، ومن كبرى الواجبات: تقديم الأمناء والنصحاء وتقليدهم أمور الأمة، وعلى الإمام أن يقوم بنفسه بتفحص الأحوال (لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح).

هذه عناوين رئيسة للحقوق التي لخصها الماوردي، فإذا عجز الإمام عن القيام ببعضها فإن حاله يتغير، فيفقد مبرر وجوده كإمام للأمة (والذي يتغير به حاله فيخرج به عن الإمامة شيئاً: أحدهما جرح في عدالته، الثاني نقص في بدنه) والجرح في عدالته يكون باعترافه محظوراً وإقدامه

(١) الماوردي - الأحكام السلطانية - ص ٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٧.

على منكر ينقاد فيه للهوى والشهوة، والأمر الثاني أن يؤول به تفكيره إلى الكفر.

وأما النقص في البدن فيخرجه من الإمامة إذا كان يؤثر على مباشرته عمله، مثل زوال العقل أو ذهاب البصر.

ومن الأمور التي تخرجه من الإمامة: الحجر والقهر، كأن يستبد به بعض أعوانه ويسيطرون على أموره والتصرف بها في معصية، وذلك بالخروج عن حكم الدين ومقتضى العدل، والقهر هو الوقوع بالأسر في أيدي الأعداء، سواء كانوا مشركين أو مسلمين، ويعود لإمامته في حالات منها ألا يكون مئوسا من خلاصه وفكاكه<sup>(١)</sup>.

والجهة التي تقرر تغير حال الإمام، وإن لم يقل ذلك صراحة الماوردي، هي: أهل العقد والحل، تعقد للإمام وتحله من إمامته، أي أنها مؤسسة متكاملة تنظر في أمور الخليفة، وفي هذه الحالة فلا مبرر لحديث عن ثورة أو مقاومة ضد رأس الدول وهكذا يكون الماوردي رحمه الله تعالى قد سبق أكثر أنظمة العالم انضباطا ورقيا في إيلاء أمر الأمة إلى مؤسسة سياسية مؤلفة من مجموعة، يحمل الفرد فيها صفات مشابهة إلى تلك التي يجب توفرها في الإمام كالعدالة الجامعة لشروطها، والعلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحقها على الشروط المعتبرة فيها، والرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح وتديره للمصالح أقوم وأعرف<sup>(٢)</sup>.

إن الدولة تقوم على مثل هذا النظام السياسي من الصعب أن تجري عليها التطورات الطبيعية أو المراحل التي تحدث عنها ابن خلدون في عمر الدولة، لأن أولي النهى، أي أولي العلم والمعرفة سيجددون حياتها المرة تلو الأخرى، وذلك بما يرفدونها به من حصافة الرأي ونضج الخبرة وشفافية الرؤية والتوقع، معالجين الحاضر بما يلزم ومعدنين للمستقبل ما يستوجب..

(١) يراجع - الماوردي - الأحكام السلطانية - بتصرف - ص ١٥ - ٢٠.

(٢) الماوردي - المرجع السابق - ص ٦.

إلا أن النظرية السياسية عند الماوردي ما زالت في حاجة إلى تحديد الكيفية التي تشكل فيها هذه المؤسسة «أهل العقد والحل» وهذا ما يستوجب اجتهدا، ليس من الصعب استكمالها، وعندها يستطيع المتبصر في الأمور أن يأمن إلى حاضر دولته ومستقبلها، وهذا ما يجب التركيز عليه في محاولة ضمان واقع مستقر ومتقدم في طريق استعادة وجود الدولة الإسلامية، وضمان استمرارها وتقلدها موقعها الطبيعي بين أمم العالم المعاصر.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولقد ذهب المسلمون مذاهب شتى في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وابن حزم رحمه الله تعالى لخصها تحت عنوان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)<sup>(١)</sup>.

وفي هذه المسألة مذهبان<sup>(٢)</sup>: مذهب الصبر، ومذهب السيف:

### حجة المذهب الأول:

احتج هؤلاء بحديث رسول الله ﷺ «أنقاتلهم يا رسول الله؟ قال: لا، ما صلّوا» (وفي بعض الأحاديث إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان).

«وفي بعضها»: فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فاطرح ثوبك على وجهك وقل أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار «وفي بعضها» كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل «وإخبار القرآن الكريم عن قصة ابني آدم تؤكد ما ذهبوا إليه»<sup>(٣)</sup>.

(١) الاقتباس من ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل - دار المعرفة بيروت - ط ٢ سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م - مجلد ٣ - ص: ١٧١ - ١٧٦ بتصرف.

(٢) للإمام الشاطبي نظرة خاصة في كل مذهب وما ساق أدلة من الكتاب والسنة والعقل فيقرر في موافقاته: أنه لا تعارض بين النصوص، وأن المسألة قائمة على قاعدة المصالح والمفاسد.

(٣) روى مسلم: عن وائل الحضرمي قال: سأل سلمة بن يزيد الحضرمي رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله أورايت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم، ومنعونا حقنا فما تأمرنا؟ =



حجة المذهب الثاني: يعبر ابن حزم عن المذهب فيقرر أنه لا يجب السكوت عن الإمام الذي يأمر بالمعصية «فمعاذ الله أن يأمر رسول الله ﷺ بالصبر على ذلك» ويستشهد بقول الله عز وجل: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)<sup>(١)</sup>.

ويعتبر أن المظلوم الذي يستطيع أن يرفع الظلم ويرده عن نفسه ولا يفعل فإنما هو معاون لظالمه على الإثم والعدوان، وهذا حرام بنص القرآن.

ويرى ابن حزم بأن مسألة ابني آدم هي شريعة أخرى غير شريعتنا، وأما الأحاديث فقد صح عن رسول الله ﷺ قوله: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ<sup>(٢)</sup>، ويستشهد بقول الرسول ﷺ: لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف.. فَإِنْ أَمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ..<sup>(٣)</sup> ثم الحديث: (لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيَعْمَلَنَّ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ).

إن ابن حزم تكلم عن وجوب مقاومة الظلم، وهذا لا خلاف فيه،

= فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس وقال: اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم، وفي رواية قال: فجذبه الأشعث بن قيس فقال رسول الله ﷺ «اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم» وفي الحديث رقم ١٢٢٩ من المرجع نفسه: عن أم سلمة رضي الله عنها أنه قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا» أي من كره بقلبه أنكر بقلبه - الحديث ١٢٢٧ مختصر الحافظ المنذري - صحيح مسلم.

(١) ابن حزم، الفصل في الأهواء والملل والنحل - المرجع السابق.

(٢) الحديث رقم ٣٤ من المنذري مختصر صحيح مسلم.

(٣) الحديث رقم ١٢٢٥ عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً، فأوقد ناراً، وقال: ادخلوها، فأراد أناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنما فررنا منها، فذكر ذلك لرسول الله [ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة»، وقال للآخرين قولاً حسناً، وقال لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف.

لكنه لم يضع ضوابط تضمن المصلحة وتبعد المفسدة، فإذا حصل منكر من الإمام، فكيف تتم مقاومته؟ هل يحصل ذلك بعشوائية جماهيرية، أو أن هناك مؤسسة تتولى التصحيح أو تقرر العزل وهي الجهة المخولة بالرقابة والتسديد والعقد والحل...؟

وهنا يضرب مثل في إقامة الحدود وهو: هل يجوز لأي فرد من المسلمين أو مجموعة أن تقوم بتنفيذه دون تكليف من الإمام أو الجهة المخولة بحفظ الأمن مفوضة من رأس الدولة؟

إن تنفيذ الحدود لا يكون إلا بوجود الإمام وبأمر من سلطته، والوقوف في وجه الإمام لا يكون إلا لأهل العقد والحل، يسدّدون له مسيرته أو يحلّونه من البيعة إن رأوا لذلك ما يبرره.

إن العشوائية في طرح الأحكام واستصدار الاستنتاجات أوقعت جماهير الأمة المسلمة في حيرة من أمرها، وضيعت عليهم وحدتهم، وأفقدتهم نتائج اجتهاد علمائهم وتركت العوام يهيمنون في كل منعطف وواد.....

إن النظرية السياسية التي طرحها الماوردي رحمه الله تعالى تضمن استقرار الدولة وتحول دون ظلم الإمام، وتبعد العوام عن القيام بردات فعل بحجة الجهاد في وجه السلطان الجائر.

إن كارثة المسلمين في استشهاد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وما أعقب ذلك الحدث من فتن لم يخمد لهيب نيرانها حتى اليوم، إن تلك الكارثة كافية لأن تجعل المسلمين يلتزمون في مؤسستهم السياسية أهل العقد والحل ويطورونها ويضعون لها الأطر والتنظيمات التي إن تم الالتزام بها، أمنت لهم حياة فيها من السعادة والاستقرار ما يصعب تصوره، ثم إن من المنكر أن تترك الفرصة للأفراد كي يقتربوا أعمالاً ما تحت شعار حديث رسول الله ﷺ «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ...» والمقتول دون مظلمة شهيد<sup>(١)</sup>.

(١) راجع، ابن حزم - المرجع السابق ص ١٧٣ م.

فلا بد من قيام المؤسسة السياسية في الدولة بهذه المهمة هذا هو الأولى والأففع وإلا فما يدرينا أن يكون الأعداء قد خططوا من وراء ذلك لإيقاع المسلمين في دوامة من الحرب الداخلية وذلك بزرعهم عناصر من الشعب مظهره الإسلام أو الغيرة عليه، وهكذا تقع الأمة في دوامة، الحليم فيها حيران.

إن مسألة الثورة على الإمام تم الاستدلال عليها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن القائمين بها لم يضعوا ضوابط وأطرا تحول دون الوقوع في الفتنة وسفك الدماء، وهذا ما كان يحصل دائما، لا بل إن ما حصل أكثر من ذلك، فإن ممارسة الثورات كانت دائما وراء تدمير قوة الأمة وإنهاك أهلها.

غير أن الجميع اتفقوا - بلا كيف - ما عدا الماوردي، وبعض التلميحات عند ابن حزم، على وجوب عزل الإمام المجاهر بالمعصية والذي يحكم بغير حكم الله تعالى، ولم يتفقوا على مصير الإمام الذي يرتكب الفسق ولا يجاهر به أو الإمام الذي لا يعتبر أهلا للخلافة في نظر البعض دون البعض الآخر<sup>(١)</sup>.

### خصوصية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان إذ كانت إقامة الحدود إليه، والتعزير إلى رأيه، والحبس والإطلاق له، والنفي والتغريب، فينصب في كل بلد رجلاً صالحاً قوياً عالماً أميناً ويأمره بذلك.. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٢)</sup> [الحج: ٤١].

(١) يراجع: محمد فاروق النبهاني - نظام الحكم في الإسلام - مؤسسة الرسالة - بيروت -

ط ٢ سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - ص ٤٨٠ - ٤٨٢.

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٤٧.

ويرى في تفسيره لمطلع الآية: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] (أن الأمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء)<sup>(١)</sup> وأما إجماع المسلمين على إنكار المنكر نزولاً عند حديث رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَراً فَلْيُعَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» فهذا أمر يحتاج إلى حكمة وعلم ومعرفة، ولا يجوز أن يتحول إلى حالة مرضية أو إسقاطية كما يتصرف الكثيرون ممن ابتلوا بالجنوح أو الهوس العقلي، فيتحولون إلى لوامين وزاجرين للآخرين تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إن العلماء قالوا: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء، يعني عوام الناس<sup>(٢)</sup>.

ولقد قال سهل بن عبدالله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه، وليس على الناس أن يأمرُوا السلطان، لأن ذلك لازم له واجب عليه، ولا يأمرُون العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم<sup>(٣)</sup>.

وإلى هذا يذهب ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وإقامة الحدود واجبة على ولاة الأمور وذلك يحصل بالعقوبات على ترك الواجبات وفعل المنكرات<sup>(٤)</sup>».

ويقول ابن خلدون: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مهمة أو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له<sup>(٥)</sup>.

(١) تفسير القرطبي ج ٤ - ص ١٦٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٩.

(٣) تفسير القرطبي - ج ١٢ - ص ٧٣.

(٤) ابن تيمية - الحسبة - ص ٥٧.

(٥) ابن خلدون - المقدمة - ص ٢٢٥.

إن قضية الاحتساب على الأئمة ومدى مشروعية عزلهم بالفسق وبيان مذاهب أهل العلم بالتفصيل من القضايا الرئيسية التي نأمل أن نكتب فيها بحثاً مستقلاً إن وسع الأمر =

إن مقتضيات البحث تقضي بالتوقف عند هذا الحد في تبيان مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك إلى فصل آخر يصار فيه إلى إظهار النتائج التي آلت بالأمة إلى ما يشبه زوال الحال بسبب سوء فهم هذه المسألة وتركها جرحاً مفتوحاً، تندس منه جرائم العابثين والطامحين بلا علم ولا معرفة وذلك تحت عنوان «دعاة الإصلاح في قفص الاتهام» بحيث يتناول تجارب معاصرة أو قريبة من ذلك.




---

= وهنا نحيل إلى مراجع كتبت في ذلك: كتاب للدكتور عارف أبو عيدو للشيخ سالم طعمة الشحري.

أما عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير إقامة الحدود والتعازير فهذا واجب على كل مسلم في حدود الاستطاعة لقوله ﷺ «بلغوا عني ولو آية» ولقوله ﷺ من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع . . . . .» والذي يحتاج إلى إذن عند القائلين به هو المتعلق بالحدود والتعازير، وهذا منوط بالمؤسسات المقتنة في الدولة.



## الفصل الثاني:

# حركات إصلاحية ودولة إسلامية

□ المبحث الأول: واقع وتاريخ «دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى».

□ المبحث الثاني: «دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» والدولة السعودية.

□ المبحث الثالث: دعوات بين الإصلاح والدولة.







## المبحث الأول

واقع وتاريخ الإمام المجدد  
الشيخ محمد بن عبد الوهاب  
(١١١٥ - ١٢٠٦ هـ) «١٧٠٣ - ١٧٩١ م»

### نجد قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

يبدو أن حالة التخلف على الصعيدين الديني والاجتماعي قد طبعت الحياة في نواحي نجد، وهذا واقع تترافق معه بشكل تلقائي العودة إلى بدائية جاهلية كان قد بددها الإسلام من قبل.

فقد كثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور، والبناء عليها وكذلك التبرك والنذر لها، والاستعاذة بالجن والذبح لها، ووضع الطعام وجعله في زوايا البيوت لشفاء المرضى ونفعهم... هذا الواقع يرى فيه ابن بشر إفشاء للشرك في نوعيه الأكبر والأصغر<sup>(١)</sup>.

وأما عبد الرحمن آل الشيخ فإنه يؤكد ظهور الشرك فعلاً وذلك من خلال عبادة المخلوقات، ولقد استنتج نظريته تلك من خلال ما كان الناس يفعلونه على «قبر زيد بن الخطاب يسألونه قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وقبر يزعمونه لضرار بن الأزور «استشهد يوم اليمامة» وشجرة تسمى

(١) الشيخ عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، وزارة المعارف السعودية -

«الطرفية» يعتقدون فيها كما اعتقد قبلهم في ذات أنواط مشركو الجاهلية، ومغارة يسمونها مغارة بنت «الأمير» لها قصة على زعمهم تاريخية، وطاغوت عندهم يسمى «يوسف»، وثالث يسمى «شمساناً» يعبدونهم زاعمين أن لهم تصرفاً ونفعاً، وفحول نخل يختلف إليها نساؤهم إذا لم يلدن، أو لم يتزوجن، يقلن له: يا فحول الفحول نريد ولداً أو زوجاً قبل الفحول<sup>(١)</sup>.

ويذهب بعض الكتاب إلى المقارنة بين عصر الرسول ﷺ وعصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب<sup>(٢)</sup> إن وجه الشبه تلخص في الفساد في العقيدة والعادات والتوجه إلى الوثنية، وفي الحاجة إلى من يخلصهم مما هم فيه من جهالة.

وعن الواقع السياسي للجزيرة العربية، ينقل مصطفى الرافعي عن «لادي بلنت» قولها بأن الجزيرة العربية لم تكن خاضعة للسلطنة العثمانية المركزية، وكانت كل بلدة تبدو مستقلة بذاتها، وأن أمر الدين تقهقر، وأصبح عنصر البداوة هو المسيطر «فكانت كل مدينة، بل كل قرية في جزيرة العرب، تعد ملكاً أو إقطاعاً لأحد شيوخ العشائر»<sup>(٣)</sup>.

### شهادة ميلاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب<sup>(٤)</sup>:

ولد في بلدة العيننة القريبة من الرياض، وتلقى علومه الأولى على يد والده دارساً شيئاً من الفقه الحنبلي والتفسير والحديث، ثم انتقل إلى المدينة

(١) عبدالرحمن بن عبدالله آل الشيخ - مشاهير علماء نجد وغيرهم، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - ط ٢ سنة ١٣٩٤هـ.

(٢) الشيخ أحمد بن حجر آل بن علي - الشيخ محمد بن عبد الوهاب، من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية - ١٣٩٣هـ - انظر كامل المقارنة من ص - ٧١ - ٧٤.

(٣) مصطفى الرافعي - الدعوة والدعاة في الإسلام - دار الشمال لبنان - ط ١ - سنة ١٩٧٧ - ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) انظر، مجلة المجتمع د. عجيل النشمي - ظهور حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عدد ٤٩٢ - تاريخ ١٩٨٠/٨/٥ - ص ٤٤ - ٤٦.

المنورة ليتزود بالعلم الشرعي، وفيها التقى بشيخه محمد حياة السندي «ت - ١١٦٥هـ» صاحب الحاشية على صحيح البخارى وكان تأثره به عظيماً.

وبعد عودته إلى «العينية» توجه إلى البصرة وبغداد والموصل، حيث تلقى العلوم على مشايخها وأخذ عنهم، ثم غادر البصرة إلى الأحساء، ثم إلى حريملاء التي كان والده يعمل فيها قاضياً، لكنه ما لبث أن غادرها بسبب تأمر نفر من أهلها عليه لقتله.

ثم وجد معيناً له في «العينية» مسقط رأسه، وذلك من أميرها «عثمان بن معمر» الذي قام معه بهدم القبور والقباب، وأعانه على رجم امرأة زانية جاءتته معترفة بذلك<sup>(١)</sup>.

وجاء في قاموس الأعلام للزركلي أنه بعد انتقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى العينية، نهج منهج السلف الصالح، داعياً إلى التوحيد الخالص، ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام، وهذا كان سبباً في ارتياح أمير العينية «عثمان بن معمر» إلى دعوته فناصره، إلا أنه تخلى عنه بعد ذلك، فتلقاه أمير الدرعية في نجد سنة ١١٥٧هـ محمد بن سعود وقبل دعوته وآزرها<sup>(٢)</sup> غير أن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تنبئ عن نبوغ مبكر له، يقول شقيقه الشيخ سليمان: «كان أبوه يتعجب من فهمه، ويعترف بالاستفادة منه مع صغر سنه» ومن المعلوم أن والده كان مفتياً وقاضياً، وكذلك جده الذي شغل منصب مفتي جميع الديار النجدية<sup>(٣)</sup>.

والواضح هو أن المترجم له نشأ في بيئة حنبلية كانت معروفة بإنكارها للبدع، وفي جو من البداوة يجعل إمكانية التغيير أسهل منها عند أهل المدن

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض - ط ١ سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨ م - ص ٢٧٣.

(٢) انظر - خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم - دار العلم للملايين بيروت - ط ٥ سنة ١٩٨٠، م ٦، ص ٢٧٥.

(٣) عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ، مشاهير علماء نجد وغيرهم، دار اليمامة في السعودية، ط ٢ - سنة ١٣٩٤ - ٥ - ص ٢١.

«والبدو لا يجمدون على علم كما يجمد الحضر، فتكون زحزحتهم عن الجمود أسهل زحزحة من غيرهم».

ويبدو أن كثرة أسفار الشيخ محمد بن عبد الوهاب أكسبته شخصية مميزة، وهذه هي سمة العلماء من قبل «قيل للإمام أحمد: رجل يطلب العلم، يلزم رجلاً عنده علم كثير، أو يرحل؟ فقال أحمد: يرحل.. يكتب عن علماء الأمصار» ومما اشتهر به أئمة الحديث كثرة الارتحال وملازمة الأسفار، متأسين بالصحابة والتابعين «فقد كان الواحد منهم يبلغه الحديث بطريق الثقات فلا يكتفي بهذا، بل يرحل الأيام والليالي حتى يأخذ الحديث عن رواه بلا واسطة<sup>(١)</sup> ولقد شملت رحلة الشيخ بغداد، وكردستان وهمدان وأصفهان، والري وقم في إيران ثم توجه إلى تركيا ومنها إلى حلب ودمشق والقدس، وبعدها توجه إلى مصر حيث مكث فيها سنتين وأياماً، وكان مسكنه الجامع الأزهر، وبعد رحلة طويلة عاد إلى مسقط رأسه في الجزيرة العربية، وإن كان منير العجلاني ينقض بعض هذه الرواية فيشكك في سفر الشيخ إلى اليمن ومصر<sup>(٢)</sup>.

### وقفة تأمل:

يحار الباحث في حقيقة الواقع الذي كانت عليه بلاد نجد إبان بداية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد صورت حالة تلك البلاد بالجاهلية التي تعود لما قبل الإسلام<sup>(٣)</sup>، «وأما من الناحية الدينية، فكانت تشبه حال الجاهلية، إلا من عصم ربك... ذلك أن عبادة الجن، في ظل شجرة وفي أعماق كهف، وتقديس الموتى... كل أولئك كان يختلط عند أهل نجد بعادات «للصائبة» قديمة أحيوها، بينما أهملوا القرآن، وما عادوا يعرفون في

(١) انظر منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، بدون ناشر - ط ٢ سنة ١٤١٣ هـ -

١٩٩٣، ج ١ - ص ١٨٣.

(٢) انظر المرجع نفسه ص ١٨٨ - ٢٠١.

(٣) انظر - الشيخ عثمان بن بشر، المرجع السابق - ص ١٦.

أي جهة تقع القبلة، وتناسوا الزكاة والصيام والحج..»<sup>(١)</sup> ونجد صورة أخرى معاكسة لها تماماً، وذلك في المرجع نفسه، لقد رسم منير العجلاني المحيط الأوسع الذي ترعرع فيه الشيخ بن عبد الوهاب بأبهى حلة وأروع بيان: «وحيثما أدار طفلنا النابه نظره - بين أقرائه من بيوت آل مشرف - لا يقع إلا على قاض أو فقيه وابن عمه «عبدالرحمن إبراهيم» عالم فقيه، وأخوه «سليمان» مقبل على العلم، وكل هؤلاء مشهود لهم بالخلق والذكاء، وهناك عشرات غيرهم»<sup>(٢)</sup>.

إن هذا الأسلوب في عرض الأشخاص أو الأفكار التي يدعو لها، إنما وقع فيه حتى أولئك الذين كتبوا عن فجر الدعوة الإسلامية لقد ظن البعض خطأ، أن البون الشاسع جداً بين البيئة قبل نشوء الدعوة وحالها بعد ذلك إنما يخدم مصلحة الدعوة الناشئة، ويظهر عظمتها وقدرتها على اختراع المعجزات، ومن هذا المنظور تم تصوير المجتمع في مكة والجزيرة العربية قبل الإسلام بأبشع صورة وأكثرها وحشية، مع أن الحقيقة قد لا تصل إلى ذلك الحد، والمصلحة غير ما تم تخيلها أيضاً.

إن تفوق داعية ما، أو سمو دعوة ما، أو إنجازات رسول ما بين قوم كانوا على مستوى من الوعي والدراية هو أعظم بكثير من تفوق آخر على جاهلين ومتخلفين ومتوحشين.. إن عظمة المرء أكبر وأجل عندما يصبح عملاقاً في وسط أقوياء وعمالقة.....

إن المجتمع الجاهلي الذي سبق الإسلام عرف أموراً كثيرة هي منتهى السمو والإنسانية، حيث كانت بقية الحنيفية، دين إبراهيم عليه السلام ومجاورة اليهودية والنصرانية وإن كان لليهودية وجودها الذي لم يغفله مؤرخ عن الجزيرة العربية، وكان العرب يتمتعون بشهامة قل نظيرها، ينتصرون

(١) انظر منير العجلاني - المرجع نفسه السابق - ص ٣٧.

(٢) انظر - منير العجلاني - المرجع نفسه - ص: ١٨٠ - انظر مجلة المجتمع - د. عجيل النشمي - الوهابية أولى الحركات الإسلامية - العدد ٤٩١ - تاريخ ١٩٨٠/٧/٢٩ م - ص ٤٥ - ٤٧.

للمظلوم ويكرهون الظلم، عندهم شرعة الإجارة التي لم يرق إليها نظام اللجوء السياسي في العالم المعاصر، وكذلك الأشهر الحرم، حيث تنعم تلك الأصقاع بسلم شامل تتوقف فيه كل الصراعات، ولا يخاف فيها إنسان على نفسه حتى من ألد خصومه.. مهما كانت جريمته، ويتعدى ذلك السلم البشر حتى يصل إلى الحيوانات «غير المؤذية»، ولحاء الشجر المحيط بالكعبة<sup>(١)</sup>، وكان عندهم الذوق الأدبي والخيال الخصب الذي يحيل قصائدهم إلى لوحات ينبعث من بين أبياتها أريج الأنفة والشهامة والسمو...

في ذلك الجو كان رسول الله ﷺ، ومن ذلك الواقع أرسى الإسلام بناء شامخاً، حالت عظمته دون أية رؤية جمالية في العهد الذي سبقه...

وهكذا فالباحث يجد نفسه أمام الإشكالية ذاتها وتطابق المنهج في التفكير عندما يقرأ عن نجد ودعوة الشيخ محمد عبدالوهاب.

### دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وآل سعود:

بعد أن اضطهد الشيخ في بلدة العيينة، واضطر للخروج إلى الدرعية مقر آل سعود، حيث تقبل أميرها دعوته وتعاهدا على الدفاع عن الدين ومحاربة البدع<sup>(٢)</sup>.

وبفضل الله ثم جود ابن سعود وصلت الدعوة الإصلاحية التي قادها وحمل لواءها الشيخ محمد إلى أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية، ووصل تأثيرها إلى دمشق وجنوب العراق.

ولما استولى ابن سعود على مكة عام ١٢٢٠هـ ومنع الحجاج من ممارسة عادات وتقاليد آبوا عليها منذ فترة مثل اصطحابهم الطبل والزمر

(١) كان الناس يتخذون من لحاء الشجر حول الحرم عقوداً يعلقونها في رقابهم كي يصبحوا في مأمن من الاعتداء عليهم حتى بعد انقضاء الأشهر الحرم.

(٢) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية - ط ٣ سنة ١٩٧١م - ص ٢٠.

والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع، عندها شعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها، فأرسل السلطان محمود إلى محمد علي باشا والي مصر أن تسير جيوشه لمقاتلة «الوهابيين»، وكذلك تم بث الدعاية في جميع الأقطار الإسلامية للنيل من هذه الدعوة وتكفير متبعيها، وحمل عليها علماء المسلمين حملات منكرة، وألفت الكتب الكثيرة في التخويف منها والتشنيع عليها.

ومما قاله محمد علي باشا في أعيان الديوان: «لا يخفاكم أن الحرمين استولى عليها الوهابيون ومشوا أحكامهم بها، وقد وردت الأوامر السلطانية المرة بعد المرة للخروج إليهم ومحاربتهم وإجلالهم وردهم عن الحرمين الشريفين»<sup>(١)</sup>.

### الجبرتي يقارن بين جيش محمد علي وجيش ابن سعود:

في أعقاب الهزائم التي أصيب بها جيش محمد علي باشا «طوسون»، انزعج محمد علي كثيراً، يقول الجبرتي: إن بعض الصالحين من قادة الجيش قال له «أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهباً وصحبنا صناديق المسكرات، ولا يسمع في معسكرنا أذان ولا تقام به فريضة، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين، وأما عن حال أهل الحجاز ممن هم في عداد جيش ابن سعود فهم «إذا دخل الوقت أذن المؤذن فينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك، لأنهم لم يسمعوها به فضلاً عن رؤيته، وكان جنود ابن سعود أيضاً يحضون بعضهم بعضاً على القتال ضد «... المستبشرين للزنا واللواط،

(١) انظر: منير العجلاني - المرجع السابق - ج ٣ - ص ٩١ - ٩٣ - انظر - أحمد أمين المرجع السابق ص ٢١.

انظر - الشيخ عبدالرحمن الجبرتي. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار - دار الجيل بيروت - بدون تاريخ ج ٣ - ص ٢٣٥.

الشاربين الخمرور، التاركين للصلاة، الآكلين الربا، القاتلين الأنفس، المستحلين المحرمات» وأنهم قد كشفوا عن كثير من القتل فوجدوهم غير مختونين.

وأما جيش محمد علي باشا فإنه سيطر على «بدر»، والقرى التي حولها، يقول الجبرتي (وبها خيار الناس وبها أهل العلم والصلحاء) فإن هذا الجيش ارتكب الموبقات (نهبوهم وأخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعضهم لبعض، ويقولون هؤلاء الكفار الخوارج) وفي أبشع صورة وأعظم مأساة يقول الجبرتي: (حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحاء طلب من بعض العسكر زوجته فقال له حتى تبيت معي هذه الليلة وأعطيتها لك من الغد)<sup>(١)</sup>.

وعن معاملة الوهابيين للحجاج قال الجبرتي: إنه في الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٢٧هـ وصل الحجاج المغاربة الذين أتوا عن طريق الشام (وأخبروا أنهم قضوا مناسكهم وحجوا وزاروا المدينة وأكرمهم الوهابية إكراما زائداً)<sup>(٢)</sup>.

وأما حال جيش محمد علي باشا في مصر فكان مدعاة للأسى والحزن، ففي مناسبة شهر رمضان حيث كانت ترسل نجدات لجيش إبراهيم باشا في الحجاز، فإن الجموع المحتشدة في مصر استباحوا (الفطر في رمضان بحجة السفر فيجلس الكثير منهم بالأسواق يأكلون ويشربون ويمرون بالشوارع وبأيديهم أقصاب للدخان والتتن من غير احتشام ولا احترام لشهر الصوم) والغريب العجيب أن هؤلاء (في اعتقادهم الخروج بقصد الجهاد وغزو الكفار المخالفين لدين الإسلام)<sup>(٣)</sup> وأما عن البذخ في إطلاق المدافع وإقامة الاحتفالات في كل مرة تأتيهم أخبار عن انتصارات جيشهم المهاجم لبلاد الحجاز، فإنه أمر في غاية الصعوبة وإمكانية التصور (بحيث إنهم

(١) انظر - الجبرتي، المرجع السابق، ج ٣ - ص ٣٤١ - ٣٤٢.

(٢) الجبرتي المرجع السابق - ص ٣٤٥.

(٣) المرجع نفسه ص: ٥٨٠.



يضربون المدفع الواحد اثنتي عشرة مرة وقيل أربع عشرة مرة في دقيقة واحدة، فعلى هذا الحساب يزيد ضرب المدافع في تلك المدة على ثمانين ألف مدفع بحيث يتخيل الإنسان أصواتها مع أصوات بنادق الخيالة المتراحمين رعوداً هائلة<sup>(١)</sup>.

وفي أواخر أيام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م تمكن جيش محمد علي باشا من تدمير الدرعية، وأسر عبدالله بن سعود الذي منح الأمان وأحضر إلى مصر، ثم أرسل إلى السلطان العثماني في إستانبول «الآستانة» حيث تم قتله مع أعوانه هناك<sup>(٢)</sup>، علماً بأن الأمير السعودي كان يعترف بسلطة السلطان العثماني، ويعتبر نفسه كأحد ولاته، ومن بين الرسائل التي خاطبه بها ما يثبت ذلك (.. فإنني أطوف حول كعبة آمال العبيد التي هي أعتاب دولة مولانا قطب دائرة الوجود، وروح جسد العالم الموجود، وملاذ الحاضر والبادي، ومحط رحال آمال الرائح والغادي.. من نام في ظل عدله كل خائف، ولجأ إلى حماه كل عاقل عارف، ذي الأخلاق التي هي أرق من نسيم الصبا، مع الهيبة التي تحل من أجلها الحبا، سلطان البرين وخاقان البحرين، الذي برزت بطلعته طالع السعود السلطان بن السلطان سيدنا السلطان محمود الغازي)<sup>(٣)</sup>.

### الشيخ وابن سعود والإمارة:

إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته الإصلاحية ليست هي سبب وجود آل سعود على مسرح الحياة السياسية في الجزيرة العربية، فإمارة آل

(١) المرجع نفسه ص: ٥٩٢ - ٥٩٤.

يتساءل المرء أين كانت هذه القوة وثغور المسلمين كانت تسقط الواحد تلو الآخر؟!»، ولماذا لم تستعمل إلا في داخل الدولة الإسلامية؟.

(٢) راجع، الجبرتي - م. س. ص: ٦٠٠، راجع منير العجلاني م. س ج ٤٥ - ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٣) انظر مجلة المجتمع، د. عجيل النشمي، العلاقة بين دولة الخلافة والحركة الوهابية، ص ٣٨ - انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ابن بشر، م ١ - ص ١٨٥.

سعود كانت موجودة قبل وصول الشيخ إلى الدرعية حيث أتاها فاراً من اضطهاد أمير العيينة عثمان بن معمر، الذي كان يخضع للأمير الإحساء ابن عريعر الذي أرسل له كتاباً جاء فيه:

«إن المطوع الذي عندك قد فعل ما فعل، وقال ما قال، فإذا وصلك<sup>(١)</sup> كتابي فاقتله، فإن لم تقتله، قطعنا خراجك الذي عندنا في الإحساء» والغزو والصراع إنما كان شأن كل الإمارات، فلقد اعتاد حكام الإحساء - عبر التاريخ - أن يغزوا نجداً وينهبوا قبائلها... وسيطر هؤلاء وأقاموا إمارات موالية لهم<sup>(٢)</sup>، إن وجود أمراء إقطاعات لم يكن حال الجزيرة العربية فحسب، بل كان حال الدولة العثمانية عامة، ومن ذلك ولاية محمد علي باشا الذي آل أمره إلى أن أصبح عدو الدولة اللدود وبسبب تحركات جيشه ضعفت الدولة المركزية، حيث إنه زحف إلى بلاد الشام ووصل حتى أضنة التركية، وهدد استنبول بالسقوط وهذا ما عجل بالتدخل الروسي، ثم بالتالي التدخل البريطاني ضده<sup>(٣)</sup>، زد على ذلك إمارة الشهابيين الجنبلاطين والمعنيين في جبل لبنان، آل سيفاً وآل عمار في ولاية طرابلس...

تبين مما سبق أن كل ما فعله من جديد الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو الدعوة إلى عودة الدين إلى أصله، فهو «لم يدع إلى حاكم بعينه أو إلى منطقة بذاتها، إنما دعا إلى فكر بعينه، واستنصر شيوخ نجد وحكامها واستنفرهم يبشر من يستجيب منهم بالعز والتمكين، وبهذا خرجت دعوة الشيخ من إطار الإقليمية الضيقة والوطنية المحدودة إلى دعوة للرجوع إلى السلف الصالح<sup>(٤)</sup>».

(١) راجع، أحمد بن حجر بن محمد... آل بن علي، الشيخ محمد بن عبد الوهاب المملكة العربية السعودية، من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية... ط ٢، سنة ١٣٩٣هـ، ص ٢٣.

(٢) انظر، عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، صراع الأمراء: علاقة نجد بالقوى السياسية في الخليج العربي، دار الساقى، لندن - ط ١ - سنة ١٩٩٠ - ص ١٣ وما بعدها.

(٣) انظر، جورج أنطونيوس، يقظة العرب - ص ٩٣.

(٤) راجع، عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، صراع الأمراء، المرجع السابق - ص ١٥.

إن الأثر الذي تركه الشيخ رحمه الله تعالى يدل على طبيعة دعوته، فقد تأثر بها رجال الإصلاح «في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، فظهر الألوسي الكبير في بغداد، وجمال الدين الأفغاني في أفغانستان، ومحمد عبده بمصر، وجمال الدين القاسمي بالشام، وخير الدين التونسي بتونس، وصديق حسن خان في بهوبال، وأمير علي في كلكتة.. وعرف من والاه وشد من أزره في قلب الجزيرة بأهل التوحيد «إخوان من أطاع الله» وسماهم خصومهم بالوهابيين «نسبة إليه» وشاعت التسمية الأخيرة عند الأوروبيين فدخلت معجماتهم الحديثة، وأخطأ بعضهم فجعلها «مذهباً (جديداً في الإسلام، تبعاً لما افتراه خصومه)»<sup>(١)</sup>.

وهذا كل ما أكدته حديثاً خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز في المؤتمر الأول لوزراء الإعلام في الدول الإسلامية بتاريخ ١٤١٠/٣/١هـ حيث قال: «لقد درجت كثير من الصحافة في عالمنا الإسلامي أو في عالمنا العربي أو العالم الغربي أو العالم الشرقي على نعت هذه الدولة بأنها «وهابية»، إن منهم من يعتبر هذا مديحاً إذا رضي ومن يعتبره ذمماً إذا غضب، ويرى أن «الوهابية» مذهب يخالف مذهب أهل السنة والجماعة ويخالف مذهب السلف الصالح..» وأنهى كلامه بهذا الخصوص قائلاً: «.. ليس هناك شيء اسمه وهابية» وبين أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد تعلم على يد علماء مسلمين أجلاء في الحرمين الشريفين، وكذلك فإنه تلقى علومه في أماكن أخرى من العالم الإسلامي إما عن طريق الوافدين لزيارة الحرمين أو من خلال أسفاره، وكان كل همه أن يبرز المفهوم الصحيح للعقيدة الإسلامية، وكان من أجل ذلك لقاءه مع الأمير محمد بن سعود رحمهم الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

### آل سعود وانهيار الدولة العثمانية:

إن معاداة الدولة العثمانية لآل سعود إنما كانت تدرج في عداد شرعة

(١) خير الدين الزركلي - الأعلام.. مرجع سابق - ٦م - ص ٢٥٧.

(٢) تراجع مجلة الرابطة الإسلامية، العدد ٢٨٦ السنة ٢٧ مرجع سابق - ص ٩.

العلاقات التي كانت تقوم بين هذا الأمير أو ذاك وبين السلطة المركزية، بحيث قد تؤيد أميراً ضد آخر، وتقر إمارة منتصر وتسحب اعترافها بالمنهزم، تلك هي نوااميس الدولة التي تبسط سلطانها بواسطة «الأمراء والمقاطعية...» وتأيد السلطة المركزية للأمير لا يعني تبرئته من العمل على هدمها، وليس ذلك تشريعاً وتنزيهاً له، وذلك ماثل للعيان من خلال تأييدها لمحمد علي باشا حيناً والاستعانة به حيناً آخر، ثم الاستعانة بالإنجليز على ضربه في النهاية.

وكذلك فإن تأييدها للشریف حسين وأبنائه في مكة ضد آل سعود لا يعني إطلاقاً تنزيهاً له وتبرئة ليدیه من معاداة الخلافة والقضاء عليها، وهذا ما أثبتته الأحداث فيما بعد.

إن الشریف حسين تحالف مع الإنجليز، وقاد الثورة ضد جيش الدولة المركزية، وأطلق عليهم رصاصه الرحمة من قصره في مكة، وقاد أبنائه القبائل العربية ضد الدولة العثمانية تحت إشراف ضابط إنجليزي، جهزته المخابرات البريطانية، وأرسلته إلى بلاد الحجاز<sup>(١)</sup>.

وعن علاقة الملك عبدالعزيز رحمه الله تعالى مع الإنجليز نرى أن السير برسي كوكس في أول اجتماع له مع ابن السعود حاول أن يغريه بإعلان الحرب على الأتراك، وأن بريطانيا ستساعده بالمال والسلاح، ولكنه اعتذر عن ذلك...»، الواقع أظهر بأن عبدالعزيز كان صديقاً للأتراك، فهذا جمال باشا يلتمس العذر لعبدالعزیز بن سعود فيقول على الرغم من قرب «من الإنجليز الذين كان في استطاعتهم إيصال الأذى إليه، كان شخصاً نافعاً جداً لنا إذ أرسل الجمال للجيش وسمح بتصدير التجارة من بلاده إلى سورية، كان ذلك في أواخر ١٩١٤م عندما أرسل الأتراك وفداً إلى المدينة المنورة إلى ابن السعود ومع الوفد عشرة آلاف ليرة التي يرجح بأنها كانت ثمن الجمال<sup>(٢)</sup>.

(١) راجع، ت. أ. لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، منشورات، المكتبة الأهلية، بيروت، ط ٢ - ١٩٧١.

(٢) انظر سليمان موسى، الحركة العربية «١٩٠٨ - ١٩٢٤».

وقيل بأن غالب باشا والي الحجاز أدرك في ١٩١٥م شيئاً مما يبطنه الشريف بسبب مجيء الرسل ورواحهم من بور سودان إلى الحجاز فأرسل ابن السعود رسالة مؤداها: «إنك تعلم بأعمال الشريف وأنا الآن أزيدك علماً أنه يفاوض الإنجليز وهو على وشك أن يخون الدولة ويفتح لأعدائها الحرمين، فإذا قدمت إلى الحجاز أسلمك الحرمين وأساعدك بكل ما لدي من قوة...»<sup>(١)</sup>.

### خلاصة القول في دعوة

#### الشيخ محمد بن عبد الوهاب والحركة السياسية معها

أولاً: من المستغرب أن يعاب على آل سعود توحيد بلاد نجد وحتى الشام واليمن بحجة أن ذلك كان بالقوة، فالسؤال هل كان بالإمكان توحيد تلك البلاد إلا بالقوة؟

ولماذا يشاد بالسلطان سليم لأنه وحد الولايات تحت سلطته وأسس الدولة العثمانية، وكذا فعل من قبله صلاح الدين وغيرهما من المشاهير الذين أسهموا في بناء قوة ذات فعالية في العالم...؟

لماذا يمتدح محمد علي باشا ويذم آل سعود؟ مع أن الصراع بقي سجلاً مع بقية الأمراء وأشهرهم آل الرشيد والأشراف...

ثانياً: إن المحب المفرط والمريد الجاهل والمنافق المتزلف يحمل متبوعه ما لم يحمل، ويقول ما لم يقل، ويبالغ في مدحه، حتى إنه يمكن تصويره في حالة هيجان عاطفي غير عقلاني وهذا ما يؤدي إلى الخيال في الوصف ويصل حد التأليه أحياناً «تنزه الله عز وجل» ومن ثم إلى ارتكاب العنف.

لم يختلف اثنان على أنه في الحقبة التي ظهر فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى كان العالم الإسلامي يشهد فيها تمزقاً لا مثيل

(١) المرجع نفسه: ص ١٨٣.

له، وكان القوي ينال ما ينال بقوته، وما على الدولة المركزية إلا أن تقر بالإمارة على المناطق التي يسيطر عليها.

وإذا كان ما فعله السنوسيون في شمال وداخل القارة الإفريقية مدعاة لمدحهم، فالحركة الوهابية المندمجة مع إمارة آل سعود لها الحق في مثل ذلك.

فالقبح قبح لذاته، يُنكر وجوده أينما وجد وحيثما تلبس به متلبس، والجمال جمال بذاته يحمد وجوده حيثما تم الاتصاف به، فإذا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد نهج على مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى، فما الجديد الذي أحدثه؟ يقول رحمه الله: «.. أما ما ذكرته من حقيقة الاجتهاد فنحن مقلدون السنة وصالح سلف الأمة، وما عليه الاعتماد من أقوال الأئمة الأربعة أبي حنيفة.. ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى»<sup>(١)</sup>.

**ثالثاً:** وأما بخصوص الخلاف مع السلطة المركزية، فليس بالضرورة أن يكون العقوق من الأصغر تجاه الأكبر، بل العكس قد يحصل وهذا يسبب جنوحاً في داخل الأسرة الأصغر، وأن يقال بأن الحركة - الفلانية ثارت على الدولة العثمانية وكانت سبباً في إضعافها وتمزقها، فلماذا لا يقال العكس وهو أن الذين كانوا في سدة الحكم والمسؤولية أخرجوا الناس فأخرجوهم؟

إن العدل وحسن القيادة، والمعرفة في تصريف الطاقات وإعداد ما يجب أن يعد، هو أسهل على السلطة من تحمل الأفراد لكل الظلم والإقصاء عن مسرح الحياة، وهم يرون دولتهم آيلة إلى الانهيار، وإن الأمم الأخرى تتكالب عليهم وليس من حام للحمى.

ما عساه أن يفعل من يرى الخلافة تتهاوى بطريقة توحى للرأي وكأن

(١) انظر المجتمع، د. عجيل النشمي، الحركة الوهابية في الميزان «الشبهات» العدد ٥٠١ - تاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٨٠م، نقلاً عن الرسائل ٩٦.

إعصاراً قد هب عليها من كل جانب، أليس عنده غريزة الخوف؟ إن الأمر الطبيعي أنه سيتصرف، وقد يخطئ لكن المسؤول الأول هو أولى بتحمل تبعه ما يحصل من ضياع.

يقول أد. عجيل النشمي: «.. أما وضع دولة الخلافة في تلك الفترة.. فإن ما فيه عدم الاستقرار الشرعي.. والوضع المناخي في كثير من جنباته لما يستلزم السير على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، بل إن بصمات القانون كانت واضحة فيما خلا الأحوال الشخصية والقضايا المدنية... تجنب كتاب الله وسنة رسوله سدة الحكم لا يعلوه ذنب أضف إلى ذلك الممارسات السلطانية الخاطئة...»<sup>(١)</sup>، ويقول أد. النشمي عن خروج الحركة الوهابية على الدولة «... ذلك أن إجماع المسلمين الواعين الرامين إلى عز الإسلام وحفظ بيضته من أن تُثلم أو تُهدم كان مستقراً على أن وضع الخلافة العثمانية ينبغي إصلاحه لا هدمه...»<sup>(٢)</sup>.



(١) المجتمع، د. عجيل النشمي، العلاقة بين دولة الخلافة - والحركة الوهابية، العدد ٥٢٢

- تاريخ ٣١ مارس ١٩٨١م.

(٢) المرجع نفسه: ص ٣٧.





## المبحث الثاني:

### الدولة السعودية والحركة الوهابية

#### تأسيسها:

لقد دفعت مصر ثمناً باهظاً بسبب التكاليف التي تكبدها محمد علي باشا من أجل تحقيق رغبات الأوروبيين فعلياً، وفي الظاهر تحقيق رغباته في التوسع والسيطرة، وكان ذلك سبباً في إيقاع مصر في عجز مالي كبير، وأما في نجد فقد آل الأمر إلى آل الرشيد مكان آل سعود الذين لجأوا إلى أمير الكويت.

ولما بلغ الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود رشده، بدأ يعد العدة لاستعادة نجد واستعادة الرياض، ولم يكن معه سوى أربعين رجلاً، لكنه تمكن معهم من الاستيلاء عليها في السادس من يناير عام ١٩٠٢م<sup>(١)</sup>.

ولقد رفضت الدولة العثمانية في بداية الأمر الاعتراف به، فأبدى المرحوم الشيخ رشيد رضا انتقاده لموقفها المعارض لابن سعود،... معلناً أن كلمة القبائل قد اجتمعت عليه، وأن ابن سعود يتمنى الاتصال بالدولة العثمانية.

وحذر رشيد رضا العثمانيين من مساندتهم لآل الرشيد بقوله: «وعسى

(١) وزارة الإعلام، المملكة العربية السعودية، مرجع سابق - ص ١٧.

أن تظهر الحقيقة للدولة لتعلم أن استمرار انتصارها لآل الرشيد خطر عظيم، وأن السياسة المثلى في إعادة نجد إلى آل سعود كما كانت، فهم أقدر على حفظها تحت رايتها وحمائتها وإن كانت في ريب من أمره «عبدالعزیز» فترسل له من أهل العلم والدين من تثق بهم ليقفوا على صحة ما قلناه<sup>(١)</sup>.

إلا أنه بعد هزيمة ابن الرشيد عقدت الدولة المركزية معاهدة مع الأمير عبدالعزيز اعترفت بموجبها له ولذريته من بعده بإمارة نجد، ويقول رشيد رضا: إن ابن سعود كان يريد أن يكون تحت سيادة الدولة العثمانية، وليس رغباً في مساعدة الإنجليز، وأن كل ما يطلبه منها أن تترك أهالي نجد يحكمون أنفسهم بالقرآن والسنة، والنجديون يفضلون الموت على الالتجاء إلى الإنجليز يطلبون حمايتهم مع معرفتهم بدعم الدولة العثمانية لابن الرشيد.

وكان من ثمار سيطرة ابن سعود أن أصبحت المنطقة آمنة، وصار الحجاج يخرجون آمنين مطمئنين، لا يصيبهم أذى، بعد أن كانت مثار المخاوف<sup>(٢)</sup> ولقد وصف الشيخ رضا المرحوم عبدالعزيز آل سعود بصفات حميدة وفي رأسها مخافة الله عز وجل.

### الأمير عبدالعزيز يرد على افتراءات الشريف حسين:

مما سبق بيّن البحث أن المسألة هي مسألة صراع بين أمراء الجزيرة العربية، ليست لها في الدائرة الداخلية أكثر من ذلك البعد، لقد استطاع آل الرشيد أن يحافظوا على علاقتهم مع السلطة المركزية في الدولة العثمانية،

(١) انظر، رشيد رضا، المنار، مج ٧، ص ٧٢٠ و ٧٦٠، وانظر: مجلة التقوى، لبنان، محمد درنيقة، موقف الشيخ رشيد رضا من الدعوة الوهابية، العدد ٣١ صفر ١٤١٤هـ آب ١٩٩٣ - ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) المرجع السابق، المنار مج ٧ - ص ٨٦٠ - ٨٦٩.

\* الملك عبدالعزيز آل سعود، «١٨٨٧ - ١٩٥٣ م» كان أميراً لنجد من ١٩٠٢ - ١٩٣٣، ثم ملكاً للعربية السعودية منذ ١٩٣٣ حتى ١٩٥٣ م وفي ١٩٢٦ أنهى سيطرته على بلاد الحجاز بعد أن كان أمير مكة الشريف حسين قد أخرج منها عام ١٩٢٤، وأوصى بالعرش من بعده لابنه سعود عام ١٩٣٢.

وكذلك أشراف مكة والحجاز، وحُشِر آل سعود خارج هذه الدائرة، لكن عندما هزم الأمير عبدالعزيز آل سعود آل الرشيد اعترفت به الدولة العثمانية، وفي ١٩١٥م حيث أضحت السيطرة الفعلية لبريطانيا في المنطقة، عقد آل سعود معاهدة معها في الثاني من كانون الأول ١٩١٥<sup>(١)</sup>، الظاهر من بنودها أن ابن سعود تصرف بحكمة كي يجنب إمارته ويلات الحرب العالمية الأولى، وهي في مجمل بنودها لا تخرج عن كونها عموميات وتحييد لإمارة نجد.

بينما كان الشريف حسين قد غرق في اتفاقات مع الإنجليز تبني بموجبها الحرب ضد الدولة العثمانية، التي طالما أغراها ضد آل سعود، متوهماً بذلك أنه سيتوج خليفة عربياً على المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وبالرغم من كل المتغيرات فإن الشريف حسين لم يفكر في تجميد صراعه مع آل سعود، بل بدأ يصدر المنشير من على صفحات جريدة «القبلة» التي كانت تصدر في الحجاز، يكفر فيها الوهابيين، ويدعو إلى قتالهم باسم الدين تارة، واقتداء بمحمد علي باشا تارة أخرى «!!»، وبعد أن علم الأمير عبدالعزيز بتكوين جيش من بلاد الشام لمقاتلته، ومساعدة ملك الحجاز «الشريف حسين» في حربه ضد الوهابية، وجه خطاباً إلى رؤساء بلاد الشام، بين فيه أن السعوديين كانوا يحكمون بلاد نجد منذ مئات السنين، وأن الحرب الأولى قد مزقت شمل الأمة، وفرقت وحدتها، ثم فند ادعاءات ملك الحجاز، وتحريضه المسلمين لقتال الوهابية بقوله: «نحن نعلم أن ذلك الأمير يلفق علينا مقولات ويرمينا بالمروق من الدين ويدعونا «وهابية» ليستفز ثائرة المسلمين علينا ويجمع الجند منهم، ويقاتلنا بهم، فيريد بذلك نشر الفتنة - وتعظيم الخلاف، فيا أبناء الشام، أهل باب كعبة رب الأنام، نحن مثلكم مسلمون مؤمنون موحدون، ندين بدين محمد بن

(١) انظر نص المعاهدة في الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، إصدار جريدة الأيام - دمشق.

(٢) المرجع نفسه ص ٢.

عبدالله بن عبد المطلب ﷺ، ونقر بترتيب الأصحاب كما جاءوا في الحكم والاستخلاف، ونقلد في عبادتنا الإمام الأعظم أحمد بن حنبل، ونعترف أن إخوانه الأئمة الباقيين هم مثله في العظمة والصدق والصحة، فحذار ثم حذار أن يغركم ويفسدكم ويفتنكم، فتعطوه جنداً ومالاً فما أمامكم إلا إخوانكم في الله يجاهدون في الله، ولم يسبق بيننا وبينكم عداوة، ولا نحن طامعون في بلادكم، فخلوا بيننا وبينه ليزول الأعجل، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً، أما إن كانت لكم كلمة نافذة فاصرفوها في سبيل إحقاق الحق، وبعد فإن من يتجند إلى قتالنا . فحسبنا الله عليه والسلام على من سمع فوعى<sup>(١)</sup>.

### الأمير عبدالعزيز يسيطر على بلاد الحجاز:

وفي شعبان ١٣٣٧هـ - آيار ١٩١٩م تمكنت قوات عبدالعزيز آل سعود بقيادة خالد بن منصور بن لؤي، وسلطان بن بجاد من الانتصار في معركة تربة<sup>(٢)</sup> وفي عام ١٣٤٢هـ اجتمع كبار أهل نجد بالإمام عبدالعزيز وبحثوا وإياه موضوع الحج الذي منعهم منه الشريف حسين، واتفقوا على غزو الحجاز واستخلاص مكة من أيدي الأشراف، وكان علي بن الحسين قد تولى الملك بعد أبيه الذي اضطر للتنازل عن العرش، ووصل موكب السلطان عبدالعزيز مكة في ٧ جمادى الأولى عام ١٣٤٣م «١٩٢٤م»، وترك الشريف علي بن الحسين جدة في ٦ جمادى الثانية عام ١٣٤٤هـ وذهب إلى العراق بحراً حيث نزل ضيفاً على شقيقه الملك فيصل إلى أن توفي<sup>(٣)</sup>.

- 
- (١) محمد رشيد رضا، مجلة المنار، دار المنار، مصر ٣٥ مجلداً مج ٢١ ص ٢٤٩.
- (٢) إبراهيم عبدالرحمن آل خميس، أسود آل سعود، دار النجاح بيروت، ط ١٩٧٢م - ص ١٤٧ - ١٥١ «والمؤلف كان أحد جنود آل سعود وقد حضر الواقعة شخصياً».
- (٣) أحمد السباعي، تاريخ مكة، مصر ١٣٧٢هـ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ وكانت نهاية الملك حين أرغمه البريطانيون على ترك العقبة التي وصلها ١٦ ربيع الأول ١٣٤٣هـ، وذهب إلى قبرص وبقي فيها خمس سنوات، وعند اشتداد المرض عليه نقل إلى شرق الأردن حيث مات هناك عند ابنه عبدالله، عن عمر يناهز ٧٨ سنة، ودفن في القدس «المرجع نفسه ص ٤٣٦».

ويذكر رشيد رضا الأسباب العامة التي دفعت بسultan نجد إلى تخليص الحجاز من حكم الشريف حسين وهي:

- ١ - موالة شريف مكة وأولاده للدولة البريطانية وحلفائهم في الحرب، وأنه كان يهنئ بريطانيا كلما احتلت مدينة من مدن فلسطين.
- ٢ - الإصرار على موالة الحلفاء الأجانب، ومساعدتهم على تثبيت أقدامهم في البلاد الإسلامية والعربية.
- ٣ - تعهد بريطانيا بالمحافظة على مملكته داخلياً وخارجياً.
- ٤ - رضاه باستخدام بريطانيا لأولاده في العراق وشرق الأردن من أجل تحقيق أطماع هذه الدولة في البلاد الإسلامية والعربية.
- ٥ - لا يجوز أن يكون الحجاز مركزاً حربياً، أي عرضة للحرب، وإنما مصلحة المسلمين تكمن في جعله قطر حياد وسلام.
- ٦ - إصراره على تسمية نفسه ملك العرب وملك البلاد العربية.
- ٧ - تحكمه بهواه في أمر فريضة الحج، فهو يمنع منها من اتخذهم أعداء له، وفرض الضرائب الباهظة على الحجاج.
- ٨ - تكفيره للأتراك والمصريين والنجديين، وادعاؤه بأن حكومته وحدها تقيم الحدود وتلتزم الشرع.
- ٩ - ادعاؤه الخلافة، الأمر الذي يجعل كل من يخالفه من الخوارج البغاة الذين يجب قتالهم<sup>(١)</sup>.

وأما عن الأسباب المباشرة فيحصرها رشيد رضا بما يلي:

- ١ - بعد استلامه المدينة المنورة وجه كافة الجنود للزحف على نجد، ومباغطة أهلها أولاً ثم انهزامه أمام النجديين.

(١) رشيد رضا، المنار، مرجع سابق، مج ٢٥ ص ٥٥٧ راجع، مجلة التقوى، العدد «٣٢» ربيع أول ١٤١٤هـ - أيلول ١٩٩٣م محمد درنيقة، موقف الشيخ رشيد رضا من الدعوة الوهابية، ص ٣٨.

- ٢ - طعنه المستمر في دين الوهابية وعقائدهم ورميهم بالكفر تمهيداً لقتالهم واحتلال بلادهم.
- ٣ - شنه الغارات على السعوديين، وقيام ابنه وولي عهده علي بحملة على الوهابيين بالقرب من خيبر<sup>(١)</sup>.

### عبدالعزیز آل سعود في مكة المكرمة:

غداة دخوله مكة المكرمة والمدينة المنورة قال السلطان عبدالعزيز «الملك فيما بعد» مخاطباً المسلمين كافة: «إن أعداءنا يشيعون أننا إذا استولينا على المدينة سنهدم روضة رسول الله ﷺ، وحاشا أن تحدث نفس مسلم بذلك، وإنني أفنديها بنفسي وولدي ومالي ورجالي، إن الشريعة الإسلامية هي القانون العام الذي يجري العمل على وقفه في البلاد المقدسة، وأن السلف الصالح وأئمة المذاهب الأربعة هم قدوتنا في السير على الطريق القويم، وسيكون العلماء المحققون من جميع الأمصار هم المرجع لكل المسائل التي تحتاج إلى تمحيص ونظر ثاقب»<sup>(٢)</sup>.

وعند دخوله للمدينة المنورة التي حرص على دخولها سلماً، سار مباشرة إلى مسجد الرسول ﷺ فصلى فيه، ثم أتى قبره الشريف فسلم، ثم رجع بعد أن أمر بمواساة الأهالي<sup>(٣)</sup>.

وبعد سيطرة آل سعود الكاملة على الحجاز وجه الأمير عبدالعزيز نداء لجميع المسلمين أعلن فيه أن الأمن والعدل قد خيما على الأراضي المقدسة، مع تأمين الراحة وكل ما يلزم من الخدمة.

### طبيعة الحياة بين الصواب والخطأ:

إن محض الخير أو محض الشر لا تحصل إلا للمخلدين في الجنة

(١) رشيد رضا، المرجع نفسه مج ٢٥ ص ٦٠٥ - ٦١٢، مجلة التقوى - المرجع نفسه ص ٣٨.

(٢) المرجع نفسه، مج ٢٦ ص ٣٢٠ «راجع مجلة التقوى المرجع نفسه».

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٨١.

«خير محض»، وللمخلدين في النار «شر محض»<sup>(١)</sup>.

وما عدا ذلك فإن فيه امتزاجاً لكنه في الآخرة خاص بالموحدين الذين ينالون قسطاً من عذاب ثم يعادون برحمة الله تعالى إلى الجنة، أما في الحياة الدنيا فليست هناك مفاصلة تامة، بل المسألة مسألة تغليب جانب على الآخر، «ليس في الدنيا محض مصلحة ولا محض مفسدة، والمقصود للشارع ما غلب منهما»<sup>(٢)</sup>.

يقول الشاطبي: «فالمصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنما تفهم على مقتضى ما غلب، فإذا كان الغالب جهة المصلحة فهي المصلحة المفهومة عرفاً، وإذا غلبت الجهة الأخرى فهي المفسدة المفهومة عرفاً»...

«ولذلك كان الفعل ذو الوجهين منسوباً إلى الجهة الراجعة، فإن رجحت المصلحة فمطلوب، ويقال فيه إنه مصلحة، وإذا غلبت جهة المفسدة فمهروب عنه، إنه مفسدة»

وهذا وجه النظر في المصلحة الدنيوية والمفسدة الدنيوية، من حيث مواقع الوجود في الأعمال العادية<sup>(٣)</sup>.

«وأما النظر الثاني فيها من حيث تعلق الخطاب بها شرعاً: فالمصلحة إذا كانت هي الغالبة عند مناظرتها مع المفسدة في حكم الاعتقاد، فهي المقصودة شرعاً ولتحصيلها وقع الطلب على العباد»<sup>(٤)</sup>...

إن النظر في الأمور خارج الأطر الشرعية التي تحاكم الأمور بالترجيح، كما هو واضح فيما أورده الشاطبي رحمه الله تعالى، إن غير ذلك إن حصل فهو تنطع، وخروج عن الواقعية.

(١) راجع، الشاطبي، الموافقات، دار المعرفة، بيروت بدون تاريخ، «٤ مجلدات»، مج ٢ ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) راجع الشاطبي، المرجع نفسه ص ٢٥.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٦.

(٤) الشاطبي، المرجع السابق، ص ٢٦ - ٢٧.

وعندما ننظر في شأن جهد ما يجب ألا تكون عملية التقويم لفكرة في الرأس غير مطابقة على المراد، وهكذا فإذا أريد الحكم على منهج دولة ما، أو مجموعة ما... أو فقيه ما، أو مفكر ما، فإنه يجب محاكمته بالتدرج، والسؤال الأول هو عن تطبيق الشريعة الإسلامية في الحياة الخاصة والعامة، ثم يتم الانتقال إلى الخيرية «الوسطية» والشهادة على الناس والتي يمكن تلخيصها بالسيادة على دار الإسلام، وحماية الثغور، ووضع الأمة في موقع الريادة والسيادة بين الأمم وأكثر... قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [البقرة: ١٤٣].

إن الباحث في الحقبة الأخيرة للدولة العثمانية إلى واقعنا اليوم يرى بوضوح الجهد المشترك الذي بدأه الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع محمد بن آل سعود، رحمهما الله تعالى في حمل راية الدعوة إلى الله تعالى والحكم بشريعته، لكن ذلك لم يكتب له العمر الطويل وهنا خواطر ترد في ذهن المتتبع لحال الأمة الإسلامية:

- أ - غياب نجم الدولة الإسلامية العالمية وفقدان الأمة لوحدها.
- ب - البلدان الإسلامية التي سقطت في يد أعداء الإيمان وتوحيد الله عز وجل.
- ج - دور الأمة في التقدم الصناعي الذي تشهده المعمورة على أيدي غير المسلمين الذين لم يعد لوجودهم من معنى إلا الاستهلاك ومظاهر التخلف.
- د - انتشار المفساد في طول الأرض وعرضها على مساحة أرض الإسلام.
- هـ - تراجع مهمة الدعوة إلى الله تعالى والعمل على خلاص الإنسان والأخذ بيده إلى الرشد في الدنيا والجنة في الآخرة... هذه أمور لا يتحمل مسئوليتها طرف دون آخر.



## نظام الحكم في المملكة العربية السعودية:

«في عام ١٩٣٢م أصدر الملك عبدالعزيز مرسوماً ملكياً ينص على أن الحكم سيكون طبقاً لكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ<sup>(١)</sup>».

والعلم «أخضر اللون تتوسطه عبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله».

## وتحت عنوان: نظام الحكم جاء ما يلي:

نظام الحكم في المملكة العربية السعودية ملكي، مبني على القوانين الإسلامية «الشريعة» التي تنظم كل المسائل العامة تقريباً،... بالإضافة إلى أن الحكومة تستمد سلطتها السياسية من الشريعة الإسلامية التي تحدد الأطر السياسية في جميع مجالاتها، فإن القواعد التالية تشكل العمود الفقري لبناء الأمة في المملكة العربية السعودية.

١ - الاستقرار: وذلك عن طريق تعميق الحس الديني لدى الشعب وتطبيق الشريعة، وتطوير وتحديث الأنظمة.

٢ - سهولة الوصول إلى الحكام: وبمقدور كل المواطنين أن يتصلوا بحكامهم وينقلوا لهم مظالمهم.

٣ - تعزيز التكامل والوحدة الوطنية بالتوزيع العادل للثروة وتوفير الخدمات في سائر أنحاء المملكة.

٤ - تقسيم الدولة إلى ١٤ إمارة كي يسهل حكمها وتقديم الخدمات لها<sup>(٢)</sup>.

وأما السلطة القضائية ونظام الحكم فإن المحاكم الشرعية تقوم بمعالجة القضايا المدنية وقضايا الإجرام حسب الشريعة الإسلامية<sup>(٣)</sup>....

(١) ملامح عن المملكة العربية السعودية، ص ٤.

(٢) المرجع نفسه - ص: ٦-٧.

(٣) ملامح عن المملكة العربية السعودية، م. س: ص ٧.

جاء في المادة «٥٢» من نظام تركيز مسؤوليات القضاء الشرعي في معرض تحديد اختصاصات رئيس المحكمة الكبرى:

«النظر في جميع القضايا والمخاصمات والمعاملات وفق أحكام الشريعة الإسلامية...»<sup>(١)</sup>.

ولقد عملت المملكة على إصدار لوائح أساسية لأحدث وأرقى النظم في ممارسة القضاء، ولقد جاء في المادة «٥٢» من تنظيم الأعمال الإدارية في الدوائر الشرعية «الأحكام التي تصدر في سائر المدن الحجازية في قضايا القتل والقطع والرجم لا تنفذ إلا بعد عرضها على رئيس القضاة وتصديقها منه ومن هيئة التمييز».

وأما الأحكام التي هي دون ذلك المستوى فقد جاء في المادة «٥٣»: الأحكام التي تصدر في المدينة المنورة أو في غيرها من البلدان التي فيها أكثر من قاض واحد في قضايا الجرح والتعزيرات والحدود ما عدا القتل والقطع والرجم المنصوص عليها في المادة «٥٢» لا تنفذ إلا بعد إقرارها من أكبر قاض في تلك البلدان<sup>(٢)</sup> وجاء في اللائحة التنفيذية لنظام مكافحة الغش التجاري في المادة الثالثة: «تعتبر السلعة غير مطابقة للمواصفات المقررة مغشوشة أو فاسدة».

- إذا كانت السلعة من المواد المحرمة شرعاً أو الممنوعة نظاماً أو احتوت على شيء من ذلك<sup>(٣)</sup>.

وجرياً على اقتطاف عناوين عريضة للوائح والنظم المطبقة في المملكة

(١) المملكة العربية السعودية، نظام تركيز مسؤوليات القضاء الشرعي، رقم ١٠٩ في ١٣٧٢/١/٢٤ هـ، ط ٤ - الرياض ١٣٩٨ هـ ص ٩.

(٢) المملكة العربية السعودية، تنظيم الأعمال الإدارية في الدوائر الشرعية رقم ١٠٩ في ١٣٧٢/١/٢٤ هـ ط ٥ - الرياض ١٣٩٨ هـ ص ١.

(٣) المملكة العربية السعودية، مجلس الوزراء، شعبة الخبراء، نظام مكافحة - الغش التجاري ولائحته التنفيذية - ط ٢ - الرياض ١٤١٣ هـ - ص ٣١.

العربية السعودية، نذكر بعض السياسات الخاصة بالدولة، ففي السياسة التعليمية مثلاً، جاءت الخطوط الأساسية كما يلي:

«والسياسة التعليمية في المملكة العربية السعودية تنبثق من الإسلام، الذي تدين به الأمة عقيدة وعبادة وخلقاً وشريعة وحكماً ونظاماً متكاملاً للحياة، وهي جزء أساسي من السياسة العامة للدولة»<sup>(١)</sup>.

وشمل الباب الأول الأسس العامة التي يقوم عليها التعليم:

- ١ - الإيمان بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.
- ٢ - التصور الإسلامي الكامل للكون والإنسان والحياة، وأن الوجود كله خاضع لما سنه الله تعالى...
- ٣ - الحياة الدنيا مرحلة إنتاج وعمل... فالיום عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.
- ٤ - الرسالة المحمدية هي المنهج الأقوم للحياة الفاضلة...

ومما جاء في الفقرة «١٠»: طلب العلم فرض على كل فرد بحكم الإسلام، والفقرة «١١» العلوم الدينية والثقافة الإسلامية أساسية في كل مراحل التعليم، والفقرة «١٢» توجيه كل العلوم والمعارف وجهة إسلامية في معالجة قضاياها...

والفقرة «٢٣»: شخصية المملكة العربية السعودية متميزة بما خصها الله به من حراسة مقدسات الإسلام وحفاظاً على مهبط الوحي، واتخاذها الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ودستور حياة، واستشعار مسؤوليتها العظيمة في قيادة البشرية بالإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، والفقرة «٢٦» الجهاد في سبيل الله فريضة محكمة وسنة متبعة وضرورة قائمة وهو ماض إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup>.

(١) سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية - ط ٣ - سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - ص ٧.

(٢) سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية - م. ج - ص ٨ - ١١.

### وجاءت أهداف التعليم في كل مرحلة كما يلي:

- ١ - دور الحضانة: ٦٣ - صيانة فطرة الطفل، ورعاية نموه الخلقي والعقلي والجسمي في ظروف طبيعية سوية لجو الأسرة، متجاوبة مع مقتضيات الإسلام.
  - ٢ - الابتدائي: ٧٣ تعهد العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفس الطفل، ورعايته بتربية إسلامية متكاملة في خلقه وجسمه وعقله ولغته وانتمائه إلى أمة الإسلام.
  - ٣ - المتوسط: ٨٣ - وتنمية محبة الله وتقواه وخشيته في قلبه.
  - ٤ - الثانوي: ٩٤ متابعة تحقيق الولاء لله وحده، وجعل الأعمال خالصة لوجهه ومستقيمة في كافة جوانبها على شرعه.
  - ٥ - التعليم العالي: ١٠٩ - تنمية عقيدة الولاء لله...<sup>(١)</sup>.
- وفي القضايا المالية، فقد تم تأسيس مصلحة مستقلة في وزارة المالية اسمها: «مصلحة الزكاة والدخل»<sup>(٢)</sup>.

### هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

- إنها سلطة شرعية، مستقلة عن السلطات الأمنية الأخرى، ومن حقها أن تطلب من بقية الإدارات ما تراه ضرورياً، حتى الإحالة على المحاكم الشرعية، وللرئيس العام لهذه الهيئة:
- أ - التحقيق في القضايا الأخلاقية، وقضايا التهم وتحديد نوع العقوبة التي لا تزيد عن الحبس ثلاثة أيام.
- وفي صلاحيات الرئيس العام نصت المادة الخامسة على أنه يرتبط

(١) يراجع سياسة التعليم - المرجع السابق في كل فقراته.

(٢) يمكن مراجعة نظمها في: مجموعة أنظمة ضريبة الدخل، وضريبة الطرق وفريضة الزكاة لغاية نهاية عام «١٣٩٦هـ» - ط ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥ م.

مباشرة برئيس مجلس الوزراء، وله ما للوزير من صلاحيات في وزارته، وجاء في المادة السادسة أن من حقه أن يطلب من إمارة المنطقة إحالة القضية التي يرى إحالتها إلى المحكمة الشرعية.

ونصت المادة التاسعة على أن «من أهم واجبات هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الناس، ونصحهم لاتباع الواجبات الدينية المقررة في الشريعة الإسلامية، وحمل الناس على أدائها وكذلك النهي عن المنكر بما يحول دون ارتكاب المحرمات والممنوعات شرعاً..».

وجاء في المادة العاشرة: «على الهيئات القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل حزم وعزم مستندة إلى ما ورد في كتاب الله، وسنة رسوله، ومقتدية بسيرته ﷺ - وخلفائه وطرق إنكارها، وأخذ الناس بالنهي هي أحسن، مع استهداف المقاصد الشرعية في إصلاحهم».

وألزمت المادة «١٦»: المحاكم الشرعية بإخطار الهيئة عن الأحكام التي تصدرها لمتابعة تنفيذها، وألزمت المادة «١٨» الجهات الحكومية والأهلية بالتعاون مع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(١)</sup>.

هذا، وإن اللائحة التنفيذية تحفظ كل المحرمات، حرمة البيت، وحرمة الفرد، وحرمة النساء والأطفال، وعدم ترويع أحد أثناء عمليات الدهم والتفتيش عند الاشتباه بوجود منكرات<sup>(٢)</sup>.

(١) المملكة العربية السعودية - مجلس الوزراء، نظام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولائحته التنفيذية - الرياض - ١٤١١هـ - ط١.

(٢) راجع - المرجع السابق - المواد: ١ - ٢ - ١٤ - ١٧ وفي مجال حرمة النساء، نصت المادة «٤٩»: «لا يجوز إجراء التحقيق مع النساء إلا بحضور محضر لهن، أو من يقوم مقامه...»

والمادة «٥٠»: «لا يجوز احتجاز النساء بمراكز الهيئة إلا وقت إجراء التحقيق، وفيما عدا ذلك وبشكل خاص بعد الغروب يومياً يتم ترحيلهن إلى دور التوقيف المخصصة لهن... إلا في السجون المخصصة للنساء».

## ديوان المظالم:

جاء في المذكرة الإيضاحية لنظام ديوان المظالم:

١ - يتطلب نظام الحكم في الإسلام وجود قاض للفصل في المنازعات التي تثور بين الأفراد بعضهم بعضاً، أو بين الأفراد والدولة ممثلة فيمن يتولى إدارة مرافقتها.

والقرآن الكريم لم يضع تنظيمًا مفصلاً للسلطة القضائية، وتم ترك ذلك للأمة الإسلامية كي تفعل ما يتناسب مع كل عصر وظرف.

«وقد عرف نظام الحكم في الدولة الإسلامية تنظيمًا مميزاً أطلق عليه ولاية المظالم، وبدأ هذا التنظيم في عهد رسول الله ﷺ، وتطور مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتعدد وظائفها» فقد كان عمر - رضي الله تعالى عنه - يستدعي الولاة في موسم الحج ليحاسبهم، وكذلك أنشأ الأمويون دار المظالم، وكذا فعل خلفاء بني العباس ومع اتساع الدولة الإسلامية كان لا بد من تخصيص قاض للمظالم إلى جانب القاضي العادي.

وجاء في الفقرة «٢»: «وإن المملكة العربية السعودية وقد نشأت نشأة إسلامية، عملت على إرساء قواعد العدالة بالنسبة للمواطنين كافة، واقتضى ذلك الاهتمام بولاية المظالم، حيث جعل المغفور له الملك عبدالعزيز بابه مفتوحاً لأصحاب المظالم، ودعا الناس أن يأتوه بمظالمهم، وأن يضعوا شكواهم في صندوق الشكايات المعلق على دار الحكومة<sup>(١)</sup>.

وجاء في المادة «١» من نظام ديوان المظالم: «ديوان المظالم هيئة قضاء إداري مستقلة، ترتبط مباشرة بجلالة الملك، ويكون مقره مدينة الرياض ويجوز بقرار من رئيس الديوان إنشاء فروع له حسب الحاجة».

وهكذا فإن المؤسسات القضائية إلى جانب هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تبرز وجهاً رائعاً لممارسة أحكام الشريعة الإسلامية في عالمنا المعاصر.

(١) المملكة العربية السعودية نظام ديوان المظالم ومذكرته الإيضاحية المرسوم الملكي رقم

م/٥١ تاريخ ١٧/٧/١٤٠٢هـ الرياض - ص ٢٠.

## المبحث الثالث:

دعوات وحركات  
عاشت بين الإصلاح والدولة  
نماذج من التاريخ

## □ أولاً: الحركة السنوسية: ١٢٠٦هـ - ١٢٧٦هـ:

بعد المرحلة الأولى لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب جاءت المرحلة الثانية التي بدأت باتفاق الدرعية سنة ١١٥٨هـ سنة ١٧٤٠ ميلادية بين كل من الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله والإمام محمد بن سعود رحمه الله، وقد رتب شقيقا الإمام محمد بن سعود «ثنيان، ومشارى» اللقاء وكان مما دار بين الرجلين: بادر ابن سعود الشيخ بالسلام وقال له:

«أبشر بالخير والعزة والمنعة فرد عليه الشيخ قائلاً: وأنت أبشر بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد، إنها كلمة لا إله إلا الله من تمسك بها وعمل لها ونصرها ملك بها العباد والبلاد.

ومما قاله الشيخ رحمه الله: أنت ترى بلاد نجد من أقصاها إلى أقصاها قد انغمست في الوثنية وغرقت في الضلال والشرك وعميت بصائرنا عن طريق الحق والهدى، وقد استباحوا المحرمات وعادوا إلى حياة الجاهلية، يقتل بعضهم بعضاً لأنفه الأسباب وأحقر الحوادث.

ولكي يعقد الاتفاق طلب محمد بن سعود من الشيخ شرطين جاء بالصيغة التالية: إن لي عليك شرطين لا بد من الوفاء بهما إذا نحن قمنا بنصرتك والجهد في سبيل الله تعالى وهما:

أولاً: أن تظل لدينا إن فتح الله لنا البلاد ولا تستبدل بنا غيرنا.

ثانياً: إن لي على أهل الدرعية خراجاً أتناوله منهم وقت جني الثمار فلا تمنعني من أخذه.

فأجاب الشيخ: أما عن الأولى فامدد يدك، فمدها فقبضها وقال: الدم الدم والهدم والهدم.

وأما عن الثانية فقال: لعل الله يفتح عليك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ما هو خير من الخراج.

هذا الاتفاق كان الأساس الذي رفعت عليه قواعد الدولة السعودية.

وبعد فتح الرياض سنة ١١٨٨هـ اعتزل الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحكم بعد أن اطمأن أن الدعوة استقرت وتأمنت سبل نشرها، وجعل الحكم بيد الإمام محمد بن سعود، وفوض إليه أمور المسلمين وأمور بيت المال، ثم لزم الشيخ العبادة ونشر العلم حتى أصبح الكتاب في يدي كل إنسان في الدرعية، حتى الراعي مع غنمه، وأصبحت الدرعية مركزاً لكل طالب علم، وهكذا حركة إصلاحية تكونت منها دولة لا زالت في قوتها حامية للحرمين الشريفين.

وهنا نقول: إن كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قد أدت إلى قيام الدولة السعودية في المشرق ففي المغرب - وبتحرك تكاملي استفاد اللاحق فيه من السابق - كانت الدعوة السنوسية التي بدأت على يد السيد العلامة محمد بن علي السنوسي الذي ولد في ربيع الأول سنة ١٢٠٢هـ الموافق ١٧٨٧ م، وتوفى سنة ١٨٥٩ ميلادية وكان مولده رحمه الله في بلدة «مستغانم» الواقعة على الساحل الجزائري، وقد بدأت



الدولة السنوسية في بداية تفكير السيد محمد بن علي السنوسي في أمر هذه الأمة، فيروي أنه حدث ذات مرة أن وجده بعض الشيوخ جالساً فوق كثيب من الرمال تبدو عليه علائم التفكير، فلما استوضحوه عن السبب في ذلك كان جوابه: إنه إنما يفكر في حال العالم الإسلامي الذي لا يعدو عن كونه قطيعاً من الغنم لا راعي له، على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرده وعلمائه... ومع وجود كل ذلك فإن العالم الإسلامي لا يزال مفتقراً أشد الافتقار إلى مرشد حقيقي يكون هدفه سوق العالم الإسلامي أجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد فلما سألوه: وماذا يجب على المسلمين عمله لتلافي هذا الواقع؟ قال: سأجتهد، سأجتهد.

### العوامل التي أثرت في شخصيته:

- ١ - نقم على الأتراك لما كان يراه من ظلم الولاة والذي نمى ذلك عنده شيخه «القندوز» الذي قتل على يد الوالي التركي حسن بك عندما وجد فيه خطراً عليه.
- ٢ - أن إحساسه بنسبه للأدارسة الذين حكموا المغرب من جهة، وللبيت النبوي الشريف أيضاً من جهة أخرى قد أثر تأثيراً كبيراً في إشعاره بمسئوليته في الإصلاح.
- ٣ - حدة الذكاء عنده وتربيته في أسرة علم ودين.

### رحلاته:

في عام ١٢٠٠هـ غادر بلده إلى فاس كي يدرس في جامعها المشهور «القرويين».

وهناك في فاس أخذ يدرس على يد مشاهير رجال العلم الذين يؤمنون جامع القرويين الذي يعتبر أول جامعة علمية عرفها العالم، وفي تلك الفترة التي قضاها في فاس توضحت بشكل أبين الاتجاهات الإصلاحية في شخصيته الفكرية والعلمية.

وتبلورت أفكاره في التجديد والإصلاح، وقد رسمت شخصيته بالخطوط التالية:

١ - **الصوفية:** التي كانت لها أهمية ليس في فاس فحسب بل في شمال أفريقيا كلها، وبذور الصوفية عنده نشأت منذ صباه في بلدة مستغانم.

٢ - **الدراسات الفقهية:** درس الفقه على المذهب المالكي، وتبين تأليفه فيما بعد سعة اطلاعه على الفقه المالكي وفقه المذاهب الأخرى.

ومن دراسة شخصية الرجل تبين أنه لم يكن متصوفاً غارقاً في شطحاتها ولا فقيهاً يقف عند حد الحروف الفقهية ولم يتجمد في فهم أحكامها بل زواج بين دراسته واتجاهه فأكسب صوفيته طابع السنة، ولجمها بحدود الشرع وأكسب فقهه طابع الروحية المتألقة.

٣ - **الخط الثالث:** هو اهتمامه بالحركات السياسية أو العمل لإصلاح الأوضاع المختلفة، مما دفعه إلى إيجاد تنظيم شعبي يساند هذه المطالب.

ومما ساعده على فهم عقلية الجماهير عمله في التدريس في الجامع الكبير في مدينة فاس حيث مارس الوعظ والدعوة إلى الله، وقد نجح في كسب ثقة العامة وفي توجيههم، إلا أن ذلك الواقع الجديد أزعج السلطة التي زادت في مراقبته مما اضطره إلى مغادرة فاس.

ومن فاس توجه إلى الأغواط (في الجزائر) ومنها توجه إلى قابس فطرابلس الغرب وبنغازي، ميمماً شطر الأزهر في القاهرة، إلا أن إقامته لم تطل، فقد أثار حفيظة علماء الأزهر بآرائه، فغادرها إلى الحجاز عام ١٨٣٠م، بعد زيارة إلى اليمن برفقة الإمام أبي العباس أحمد بن عبدالله الفاسي، عاد إلى مكة حيث أنشأ زاويته الأولى في جبل أبي قبيس عام ١٨٣٧ وأتبعها بزوايا عدة في الطائف والمدينة المنورة وبدر وجدة وينبع.

وعاد إلى مصر عام ١٨٤٠ في طريقه إلى الجزائر، فخرج على طرابلس الغرب، ولكنه عاد إلى تونس خوفاً من الفرنسيين الذين كانوا قد احتلوا الجزائر، ثم إلى بنغازي حيث وصلها عام ١٨٤١م، ثم قرر الإقامة

نهائياً في ليبيا، وأنشأ عام ١٨٤٣م «الزاوية البيضاء» في الجبل الأخضر فكانت أول زاوية سنوسية في شمال إفريقيا، وزار الحجاز مرة ثانية وعاد منها إلى ليبيا عام ١٨٥٦م، وقرر نقل مركز دعوته من «الزاوية البيضاء» إلى واحة الجغبوب البعيدة عن أنظار السلطة الفرنسية في الجزائر، والحكومة المصرية، والحكومة العثمانية، التي أعادت السيطرة على ولاية طرابلس الغرب عام ١٨٣٤م أخذاً بعين الاعتبار توسط الجغبوب وسهولة اتصالها ببرقة وطرابلس والسودان الغربي، وأقام السنوسي في الجغبوب مدرسة دينية كبيرة يتعلم فيها الأتباع أصول الدعوة السنوسية ويتخرجون منها لنشرها في البلاد المجاورة.

توفي السنوسي الكبير في الجغبوب عام ١٩٥٨م بعد أن انتشرت دعوته في برقة وطرابلس، وخلفه في زعامة الحركة ابنه المهدي (١٨٥٩ - ١٩٠٢م)، وفي عهده بلغت السنوسية ذروة نشاطها وانتشارها إذ انتقل مركزها من الجغبوب إلى الكفرة ٦٠٠ كم عن طرابلس عام ١٨٥٩م مما ساعد على انتشار الدعوة في بلاد كورد، وبستي، وبركو واندي، ودارفور، وودايو وكانم وتشاد وزاقر، وبغرمي.

وقد رفض المهدي السنوسي التحالف مع المهدي في السودان ومساعدة العرابيين في مصر عام ١٨٨٢ والتفاهم مع الإيطاليين لإيقاف التوسع الفرنسي في تونس عام ١٨٨١م، ومعونة السلطان العثماني في حربه مع روسيا القيصرية ١٨٨٢م، محاولاً بذلك الابتعاد عن النزاعات الدولية وواضعاً نصب عينيه، نشر الإسلام في إفريقيا.

إلا أنه لم يتمكن من التمسك بمبدأ الحياد هذا، عندما تقدم الفرنسيون في أواسط أفريقيا فاضطر إلى محاربتهم وعند وفاة المهدي عام ١٩٠٢، كان للسنوسية ١٤٦ زاوية موزعة كما يلي: برقة ٤٥، مصر ٢١، الجزائر ١٧، طرابلس الغرب ٢٨، فران ٥١، الكفرة ٦، السودان ١٤<sup>(١)</sup>.

(١) المحافظة على الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩١٠، الأهلية

## الزاوية عند السنوسي<sup>(١)</sup>:

تقوم الزاوية عند السنوسي على قطعة من الأرض، وتتألف من مجموعتين من الأبنية:

الأولى: مخصصة لمسكن شيخ الزاوية وأسرته، والثانية تشمل المسجد والمدرسة والمضافة، ويحيط بالزاوية سور تعلوه أبراج للدفاع عنها في حالات الهجوم، وللزاوية أراضي زراعية وآبار جوفية وصهاريج للماء، أما المسئول فهو شيخها «المقدم» يساعده مجلس يتألف من وكيل الزاوية وشيخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها، ووجهاء المهاجرين إليها، ذلك أنه كان لكل قبيلة زاوية أو أكثر، وينظر مجلس الزاوية في قضايا الأهالي، وفض المنازعات بينهم، أما المقدم فهو القيم على الزاوية والمكلف برعاية أمور القبيلة وتبليغ الأوامر الصادرة عن رئيس النظام (أي زعيم الحركة السنوسية) وإلى جانب المقدم يوجد وكيل الداخل والخارج الذي يشرف على جميع الأمور الاقتصادية في الزاوية ولكل زاوية شيخ للمسجد، يعلم أطفال القبيلة، ويعقد عقود الزواج، ويصلي على الجنائز أما خطبة الجمعة فيلقئها المقدم بصفته ممثل رئيس الحركة.

والزاوية مصدر السلطة في القبيلة والمركز التعليمي والثقافي والاقتصادي للمنطقة المحيطة بها (فهو سوق هام تقع عادة على مركز تقاطع طرق القوافل)، كما أنها في الوقت نفسه حصن دفاعي، مهمته دفع خطر الأعداء وصد هجماتهم.

وتنحصر موارد الزاوية السنوسية في المحصولات الزراعية من حبوب وتمور ومواشي، والهبات الخيرية، والزكاة التي تجبى رسمياً من القبيلة.

ويحق لمقدم الزاوية أن يحتفظ بعشر المحصولات للإنفاق على شؤونه الخاصة ويبيع بالفائض إلى المركز الرئيسي.

(١) المرجع نفسه ص ٢٣٦ - ٢٤٩ انظر علي حاف، و المرجع السابق ص ٥٩ - ٥٨.

أما التنظيم الهرمي للحركة السنوسية فهو كالتالي:

- ١ - شيخ الطريقة أو رئيس النظام وهو الرئيس الأعلى.
- ٢ - مجلس الخواص وكان يتألف في البداية من أشخاص لا ينتمون إلى السنوسية مهمتهم مساعدة شيخ الطريقة في تعيين شيوخ الزاوية.
- ٣ - شيوخ الزاوية.
- ٤ - الإخوان ومهمتهم كسب الأعضاء العاديين إلى الحركة أو الطريقة.

### مبادئ الحركة السنوسية:

وتقوم السنوسية على المبادئ التالية:

- ١ - العودة بالإسلام إلى نقائه الأول.
- ٢ - اعتبار الكتاب والسنة مصدرا للشرعة الإسلامية، وهي في هذا متأثرة بأراء شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب، التي اطلع عليها محمد بن علي السنوسي أثناء إقامته بالحجاز.
- ٣ - فتح باب الاجتهاد في الإسلام، واعتبار غلق هذا الباب سبباً في تحجير الفكر الإسلامي ودخول البدع إليه.
- ٤ - تنقية الدين مما علق به من بدع وضلالات.
- ٥ - الإيمان بما تدعيه الصوفية من الرؤيا والاتصال والكشف.
- ٦ - حصر الإمامة في قریش.
- ٧ - المهدوية: ظهرت فكرة الإيمان بالمهدي المنتظر عند السنوسيين عهد محمد المهدي السنوسي، وقال بها علماءهم وعامتهم ولم تظهر هذه الفكرة عندهم قبل ذلك.

محمد المهدي السنوسي: (١٢٦٠هـ - ١٨٤٤ - ١٩٠٢م):

هو الابن الأكبر لمحمد بن علي السنوسي وخليفته في رئاسة الحركة السنوسية ومحمد الشريف كان الشقيق الوحيد له.

أما محمد المهدي فلقد تلقى علومه في الحجاز، وكذلك شقيقه محمد الشريف، وكان المهدي في طفولته ذكياً، حسن الخلق، رفيع التربية، وهذا ما يفسر لنا إعجاب والده به، وكان والده يكثر من سؤال الإخوان الذين يشرفون على تربيته وتعليمه عما وصل إليه، فكانوا يبدون إعجابهم به.

وقد حرص ابن السنوسي أن يزوج ابنه المهدي في حياته، فزوجه وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة بنت عمران بن بركة وذلك سنة ١٢٧٥هـ - ١٨٥٨م وقد أنجبت للمهدي عدة أولاد وتوفيت في حياته سنة ١٨٩١ م.

### منجزات السنوسي:

عند دراسة هذه الحركة يمكننا أن نلاحظ نجاحها في تحقيق عدة أمور منها:

١ - نجاحها في إصلاح المجتمع البدوي بأن حولت الأفراد إلى العمل والإنتاج، وبثت في نفوسهم عقيدة دينية، نظمت تصرفاتهم ووجهتها إلى طريق البناء، فتكون في الصحراء مجتمع متكامل متعاون تسود فيه روح الأخوة والسلام.

٢ - كما أنها نجحت في إقامة سلطة تمسك بزمام جميع الأمور وتشرف على الفرد والمجتمع وتعمل على تحقيق أهداف الحركة، ولم تفرض هذه السلطة نفسها بالقوة على الأفراد، وإنما تبعوها راضين من أنفسهم لأنها نبتت من إيمانهم بها.

٣ - وقد نجحت كذلك في القيام بنشر الإسلام بين القبائل الوثنية.

كما أنها تميزت بأنها حركة سلمية شعارها الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبأنها حركة علمية جددت في الإسلام وفتحت باب الجهاد وخلصت الصوفية من الشوائب التي علقت بها وعملت على نشر العلم والكتاب<sup>(١)</sup>.

(١) أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، دار

### قال الرحالة الفرنسي دوفرير:

إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر، واليد المدبرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الأفريقي وفي السنغال.

ثم يقول: إن الحقيقة التي يجب ألا نغفل عنها أن الطرق السنوسية هي أخطر أعداء نفوذنا وأنها العقبة في سبيل توسعنا السياسي والاقتصادي داخل أفريقيا، وعائق في طريق أهدافنا في القارة الواسعة شمالي خط الاستواء وأن السنوسية هي القوى المحركة لجميع الحوادث التي وقعت في البلاد الإسلامية للحيلولة دون انتشار النفوذ الأوربي<sup>(١)</sup>.

### الحركة السنوسية والدولة العثمانية:

تعتبر الحركة السنوسية من الحركات الناضجة التي شهدها القرن الثالث عشر للهجرة الشريفة، لقد عملت في شمالي وعمق أفريقيا أسست الزوايا «الرباط» التي كانت تقام على مفارق الطرق وفي الأماكن الاستراتيجية وكانت مؤلفة من جهاز متكامل، المقدم، والمزارعين والمدرسين، أي المزرعة والمدرسة - ومن أجل أعمال الزاوية شراء الرقيق وتعليمهم ثم إرسالهم دعاة إلى بلادهم في أواسط إفريقيا.

وأما الذي يعني البحث فهو موقف السنوسي من دولة الخلافة، فبالرغم من اقتناعه بأن الخليفة يجب أن يكون قرشياً، لم يثر هذا الموضوع إطلاقاً حرصاً على استقرار الدولة العثمانية - ولعدم فتح باب النزاع حرصاً على مصلحة المسلمين أجمع.

لقد كان السنوسي يرى أن أي خلاف مع دولة الخلافة يتنافى وهدف الحركة الذي يتلخص في إيجاد دولة إسلامية قوية تكون عوناً للدولة الأم، وتعيد لها قوتها وثقة الناس بها.

(١) أنور الجندى، تراجم الأعلام المعاصرين ص ٤٠١.

لقد أحجم السنوسي عن الإقدام على أي صراع مع دولة الخلافة - وكان يعترف بسلطتها وشرعيتها، ولم يكن يبغى قيام دولة منفصلة عنها، بل كان يعمل تحت لواء دولة الخلافة، على تقويتها وتأكيد سلطتها على البلاد الإسلامية، لذلك لم يتبع السنوسي أساليب الإضعاف للدولة العثمانية، فلم يشعل الثورات ولم يسمح للدول المسيحية أن تنتقص من حقها بالرغم من كل محاولات هذه الدول للإيقاع بين السنوسية ودولة الخلافة، ولقد بادلت دولة الخلافة الحركة السنوسية التحية بمثلها، وجريا على منهجها في توثيق عرى الوحدة بين أقاليمها، فقد أعلنت اعترافها بالحركة إلا أن السنوسي لم يقبل أن يرسل مجاهدين لمساعدة دولة الخلافة في حربها مع روسيا، جرياً على منهجه في العمل الداخلي، ولعل ذلك يرجع إلى أن أفريقيا كانت ثغراً مهماً - يجب عدم الانصراف عنه، كما أنه كان يتجنب الاحتكاك بالدول الأوروبية، ومع ذلك فالحركة لم تنج من حربهم فكان لها شرف الجهاد ضد الصليبيين، وهذا مسلك عظيم للحركة السنوسية<sup>(١)</sup>.

إلا أن دولة الخلافة وقفت مع الحركة يوم أخذت على عاتقها مجاهدة الإيطاليين، وأمدتها بالمال والسلاح والضباط ثم تم إرسال مقاتلين، وكان ذلك بتنسيق من شكيب أرسلان رحمه الله تعالى، الذي شارك بنفسه في شرف الجهاد جنباً إلى جنب مع مجاهدي الحركة السنوسية، غير أن دول البلقان «بلغاريا و صربيا واليونان والجبل الأسود» أعلنت الحرب على تركيا بتدبير من روسيا، مما دفع بالسنوسيين إلى أن يحاربوا وحدهم بسبب انشغال الدولة بحرب البلقان، ومع ذلك فقد استمر أحمد الشريف يحارب الإيطاليين حتى نشب صراع بينه وبين ابن عمه السيد محمد إدريس فقل أنصاره وتم استدعاؤه إلى الآستانة عام ١٩٢٢ م.

إن خطة الحركة السنوسية كانت تتلخص في إيجاد الإسلام الصحيح في أرضه بحيث يكون قوياً متيناً، ومنها يكون الانطلاق إلى غيرها وبالتالي

(١) يراجع أحمد صدقي الدجاني - الحركة السنوسية - دار لبنان للطباعة والنشر - بيروت



يكون السنوسيون عوناً لدولة الخلافة الإسلامية التي كانت في طور الضعف والاضمحلال، وإن التنظيمات الداخلية التي نفذتها والعلاقة بين السنوسي وأتباعه كانت خير وسيلة لإقامة ذلك البنيان الذي استعصى على أقوى الدول الأوروبية في مطلع القرن العشرين للميلاد..

لقد كان رأي محمد علي السنوسي وابنه من بعده أن بقاء دولة الخلافة هو السياج الحافظ للبلاد الإسلامية الأخرى، وأن زوالها لن يكون في صالح المسلمين إطلاقاً، بل سيكون في صالح الدول الاستعمارية التي تتحين الفرصة لإسقاط الخلافة، وابتلاع ما تبقى من دويلات إسلامية، وكان يرى في حرب دولة الخلافة ومعاداتها إضعافاً للمسلمين، وللحريات الإسلامية الرامية إلى إعادة الخلافة إلى قوتها وهيبتها، فأى جهد ضدها إنما هو بمثابة معول هدم لصرح الإسلام والمسلمين، والعلاج يكون بالإصلاح والمساندة وليس بالهدم والمعاداة.

رحم الله تعالى محمد بن علي السنوسي وخلفاءه الذين تركوا بمواقفهم تراثاً فريداً من نوعه في زمن كانت الفتنة تأكل الأخضر واليابس في بلاد المسلمين وفي أوقات حرجة كانت فيها دولة الخلافة تحتضر، وكأنهم تمثلوا قول الرسول ﷺ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ» وهكذا يمكن ذكر مآثر الحركة وفضائلها.

إن الحركة السنوسية كانت حركة حملت مواصفات كثيرة للحركة الإسلامية الناجحة، من حيث المنهج والأسلوب الحركي، وكانت على مستوى الأحداث الجسيمة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية وقتها، فاستطاعت أن تسد وتقارب في الوصول إلى هدفها الكبير، وأن ترهب الدول الصليبية وتشتت جهودهم بين الآستانة وطرابلس أو بمعنى بين قارتي آسيا وأفريقيا، وأعادت إلى المسلمين بعض الثقة في نفوسهم وفي دولة الخلافة... ومع ذلك فلم تمت تلك الحركة فهي التي انتزعت استقلال ليبيا من الإيطاليين الذين قتل لهم في طرابلس أكثر من عشرة آلاف على يد السنوسيين بقيادة الملك الراحل محمد السنوسي رحمه الله.

## □ ثانياً: الحركة المهدية في السودان (٢٧ رجب سنة ١٢٦هـ إلى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩):

### مؤسس الدولة - اسمه وحياته:

محمد بن أحمد بن عبدالله، من قبيلة ناقله، حيث ولد للسيد محمد بن الحاج شريف ولد أسماه عبدالله، وهو والد المهدي وكان صانعاً ماهراً، حذق هو وبعض أفراد أسرته حرفة النجارة، وصناعة السفن، وكانت المنطقة التي يعيشون بها بدنقله لا تسعفهم بالأخشاب الصالحة لمزاولة مهنتهم، فارتحل عبدالله هذا ومعه أسرته إلى المدينة «كررى» الواقعة على بعد خمسة عشر ميلاً شمالي «أم درمان» والتي كانت أخشاب غاباتها موائمة لمهنته، وقد صحبه في هذه الرحلة التي لا تخلو من خشونة ولده محمد أحمد، وظل عبدالله يزاول مهنته بمدينة «كررى» حتى عام ١٢٦٥هـ - ١٨٥١م حيث توفي تاركاً ولده محمداً في سن الخامسة، ولسبب لا نعلمه - ربما كان نقص الأخشاب أو مجرد الانتجاع والظعن، حيث يدلنا تاريخ الأسرة على أنها بدوية رحالة لا تكاد تعرف الاستقرار - هاجرت الأسرة بعد موت عاھلها عبدالله إلى الخرطوم، وهناك راحوا يزاولون مهنتهم ببلدة «المنجرة» عند «المقرن» (اقتران النيل الأبيض بالأزرق)، وبعد سنوات ست من وفاة عبدالله، لحقته زوجته «آمنة» والدته محمد أحمد عام ١٢٧١هـ - ١٨٥٧م، ودفنت بمقبرة الخرطوم القديمة.

أما ابنها محمد أحمد الذي يعتبر هو المؤسس للدولة المهدية، فقد ولد ليلة السابع والعشرين من رجب عام ١٢٦٠هـ - أكتوبر عام ١٨٤٥م، بدنقله بجزيرة «لبب» إحدى جزائر الأشراف الثلاث، وقد أطلق عليه والده عبدالله اسم «محمد أحمد» وظل به إلى أن جاهر بدعوى «المهدية» في الثامنة والثلاثين من عمره، حيث نقش على خاتمه «لا إله إلا الله محمد رسول الله، محمد المهدي بن عبدالله»، وبعد وفاة أبيه وأمه كفله أخوه الأكبر السيد محمد، ثم تزوج بامرأة اسمها عائشة وكنّاها بأم المؤمن.. وقد كان محمد أحمد ميالاً منذ طفولته لحياة التدين والزهد التي انحدرت إليه

بذورها من جده الأعلى الشيخ الصالح السيد حاج شريف، فالتحق بكتاب شرقي النيل بقرية محاذية لمدينة «كررى»، ويدعى صاحبه «الفقيه الهاشمي» وقد كان مشهوراً في تلك الجهة بتعليم القرآن بغير أجر، وقد مكث فيه مدة من الزمن<sup>(١)</sup>.

### تلقبه بالمهدي:

في سنة ١٢٩٨ الموافق ١٨٨١م لقب محمد أحمد نفسه بالمهدي وكتب إلى فقهاء السودان يدعوهم لنصرته، فلاقت دعوة المهديّة ذيوماً وانتشاراً، قام على إثرها بسيّاحة في أنحاء السودان، يبشر فيه بدعوته ويبثها بين رؤساء القبائل وزعماء العشائر، وأخذ يوحى إلى الجماهير في منشوراته أنه مكلف بأداء هذه الرسالة من قبل السماء، وسنسوق هنا واحداً من كتبه كمثال للمبادئ التي نادى بها، يقول المهدي: «بسم الله الرحمن الرحيم» الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد: «فمن العبد المفتقر إلى الله المهدي بن عبدالله، إلى أحبائه في الله المؤمنين بالله وبكتابه، أما بعد:» فلا يخفى تغير الزمن وترك السنن ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفتن، بل أحق أن يترك ذلك.

### دعوته وعمله:

عمل مع عمه في نجارة السفن مدة قصيرة، وذهب إلى الخرطوم فقرأ الفقه والتفسير، ثم تصوف وانقطع في جزيرة «أبا» في النيل الأبيض مدة خمسة عشر عاماً للعبادة والدرس والتدريس وسافر إلى «كردفان» فنشر فيها «رسالة» من تأليفه يدعو فيها إلى تطهير البلاد من مفاسد الحكام، وكان جل عمله مبنياً على الجهاد، حيث كان يبث أتباعه «ويعرفون بالدراويش» بين القبائل يحضون على الجهاد<sup>(٢)</sup>.

(١) المهديّة في الإسلام ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) الأعلام ج ٦ - ص ٥٤٢.

ولنرى جدية أمره بالنسبة للجهاد نقرأ نداءه بالنسبة للمرأة حيث يقول: (وعلى النساء الجهاد في سبيل الله، فمن صارت قاعدة وانقطع منها أرب الرجال فلتجاهد بيدها ورجليها، والشابات فليجاهدن نفوسهن، يسكن بيوتهن، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، ولا يخرجن إلا لحاجة سريعة، ولا يتكلمن كلاماً جهراً، ولا يسمعن الرجال أصواتهن إلا من وراء الحجاب، ويقمن الصلاة، ويطنن أزواجهن، ويسترن بثيابهن، فمن قعدت كاشفة، فاتحة رأسها ولو لحظة عين، فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطاً، ومن تكلمت بفاحش فعليها ثمانون سوطاً<sup>(١)</sup>).

### جهاده ضد الإنجليز:

بعد أن انتشر أمره وذاع صيته بين القبائل وعوام الناس في السودان سمع رؤوف باشا المصري (حاكم السودان العام) فاستدعاه إلى الخرطوم فامتنع فأرسل رؤوف قوة تأتبه به، فانقض عليها أتباعه في الطريق وفتكوا بها، وسأقت الحكومة المصرية جيشاً لقتاله بقيادة جيفلر باشا البافاري، فهاجمه نحو خمسين ألف سوداني وهزموه، واستولى المهدي على مدينة «الأبي» سن ١٣٠٠هـ، وهاجمه جيش مصري ثالث بقيادة هيكس باشا فأبيد، وهاجم بعض أتباعه «الخرطوم»، وفيها غوردن باشا فقتلوه، وحملوا رأسه على حربة، سنة (١٣٠٢هـ) وانقاد السودان كله للمهدي، وكان فطناً فصيحاً قوي الحجة، قطن المهدي «أم درمان» المواجهة للخرطوم، وأقام يجمع الجموع ويجند الجنود لأجل التغلب على الديار المصرية، وأرسل مكاتبات من طرفه للخديوي، والسلطان عبدالحميد، ومملكة إنجلترا، يشعروهم بدولته ومقر سلطنته<sup>(٢)</sup>.

### نهاية دولة المهدي:

في ليلة الأربعاء ليلال خلون من شهر رمضان عام ١٠٣١هـ، أصيب المهدي بحمى التيفوس، ذاع خبر مرضه بين الناس فلم يكثرثوا به، لأنهم

(١) المهدي في الإسلام ص ٣٢٢.

(٢) الأعلام ج ٦ ص ٢٤٥ - حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ١٩٥ - ١٩٦.

واثقون بما كان يعدهم به من أن المنية لا تدركه قبل أن يفتح مصر والشام والكوفة والحجاز، وفي صبيحة يوم الجمعة عندما أحس بدبيب الموت يسري في عروقه، استخلف من بعده صاحبه «عبدالله التعايشي»، وأمره أن يخلفه في صلاة الجمعة، ف قيل له: إن الخليفة عبدالله أُمي لا يعرف الكتابة والقراءة فكيف يخطب الناس؟ فقال لهم: ادفعوا له ورقة الخطبة فليقرأ منها كلمتين أو كلمة، فدفعوا له الورق وخطب الناس وصلى بهم، وهم في غاية العجب من جهله بالقراءة وتحريفه لألفاظ القرآن.

وفي يوم الأحد ثامن رمضان اشتدت وطأة المرض على المهدي فكان يرفع صوته مستغيثاً قائلاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وكان يتجرد من ملابسه ويأمر بالماء البارد فيهرق على بدنه، وفي يوم الاثنين تاسع رمضان توفاه الله تعالى<sup>(١)</sup>، وبعد وفاته ببيع خليفته عبدالله التعايشي.

### عبدالله التعايشي: خليفة المهدي:

لقب التعايشي بخليفة المهدي، غير أن دولته لم تدم طويلاً، فقد عصف بها الجنود المصريون والإنجليز، بقيادة «كتشنر» الذي دخل أم درمان في ٢ سبتمبر عام ١٨٩٩. وانقرضت حكومة المهدي من السودان، ودالت دولة المهدي، ولم ينس «كتشنر» أن ينسف قبته، وينش قبره وفي بربرية وهمجية فيبعثر عظامه، ويبعث بجمجمته إلى المتحف البريطاني بلندن انتقاماً لمقتل غردوني<sup>(٢)</sup>، وعبدالله التعايشي هذا كان أحد المشتغلين بالتنجيم وكتابة الأحجية من أهل البقارة وكان أُمياً بائساً يائساً من حياته، جاء إلى المهدي، وهو يشيد قبة شيخه القرشي «و حينما وقعت عينه عليه خر على الأرض، مدعياً أنه أغمي عليه وبعد أن رفع رأسه سأله الحاضرون عن سبب إغمائه فقال: نظرت أنوار المهديّة على وجهه فصعقت من شدة تأثيرها على

(١) المهديّة في الإسلام ص ٢٣٤.

(٢) المهديّة في الإسلام ص ٢٣٦. حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٥.

حواسي...» وهكذا أكد التعايشي لمحمد أحمد أنه هو «المهدي» وحته على الظهور والجهاد والدعوة<sup>(١)</sup>.

### □ ثالثاً: دولة المرابطين (٤١٠ - ٥٠٠ هـ الموافق ١٠١٩ - ١١٠٦ م):

ظهرت الدولة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، أي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي - وشاد يوسف بن تاشفين صرح الدولة المرابطية التي سطعت في المغرب والأندلس لمدى قصير، ثم انهارت دعائمها، كما قامت بسرعة مدهشة، كان المؤسس يوسف يتمتع بمواهب وصفات بارعة من الذكاء والشجاعة والفطنة وبعد النظر، وكان في الحرب قائداً عظيماً، وجندياً مجرباً وفارساً شجاعاً، وكان التقشف من أخص صفاته فقد كان رغم ملكه الشامخ يعيش كأبسط رعاياه، بعيداً عن كل مظاهر الترف والنعماء، وبلغ من تقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ولا يشرب سوى لبن الإبل، وقد وهبه الله بسطة في الجسم وصحة بديعة، استطالت حياته إلى مائة عام، أو تسعين عاماً على قول آخر، وتوفي سنة خمسمائة من الهجرة (١١٠٦ م) بعد أن حكم زهاء خمسين عاماً وقام بأعظم فتوحه وأعماله، وأنشأ إمبراطورية المرابطين الشامخة بعد أن جاوز الستين وحارب في موقعة الزلاقة وهو في نحو الثمانين.

وترك يوسف مملكته لابنه الأصغر علي، ولكن دولة المرابطين القوية لم يتح لها أن تعيش طويلاً بعد وفاة مؤسسها بل نستطيع أن نقول: إن وفاة علي بن يوسف كانت نذيراً بانحلالها وتفككها، ولم تمض ثلاثون عاماً أخرى حتى سقطت هذه الدولة فريسة لدولة الموحدين بقيادة أبي عبد الله محمد بن تومرت المصمودي، الملقب بالمهدي مؤسس دولة الموحدين الكبرى<sup>(٢)</sup> سنة ٤٨٥ - ٥٢٤ هـ الموافق ١٠٩٢ - ١١٢٩ م.

(١) المهديّة في الإسلام ص ٢٠٥، ومبحث المهديّة فصلنا فيه في تحقيقنا لمخطوط البرهان في علامات مهدي آخر الزمان لعلي بن حسام المشهور بالمتقي الهندي.

(٢) تاريخ ابن خلدون، والحلل الموشية لابن الخطيب، ونفح الطيب للمقدسي - عن تراجم إسلامية ص ٢٠٨، وانظر كتاب - أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لإبراهيم محمد حسن الجمل.

## واستمر الإصلاح دعوات إصلاحية فردية

كان قدر الذين عايشوا الدولة العثمانية، أن يشهدوا نجم الدولة الإسلامية وهو يأفل، ولم تجد كل صيحاتهم ولا تحذيراتهم ولا كل الصفحات التي كتبوها أو الجرائد التي سطروها شيئاً يذكر.

صحيح أن مصطلح هؤلاء في الإصلاح ليس كغيره فيما سبق إبان العهد العباسي الثاني وما بعده، إلا أن الجديد الذي واجه هؤلاء كان النهضة العلمية التي شهدتها أوروبا بعد القرن الثامن عشر للميلاد.

بينما كانت أوروبا تشهد نهضة تكنولوجية وإنتاجية في كل مجال تزخر الأرض وما فيها من خيرات دفيئة، وتصنع الآلة وتطورها في كل يوم واکب تلك النهضة حالة من الرخاء استدعت تقدماً مضطرباً في التشريعات السياسية من أجل وضع حل لكل معضلة متبعين في ذلك مناهج علمية يثرونها كل يوم بقواعد ونظريات جديدة، في مقابل الأوروبيين، كان المسلمون يشهدون حالة من الاحتضار بسبب العقم الفكري الذي أصاب مناهجهم، حيث إنهم تجرعوا كل نظريات الأمم السابقة لهم، والتي ما أغنت عن أهلها ولا أكسبتهم شيئاً، وبدلاً من النظر في مناهج التفكير، راح المسلمون يواجهون التقدم العلمي في أوروبا بالوعظ والإرشاد والدعوة إلى الوحدة وعدم الاختلاف، وإلى ترك الأنانية وعدم الاستبداد في السلطة، وفي أحسن أحوالهم كانوا يقنعون أنفسهم بالدعوة إلى الزهد، ليس بمعناه الحقيقي وهو الإنفاق بعد الامتلاك، بل بمعناه السلبي في تعذيب النفس وقهر الشهوات، والابتعاد عن نواميس الكون، والامتناع عن كل ما يقيم الأود، ويقوي من العزيمة اصطفاء للنفس وتخليصاً للروح... إنها مأساة...

### - الخطأ في تعليق كل مصالح الأمة على الحاكم:

إن المسلمين، في فترات ضعفهم، وبتأثير من الفكر غير الإسلامي، كانوا يتصورون الإمام وكأنه كل شيء في حياتهم، ومع أن أهل السنة

والجماعة لا يقولون بالعصمة، لكن الممارسة العملية في النظرة للإمام كان فيها شيء من ذلك.

إن فكرة الحاكم الفيلسوف عند إفلاطون، الذي يطلع على عالم الغيب «عالم المثل»، وفكرة الحاخام عند اليهود الذي يتصل بيهوه<sup>(١)</sup> ويتداول معه في الشئون العامة، ويصحح له بعض أخطائه، ورد في التلمود، وفكرة البرهمي عند الهندوس<sup>(٢)</sup> وكذا القديس عند النصارى المتجسد في البابا (الحبر الأعظم في الكنيسة الكاثوليكية)، وفكرة الإله الإنسان عند الوثنيين.

### - هذه الأفكار زحفت على المسلمين في حالة ضعفهم:

وهذه النظرة هي التي صورت الإمام في أذهان المسلمين، فتراهم في كل شاردة وواردة يسألون عن الإمام كي يحل لهم مشكلاتهم، إن الإمام هو من هؤلاء البشر الذين تولى أمرهم، ولقد كان قبل ذلك محكوماً مثلهم بمن سلفه، وكان يتوقع منه ما يتوقعه الناس منه الآن وهو في سدة الحكم، وهاهو ذا يتعرض لذات السهام والعبارات والمصطلحات.. وسيثقل الحال منه إلى خلفه، فلا الإمام سيصبح على كل شيء قديراً، ولا أمور الأمة ستصلح بسحر ساحر، وما بني على الغلط سيبقى غلطاً، والمشاكل تتوالد، والأسس والإحباط سيكبر في النفوس.. وسيترنح المتحمس بعفوية وبغير عقل ولا علم ولا هدى..

إن الإمام هو في أحسن أحواله صورة عن الأمة، ومن رأى في صورته ما ينكره، فما عليه إلا أن يغير أصل المنكر منه، وأما إذا حاول أن يزرکش الصورة ويجملها بواسطة ريشة فنان، أو غير ذلك فلن يحصل إلا على صورة لا أصل لها إلا في مخيلة الرسام.. وكذا فالأمة التي لا تجمل أصلها، لن تجد إلا إماماً أو حاكماً في مستوى وسطها إن لم يكن أدنى من

(١) يهوه: إله بني إسرائيل.

(٢) البرهمي: رجل الدين عند الهندوس وهو - في زعمهم مخلوق من رأس الإله براهما وهو يملك كل شيء ويعرف كل شيء.



ذلك.. وسيبقى أفرادها جميعهم ينشدون خيالا أو قل سرايا يحسبه الظمآن ماء... .

والناظر في مسار العمل الإسلامي في مجال الإصلاح والتغيير يرى أنه قد تبع الحركة السنوسية والمهدية دعوات إصلاحية فردية لم ترق إلى أن تكون حركات جماهيرية عامة ينبثق منها نظام خاص، ولكنها مع ذلك ساهمت في تصحيح المسار الموجود في الدولة العثمانية ونذكر هنا على سبيل المثال:

### ◆ أولاً: خير الدين التونسي (١٨١٠م - ١٨٨٩م):

شركسي الأصل قدم صغيراً إلى تونس، واتصل بالباي أحمد وتعلم بعض اللغات ثم تقلد مناصب عالية آخرها الوزارة، ثم سعى لإعلان الدستور في تونس سنة ١٨٦٧ وتم له ذلك، وفي عام ١٨٧٧ أبعد عن الوزارة إلى الآستانة حيث تولى الصدارة العظمى، ثم استقال سنة ١٨٧٩ ونصب عضواً في مجلس الأعيان حتى توفي.

وقد لخص الباحثون أهداف خير الدين التونسي في الإصلاح وإنهاض الأمة وتطوير حياتها في خمس نقاط أساسية:

- سلطان الحاكم محدد بالقانون ومشورة العلماء والأعيان.
- توحيد الفقه الإسلامي وتكييفه مع ظروف الحياة الحديثة (وقد حاول التوفيق بين المذهبين الحنفي والمالكي في تونس).
- تحذير الخاملين والمتعصبين من الإشاعة عن الحياة الجديدة ونظمها.

خير الدين صاحب العلم والثقافة خريج المدرسة العسكرية المتقن للغات العربية والفرنسية والتركية، بدأ عمله في محيط مضطرب بالأحداث: باي تونس يعمل جاهداً للانفصال عن الدولة العثمانية، والجزائر تواجه الغزو الفرنسي، وتونس ستكون الفريسة التالية، ومعاناة الشعب من الظلم والجحود

قائمة، والصراع والتنافس بين الدول الكبرى على تونس غير خفي، ورئيس الوزراء (مصطفى خزندار) أداة في يد النفوذ الفرنسي إذ ليس للباي معه أي سلطان، والبلاد تسير إلى الخراب الشامل، والوزراء يجمعون الأموال ويهربونها إلى فرنسا، ولما تولى خير الدين رئاسة المجلس النيابي عام ١٨٦٠م لم يستمر إلا سنتين وتقدم باستقالته، ومما جاء في حثياتها:

«حاولت أن أسير بالأمور في طريق العدالة والنزاهة والإخلاص فذهب كل مسعاي سدى، ولم أشأ أن أخدع وطني الذي تبناي، بتمسكي بالمناصب، فقدمت استقالتي ١٨٦٢ من رئاسة المجلس ووزارة الجيش وعدت إلى حياتي الخاصة»، ثم اتجه سنة ١٨٧٧ إلى مركز الخلافة حيث حاول السلطان عبدالحميد الانتفاع به في سبيل دعوته إلى الجامعة الإسلامية فأولاه منصب الصدارة العظمى غير أن خير الدين لم يبق في منصبه غير عام واحد، فقد أحاطته الدسائس والأحقاد والمؤامرات مرة أخرى وحالت بينه وبين العمل على النحو الذي ارتضاه لنفسه<sup>(١)</sup>.

#### ♦ ثانياً: جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤هـ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٩م - ١٨٩٧م):

يقول جمال الدين الأفغاني عن تفهقر الأمة الإسلامية: «أما ما زعموه عن المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة، ولا غيرها من العقائد الإسلامية، ونسبته إليها كنسبة النقيض إلى النقيض بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار<sup>(٢)</sup>» إن جمال الدين الأفغاني أبعد أسباب التخلف عن العقيدة، وهذا أمر لا مرية فيه، غير أنه بدلاً من تناول سوء الفهم لهذه العقيدة، أو جرح الفكر الذي يمنهج عقول المسلمين ومن ثم إعادته إلى أصله الحقيقي، فإنه راح يسقط كل أسباب التخلف والهزيمة على هجوم التتار وكذلك على زحف الأمم الأوروبية على بلاد

(١) البحث مقتبس من أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي ص ٧٩ - ٨٨.

(٢) جمال الدين الأفغاني - محمد عبده - العروة الوثقى - دار الكاتب العربي - بيروت ط ٢/١٤٠٠هـ/١٩٨٠م - ص ٩٦ - ٩٧.

المسلمين، مع أنه كان الأولى له أن يربط بين انتصارات الغزاة وبين ضعف المسلمين، ولولا ذلك لما حصلت هزيمتهم، فالتار كانوا وكان المسلمون، والأوروبيون كانوا وكان المسلمون، فماذا عدا على ما بدا؟ ما الذي تغير؟ إنه ازدياد قوة الأمم الأخرى وانهيار أمة الإسلام.

ثم إن الأفغاني يرد السبب الآخر للانهيار التام إلى ضعف الحكام فيقول: «وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الأمر فيهم إلى غير أهله، وولى على أمورهم من لا يحسن سياستهم، فكان حكامهم وأمرؤهم من جرائيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم، وقصرت أنظار الكثير منهم.. وأخذ كل منهم بناحية الآخر فال الأمر بهم إلى الضعف والقنوط وأدى إلى ما صاروا إليه<sup>(١)</sup>».

إن العقيدة هي التي تصبغ الشخصية، وكذلك الفكر أيا كان مصدره فعقيدة الإسلام أنتجت تلك الأمة التي ما زالت الحلم في مخيلة كل مسلم. أليست هي التي كانت من مصابيح المسلمين في الأندلس غرباً وبلاد الإسلام شرقاً، وكذلك فإن حكام أوروبا قبل النهضة وإبانها ليسوا هم الذين كانوا أداة التحول وصانعيه، بل بالعكس فإنهم قاوموا كل بصيص علم ومعرفة شخّ نوره ولو من داخل رهبان الكنيسة كما هو حال نيقولا كوبرنيق<sup>(٢)</sup> وأسفار ميكافيلي في السياسة<sup>(٣)</sup>.

إن التحول الاجتماعي والسياسي كان ثمرة جهود العلماء الذين كان

(١) جمال الدين الأفغاني... المرجع السابق ص ٧٩.

(٢) نيقولا كوبرنيق - من بولندا ١٤٧٣ - ١٥٤٣ «كان قسيساً، تخصص بالرياضة والفلك إضافة إلى اللاهوت والعلوم الطبية، وقال بدوران الأرض - مع أن الفكرة التي كانت سائدة هي ثبات الأرض وليس دورانها كما كان يقول بذلك بطليمون في القرن الثاني للميلاد، وكوبرنيق عاش في إيطاليا.

(٣) نيقولا ميكافلي «١٤٦٩ - ١٥٣٢» صاحب كتاب: الأمير - وهو إيطالي الأصل ومن الملاحظ أن إيطاليا كانت جارة للأندلس.

يسقط بعضهم في مختبره من شدة الجوع كما حصل للزوجين بيير وماري كوري التي توفيت عام ١٩٣٤ في إحدى المصحات بعدما كانت وزوجها قد اكتشفا الراديوم «Radium».

إن تلك المرأة ولدت في بولونيا، وسافرت إلى باريس، وعاشت حياة قاسية جداً، ولم تتمكن من تأمين مورد عيشها، وكانت تقوم بغسل الزجاجات وملاحظة الأفران في المعامل، وكان الخبز والشكولاتة غذاءها الوحيد طيلة أسابيع فقرها<sup>(١)</sup>، إن الإشارة تكفي في هذا المجال، وليس هنا مكان ذكر كل العلماء والباحثين بالمفهوم العلمي حيث المكوث ليلاً ونهاراً في المختبر ومركز الأبحاث.

إن أمثال ماري كوري وغيرها ممن أشعلوا مصابيح العلم، وقدموا للبشرية من الخدمات ما ليس بمقدور أحد الاستغناء عنها عاشوا في زمن كان الإمبراطور في بلادهم أو الملك يعلن عن نفسه أنه إله والأسرة الحاكمة تتوارث العرش وسط طقوس عبادة تؤدي لكل وال جديد... إن كل ذلك لم يمنع هؤلاء من اقتحام الصعاب وتحمل الجوع والاضطهاد لاكتشاف ما ينفع الناس وليس الزبد...

ولعله من الفائدة تسجيل مشهد آخر من مشاهد الإصلاح في عهد الدولة العثمانية: «من سار في الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب علم

(١) راجع - المعرفة - إشراف اللجنة العلمية: محمد فؤاد إبراهيم وغيره الناشر - شركة ترادكسيم... سويسرا - جنيف - ثم الإنتاج في بيروت المجلد الثاني ص ٣٣٦ تحت عنوان معمل في عنبر حقيق: قالت المعرفة: استأذن الزوجان في استخدام مخزن صغير في الطابق الأرضي من مدرسة الطبيعة كان أشبه بمغارة رطبة يلقي فيها بالآلات التي لم تعد صالحة للاستعمال ولقد قاما بإحراق طن من اليورانيوم حتى وصل حجمه إلى خمسين كيلو غراما، وفي عام ١٨٩٨ تم عزل عنصر البولونيوم polonium نسبة إلى اسم بلدكوري بولونيا وطاقته تساوي ثلاثمائة ضعف فاعلية اليورانيوم، وفي عام ١٩٠٢ تم اكتشاف الراديوم الذي تبلغ فعاليته مليوني ضعف فاعلية اليورانيوم، «هؤلاء هم الذين غيروا مجرى حياة العالم وليس غيرهم...» - لقد قرنت اسم بلدها بولونيا مع اسم العلم..

أنه ما انهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجد، إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتغلغل العنصر الأجنبي أو استبداد في الرأي، واستنكاف عن المشورة، وإهمال في إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداها ووضع الأشياء في غير مواضعها، فيكون جوراً في الحكم، واختلالاً في النظم وفي كل ذلك حيد عن سنن الله فيحصل غضبه بالخطئين، وهو أحكم الحاكمين<sup>(١)</sup> ثم بعد ذلك تتم الدعوة إلى الرجوع لما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وكذلك الكتاب الكريم، لكن أيضاً بدون كيف أو تجريح وتعديل للمنهج الذي يفهمون به الإسلام، ولا إلى الكيفية التي يطور بها الباحثون من غير المسلمين العالم، حتى وصل بهم الأمر إلى إعداد الفهارس والمعاجم لكتاب الله عز وجل ولحديث رسول الله ﷺ، وأكثر من ذلك إلى صناعة الألبسة التي يعتمر بها المسلمون وهم يؤدون فرائض الحج وإقامة الصلاة...

ومن الإنصاف القول: بأن دعاة الإصلاح لم يكونوا بمنأى عما تحدثه الإنجازات العلمية الأوروبية من وهن في صفوف المسلمين، الذين كانوا يقابلون كل أمر جديد بأنه أمر معجز، وكل بديع من الاختراع بأنه سحر، وأن الإنكليز انتهزوا هذه الفرصة كي يبسطوا سيطرتهم على الشرق «وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية التي أثارت فيهم خواطر الأوهام، ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الإنكليز من حبال الحيلة والمكر، حتى خبلوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم، بل أخذوا عن عقولهم وخطرات قلوبهم فسلبوا أموالهم وانتزعوا منهم أراضيهم، وأجلوهم عن أملاكهم<sup>(٢)</sup> فكان سبباً في ثراء الإنجليز... ومع كل ذلك فإن الأفغاني يرى في زمانه بأن الأمر ما زال ملتبساً على المسلمين ويعتبر أن هذا الوهم ليس إلا كالوهم من جثة الأسد المطروحة على الأرض.

إلا أنه في مراحل دعوته الإصلاحية كان همه أن يتحدى السلطان، أن

(١) جمال الدين الأفغاني - محمد عبده - العروة الوثقى ص ١٦٠.

(٢) جمال الدين الأفغاني - العروة الوثقى، ص ١٧٦ - ١٧٧.

يربي جيلاً يتحدى الحاكم، من دون أن يوجه الأنظار إلى المنهج العلمي، وقد يقول قائل بأن الأفغاني كان فيلسوفاً أو مصلحاً سياسياً أو اجتماعياً، ولم يكن باحثاً في مختبر، وفي هذا القول وجهة نظر لها ما يبررها، لكن المسألة أبعد من ذلك، فالشعوب المتخلفة لا ترى إلا قمم الجبال والخطوط العريضة والصوت المرتفع...

فهي لا تدقق في جزئيات الأمور، وتلك حال اعترت المسلمين حتى إنه في حديث له مع شكيب إرسال تداولاً فيه حول ما روي من أن العرب عبروا المحيط الإطلانطيكي قديماً، واكتشفوا أمريكا - فيقول «إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان كونوا بني آدم أجابوه: إن إباءنا كانوا كذا كذا وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه من الخمول والضعفة وأنهم كلما أرادوا الاعتذار عن خمولهم ارتحلوا إلى الماضي كي يعتدوا فيه، فيقول لهم «نعم! قد كان آباؤكم رجالاً ولكنكم أنتم أولاد كما أنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آباؤكم إلا أن تفعلوا فعلهم»<sup>(١)</sup>.

ووسائل الإصلاح بقيت في إطار التحريض على السلطان ولم تنتقل إلى طرح مشروع متكامل، وتحدث عن تصحيح البنية الفكرية التي انحرفت عن مسارها الأخلاقي والسياسي وخضعت لتأثيرات غربية دخيلة على الفكر الإسلامي مثل الاتكال، والميل إلى الجبر».

لقد كان أسلوبه ثورياً عنيفاً في توجيهه ضد السلطان، حتى إن أحمد أمين قال عندما زار قبره في عام ١٩٢٨ «وقفنا على قبره، وقلت: رقد هنا محي النفوس، ومحرر العقول، ومحرك القلوب وباعث الشعوب ومزلزل العروش ومن كانت السلاطين تغار من عظمتها وتخشى من لسانه وسطوته والدول ذات الجنود والبنود تخاف من حركته»<sup>(٢)</sup>.

(١) أحمد أمين، زعماء الإصلاح - مكتبة النهضة، - مصر - ط ٣ - سنة ١٩٧١ - ص ١١٠.  
(٢) البحث مقتبس من أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي ص ٨٨ - ٧٩.

### خلاصة فكر جمال الدين الأفغاني:

استدعاه الخديوي توفيق باشا إلى قصر عابدين وطلب إليه أن يقدم آراءه الإصلاحية كي يعمل على تطبيقها، معللاً بأنه هو أيضاً يريد مصلحة الشعب، فأجاب جمال الدين بقوله: <sup>(١)</sup>

ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص: إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادهِ، ولكنه غير محروم من وجود العالم العاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم، إن قبلتم نصيح هذا المخلص، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة وتسنع القوانين باسمكم وإرادتكم، فيكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم.

ويرى جمال الدين الأفغاني أن الإصلاح يكون باجتماع أهل الرأي وأرباب الهمة وتعاونهم على اجتثاث الشجرة الخبيثة، واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج.

وعكس ذلك، أي بابتعاد الأمة عن المشاركة في صنع قرارها والعمل على إصلاح شأنها، وترك أمرها بين يدي غاشم يصرفها كيف يشاء «فأنذرها حينذاك بمضض العبودية، وعناء الذلة، ووصمة العار بين الأمم، جزاء على ما فرطوا في أمورهم، وما ربك بظلام للعبيد». <sup>(٢)</sup>

وفي تعليل آخر له يرى أن الإصلاح ليس بالثورة ضد الحاكم، وإنما يحتاج لعملية تغيير في النفوس والقلوب، فالحل «سبحانه وتعالى» أرشدنا في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت عن عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سننها الله على أساس

(١) أحمد أمين زعماء الإصلاح ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٦.

الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاه وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار.. (١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ويربط جمال الدين الأفغاني صلاح الأمر كله بالإيمان الصادق الخالص لله عز وجل.. أقول ولا أخشى نكيرا، لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الإيمان، لا يراعي في ذلك عذرا ولا تعلقة، وكل اعتذار في القعود عن نصره الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله (٢).

ويقول: يخفف من وطأة اليأس استذكار قول الرسول ﷺ بمعناه «إن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة»، ثم يقول: «إن هذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضا يزول» (٣).

### الأفغاني وفكرة الجامعة الإسلامية (٤):

إن جمال الدين الأفغاني، الذي كان أول من دعا إلى الاتحاد ونبذ الفرقة لم يكن يرجو من دعوته إلى الجامعة الإسلامية دعم سياسة السلطان عبدالحميد بالذات كما توهم عدد كبير من الدارسين، والذي حدث بالفعل هو أن هذا الأخير قد وجد في هذه الدعوة ضالته المنشودة في المرحلة

(١) المرجع نفسه ص ١٧١ - ١٧٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٤.

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٤.

(٤) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للنشر ط ١ - بيروت ١٩٧٩ ص ٢٥٩ - ٢٦٢.



الصعبة التي كانت تجتازها الدولة في علاقتها مع أوروبا، فتبناها من أجل أن يلقي الرعب في روع الدول الغربية، أما ما كان يشغل بال الأفغاني فهو أولاً وآخراً معادلة القوة والضعف التي يقابل بها الغرب الشرق، وفي هذه المعادلة تكمن كل «المسألة الشرقية» في رأيه: ومختصر هذه المسألة، كما يقول: «العراك بين الغربي والشرقي وقد لبس كل منهما لصاحبه درعاً من الدين» ونزوع «العلم» إلى التحكم في «الجهل» أما الدين فليس إلا «ذريعة» تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك الغاية وهو لا يمكن أن يمثل كل أسباب هذه المسألة، بتعبير آخر إن خروج العالم الإسلامي من دائرة الضعف واليأس الكبرى لا يمكن أن يتم إلا بالظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث، وقد لخصت «العروة الوثقى» الموقف بالعبارة التالية:

«إن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية، فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف» وفي المشرق الإسلامي الذي داؤه «انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف، لا يمكن أن يكون الخلاص إلا بهدم هذا التشتت لكي تحل محله الوحدة والاتحاد، وبالتالي القوة».

وقد كان من الضروري تقديم صيغة جماعية سياسية لهذا النهج تتم الدعوة إليها بشكل واضح وصريح، وبالفعل اتخذت هذه الدعوة صيغ «الجامعة الإسلامية والوحدة الإسلامية».

### □ ثالثاً: الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م):

ولد الشيخ محمد عبده حسن خير الله في قرية «محلة نصر» بمركز شبرا خيت من أعمال مديرية (محافظة) «البحيرة» وكان قدر أسرته أن يزج بأفرادها في السجون على حد قوله: من أنه قد سعى واش بأهلي عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح، ويقف في وجوه الحكام، فأخذوا جميعاً وزجوا في السجون واحداً بعد واحد، ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتاً وكان جدي «حسن» شيخاً بالبلدة، وهو الذي بقي من البيت مع ابن أخيه إبراهيم.

نشأ الشيخ محمد عبده معتزاً بنفسه غير آمن بالغنى والثروة، ولقد قال

عنه الخديوي عباس: إنه يدخل علي كأنه فرعون «تلقى علومه الأولى في القرية، حفظ القرآن الكريم، وبدأ ذلك وهو في السابعة من عمره، ثم ذهب إلى الجامع الأحمدى في طنطا، كي يتعلم تجويد القرآن الكريم، وبعد أن هم أن يعمل في الزراعة رفض والده ذلك وأعادته إلى الجامع الأحمدى، تأثر بخال أبيه الشيخ درويش خضر ودرس الصوفية وكان هذا على علاقة بالسنوسية، ثم ذهب إلى الأزهر في عام ١٨٦٦م (شوال ١٢٨٢)، وتأثر هناك بالتصوف أيضاً على يد الشيخ حسن الطويل.

ثم بعد اتصاله بالشيخ الأفغاني انتقل من التصوف والتنسك إلى الفلسفة الصوفية» وغضب مشايخ الأزهر عليه لملازمته الشيخ الأفغاني، لازم ثورة عرابي باشا حتى الهزيمة ١٨٨٢م، وبعد ذلك حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات وبدأت حياته بالسفر والتنقل في مختلف البلدان الشرقية والغربية<sup>(١)</sup>.

### تأثر محمد عبده بأستاذه جمال الدين الأفغاني:

من الناحية الفكرية فإن محمد عبده خلال الفترة (١٨٧١ - ١٨٧٩) كان يتلقى عن الأفغاني، وينقل أفكاره إلى طلبة الأزهر والراغبين في هذا اللون الفكري الجديد على مصر في ذلك الحين، وفي التدريب على صناعة الكتابة، منشأ تارة، ومصغياً لأفكار أستاذه في أغلب الأحيان.

أما عن الناحية السياسية فلقد تبع أستاذه كذلك فيما اتخذ من مواقف في هذا الميدان.. فدخل معه «المحفل الماسوني» ثم غادر معه المحفل البريطاني إلى المحفل الشرقي الفرنسي عندما وقفت الماسونية بمصر موقف الذي لا يبالي بظلم النظام واستبداده الذي يخدم النفوذ الأجنبي الزاحف على البلاد<sup>(٢)</sup>.

ثم ساهم مع أستاذه في تكوين (الحزب الوطني الحر) الذي كشف عنه

(١) لمن أراد الإسهاب في معرفة تاريخ حياته يراجع الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ١، ص ٣٢-١٩.

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده الكتابات السياسية ج ١ - ص ٣٥ - ٣٦.

الأفغاني في أواخر عهد إسماعيل، والذي كانت أهدافه، استقلال مصر، وتحويل السلطة في البلاد من سلطة فردية مطلقة في استبدادها إلى أخرى شورية مقيدة بالدستور والقانون ومجلس النواب.

### خلاصة فكر الشيخ محمد عبده:

مثل غيره فقد أحرز خيرا وفيرا من جهده في بحث مسألة الاستبداد ونصح السلطان غير أنه كان باحثا هادئا ورصينا، يقلد السلف من علماء المسلمين أمثال الماوردي أبي يعلى، ويرى أن الشريعة غير كافية بمحض وجود نصوصها كي تقيد الحاكم «بل لا بد في ذلك من وجود أناس يتحققون بمعانيها، ويظهرون بمظاهرها، فيقومونه عند انحرافه عنها، ومن أجل ذلك لا بد من إيجاد هذه الطائفة، ووجودها هو وجود كفائي، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، وأن الله تعالى لم يجعل الشريعة في يدي شخص واحد يتصرف فيها كيف يشاء، بل فرض على العامة أن تستخلص منها قوما عارفين لجلب كل ما يؤيد جانب الحق، وتبعد كل ما من شأنه أن يحدث خللا في نظامه، أو انحرافا في أوضاعه العادلة»<sup>(١)</sup>.

واختلف محمد عبده عن أستاذه الأفغاني في النظرة إلى الإصلاح لقد كان يرى وجود التحرر الفكري من الجمود والتقليد، وكذلك التحرر السياسي من النفوذ السياسي الغربي الزاحف على المنطقة بالتصدي له بالنهضة الحضارية لمغالبتها، وإنشاء مؤسسات سياسية دستورية ونيابية حديثة، وتقييد سلطات الحكام بالدساتير والقوانين، وأما العامة فيجب إطلاق طاقاتهم الواسعة في البناء والتدبير والإبداع.

### ويميز محمد عبده بين الاثنين بقوله:

«ذلك أن الأفغاني كان ثوريا يرى الثورة هي الوسيلة الأجدى والأفعل في بلوغ الغاية التي حددها. أما الأستاذ فلقد كان إصلاحيا يرى أن التدرج

(١) محمد عبده الأعمال الكاملة تحقيق وتقديم محمد عبده المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٩ م - ج ١ ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

في الإصلاح هو الطريق الأقوم والأضمن في تحقيق هذه الغاية، وأن التربية المستندة إلى الدين بعد تجديده بواسطة المؤسسات التربوية الجديدة مثل دار العلوم مثلاً وكذلك المؤسسات العتيقة بعد إصلاحها مثل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية... إن التربية والتعليم هي السبيل الوحيد لبلوغ الشرق في التحرر الفكري والتحرر السياسي<sup>(١)</sup>.

ويعتبر محمد عبده أن الأوروبيين تبناوا الشورى في مناهجهم السياسية، وأن بإمكان المصريين أن يحذوا حذوهم «لا فرق بينها وبين بلاد أخرى تحققت فيها الشورى ونالت منافعها وعادت عليها فوائدها، من حيث القبول للمصلحة»<sup>(٢)</sup>.

لقد كان يؤيد نظاماً ديمقراطياً غير أنه ملكي مقيد يسعى إلى تطبيق نظرية مونتسكيو في روح الشرائع<sup>(٣)</sup> يفهم من ذلك من خلال سماح الخديوي بانتخاب أعضاء لتأليف مجلس للشورى.

#### □ رابعاً: الشيخ محمد رشيد رضا<sup>(٤)</sup> (١٨٦٥ - ١٩٣٥م):

لقد كان الهم الأكبر عند الشيخ محمد رشيد رضا محاربة الدولة العثمانية، ولولا هذه الأمنية لما سافر من بلده القلمون قرب طرابلس الشام إلى القاهرة حيث أتاح الإنجليز لكل راغب بمحاربة تلك الدولة وعلى رأسها السلطان عبدالحميد أن يأوي إلى مصر وله في ذلك وحده - أي محاربة السلطان - ما يشاء ويريد.

وأكثر من ذلك فقد ترأس جمعية الشورى العثمانية في مصر، وحاور مندوب جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تعمل في أوروبا وقال له: «وإننا

(١) محمد عبده، الأعمال الكاملة ج ١ ص ٣٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٦٠.

(٣) راجع المرجع نفسه ص ٣٦٦.

(٤) لقد بينا وفصلنا في مدخل البحث موضوع سقوط الدولة العثمانية، حيث ذكرنا الشيخ رشيد رضا كمثال لجهد إسلامي سرقه المتربصون بالدعوة الإسلامية «يرجع إليه».

نرى أنه لا نجاح للعثمانيين إلا باتفاق عناصرهم على المطالبة بالدستور<sup>(١)</sup>.

وكرس رشيد رضا جهده في مجلة المنار التي أنشأها في مصر على مهاجمة استبداد الدولة العثمانية، وسياسة السلطان عبدالحميد، ومعاوضة وتأيد من أطلق عليهم «أحرار العثمانيين»، وبين رشيد رضا أنه بموت الأستاذ محمد عبده فرغت له الساحة كي يهاجم السلطان كما يريد، وسبب ذلك أن محمد عبده كان يرى الإصلاح بغير هذه الوسيلة، وكان ممن سبق رشيد رضا إلى مصر، إبراهيم اليازجي أحد نصارى لبنان وصاحب أول دعوة للقومية العربية في بلاد الشام وهو صاحب قصيدة مطلعها:

تَنَبَّهُوا وَاسْتَفَيْقُوا أَيُّهَا الْعَرَبُ      فَقَدْ طَعَى الْخَطْبُ حَتَّى غَاصَتِ الرُّكْبُ  
فِيمَ التَّعَلُّ بِالْأَمَالِ تَخْدَعُكُمْ      وَأَنْتُمْ بَيْنَ رَاحَاتِ الْقَنَا سُلْبُ  
خَلُّوا التَّعَصُّبَ عَنْكُمْ وَاسْتَوُوا عُصْبًا      عَلَى الْوِثَامِ لِدَفْعِ الظُّلْمِ تَعْتَصِبُ  
ثم أتبعها بقصيدة أخرى.....

فَالْتُرْكُ قَوْمٌ لَا يَفُوزُ      لَدَيْهِمْ إِلَّا الْمُشَاكِسُ  
أَوْ لَسْتُمْ الْعَرَبَ الْكَرَامَ      وَمَنْ هُمْ شَمُّ الْمَعَاطِسِ<sup>(٢)</sup>

وهكذا تقاطر المعارضون للدولة العثمانية، كي يعملوا على هدم أركانها والإطاحة برأسها «ال خليفة السلطان عبدالحميد» وحصل الانقلاب ضد السلطان عبدالحميد من قبل جمعية الاتحاد والترقي، وشارك الشيخ محمد رشيد رضا الناس فرحتهم مع إبداء بعض التحفظ لجهة القيادة الجديدة ومما قاله في الشام «ولما قر الله عيوننا معشر العثمانيين بالحكومة الدستورية اشتقت إلى زيارة وطني الأول لرؤية الأهل والأصدقاء، ولاختبار رجال البلاد بعد أن اشتدت عليها وطأة الاستبداد، ومساعدة محبي الإصلاح والترقي في التنبيه لما يجب أن تتوجه إليه الهمم»<sup>(٣)</sup>.

(١) إبراهيم أحمد العدوي، رشيد رضا، أعلام العرب «٣٣» - مصر ١٩٦٤م - ص ٢٢٣.

(٢) راجع إبراهيم العدوي - المرجع السابق - ص ١٢٠-١١٩.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٧.

ثم راح بعد ذلك يهاجم الحكومة الجديدة، وتلاشت آماله التي كان يصبو إليها في مخيلته.

### الخلاصة:

يقول أنور الجندي: ومن عجب أن تعطي الدعوات والحركات الإصلاحية رجالاً في مثل قوة وإرادة رشيد رضا وسلامة أعصابه واتصال عمره وجهده، بالإضافة إلى براعة أسلوبه وسلامة بيانه وقدرته الخارقة على التحرير والكتابة والمراجعة والتصحيح، حتى كان ينشيء عدد المنار كله بقلمه وحده، وقلماً استعان من خلال هذه السنوات للتحرير معه إلا بقلّة قليلة، فإذا أضفنا إلى هذا أنه كان منوع الإنتاج في السياسة والاجتماع والدين، وأنه كان يكتب في الصحف اليومية «الأهرام، والمقطم» في مختلف القضايا الفكرية أو العربية التي تثار، وأنه إلى ذلك كله لم يتوقف، بل لعلنا إذا عرفنا أنه في السنوات الأخيرة قد ركبت الديون وهددته تهديداً عاصفاً متصلاً، وأن ذلك كله لم يصرفه عن طريقه ولم يكدر ذهنه، ولم يمنعه من أن يكتب ويعلق ويستصفي الآراء الناضجة والحلول الدقيقة لما يعرض له، لعلنا إذا عرفنا هذا عجبنا لهذه النفسية البارعة، ولعل هذا كله يدفعنا إلى البحث عن العوامل التي كونت شخصيته، وأمدته بهذه القوة العصبية والنفسية السليمة، خاصة إذا تصورنا أنه رجل مهاجر وأنه كان لذلك يلقي كثيراً من المتاعب، وأنه كان يتحرز في كثير من المسائل حتى لا يُغضب المسؤولين الذين يعيش بينهم، وإليهم تختلف أمور معاملاته وقضاياهم ومصالحه.

### مذهبه الإصلاحي:

لخص رشيد رضا مذهب الإصلاحي في الأعداد الأولى من مجلة المنار والتي امتدت تقريباً إلى السنة الثانية عشرة من عمرها، أي إلى سنة ١٩١٢م، أما سائر المقالات الأخرى التي حررها في أعداد المنار إلى نهايته فهي إما إفاضة في شرح ما سبق أن تناوله بإيجاز أو بالدراسة العامة،

فاشتملت المقالات الافتتاحية خاصة في السنوات الأولى للمنار على بيانات مجملة في الإصلاح، وإرشاد المسلمين إلى النظر في سوء حالهم، وتذكيرهم بما فقدوه من سيادة الدنيا وهداية الدين، وما أضاعوا من مجد آبائهم الأولين.

### قال في شرحه لوجهة نظره الإصلاحية:

«لقد اقتبسنا أسلوب الإجمال قبل التفصيل، وقرع الأذهان بالخطابات الصادرة من القرآن الحكيم،... ثم إن رشيد رضا عمل على ضرورة تغيير الصورة التي ألفها المسلمون عن دينهم، إذ يعتقدون أن هذا الدين به سر روحاني يمدهم بالنصر والقوة بصرف النظر عن خلقهم وأعمالهم، ونادى رشيد بأن على المسلمين أن يعلموا أن قيمة الدين ليست في أسرارهِ الروحية أو قواه الخافية، ولكنها تكمن في الحقيقة التي يعلمها للإنسانية وهي أن سعادة المرء في الحياة الدنيا والحياة الأخرى تتوقف على معرفته لسنن الله التي تضبط رقي البشر، أفراداً وجماعات، ويجب على المسلمين إن يدرسوا هذه السنن، وأن يسيروا عليها في يقين وإيمان، وأن يعلموا أن الله لا يمنع خيرات العالم عن أولئك الذين يطلبونها بالطرق الصحيحة، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين<sup>(١)</sup>.

وإمعانا منه في حث الأمة على انتهاج سبيل العلم والمعرفة في مختلف نواحيها، خاصة منها ما يرفع من شأنها ويقوي بنيتها بحيث يقضي على أمراضها صاغ ذلك بأسئلة وجهها عبر المنار ركز فيها على:

- ١ - الناموس الذي يحصل به الجذب والانجذاب بين العناصر المتفرقة.
- ٢ - السبيل إلى حب الأثرة والاختصاص بالمنافع دون بقية الأمة.
- ٣ - «إذا تمكن في النفوس اليأس من التقدم، والقنوط من الترقى، والاعتقاد بأن زمن التدارك فات فإننا نقول: فيماذا تنزع الأغلال وتنعم النفوس بحلاوة الرجاء بعد مرارة اليأس؟

(١) المرجع السابق ص ١٥٣ - ١٥٤.

وأما عن قضية تقليد الضعيف للقوي، في الأمة الإسلامية فيقول: إن الأمة ستبهر بمنجزات الغرب الصناعية، وهذا ما سيدفع بأفرادها أو جماعتها إلى تقليدها، والتقليد الذي يخافه هو الذي يكون في القشور والهوامش والتوافه . . .

لذلك طرح الشيخ رضا هذا السؤال: «إذا حاول بعض أهل الثراء أن يحتذي شاكلة السابقين ويتلو تلو الشعوب المتمدنة فأنشأ يقلدهم في أحوال معيشتهم . . فكيف يمكن إقناع هؤلاء بأن هذا التقليد تزييف على جرح الأمة وإجهاز على حياتها، وأن التقليد النافع إنما يكون في خدمة المعارف؟

وتساءل عن كيفية محافظة الأمة على «دينها ولغتها وعوائدها النافعة إذا كانت مهددة من أمم أخرى بحكم ناموس تنازع البقاء».

ثم تكلم صراحة وليس تلميحاً عن الصناعة وضرورة إتقانها، والزراعة وضرورة التقدم بها والتجارة والاستعمار.





## الفصل الثالث:

# الحركات الإسلامية وواقعنا المعاصر

- المبحث الأول: انهيار الدولة العثمانية.
- المبحث الثاني: جماعة الإخوان المسلمين في مصر.
- المبحث الثالث: الحركة الإسلامية والتغيير في دول غير مصر.





## المبحث الأول:

## انهيار الدولة العثمانية

إن زوال الأمم وبقائها يخضع للسنن الشرعية والكونية، التي أعلمنا الله إياها في كتابه الكريم في عرض قصصي واضح لنشأة الأمم وبقائها، أو فنائها، ومن هذه السنن المذكورة الظلم بمعناه العام، ظلم الإنسان لنفسه ولمجتمعه ولل بشرية، بل وظلم الإنسان للأرض التي يدب عليها نعم إن الظالم قد حكم على نفسه بالزوال، حاكما كان أم محكوما، فالرعية الظالمة التي يتظالم أفرادها فيما بينهم يسלט الله تعالى عليهم حاكما ظالما يقتص منهم ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩) (١).

[الأنعام: ١٢٩].

ومصير الظالمين عدم النجاح والفلاح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥) [الأنعام: ١٣٥].

ومن سنته سبحانه وتعالى هلاك الأمة بظلمها ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣].

هلاك الظالمين سنة ماضية في خلق الله تعالى من الأمم، وليس لأحد أن

(١) انظر: عبدالكريم زيدان - السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة بيروت، ط ٢ سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م - ص ١١٣ - ١٣٤ والمعلومات مقتبسة بتصرف.

ينجو من هذا الناموس وهذه السنة، وهذا لا يقتصر على الذين مضوا ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] لقد بين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم، لا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذر من وخامة الظلم، فلا يغتر الظالم بالإمهال والعدل أمانة البقاء، سواء أكان العادل مؤمناً أم كافراً، فالدولة العادلة مع كفرها تبقى وتستمر، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم، وبهذا قال المفسرون وأهل العلم وقال الإمام الرازي: «إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك، والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد»<sup>(١)</sup>.

ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأمر الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم - ولهذا قيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة»<sup>(٢)</sup>.

### رصاصه الرحمة على دولة الخلافة:

من تحت رداء العباءة العربية، ومن منزله في مكة المكرمة أطلق الشريف حسين بن علي طلقة من بندقيته ضد الحامية العسكرية التابعة لدولة الخلافة، إيذاناً بانطلاقة الثورة العربية الكبرى في ٢٨ رمضان سنة ١٣٣٣هـ ١٤ تموز ١٩١٥م - أرسل الشريف حسين إلى هنري مكماهون يؤكد له فيها أن الشعب في الجزيرة العربية هو مع بريطانيا «إنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح

(١) تفسير الرازي ج ١٨ - ص ٧٦ انظر عبدالكريم زيدان - المرجع السابق - ص: ١٢٢.

(٢) ابن تيمية: رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق صلاح الدين المنجد - ص ٤٠.

المشتركة» وكتب في الحاشية: «أرجو أن لا تزعجوا أنفسكم بإرسال أي رسالة، قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا» والأعمال التي يتحدث عنها هي محاربة جيش دولة الخلافة، بغية الحصول على مساعدة بريطانيا على إنشاء خلافة عربية، تمتد حدودها من مرسين وأضنه، حتى الخليج العربي شمالا، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوبا، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي - حتى سيناء غربا، وعلى أن توافق إنجلترا على إعلان خليفة عربي على المسلمين، ولقد حدد الشريف حسين مدة شهر كي يتلقى جوابا على مذكراته، وإلا «فنحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا إذا لم يصل الجواب - أحرارا في القول والعمل من التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي أفندي»<sup>(١)</sup>.

وكان الشريف حسين يومها في مكانة تسمح له بتهديد الإنجليز، لقد كان يفيد حتى من وجود أعدائه في دولة الخلافة، ومع ذلك فإن المندوب السامي البريطاني في مصر «هنري مكماهون» لم يكذبه القول فكان جوابه الموافقة على استقلال البلاد العربية والموافقة على إعلان خليفة عربي، لكن مسألة الحدود لا يسمح الوقت لتحديدتها بسبب استمرار الحرب مع تركيا، ومما جاء في رسالته الجوابية: «إلى الحسيب النسيب سليل الأشراف وتاج الفخار، فرع الشجرة المحمدية، والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع، والمكانة السامية، السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين باشا، سيد الجميع، أمير مكة، قبلة العالمين، ومحط رحال المؤمنين الطائفين، عمت بركته الناس أجمعين»<sup>(٢)</sup>. «وقد سرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم برأي واحد وعقيدة واحدة، وهي أن مصالح العرب، هي مصالح إنجلترا، ومصالح إنجلترا هي مصالح العرب».

(١) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، أصدرته جريدة الأيام، مطبعة الأيام دمشق سنة ١٩٣٦/ص ١-٣ «علي أفندي أصغر، هو من أنساب حسين روجي أفندي البهائي الموظف في قلم الترجمة بدار المندوب السامي في مصر يومئذ «السير مكماهون» وهو رسول ستورز رئيس الشبكة البريطانية - الإنجليزية إلى الشريف حسين ونجله الأمير عبدالله.

(٢) المرجع: ص ٣ - ٤ مصر في ١٩ شوال ١٣٣٣/٣ أغسطس ١٩١٥م.

إن الشريف حسين تنبه إلى الرد وقال له: «ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت صراحة: إن «البرودة» و «التردد» اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود.. إن هذا كله يدل على عدم الرضا، وشرح أهمية تلك الحدود مبيناً أنها ملك الشعب، يعتقد أن حياته فيها، ولذلك فهم يصرون على مسألة البحث فيها، ومع ذلك فقد أكد له: «وبالاختصار فإننا ثابتون في إخلاصنا، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع، أكتتم راضين عنا - كما قيل - أو غاضبين» وأعرب عن عدم رضاه لاقتطاع بيروت لصالح الفرنسيين<sup>(١)</sup>.

وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥ «١٥ ذي الحجة ١٣٣٣» رد «مكماهون» في رسالة قال فيها إن مرسين وإسكندرونه وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق: «حمص وحماة وحلب، لا يمكن أن يقال إنها عربية محضة» وعلى هذا الأساس يمكن بحث مسألة الحدود مع مراعاة أي اتفاق آخر مع زعماء عرب، وأما ولايتي البصرة وبغداد ففيها مصالح خالصة لبريطانيا<sup>(٢)</sup>.

وكان رد الشريف حسين في ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣ «١٠/٥» ١٩١٥م، «رغبة في تسهيل الاتفاق.. واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فإننا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين وأضنة، إلى المملكة العربية، أما قصبة حلب وبيروت وسواحلها فهي عربية صرفة وليس هناك فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي، فكلاهما من نسل واحد» وقال بأن ليس بالمستطاع إقناع الشعب العربي بالتنازل عن العراق عاصمة الخلافة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، ويمكن الموافقة على ترك البلاد المحتلة من إنجلترا إلى وقت آخر مناسب، لقاء تعويض تدفعه بريطانيا، وطلب في الرسالة ضمانات من السير مكماهون

(١) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، المرجع السابق ص: ٤ - ٧.

(٢) المرجع ص: ٧ - ٨.

تضمن فيها بريطانيا حمايتهم من تركيا «... عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحدّر»<sup>(١)</sup>.

وكان رد السير مكماهون أن بريطانيا لا تستطيع أن تؤثر على مصالح حليفها فرنسا في ساحل بلاد الشام وحثه على جمع كلمة العرب على مصالحهم المشتركة ومنعهم من مديد المساعدة للأتراك، وأبلغه في الرسالة وعد بريطانيا بسلخ البلاد العربية عن تركيا<sup>(٢)</sup>.

وأعاد السير مكماهون رسالة شكر فيها حسيناً على احترامه وعدم رغبته بالإخلال بالاتفاق والتحالف بين بريطانيا وفرنسا وفي ٨ شعبان ١٣٣٤هـ «٩ حزيران ١٩١٦» أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك في الحجاز مساء الجمعة، وبرر ثورته في منشور أهم ما جاء فيه:

**أولاً:** إن الثورة أعلنت ضد جمعية الاتحاد والترقي وليس ضد السلطان الذي فقد حريته وسيادته وأصبح لا حول له ولا قوة.

**ثانياً:** لقد ثبت إلحاد أعضاء الاتحاد والترقي وتعسفهم واستبدادهم وظلمهم للنساء والأطفال، واستنزاف أموال الدولة وثرواتها وزجها في حرب خاسرة مع الدول الأوروبية.

**ثالثاً:** إن حكومة الاتحاد والترقي تضطهد من يدافع عن العقيدة، وتقرب كل كافر مناوئ للإسلام، ولقد أبطلوا الصلاة الإبراهيمية في الجيش وجعلوها اختيارية.

**رابعاً:** استحدثهم صكوك الغفران «سجلات المستشفعين» التي قررها شيخ الإسلام في عهدهم وصار يبيع الشفاعة النبوية لطلابها بليرة عثمانية وتدون في سجلاتهم في الحرم النبوي الشريف.

**خامساً:** حربهم ضد الأرمن.

**سادساً:** إلغاؤهم اللغة العربية.

(١) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، المرجع السابق ص: ١٠ - ١١.

(٢) المرجع نفسه ص: ١١ - ١٢.

سابعاً: إعدام المتعاونين مع فرنسا في بلاد الشام.

ثامناً: الاغتيالات في السجون والشوارع لكل من يعارضهم

تاسعاً: يصادرون الأموال، ويهتكون حرمة النساء المؤمنات، ويعرضون أطفالهم للهلاك والموت جوعاً.

«ولم يكتفوا بالتنكيل بالأحياء تقتيلاً وتصلباً ومصادرة ونفياً، وبقساوة على الأطفال «والنساء» تنفطر لمجرد تصورهما القلوب وتذهب الأنفس حشرات - بل وصل حقدهم على العرب إلى إهانة الأموات...».

عاشراً: الحشود العسكرية في بلاد الحجاز.

حادي عشر: إطلاقهم النار على الكعبة من مدافعهم، وقتل الناس حولها، وإحراق سترتها.

وأخيراً من أجل كل ذلك كان الانفصال وكانت الثورة ضد الأتراك<sup>(١)</sup>.

### السقوط مرة أخرى والوقوع في شرك الشيطان<sup>(٢)</sup>:

بينما يقود لورنس الجيش العربي في بلاد الحجاز «لورنس ضابط بريطاني» ويدمر سكة الحديد ويردم آبار المياه ويقوم بحرب عصابات ضد جيش الدولة الإسلامية، وبالرغم من حوار مكماهون المخادع للشريف حسين، فقد عقدت فرنسا وبريطانيا اتفاقية عرفت باتفاقية سايكس - بيكو - عام ١٩١٦م أعطت فيه نفوذا لكل من بريطانيا وفرنسا على المساحة التي سمحا فيها بقيام حكومة عربية في الحجاز وبعض مناطق العراق وشرق الأردن<sup>(٣)</sup> ويكون لفرنسا وبريطانيا حق إقامة المشاريع فيها وهذه المنطقة

(١) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، المرجع السابق ص: ٢٦ - ٣٤.

(٢) من أراد أن يقف على مرارة ما حدث فعليه أن يقرأ مذكرات ت.أ. لورنس أعمدة الحكمة السبعة، منشورات المكتبة الأهلية بيروت ط ٢ سنة ١٩٧١ وسيجد فيها ما يكفي لاتعاطفه ولمعرفة مكائد الصليبيين واليهود وسذاجة الذين تعاملوا معهم من المسلمين.

(٣) راجع، جورج انطونيوس - يقظة العرب، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ «الخارطة بينهما».



صحراوية في أغلبها، بينما جعلت المناطق الأخرى تحت الانتداب البريطاني والفرنسي كما هو معلوم.

إن هذه الاتفاقية لم تأخذ بعين الاعتبار مراسلات واتفاقيات الشريف حسين مع المندوب السامي في مصر السير هنري مكماهون، وكذلك فإن الشريف حسين لم يعلم بها إلا بعد ستة أشهر وذلك في ديسمبر ١٩١٧م عندما كشف الأتراك عن الاتفاقية<sup>(١)</sup> بعد أن نشرها البلشفيون في روسيا وقام الأتراك بتقديمها له، وبالرغم من تحذير جمال باشا للأمير فيصل بن الحسين في العقبة وإبداء استعداد تركيا وألمانيا لمنح العرب حقوقهم التي يطالبون بها، فإن جمال باشا بين أن حسينا وقع في خداع الإنجليز وحلفائهم «الشريف حسين باشا المسكين وقع أخيرا في حبال الإنجليز وحلفائهم» «الشريف حسين باشا بنفسه فضلاً عن تسببه بوصول الأعداء إلى أمام قلعة القدس سيشعر بالتعاسة التي جلبها لنفسه بإبدال شرف الإمارة الممنوح له من الخلافة الإسلامية بالعبودية للإنجليز<sup>(٢)</sup>.

وحاول فيصل أن يستفسر من البريطانيين عن حقيقة الاتفاقية، وفي شباط ١٩١٨ جاء الرد «علما أن الاتفاقية أبرمت عام ١٩١٦م» مبهما ومضللا له وفيه تهرب من الإجابة عن السؤال المطروح، واطمأن حسين الذي كان مملوءا بالإيمان والثقة بالإنجليز...

وتنتهي الحرب، ويضطر فيصل على الموافقة على مشروع دولة يهودية - عربية في فلسطين مع حاييم وايزمن، ويقضي المشروع بالعمل على تنفيذ وعد بلفور، وتشجيع الهجرة إلى فلسطين ووضع الأماكن المقدسة تحت رقابة المسلمين، وأن تقوم المنظمة الصهيونية بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في فلسطين، وتعتبر بريطانيا حكما بين العرب واليهود في كل نزاع<sup>(٣)</sup>.

(١) راجع جورج انطونيوس، يقظة العرب - ص ٣٥٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٦١.

(٣) راجع الاتفاقية في الملحق «و» جورج أنطونيوس، يقظة العرب - ص «٥٩٢ - ٥٩٥».

### أكلت يوم أكل الثور الأبيض:

لقد انتهت دولة الخلافة بحدودها المترامية الأطراف، وانهزمت وتم سلخ البلاد العربية عنها، وانحسرت في تركيا فقط، وقلب الحلفاء للثوار العرب ظهر المجن، وخاب أمل دعاة الاستقلال، وعم الغضب، وعاد الحنين إلى الدولة الأم، وبدأ العرب يفكرون باللقاء مرة أخرى مع الأتراك، الذين حاربوهم لمصلحة البريطانيين وحلفائهم، راجين منهم العون والمساعدة كي يتخلصوا مما وقعوا فيه من ظلم الفرنسيين والبريطانيين، وقبل فيصل بن حسين نفسه «بالاتفاق مع مصطفى كمال ليحارب العرب إلى جانب الأتراك فيحول هكذا الشعبان التركي والعربي دون تثبيت أقدام الفرنسيين في أية بقعة من بقاع الشرق الأوسط»<sup>(١)</sup>. وأخذ العراقيون أيضاً يفكرون في الانضمام إلى الأتراك والمحاربة معهم، وهذا ما حدا بوزير المستعمرات البريطانية «تشرشل، لأن يقول في مجلس العموم البريطاني: «هناك جماعات من العرب تبدي تخوفاً من احتلال سورية، وهي تميل الآن، ولأول مرة لضم صفوفها بطرق مختلفة إلى الأتراك الوطنيين، على أن قضيتهم واحدة مشتركة، وهكذا تتم وحدة بين قوتين كنا نستفيد دوماً من انقسامها لا من وحدتها»<sup>(٢)</sup>.

وبعد إعلان فيصل ملكاً على سوريا المتحدة وبحدودها الطبيعية في ٨ آذار ١٩٢٠، قامت فرنسا وبريطانيا بشجب هذا الإجراء وتم اعتبار ذلك معوقاً ومعقداً في التسوية مع تركيا في مؤتمر الصلح، وفي ١٤ تموز ١٩٢٠ وجه الجنرال الفرنسي غورو إنذاراً إلى فيصل بتسريح الجيش العربي، وقبول الانتداب الفرنسي، ومعاقبة كل مسيء لفرنسا ووضع جميع المرافق تحت سيطرة جيشها<sup>(٣)</sup> ويدعي الجنرال غورو أن جواب فيصل تأخر حتى ٢١ من

(١) ملحم قربان - تاريخ لبنان السياسي - الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٧ - ج ١ ص ١٣٢

نقلاً عن جريدة لسان الحال البيروتية في ٢٢ آذار ١٩٢٠م.

(٢) ملحم قربان، المرجع السابق - ص ١٣٣ - نقلاً عن مناقشات البرلمان البريطاني للعام ١٩٢٠م.

(٣) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب - ص ١٤٥.

الشهر نفسه، فهاجم سورية حيث وقعت معركة مع مجموعة من الجيش العربي يقودها المرحوم يوسف العظمة، وتم إلغاء المملكة، وغادر فيصل البلاد إلى حيفا ومنها إلى بورسعيد حيث قصد إيطاليا، فاستقر في مدينة كومو، وهناك وضع مذكرة طويلة أرسلها إلى المستر لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، مؤلفة من ٢١ صفحة، بكى فيها واستبكى، وذكر البريطانيين بكل الخدمات التي قام بها والده الشريف حسين<sup>(١)</sup> وإخوته وكل العرب الذين قادهم لورنس واجتاح بهم الجزيرة العربية حتى دمشق والعقبة وكل فلسطين.. لكن كل الدموع لم تثر شفقة في قلب الرئيس البريطاني وهكذا كان حال فيصل «أكلت يوم أكل الثور الأبيض».

### ما قاله لورنس في سذاجة قادة الثورة العربية:

عند استفسارهم من لورنس عن اتفاقية سايكس - بيكو، ولم يكن قد اطلع عليها ولا عرف من قبل اتفاقات حسين - مكماهون، فالاتفاقية جرت عن طريق وزارة الخارجية، يقول لورنس: «.. وقد كنت متأكداً أن جميع هذه الوعود، إذا ما ربحنا الحرب، ستبقى حبراً على ورق، وهكذا ترتب علي إذا ما أردت أن أبقى مستشاراً شريفاً، أن أنصح رجالي بالعودة إلى أهلهم وبيوتهم بدلاً من المجازفة بأرواحهم في سبيل قصص وخدع من هذا النوع، ولكن ألم تكن الحماسة العربية أحسن أداة نستعملها في حربنا في الشرق الأدنى؟ وهذا الأمر هو الذي دفعني إلى التأكيد للرفاق في حمل السلاح بأن إنجلترا ستحترم وعودها قلباً وقالباً، وما إن سمع العربي مني هذا الوعد حتى دبّت في نفوسهم الحماسة مرة أخرى، وراحوا يحاربون بشجاعة فائقة، أما أنا فبت لا أفخر بالانتصارات التي كنا نحققها بل كنت أشعر بالخجل لعلمي الأكيد بأن ما قلته لا قيمة فعلية له<sup>(٢)</sup>.

(١) لمراجعة كامل المذكرة التي أرسلها فيصل إلى لويد جورج - راجع الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب - ص ١٤٦ - ١٦٧.

(٢) لورنس - أعمدة الحكمة السبعة - المكتبة الأهلية - بيروت - ط ١٩٧١/٢ - ص ١٣٤ - ١٣٥.

ووصف لورنس حالته النفسية من جراء ما كان يفعله مع العرب: «كنت أشكو من نفسي، فمنذ أن وطئت قدماي أرض العرب وأنا حر في الاختيار، لا أتلقى الأوامر من أحد، وكنت قد تعبت كثيراً حتى الإنهاك من لعب دور الحكم وما يحيط به، سنة ونصفاً أمضيتها في الحركة العربية وأنا أقطع على متن الجمل «١٥٠٠ كلم شهرياً» هذا عدا السفر بالطائرات أو السفن أو السيارات المصفحة، وكنت خلال هذه المدة قد جرحت مراراً وقاسيت الكثير من الألم والجوع والبرد والقذارة.

وهذه المتاعب ما كانت لتعني شيئاً، نظراً لعدم اكتراثي بما هو جسدي، وإنما هناك الخداع المرهق الذي اضطرت أن أحمل نفسي وزره، وهو ادعاء قيادة ثورة وطنية لعنصر آخر بعد أن لبست لها لباساً لا عهد لي بمثله من قبل.. أما الآن بعد الذي رأيته وقاسيته فقد ضقت أنا بنفسي وبت أخاف من الوحدة والمسؤولية<sup>(١)</sup>.

وعن طريقة إقناع فيصل بعدم الاكتراث باتفاقية سايكس - بيكو يقول: «لحسن حظي أنني كنت قد كشفت لفيصل قبل هذا التاريخ عن وجود مثل تلك الاتفاقية، وأقنعت به بأن أفضل وسيلة لكسر مفعول الاتفاق هي تقديم عون فعال للإنجليز، عندئذ سيكون من الصعب عليهم بعد النصر التضحية بحليف السلاح من أجل تنفيذ اتفاق ورقي، ولكن بما أنني لم أكن واثقاً من حسن تصرف الإنجليز فقد رجوت فيصل ألا يعتمد كوالده على وعودنا بل على قوته هو دون غيره<sup>(٢)</sup> وهكذا دفعته للغواية أكثر فأكثر.

إن هذه النقولات ليست لقراءة الماضي وإنما لاستشفاف الماضي القريب والحاضر، والنظرة بوعي أفضل للمستقبل.

وبعد سقوط الدولة العثمانية قامت حركات فتيّة تحاول نفوذ غبار الهزيمة وتسعى لإعادة الهبة للأمة الإسلامية.

(١) لورنس - المرجع السابق ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٢) المرجع نفسه - ص ٢٦٢.

## المبحث الثاني:

## جماعة الإخوان المسلمين في مصر نحو إعادة الحكم الإسلامي

## مقدمة:

تأسست حركة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨م، وكانت وليدة ظروف سياسية، تمثلت في خضوع البلاد تحت سيطرة الحلفاء الذين انتصروا في الحرب العالمية الأولى «بريطانيا - فرنسا -... وحلفائها»، حصل ذلك في وقت كان الشعار الأبرز هو التحرير أولاً ثم الدعوة إلى قيام نظام برلماني ديمقراطي أسوة بما هو حاصل في دول أوروبا، كما أنه برزت في مصر دعوة للتحرر الاقتصادي وذلك عن طريق دفع التنمية، وإقامة صناعات وطنية، فكان بنك مصر وظهور صناعات محلية.

وعلى المسرح الاجتماعي فقد ظهرت فئات متباينة في المجتمع المحلي، كنتيجة طبيعية للنظام التعليمي الحديث.

وعلى الصعيد الثقافي، فقد ظهرت في مصر تيارات ثقافية متصارعة في اتجاهاتها، ومتناقضة في أهدافها ومراميها، وكان كل تيار يرى حل المشاكل برمتها حسب قناعاته ومشروعه السياسي.

وقد كان من أبرز هذه التيارات التيار الإسلامي الذي يرى في اتباع سنن السلف الحل لكل التناقضات والصراعات، وقد دعا هذا التيار إلى إعادة صياغة مناهج التعليم من منظور إسلامي والتخلص من المناهج

المشوبة بالمؤثرات الغربية، والتأكيد على إبراز مكانة اللغة العربية ودورها في التشكيل الثقافي للمواطن<sup>(١)</sup>.

وكان في مواجهة التيار الإسلامي التيار الغربي الذي يرى «ترك كل ما يتصل بالتراث والتخلي عن كل ما يمت للقديم والنهل القوي من مصادر الثقافة الغربية، وقد دعا هذا التيار إلى أن يكون التعليم علمانياً، وإلى اقتباس نظم الغرب في السياسة والاقتصاد والتعليم وغير ذلك من مجالات».

وكذلك فقد ظهرت تيارات بعضها يدعو إلى انتظام مصر في إطار القومية العربية، واعتبارها جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي، والبعض الآخر يدعو إلى الانكماش وبلورة قومية مصرية، تربط حاضرها بماضيها الفرعوني القديم<sup>(٢)</sup>.

ومن أهم مؤثرات حركة الإخوان المسلمين، عدا الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وما أحدثته من تناقضات وصراعات، كان تأثيرها الكبير على سير الأحداث في مصر بعد الحرب الكونية الثانية والتركيز على جلاء الإنجليز، والمطالبة بالاستقلال، ومحاربة الفساد في القصر الملكي، والمساهمة في الدفاع عن فلسطين<sup>(٣)</sup> وذلك من خلال الإسهام بإرسال متطوعين شهدت لهم ساحات القتال بالبطولة والشجاعة.

□ مؤسس جماعة الإخوان المسلمين الشهيد/حسن البنا رحمه الله تعالى (١٣٢٣هـ - ١٩٠٦م/١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م):

ولد حسن البنا في المحمودية بمصر في ١٣ تشرين الأول ١٣٢٣هـ/١٩٠٦م، في بيت عريق بالعلم والمعرفة - لقد كان والده عالماً في الحديث، وله مصنفات كثيرة في هذا الباب، إن حياة حسن البنا تميزت

(١) أحمد ربيع عبد الحميد خلف الله، الفكر التربوي وتطبيقاته لدى جماعة الإخوان المسلمين، مكتبة وهبة مصر - ط ١ - سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م - ص ٣ بتصرف.

(٢) المرجع نفسه - ص: ٤ بتصرف.

(٣) راجع: حسن البنا - المؤتمر الخامس - مجموعة الرسائل - المرجع السابق - ص ٢٤١ - ٢٤٢.

بطابع الشغف العلمي والورع والزهد، وبانت ملامح الذكاء عليه منذ الصغر وكان يداوم على قيام الليل، وصيام الاثنين والخميس، وأتم حفظ القرآن الكريم عندما بلغ الحلم، وكان يهتم كثيراً بتغيير المنكرات ومساعدة المحتاجين.

لقد ترأس جمعيتي «الأخلاق الأدبية» و «جمعية منع المحرمات» والتحق بدار المعلمين، وهو في سن الرابعة عشرة، في دمنهور.

وعمل البنا مدرساً في إحدى مدارس الإسماعيلية، حيث تَجَسَّم القوات البريطانية، ولا يبدو على الإسماعيلية سوى الطراز الأوروبي، فكأنها هي من أحياء لندن، ومعظم أهلها في شركة السويس البريطانية.

كان «البنا» يرى الإنجليز وقد أذلوا الشعب المصري، ويشاهد العمال كأنهم عبيد ذوي الوجوه الحمر، ويرى الإباحية والفساد والتحلل يستشري في العالم الإسلامي وبخاصة بعد إسقاط الخلافة على يد أتاتورك سنة ١٩٢٤م، ويرى الغربيين جادين في اجتثاث الإسلام من جذوره وإقصائه من الوجود والشهود، يرى هذا كله فتتمزق أحشاؤه كمدأ، ويذوب قلبه أسى، يقول رحمه الله تعالى: «ثم كانت في مصر كوامن الشجن في قلبي، ولففت نظري إلى وجوب الجد والعمل...» ويصف المعاناة النفسية التي كانت تلم به وهو يتفكر في أحوال العالم الإسلامي «ليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأداء ونفكر في العلاج وحسم الداء - ويفيض بنا التأثير لما وصلنا إليه إلى حد البكاء».

ويصف حال اللاهين العابثين المتسكعين على المقاهي والمترددين على أندية الفساد، القتاتلين للوقت كما يزعمون، فيقول: «كنا نعجب لهؤلاء الناس وكثير منهم من المثقفين، ومن هم أولى منا بحمل هذا العبء، ثم يقول بعضنا لبعض: أليس هذا داء من أدواء الأمة ولعله أخطرها، ألا تفكر في مرضها وألا تعمل لعلاج نفسها؟».

أمام هذا الواقع، خرج هؤلاء المفكرون بهموم الأمة: أحمد السكري،

حمد عسكرية، أحمد عبدالحميد - فكان الأول بالمحمودية، والثاني بالزقازيق والثالث بكفر الدوار، وحسن البنا في الإسماعيلية، لقد توزع هؤلاء ناذرين أنفسهم لإصلاح ذلك الفساد الذي عم البلاد، «وفي الإسماعيلية أيها الإخوان وضعت أول نواة تكوينية للفكرة وظهرت أول هيئة متواضعة تعمل، ونحمل لواءها ونعاهد الله على الجندية التامة في سبيلها تحت اسم «الإخوان المسلمين» وكان ذلك في ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ<sup>(١)</sup>.

بدأت جماعة الإخوان المسلمين بحلتها التنظيمية في الإسماعيلية «ذي القعدة ١٣٤٧هـ إبريل ١٩٢٨م وكان عدد الهيئة التأسيسية ستة ممن تأثروا بمحاضرات الإمام حسن البنا.

وفي ١٩٣٢. انتقل الأستاذ حسن البنا من الإسماعيلية إلى القاهرة حيث بدأت الدعوة تتخذ طورا جديدا، واتخذت لها مركزا في القاهرة «في السروجية» سمي «المركز العام للإخوان المسلمين»، وقام البنا يجوب القرى، ويطوف المدن، ويفتح الشعب حيثما حل، فأصبحت الدعوة ملء سمع مصر وبصرها، هذا ما أثار حفيظة أجهزة الحكومة التي كلفت بضعة عشر من رجال المخابرات يسيرون حيث سار، وبعد أن طارت شهرة الجماعة، وأصبح لها الدور الأساسي في مقاومة الاحتلال البريطاني، بعد عدة أحداث، وعقب تمكن الحكومة من معرفة جهاز التنظيم الخاص، أصدر رئيس الحكومة المصرية النقراشي باشا في ٨ ديسمبر ١٩٤٨ قرارا بحل الجماعة الذي جاء تمهيدا لاتفاقية «رودس» للهدنة التي وقعت في ٢٤ فبراير ١٩٤٩م بين الحكومة المصرية، وعصابات اليهود الذين احتلوا فلسطين، ثم تلا ذلك توقيع بقية الدول العربية الواحدة تلو الأخرى، وكانت ردة فعل بعض عناصر الإخوان على قرار الحل أن اغتالوا رئيس الحكومة النقراشي باشا في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ بتصرف من أحد تلك العناصر بالرغم من كل محاولات المرشد الأستاذ البنا إلى تجنب تلك الكارثة.

(١) راجع صلاح شادي - صفحات من التاريخ - الكويت - ط ٢ سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - ص ٦٠ - ٦١ بتصرف.



وكما يبدو فإن برمجة الأحداث كانت دقيقة للغاية، فتدحرجت الكرة، وفي ١٢ فبراير ١٩٤٩م تلقى المرشد حسن البنا استدعاء مجهولاً إلى المركز العام لجمعية الشبان المسلمين قبيل غروب الشمس، وبينما كان يهيم بركوب سيارة أجرة بصحبة صهره عبدالكريم منصور أطفئت أنوار شارع الملكة نازلي الذي يقع فيه بناء الجمعية وأطلق عليه المخبر أحمد حسين جاد الرصاص وصعد المرشد على سلالم دار الشبان بالرغم من إصابته، وطلب عربة إسعاف بنفسه تلفونيا، وحملته العربة إلى القصر العيني حيث لقي ربه بسبب النزيف الذي لحقه من إصابته<sup>(١)</sup>. . . وصلت أربع نساء على جنازة البنا مع والده الذي أثقلته السنون، وقطعت الكهرباء عن الحي، وحملت النساء الأربع الجنازة في جو رهيب بين صفوف الدبابات ودفن البنا، وتمت حراسة القبر حتى لا يخرج الإخوان جثته ويتظاهروا بها<sup>(٢)</sup>.

والجدير ذكره أن رئيس الحكومة يومها إبراهيم عبدالهادي هو الذي أمر باغتيال المرحوم الشهيد حسن البنا.

«وطويت بذلك صفحة رجل جدّد دين أمتة على مدى قرن من الزمان، وبقيت أصداء تلك الحركة تتفاعل حتى الآن، وتطبع الأحداث الجارية في سائر أنحاء العالم الإسلامي وخصوصاً المنطقة العربية.

### الدولة الإسلامية في فكر الجماعة:

لقد كانوا كغيرهم من الدعوات السابقة ينشدون إقامة الدولة الإسلامية. والسعي لتحقيقها، لكونها الإطار الطبيعي لتطبيق الشريعة الإسلامية.

و الناظر يرى أن هناك دعائم أساسية عندهم لموضوع الدولة وهي:

١ - القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للتشريع.

(١) انظر - صلاح شادي - المرجع السابق - ص ٦٧ - ٦٧.

(٢) راجع: حسن البنا - المؤتمر الخامس - مجموعة الرسائل - المرجع السابق - ص ٢٤١ -

٢٤٢. ش ١ - فتحي يكن - الموسوعة الحركية - مرجع سابق - ص ٥٥.

٢ - إدارة الحكومة على أساس مبدأ الشورى.

٣ - احترام إرادة الأمة<sup>(١)</sup>.

يقول حسن البنا رحمه الله تعالى: «يفترض الإسلام الحنيف الحكومة قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي الذي جاء به الناس، فهو لا يقر الفوضى، ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام.. كما جاء في حديث لرسول الله ﷺ: «وَإِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَأَمَرُوا عَلَيْكُمْ رَجُلًا» وأنه من ظن أن الدين لا يعرض للسياسة، أو أن السياسة ليست من مباحثه، فقد ظلم نفسه، وظلم علمه بهذا الإسلام، ويستشهد بقول الإمام الغزالي: «اعلم أن الشريعة أصل، والملك حارس وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع»<sup>(٢)</sup>.

وفصل دعائم الحكم ب: مسؤولية الحاكم ووحدة الأمة واحترام إرادتها.

### مسؤولية الحاكم:

إنه مسؤول بين يدي الله عز وجل، وبين الناس، هو أجير لهم وعامل لديهم، وهذا ما حدده رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» وما فهمه وترجمه الخليفة الأول أبو بكر رضي الله تعالى عنه: «أيها الناس، كنت أحترف لعيالي فأكتسب قوتهم، فأنا الآن أحترف لكم، فافرضوا لي من بيت مالكم» ويخرج البنا إلى أن ذلك هو تعاقد بين الأمة والحاكم على رعاية المصالح العامة، فإن أحسن فله أجره، وإن أساء فعليه عقابه<sup>(٣)</sup>.

### وحدة الأمة:

إن الأمة الإسلامية واحدة من مبدأ الأخوة التي جمع الإسلام عليها

(١) انظر أحمد بن خلف الله - المرجع السابق - ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) انظر - حسن البنا - مجموعة الرسائل - مرجع سابق - ص ٣٥٨.

(٣) انظر - حسن البنا - مجموعة الرسائل - مرجع سابق ص ٣٦٠.

القلوب ولا يمكن تصور الفرقة في الشؤون الجهورية، والخلاف في الفروع لا يضر، ولا يوجب بغضا ولا خصومة ولا حزبية يدور معها الحكم كما تدور، ويلزم البحث والتمحيص، ويدعو «البناء» إلى النصح والتشاور وإعطاء ولي الأمر سلطة مطلقة في حال عدم وجود النص: «وما لا نص فيه فقرار ولي الأمر يجمع الأمة عليه، ولا شيء بعد هذا»<sup>(١)</sup>.

### احترام إرادة الأمة:

إن الأمة بإمكانها أن تراقب الحاكم أدق مراقبة أن تشير عليه، وعليه أن يشاورها ويحترم إرادتها، «وأن يأخذ بالصالح من آرائها» أي أنه أعطى ولي الأمر حق استنساب الرأي الذي يرتاح إليه، أي أنه هو صاحب القرار في نهاية الأمر، ويشترط «البناء» على كل فرد أن يشعر بقدسية النظام، وذلك بتوفر وجدان حي، يربط ما بين حفظ النظام وبين سعادتي الدنيا والآخرة، ولقد استعار «البناء» مصطلحات محددة كي يعبر فيها عما يريد، فقال: «وهو ما يعبرون عنه في الاصطلاح الحديث «بالوعي القومي» أو «النضج السياسي» أو «التربية الوطنية» أو نحو هذه الألفاظ، مردها جميعاً إلى حقيقة واحدة هي اعتقاد صلاحية النظام والشعور بفائدة المحافظة عليه»<sup>(٢)</sup>.

### موقف البناء من النظام الديمقراطي «النيابي»:

يستند الإمام البناء - رحمه الله - على مبررات علماء الفقه الدستوري في النظام النيابي، الذي يقوم على «مسؤولية الحاكم، وسلطة الأمة، واحترام إرادتها» والفرقة والاختلاف ليستا شرطا فيه، والحزبية في النظام النيابي هي عرفية وليست أصلا من أصوله، ويمكن تطبيقه بدونها، «وعلى هذا فليس في قواعد النظام النيابي ما يتنافى مع القواعد التي وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيداً عن النظام الإسلامي، ولا غريباً عنه،

(١) المرجع نفسه - ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٢) انظر حسن البناء - مجموعة الرسائل - المرجع السابق ص ٣٦٢.

بهذا الاعتبار يمكن أيضاً أن نقول في اطمئنان: إن القواعد الأساسية التي قام عليها الدستور المصري لا تتنافى مع قواعد الإسلام» ويرى بأن واضعي الدستور، بالرغم من وضعه على أحدث المبادئ الدستورية وأرقاها، إلا أنهم توخوا ألا يصطدم أي نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية، «فهي متمشية معها صراحة كالنص الذي يقول: «دين الدولة الإسلام»، أو قابلة للتفسير الذي يجعلها لا تتنافى معها، كالنص الذي يقول: «حرية الاعتقاد مكفولة»، غير أن البنا نبه إلى أن الدستور غير القوانين وهناك بعض القوانين التي تطبق في المحاكم تتنافى صراحة مع ما جاء به الإسلام<sup>(١)</sup>.

إن النظام المصري الذي يتحدث عنه «البنا» هو النظام الملكي المرتكز على الدستور والمجلس النيابي، أي أن الحكومة هي التي تكون مسؤولة أمام ممثلي الشعب، وبالتالي أمام الأمة والملك هو استمرار لحالة الاستقرار، يغير الحكومة أو يثبتها وفق إرادة الأمة الممثلة بالمجلس النيابي، وبكل قنوات الاتصال بين الجماهير والسلطة:

«فأما عن مسؤولية الحاكم فإن الأصل فيها في النظام الإسلامي أن المسؤول فيها هو رئيس الدولة كائناً من كان، له أن يتصرف، وعليه أن يقدم حساب تصرفه للأمة، فإن أحسن أعانته وإن أساء قومته»، ويرى «البنا» استناداً إلى ما جاء في كتاب الأحكام السلطانية للماوردي بأنه «لا مانع في الإسلام من أن يفوض رئيس الدولة غيره في مباشرة هذه السلطة وتحمل هذه المسؤولية، كما عرف ذلك في وزارات التفويض في كثير من العهود الإسلامية، ورخص الفقهاء المسلمون في ذلك وأجازوه ما دام فيه مصلحة، والقاعدة في مثل هذه الأمور رعاية المصلحة العامة.

وهذا النمط من النظام، حيث الحكم فيه يقع على عاتق الحكومة أو الوزارة هو الذي يشبهه «البنا» بوزارة التفويض، ويرى مثلاً على ذلك الدستور المصري والدستور الإنجليزي: «والأصل في هذه المسؤولية في النظام النيابي، أن المسؤول هو الوزارة ولا مسؤولية على رئيس الدولة، وقد

(١) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

جرى على هذا الوضع الدستور المصري والدستور الإنجليزي، فخرج كل منهما بمسؤولية الوزارة، وإخلاء رئيس الدولة من كل مسؤولية واعتباره لا يخطيء واعتبار ذاته مصونة<sup>(١)</sup>.

ثم إن البنا لا يرى تعارضا بين النظام الإسلامي والنظام الرئاسي، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية مستندا على ذلك بما قاله الماوردي عن وزارة التنفيذ حيث إن المسؤولية تبقى منوطة بالرئيس وليس بالوزارة: «على أنه لا مانع في النظام النيابي من تحمل رئيس الدولة المسؤولية واعتبار الوزارة تابعة له في ذلك، كما يقرر ذلك دستور الولايات المتحدة - والغريب أن تشير كتب الفقه الإسلامي إلى هذا الوضع أيضاً، وتسمى هذه الوزارة «وزارة التنفيذ» حيث إن النظر مقصور فيها على رأي الإمام وتديره، والوزير هو وسيط بينه وبين الرعايا والولاة، يؤدي عنه ما أمر، وينفذ ما ذكر ويمضي ما حكم.

ويختم البنا بقوله: «ولا شك أن هذا من سعة مادة الفقه الإسلامي ومرونته وصلاحيته لكل زمان ومكان»<sup>(٢)</sup> وبذلك يكون البنا قد أفتى بجواز:

- ١ - الحكم الملكي الدستوري حيث تكون المسؤولية على الوزارة «دليل ذلك أنه كان يتحدث عن دستور مصري في ظل ملكية قائمة»
- ٢ - أفتى بجواز الحكم الجمهوري - الرئاسي - كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية ويعيب «البنا» على الدستور المصري غموضه في تفصيل صلاحيات الوزراء والنواب.

### الوحدة طريق الإيمان:

قال الإمام حسن البنا: «الاختلاف والفرقة قرينا الكفر».

إن وحدة الأمة الإسلامية مفروضة فرضا من قبل الإسلام الحنيف،

(١) يراجع - حسن البنا - المرجع السابق «موقف الإسلام من النظام النيابي والدستوري المصري» - ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٢) حسن البنا - المرجع السابق - ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

فالوحدة هي قرينة الإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(١)</sup> [الحجرات: ١٠]، والخلاف والفرقة قربنا الكفر، كما قال ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»<sup>(٢)</sup>.

ويرى البنا أن الحكم النيابي يحقق هذه الوحدة أو أنه لا يأبأها وأن تعددية الأحزاب ليست مسألة ضرورية لتحقيق الحياة البرلمانية ففي إنجلترا كما في الولايات المتحدة الأمريكية ليس فيهما إلا حزبان يتداولان فيها الأمر «وتكاد تكون حزبيتهما داخلية بحتة، وتجمعهما دائما المسائل القومية المهمة» وهذان الحزبان لا يحس بهما إلا وقت الانتخابات، أي أن عملهما هو لهدف واحد وليس أحدهما ضد الآخر حتى الفرقة.

بينما البلاد التي أسرفت في تكوين الأحزاب قد «ذاقت وبال أمرها في الحرب وفي السلم على السواء»<sup>(٣)</sup>.

### موقف البنا من الأحزاب المصرية:

فيما تقدم تبين رأيه في مسألة الحياة البرلمانية، ومسألة وجود حزبين يعملان لهدف واحد هو مصلحة بلادهم، تجمعهما أهداف مشتركة، أما الأحزاب التي كانت في مصر إبان حياة المرحوم حسن البنا فليست في نظره إلا سلسلة من الانشقاقات الناتجة عن الخلافات الشخصية: «لقد انعقد الإجماع على أن الأحزاب المصرية هي سيئة هذا الوطن الكبرى، وهي أساس الفساد الاجتماعي الذي نصطلي بناره الآن، وأنها ليست أحزابا حقيقية بالمعنى الذي تُعرف به الأحزاب في أي بلد من بلاد الدنيا، فهي ليست أكثر من سلسلة انشقاقات أحدثتها خلافات شخصية بين نفر من أبناء هذه الأمة... وهذه

(١) والله سبحانه وتعالى افترض نوعاً محدداً من الحوار ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَجَاسَّعْتُمْ فَلَا تَنُجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالْعُدُوبِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنُجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّفْوَى وَأَنْقُذُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩] ووحدة المؤمنين بالله تعالى تكون: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُئِينَ مَرْصُوصٍ﴾ [الصف: ٤].

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم - انظر مختصر صحيح البخاري الحديث رقم ١٠١.

(٣) حسن البنا - مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا - المرجع السابق - ص ٣٧٢ - ٣٧٤.

الأحزاب ليس لها برامج ولا مناهج . . وبما أن هذه الأحزاب هي التي تحكم مصر: «فإن من البديهي ألا يستقيم أمر الحكم وهذه حال من يسرون دفته»<sup>(١)</sup>.  
ودعا إلى حل الأحزاب جميعها وجمعها في حزب واحد فقط<sup>(٢)</sup>.

### أهل الحل والعقد:

يقول البنا بأن الإسلام لم يشترط إشراك جميع أفراد الأمة في إعطاء رأيها في الأمور المستجدة «النازلات» وإنما ترك ذلك لأهل الحل والعقد، وهؤلاء هم:

- ١ - الفقهاء المجتهدون.
  - ٢ - أهل الخبرة في الشؤون العامة.
  - ٣ - من لهم نوع قيادة أو رئاسة في الناس كزعماء البيوت والأسر وشيوخ القبائل ورؤساء المجموعات.
- ويرى بأن النظام النيابي يوصل إلى انتخاب «أهل الحل والعقد»<sup>(٣)</sup>.

### موقف حسن البنا من «الثورة» واستعمال القوة:

في المؤتمر الخامس لجماعة الإخوان المسلمين في مصر<sup>(٤)</sup> طرح الإمام الشهيد رحمه الله تعالى التساؤلات التالية، ثم أجاب عنها:

فقال: يتساءل كثير من الناس:

- هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟

- 
- (١) حسن البنا - مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا - المرجع السابق - ص ٣٧٢ - ٣٧٤.
  - (٢) المرجع نفسه ص: ٣٧٤.
  - (٣) حسن البنا مجموعة - رسائل الإمام حسن البنا - ٣٧٧ - ٣٧٨.
  - (٤) انعقد المؤتمر بعد انقضاء عشر سنوات على تأسيس الجماعة «١٣٤٧ - ١٣٥٧هـ»  
«١٩٢٨ - ١٩٣٨م».

- وهل يفكر الإخوان المسلمون في إعداد ثورة عامة على النظام السياسي أو النظام الاجتماعي؟

- وهل في منهاج الإخوان المسلمين أن يكونوا حكومة، وأن يطالبوا بالحكم وما وسيلتهم إلى ذلك؟

وقبل إثبات الإجابة التي أورها البنا لا بد من العودة إلى بداية خطابه في المؤتمر الخامس لنقف على تصويره لطبيعة السعادة التي تنشدها البشرية، وعلى ضوء ذلك يمكن أن نفهم ماهية الوسائل والغايات التي يدعو إليها البنا رحمه الله تعالى.

يقول: «السعادة التي ينشدها الناس جميعاً إنما تفيض عليهم من نفوسهم وقلوبهم، ولا تأتيهم من خارج هذه القلوب أبداً، وأن الشقاء الذي يحيط بهم ويهربون منه، إنما يصيبهم بهذه النفوس والقلوب كذلك» وإن القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى ويوضحه وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ويستشهد بقول أحد الشعراء:

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقتْ بِلَادٍ بِأَهْلِهَا وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

ثم علق على ذلك بتجديد طريق تأمين هذه السعادة وبالشكل الذي رسم ملامحه، فإذا به لا يرى بديلاً عن الإسلام كي تتحقق هذه الأمانة المنشودة: «... ليست هناك نظم ولا تعاليم تكفل سعادة هذه النفوس البشرية، وتهدي الناس إلى الطرق العملية الواضحة لهذه السعادة، كتعاليم الإسلام الحنيف الفطرية الواضحة العملية»<sup>(١)</sup>.

إن السعادة التي تنبعث من داخل النفس البشرية لا يمكن تحصيلها إلا بالدعوة، والإقناع مع ما يستلزم ذلك من حسن العرض، وهذا يستوجب وجود داعية يتمثل ويعيش ما يدعو إليه.. فالمسألة هي تغييرية تبدأ رحلتها الأولى من أعماق أعماق النفس البشرية.

(١) حسن البنا - مجموعة رسائل - المرجع السابق - ص ٢٣٨ - ٢٣٩.



## الدعوة ونواميس الكون:

يقول «البناء»: أيها الإخوان المسلمون: «ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأثيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» بعد هذه المقدمة التي حض فيها على ضرورة سيادة العقل المشحون بالعواطف الجياشة، والتزام الصدق والواقع واكتشاف الحقائق حيث يتحول الخيال إلى وسيلة تركيز، يرشد إلى مسألة أساسية هي الدخول في نسق نواميس الكون التي يعتبر الخروج عليها خروجاً على الحقيقة والواقع وإدارة الظهر للعقل وجنوحاً إلى الخيال الخلبى الذي لا تُرجى منه فائدة ولا مصلحة: «ولا تُصادموا نواميس الكون فإنها غالبة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض»<sup>(١)</sup>.

إن الدعوة إلى تفهم نواميس الكون واستخدامها يعني أن حسن البناء رحمه الله تعالى قد طرق كل باب من أبواب النجاح ولبلوغ الغايات والأهداف.

لقد أخبر القرآن الكريم أن ذا القرنين لما أراد أن يوقف زحف المفسدين من يأجوج ومأجوج أقام في وجههم سداً: ﴿قَالُوا يَدَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۚ ۝٩٦ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُمْ نَقْبًا ۚ ۝٩٧﴾ [الكهف: ٩٤ - ٩٧].

وإلى الأخذ بالأسباب بعد توفيق الله عز وجل كان نجاح الإمام حسن البناء بالدعوة في المدن والقرى حيث اتسم العاملون بالعفة، والتضحية بالمال والوقت والجهد في صورة رائعة، قال عنها الإمام: «.. ودأب المكتب على ذلك، يقتطع أعضاؤه من قوتهم وجهودهم ما يستعينون به على خدمة

(١) حسن البناء - مجموعة رسائل - مرجع سابق - ص ٢٥٧.

عقيدتهم في عفة الأسد، وفي طهارة الغمام، لا يمدون لأحد يدا ولا يسألون كبيراً، ولا هيئة شيئاً ولا يأخذون مال حكومة ولا يطلبون معونة أحد إلا الله<sup>(١)</sup>».

عودة لعرض الإجابة التي قدمها حسن البنا على مسألة القوة والثورة والوصول إلى الحكم فقال: «أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمته وتشريعاته.. فالإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا أقوياء ولا بد أن يعملوا في قوة».

ولكن الإخوان المسلمين أعرق فكراً، وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا في أعماقها، ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة، قوة العقيدة والإيمان، يلي ذلك الوحدة و الارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح.

ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعاً، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام، أو ضعيفة العقيدة خادمة الإيمان، فسيكون مصيرها الفناء والهلاك.

لكن متى تستخدم القوة؟ هل تستخدم في كل الظروف أم لها شروط محددة؟

هذا سؤال طرحه الإمام البنا، ثم تساءل أيضاً: هل تكون القوة أول علاج، أم آخر الدواء الكي؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة، وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟

أما عن الثورة فإن المسألة تكون أخطر وأدق: «والثورة أعنف مظاهر

(١) حسن البنا - مجموعة رسائل.. المرجع السابق ص ٢٦٥.

القوة، فنظر الإخوان المسلمين إليها أعمق وأدق، وبخاصة في وطن كمصر جرب حظه في الثورات فلم يجن منها إلا ما تعلمون» وبعد طرح هذه التساؤلات حدد الإمام حسن البنا رحمه الله خيارات جماعة الإخوان المسلمين.

أولاً: إن الإخوان سيستخدمون القوة عندما يستحيل وجود بديل عنها ومع ذلك فاستكمال الشروط هي أساس في ذلك وإلا فلا.

ثانياً: واستخدام القوة سيكون بشرف ومشروعية.. وسينذرون أولاً، وينتظرون بعد ذلك.. وبكرامة وعزة..

أما الثورة فإنها مستبعدة نهائياً من فكر الإخوان المسلمين «أما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها».

وأندر «البنا» الحكومة المصرية على أن الحال إذا استمرت عليه هكذا دونما إصلاح عاجل وسريع، فإن ثورة ستحدث في مصر لكنها: «.. ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم».

أما عن الحكم والوصول إليه فإنه قال: «والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منها عن الآخر» والمصلح المسلم عندما يخص نفسه بالوعظ والإرشاد ويترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله عند ذلك تكون النتيجة الطبيعية أن صوته سيكون في واد، ونفخه في رماد.

ويرى الإمام البنا أن الإخوان لا يطلبون الحكم لذاتهم، إذا قام به البعض كانوا له عوناً وإذا لم يقم فإن ذلك من منهاجهم وسيعملون على إحقاقه<sup>(١)</sup>.

(١) حسن البنا، مجموعة الرسائل - ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

### الطريق إلى خلافة إسلامية:

إن الخلافة في رأس مناهج الإخوان المسلمين، كما حدد ذلك البنا - رحمه الله تعالى - في رسالة المؤتمر الخامس لكن يحتاج إلى مراحل لا بد من استكمالها وخطوات لا بد من تحقيقها:

أولاً: لا بد من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها.

ثانياً: ثم يلي ذلك تكوين عصابة للأمم الإسلامية، حتى إذا تم للمسلمين ذلك نتج عنه الاجتماع على «الإمام» الذي هو واسطة العقد، ومجتمع الشمل، ومهوى الأفئدة وظل الله في الأرض<sup>(١)</sup>.

### الفجر المرتقب:

أنهى الشهيد حسن البنا خطابه في المؤتمر الخامس بخلاصة ضمنها الحقائق الثابتة في مسرى وحياة الأمم والشعوب والدول، وركز على أمل لم يعد بعيد المنال، ذلك هو العودة إلى قيادة العالم مرة أخرى، «ولا تيأسوا فليس اليأس من أخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد ولا زال في الوقت متسع، ولا زالت عناصر السلامة قوية وعظيمة في نفوس شعوبكم المؤمنة رغم طغيان مظاهر الفساد، الضعيف لا يظل ضعيفاً طول حياته، والقوي لا تدوم قوته أبد الآبدين... وإن الدور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وترجون من الله ما لا يرجون، فاستعدوا واعملوا اليوم فقد تعجزون عن العمل غداً».

وتأكيداً لوجوب التعامل مع نوااميس الحركة في الكون، والإفادة من اتجاه الرياح في الوقت المناسب، كي ينشر ربان السفينة أشرعته، وإلا فإن معاكسة الرياح تؤدي إلى العنت وعدم بلوغ الأهداف، وبالتالي تعريض السفينة وركابها إلى أخطار محتملة، وفي أحسن الأحوال إلى عدم تمكنها

(١) راجع، حسن البنا، مجموعة رسائل - ص ٢٥٨.

من السير بشكل سليم ومرغوب فيه يقول «البناء»: «لقد خاطبت المتحمسين منكم أن يترثوا وينتظروا دورة الزمان، وإني لأخاطب المتقاعدين أن ينهضوا ويعملوا فليس مع الجهاد راحة، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> [العنكبوت: ٦٩].

هذه هي المبادئ، وذلكم هو المنهج الذي طرحه الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى: دعوة وعمل، عبادة في دقتها، وشخصية متزنة لا تكثر من الجدل ولا من الضحك والمزاح، ولا ترفع الصوت أكثر مما يحتاجه السامع، و «تجنب غيبة الأشخاص وتجريح الهيئات ولا تتكلم إلا بخير»، حب وتعارف وتعاون وعدم إضاعة للوقت، بل وجوب قضاء المهام بسرعة ومساعدة الآخرين على الانتفاع بوقتهم.

نظرة واقعية إلى حالة البلاد والدعوة إلى الدخول في قوانين التغيير، فلم يطلب من الملك أن يخلع نفسه، كما أنه لم يطرح مسألة خلعه ولا الثورة عليه، بل أكثر من ذلك فإن الثورة مستبعدة في منهجه، وإن كان قد توقعها فمن غير الإخوان المسلمين، أو على يد غير الإخوان المسلمين.

لقد قارن بين أشكال الحكومات والنظم في العالم، وبين ما توصل إليه الفكر الإسلامي على يد الماوردي وغيره، بحيث قابل وزارة التفويض بنمط الأنظمة التي يؤول الحكم فيها إلى مجلس الوزراء، ووزارة التنفيذ إلى الحكومات التي تكون السلطة فيها لرئيس الدولة.

وحذر من التهور والاندفاع بلا روية ودعا إلى تحضير كل الأسباب وانتظار الفرصة من أجل تحقيق وجود دولة الإسلام كما حدد معالمها ووجوب قيامها وفقهاء المسلمين من قبل، ولم يحصر تلك المهمة بجماعة الإخوان المسلمين، بل اعتبر أن ذلك ممكن على يد أية مجموعة إسلامية أو حاكم مسلم، وفي حال عدم القيام بهذه الفريضة فإن الأمر يصبح لا مفر من التصدي له والعمل من أجله بكل حكمة ورؤية وحسن استعداد..

(١) راجع - حسن البنا - المرجع السابق - ص: ٢٩٨.

## مصير الدولة عند الإخوان المسلمين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخِذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شَبْرًا بِشَبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»، فقليل يا رسول الله كفارسَ والرومِ فقال ومن الناسِ إلا أولئك<sup>(١)</sup>؟

مع أن الحديث يصف أمارات الساعة التي منها تقليد المسلمين للأمم الغابرة قبلهم من الفرس والروم، وذلك في شتى مجالات حياتهم الاجتماعية وغيرها «حتى تأخذ بأخذ القرون قبلها...» ومن أكبر تلك الملامح، الصراعات وحب الذات... والفردية.

إن إغفال المسلمين لدراسة المنهاج السياسي الإسلامي، الذي يركز على الشورى، التي بدورها تعني مشاركة أهل العلم والخبرة في صنع القرار السياسي، أو أهل الصنعة كل في مجال تخصصه أضّر بالمسلمين.

لقد بدأ الإمام حسن البنا رحمه الله جهده في الدعوة إلى الله تعالى، واندفع الناس في الاستجابة لهذه الدعوة بحماس شديد، لسلامة عرضها ووضوح منهجها، ونقاء عقيدتها، ولصدق حاملها، وكذلك بسبب ردة الفعل على الهزائم التي أصابت المسلمين بعد سقوط الدولة الإسلامية، وخيبة الأمل التي وقع فيها دعاة الإصلاح وحملة رايات التغيير...

لقد كانت مصر كغيرها ترزح تحت الاحتلال البريطاني، وكان الناس يتوقون إلى الحرية والتخلص من أعدائهم، وإذا بجبل هذه التبعات تقع على عاتق أكبر حركة شهدتها فترة الأربعينات وأوائل الخمسينات من القرن العشرين للميلاد وإلى اليوم، حركة جماعة الإخوان المسلمين.

وتدخل الجماعة في صراع مع حكومة صدقي عام ١٩٤٦، ويعلن الإمام حسن البنا بأن هذه الحكومة التي تحرص على المفاوضات مع

(١) الإمام الزبيدي - مختصر صحيح البخاري، تحقيق إبراهيم بركة - دار النفائس - بيروت -

طه سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م - ص ٥٠٩ الحديث رقم ٢٢١٦.

الإنجليز لا تمثل إرادة الأمة، وتخرج المظاهرات وتتم الاعتقالات. وتشارك الجماعة في العمل المسلح ضد الإنجليز، ويبدأ الصراع مع عملائهم.

لقد وصل الحماس عند بعض أعضائهم إلى حد بات فيه الموت ليس له معنى عندهم، إن أحد عناصر سلاح الطيران أمسك بقبلة في يده حتى تم تفجيرها في ردهة فندق الملك جورج، ومع أن ذلك كان ضد عملاء الإنجليز، فقد اتخذ النقراشي باشا رئيس الحكومة يومها من الحادث مبررا لحل الجماعة في ديسمبر سنة ١٩٤٨م<sup>(١)</sup>.

وفي سنة ١٩٤٨م حصلت عمليات اغتيال، ثبت أن عناصر منتمية للإخوان المسلمين كانت وراءها مما دفع الإمام حسن البنا لأن يقول وهو شديد الغضب «.. إن هذا يعني تدمير الجماعة التي قضى عمره في بنائها! وأن الرصاصات التي أطلقت على الخازندار إنما أطلقت على صدره هو<sup>(٢)</sup>» واحتج المسؤول عن التنظيم الخاص عبدالرحمن السندي بأنه فهم من الإمام «البنا» وجوب قتل القاضي «الخازندار» الذي أصدر أحكاماً على عناصر من التنظيم ضبطت ومعها أسلحة.

### التمرد على قيادة الإمام حسن «البنا» رحمه الله تعالى:

إن شخصية المسؤول «الدائم» عن التنظيم الخاص عبدالرحمن السندي صبغت مصير حركة جماعة الإخوان بلون خاص، لقد كان ذا رأي فردي مستبد، في قيادته للجهاز السري «التنظيم الخاص»، وكون من إدارته تنظيماً له داخل التنظيم، حتى إن قيادة حسن البنا انعدمت تماماً لهذا الجهاز الأخطر في بناء الحركة.

يقول صلاح شادي رداً على تبرير عبدالرحمن السندي لإصدار أمره باغتيال «الخازندار»: «وهذا تبرير غير معقول لحادث كهذا، ولكن الحقيقة

(١) صلاح شادي، صفحات من التاريخ - المرجع السابق - ص ٤٩ - ٥٣.

(٢) المرجع نفسه ص «٥٤».

كانت كامنة وراء شعور السندي في هذا الوقت باستقلاله هو بمن يتولى قيادتهم من الإخوان، عن سلطان الجماعة وقائدها، الأمر الذي سهل له هذا السلوك، فلم يكن من حق أحد من إخوان النظام أن يتصل بالمرشد في شأن من شؤون النظام الخاص إلا عن طريقه، وبهذا عزل إخوان النظام تماما عن قيادة الدعوة، وأصبح فهم السندي لدور المرشد هو أن يبحث له عن مخرج أمام الناس لترميم الصدوع التي تحدثها أمثال هذه التصرفات غير المسؤولة وتكييف الرأي العام في داخل الجماعة وخارجها لتقبل هذه الحوادث<sup>(١)</sup>.

وفي ١٥ نوفمبر ١٩٤٨م، ضبطت سيارة جيب أثارت الشبهات بسبب عدم وجود لوحة أرقام عليها، وضبط مع أحد العناصر المسؤولة عنها حقيقة فيها أوراق تحمل سجلات ومستندات عن الجهاز الخاص للإخوان، وألقي القبض على عبدالرحمن السندي مع عدد آخر من العناصر، وهذا ما عرف فيما بعد بحادث السيارة «الجيب».

### اغتيال النقراشي باشا:

ولقد أصدر النقراشي باشا أمرا بحل الجماعة معللا إياه بعدة حوادث أمنية، حصل ذلك بتاريخ ١٢/٨ / ١٩٤٨م، مما دفع أحد عناصر الجماعة لاغتيال رئيس الحكومة «النقراشي باشا» في يوم ١٩٤٨/١٢/٢٨ وذلك خلافا لرأي المرشد العام الشيخ حسن البنا الذي بذل محاولات متعددة ومبررة لتجنب حدوث مثل هذه الكارثة<sup>(٢)</sup>.

وإظهارا للحقيقة، فإنه وزع رسالة «القول الفصل» وهي آخر ما كتبه رحمه الله تعالى للإخوان، فند فيها التهم الموجهة للجماعة، وتتلخص رسالته في: -

١ - أن مواقف الجماعة بريئة من حب الدنيا أو الرغبة في الوصول إلى الحكم أو الغنيمة.

(١) صلاح شادي - المرجع السابق ص ٥٥.

(٢) صلاح شادي - المرجع السابق - ص ٦٠.



٢ - إن تصرفات بعض الأفراد ليست حجة على الجماعة التي حددت طرق عملها بواسطة لوائح ونشرات، تم اعتمادها من قبل المسؤولين في الدولة «...» وليس من هذه الوسائل الجريمة ولا الإرهاب..».

٣ - أن نشاط الإخوان في حرب فلسطين ضد الغزاة الصهاينة، إنما حصل بعلم السلطات المختصة ولو بشكل خفي، وفي كل حال فإن المشاركة في الدفاع عن فلسطين كان من أنصع الصفحات وأمجدها في تاريخ دعوتهم».

٤ - بعدما أبلى شباب الإخوان بلاء حسنا في مقارعة اليهود، وسهلوا للفلسطينيين شراء السلاح من مصر، بعون من الحكومة، عادت الحكومة وعدلت من خطتها وأقدمت على مصادرة كثير من المشتريات التي تم شراؤها لأهل فلسطين، وتم زج عناصر الإخوان الذين ساهموا في دعم الفلسطينيين في السجون.

٥ - أن استبسال شباب الإخوان في معاركهم ضد اليهود وهم يحاربونهم جنبا إلى جنب مع القوات النظامية المصرية، وابتلاءهم بحوالي مئة شهيد ومثلهم من الجرحى والأسرى، لا يبرر ادعاء الحكومة المصرية على أنهم أصبحوا خطراً يهدد سلامة الوضع الداخلي في مصر<sup>(١)</sup>.

### تصرفات رئيس الجهاز الخاص تبدد جهود الإمام «البناء» في علاج المشكلة:

ومن سجنه، كان عبدالرحمن السندي يبدد جهود «البناء» الذي كان يتصل برئيس الوزراء إبراهيم عبدالهادي كي يرفع الحظر عن الجماعة ويطلق سراح المعتقلين، وتم تشكيل لجنة مصالحة، وأصدر «الإمام الشهيد» نشرة بعنوان «بيان للناس» استهجن فيها حوادث القتل، ومن بينها اغتيال النقراشي، وفي هذا الوقت بالذات حدث ما يخدم رغبة إبراهيم عبدالهادي «رئيس الحكومة» بتوجيه ضربة قاسية للجماعة، فلقد أصدر عبدالرحمن

(١) صلاح شادي - المرجع السابق - ص ٦١ - ٦٣.

السندي من داخل السجن أمراً لعناصر من الجهاز الخاص، ومن وراء ظهر المسؤول في غيابه سيد فايز، بمهاجمة المحكمة وإحراق الوثائق التي تمت مصادرتها من سيارة الجيب.

وتمكنت السلطات من اعتقال شفيق الأنس المكلف بالتنفيذ مما اضطر حسن البنا إلى استنكار هذا الحدث واعتباره وأمثاله موجه إليه شخصياً..

وبعد ما يزيد على الشهر أي في ١٢/٢/١٩٤٩م استدرج المرشد العام إلى المركز العام للشبان المسلمين، وعلى درج السلم أطلق عليه النار المخبر أحمد حسين ولقي ربه إثر النزيف الذي أصابه، ولم تقدم له أية إسعافات، ونقل جثمانه بحراسة الدبابات والسيارات المصفحة وليس حوله إلا أفراد أسرته حيث شيع إلى مقره الأخير.. نسأل الله تعالى أن يكون مسكنه جنة الخلد...

وبالفعل صدق حدسه، رحمه الله تعالى، «.. إن عملاً يصدر من أي شخص ينتمي إلى الجماعة يعتبر كأنه موجه إليه شخصياً».. «وعاجلت المرشد منيته، فلم يستطع أن يتم دوره الذي بدأه في إزاحة السندي عن رئاسة النظام<sup>(١)</sup> وهكذا فإن الجماعة التي عقدت الأمة عليها الآمال الكبار في فترات من الاضطراب عبثت بها يد مهووسين ومتهورين أو مندسين.. والله أعلم.

### انتقال الصراع إلى داخل الجماعة:

ويمضي رئيس الجهاز الخاص في مخططه، فيأمر باغتيال المسؤول الذي عينه مكانه المرحوم المرشد العام، سيد فايز بواسطة هدية ملغمة بمناسبة عيد المولد، يوم الجمعة في ٢١/١١/١٩٥٣<sup>(٢)</sup> وبعد فصل قادة التنظيم من قبل المرشد العام حسن الهضيبي رحمه الله تعالى من مكتب الإرشاد<sup>(٣)</sup>، تجمع بعد ذلك بعض المتعاطفين معهم في المركز العام كي

(١) راجع - صلاح شادي - المرجع السابق - ص ٦٧ - ٩٨.

(٢) صلاح شادي - المرجع السابق - ص ١٠٠ - ١٠٢.

(٣) القادة المفصولون هم «عبدالرحمن السندي - أحمد عادل - محمود الصباغ - أحمد زكي».

ينتخبوا بدلا عن المرشد، وصعد إلى منزله ما يناهز العشرين عنصرا وطالبوه بالاستقالة واستعملوا العنف ضده وحصل هرج ومرج في صفوف القيادة.

### جمال عبدالناصر وعلاقته بمحاولة الانقلاب على الهضيبي:

يروى صلاح شادي أن صلاح العطار أحد المقربين من عبدالرحمن السندي - مسؤول النظام عن شبرا - أخبره بأن «سيد سابق قادم الآن من عند عبدالناصر ليبلغ السندي بموافقته على الانقلاب داخل الإخوان وأنه لن يتدخل إلى أن يتم الأمر - لأن تدخله سوف يقلب الأمور - وأن التعاون مع عبدالناصر سيتم بعد نجاح الانقلاب»<sup>(١)</sup>

وأعقب ذلك اجتماع حاشد من كافة أنحاء وشعب القطر المصري، انتهى بكلمة للمرحوم الشهيد عبدالقادر عودة، تسلم يوسف طلعت مسؤولية النظام الخاص في مواجهة تحالف عبدالرحمن السندي وجمال عبدالناصر وتم فصل صالح عشموي وعبدالعزیز جلال ومحمد الغزالي<sup>(٢)</sup>.

### جمال عبدالناصر<sup>(٣)</sup>:

كان أول اتصال بالضباط جمال عبدالناصر بواسطة أحد الضباط في الجيش المصري التابعين لتنظيم الإخوان المسلمين، عبدالمنعم عبدالرؤوف<sup>(٤)</sup> الذي عرفه بعبدالرحمن السندي المسؤول عن التنظيم الخاص، والغريب في الأمر أن السندي كان يأخذ البيعة من العناصر الجديدة بطريقة مشبوهة، أو على الأقل فيها تقليد لبعض المنظمات السرية الخطيرة يقول صلاح شادي «وكانت عادة السندي في أخذ البيعة أن يجريها في غرفة مظلمة حيث يقسم الأخ الجديد على المصحف والمسدس بما يشعره بأهمية ما هو مقدم عليه -

(١) صلاح شادي - المرجع السابق - ص ١٠٦ - ١٠٧ لمزيد من التفاصيل راجع ص: ١٠٧.

(٢) راجع - صلاح شادي - المرجع نفسه ص: ١٠٩ - ١١١.

(٣) جمال عبدالناصر، رئيس الجمهورية العربية المتحدة «جمهورية مصر العربية» منذ عام ١٩٥٤ - ١٩٧٠.

(٤) أمضى حياته منفياً في بيروت ومات فيها.

أو هكذا كان يعتقد<sup>(١)</sup>» ولقد تعرف جمال عبدالناصر على أغلب عناصر التنظيم الخاص «الجهاز السري»، ثم توثقت العلاقة بينه وبين الصاغ محمود لبيب الذي كلفه بالنهوض بتبعات نشاط الإخوان داخل الجيش وزيارة أسر الضباط بعد ذلك في سنة ١٩٤٦ حتى وفاته رحمه الله في أوائل ١٩٥١م<sup>(٢)</sup>.

وكان صلاح سالم «أحد أركان الضباط الأحرار فيما بعد» مع جمال عبدالناصر حين التقيا مرة أخرى بالأخ المسؤول عن الإخوان المسلمين في الجيش وذلك قبل نهاية ١٩٥٠ لإعادة نشاطهم بعد حل النقراشي باشا الجماعة في عام ١٩٤٨م.

كما أن بيعة جمال عبدالناصر لم تقتصر على رئيس التنظيم الخاص عبدالرحمن السندي، بل قام بمبايعة المرشد العام المرحوم حسن البنا نفسه.

إن بعض جماعة الضباط الأحرار الذي قادوا ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وسيطروا على الحكم في مصر هم من الإخوان المسلمين، وحدث ما حدث بمساعدة الجماعة كلها<sup>(٣)</sup>.

واستمرت العلاقة حميمة بين جمال عبدالناصر وعبدالرحمن السندي الذي قاد في أواخر ١٩٥٣م عملية احتلال المركز العام لجماعة الإخوان ومحاولة إجبار المرشد حسن الهضيبي على الاستقالة<sup>(٤)</sup>.

وتمضي الاختلافات فيما بين قادة الثورة رغم انتماء بعضهم للجماعة، وبين الجماعة ذاتها جماعة الإخوان المسلمين أي قادة الثورة والجماعة..

وبدأ جمال عبدالناصر مع من حالفه بالتفرد في السلطة ثم الالتفات إلى الجماعة حيث أعلن عن حلها بعد قرار حل الأحزاب في يناير ١٩٥٣.. واستمر الصراع يتصاعد ويتشعب حتى أفضى إلى أفطع كارثة عرفها تاريخ

(١) صلاح شادي - المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٣) راجع المرجع نفسه - ص ١٧٥ - ٢١٨.

(٤) صلاح شادي - المرجع السابق نفسه ص ٢٠٣.

مصر والبلاد العربية.. وأضحى الجيل الذي رفع شعار إعلان الدولة الإسلامية طعمة للمشائخ والموت تحت التعذيب أو المكوث في السجن إلى ما يقرب من ستة عشر عاماً أي حتى وفاة جمال عبدالناصر في أيلول ١٩٧٠م.

### حسن البنا يعرف متى بدأ لكنه لم يعلم كيف انتهى:

يقول المرحوم حسن البنا «أما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها ولا يعتمدون عليها ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها.. وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دام على هذا المنوال ولم يفكر أولو الأمر في الإصلاح العاجل والعلاج السريع، فسيؤدي ذلك حتماً إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم<sup>(١)</sup>».

يروى مايلز كوبلند في كتابه لعبة الأمم<sup>(٢)</sup> أن جهاز المخابرات التابع للولايات المتحدة الأمريكية، رأى وجوب التخلص من النظام الملكي كله في مصر بعد أن كان خيارهم يقع على وجوب التخلص من البرلمان فقط، ويجب أن يحصل ذلك على يد الجيش تحت لواء طرح شعار عودة الحكم الديمقراطي وقيام حكومة تمثل الشعب تمثيلاً حقيقياً، وإن هذا المشروع تلزمه شخصية تحمل صفات معينة، فوقع اختيارهم على ضابط اسمه جمال عبدالناصر، يقول عميل المخابرات الأميركية الذي تم فرزه للعمل بين الضباط الأحرار «يرى هؤلاء الصبية أنفسهم أشبه بأفراد عصابة روبن هود المرحلة، فهم مسرورون أنهم أعلنوا أبطالاً وقادة للثورة، ولكني لا أجد واحداً منهم بإمكانه أن يشرح لي ما تريده هذه الثورة وماذا تهدف إليه..... وقد يكون هذا من حظ عبدالناصر وحظنا معاً<sup>(٣)</sup>...» على من تقع مسؤولية ما حصل؟ لقد تأخرت الجماعة في بلوغ أهدافها، وكل ما

(١) حسن البنا - مجموعة رسائل الإمام الشهيد.. المرجع السابق - ص ٢٧١.

(٢) مايلز كوبلند - لعبة الأمم - ترجمة إبراهيم جزيني - بيروت - ١٩٧٠ ص ٧٣

(٣) مايلز كوبلند، المرجع السابق - ص ٧٩ - ٨٠.

أنجزته هو أنها ساعدت في التعجيل بالثورة وساندتها، لكنها لم تصنعها، ولم تأت بها.

إن للفشل أسبابه، فالكون بما فيه قطاع النشاط الإنساني يقوم على سنن الله التي لا تبدل ولا تنحرف، والعجز عن بلوغ الهدف ليس استثناء بل هو عائد للسبب الذي انطلق منه<sup>(١)</sup>.

إنه لا بد من تحمل مسؤولية النتيجة، وذلك يقتضى بلورة إرادة الإنسان في العمل التي هي عامل من عوامل الناموس الإلهي في مخلوقاته فالمهندس الذي يشيد عمارة ثم تسقط يجب أن يحاسب عليها، والطبيب الذي يجري عملية فيموت المريض لا بد من التأكد من مسؤوليته.

إن الله سبحانه وتعالى يقسم بالنفس اللوامة أي التي تراجع وتحاسب ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وكذلك فإن التلاوم قد يكون جماعياً، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠] والحل يكون بالاعتراف ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤] «إنه موقف ظاهر حين تبدأ عملية مراجعة النفس، ونقدها، ولومها و محاسبتها، وتقويمها<sup>(٢)</sup>».

### السيف والعقل:

تلاحظ ظاهرة اختلال الوعي الفكري وعدم التوازن عند جماهير أصحاب العمل الإسلامي في مسألة استعمال القوة المسلحة، وعلاقة الفكر بها.

إن البحث والمناقشة والتحليل والافتراض وتوقع النتائج ليس إلا أسلوباً فارغاً ومضيعة للوقت عند بعض تلك الجماهير التي ترى بأن الجهاد المسلح ومقارعة الحكام هو العمل المفيد.

(١) راجع: خالص جليبي - في النقد الذاتي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٤٨ م ص ١٧.

(٢) راجع خالص جليبي - المرجع السابق ص ٢٢.

إن أمثال هؤلاء يجهلون جوهر المشكلة وروح العصر، ووجوب تأمين الشروط اللازمة لكل أمر ومسألة، فالطبيب لا يقدم على الجراحة بدون تشخيص للمرض مع ما يستلزم ذلك من وجود جراح ماهر وحاذق.

إن تلك الجماهير زاهدة بالعلم والمعلومات حتى في المجال الذي تنشده وتعتبره أسمى أمانيتها<sup>(١)</sup>.

هناك فرق بين التغيير الاجتماعي وبين الانقلاب العسكري، أي بين تغيير القيادة العقلية وبين تغيير القيادة العسكرية..

إن التغيير الثاني ليس إلا تبديل شخص بآخر، قد يكون أسوأ منه، يأتي جائعا خائفا فيملاً جيوبه وسجونه من جديد، بينما كان الأولى الإتيان بعقلية جديدة متألفة.. وشتان ما بين الشيء والفكر وبين الجماد والروح وبين الموت والحياة.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

### الإمام حسن البنا وإدراكه لمخاطر استعمال القوة:

روى عباس السيسي - وهو من كبار رجالات الإخوان المعاصرين الذين ما زالوا أحياء - أنه أتى مع أخ آخر له في الجماعة كي يطلبها من حسن البنا انتهاج العمل المسلح في منهج الجماعة، وأن زميله كان يحمل بيده مسدسا جاهزا للاستعمال يضعه في جيبه، وذلك استعدادا منه لإطلاق النار على المرشد العام إذا رفض مشروع العمل العسكري!!

وقال بأنه عند الحديث مع المرشد حسن البنا في ذلك الشأن أجابهم بالرفض رفضا تاما لأي عمل عسكري، وتوجه إليهم بالكلام قائلا لهم: «إذا كنتم لا بد فاعلين فيجب أن يكون ذلك تحت اسم غير هذا الاسم» ثم إنه

(١) من خالص جلبي - المرجع نفسه - ص ٢٠٢ - ٢٠٣ «بتصرف»

(٢) راجع خالص جلبي/م. س - ص ٢٠٠.

سلمهم كل ما في حوزته من ممتلكات خاصة بالجماعة وحمل ما هو له فقط وتوجه إلى الخارج تاركاً لهم المكتب.

يقول عباس السيسي: إنه عند ذلك سقط المسدس من يد رفيقه الذي اندفع إلى يد «البنّا» يقبلها وهو يعتذر...

إن هذه المداخلة التي هي عود على بدء، إنما الهدف منها تسليط الضوء على المفارقة بين من أسسوا العمل الإسلامي المعاصر، وبين الذين استغلوا ذلك الجهد المبارك والمقصد النبيل، وجعلوا منه متاهات تحولت فيما بعد إلى كوارث وآلام، سببت الإحباط للمسلمين وجعلت العالم كله يخسر أملاً لم يكن في مداركه، ألا وهو أمل خلاص البشرية مما هي فيه من عبثية الجهل، وتسلط أمم ليس في قلوب قاداتها أي معنى للرحمة، واحترام حق الإنسان والحيوان في الوجود وكذا البيئة في أبعادها الثلاثة، البر والبحر والفضاء....

### منابع الخطر..

أولاً: يقول د. يوسف القرضاوي: إن المجتمع الإسلامي يتعرض للخطر نتيجة لأحد أمرين يجب أن نحذر منهما ونحذر منهما كل التحذير.

(الأول) «أن يجمد ما من شأنه التغير والتطور والحركة، فتصاب الحياة بالعقم والجمود، وتصبح كالماء الراكد الآسن، الذي يجعله الركود مرتعاً للجراثيم والميكروبات»

❖ وهذا ما حصل في عصور الانحطاط والشرود عن هدي الإسلام الصحيح، فتوقف الاجتهاد في الفقه، وتوقف الإبداع في العلم... والابتكار في الصناعة.. وأصبح المثل السائد: «ما ترك الأول للآخر شيئاً» في حين أخذت المجتمعات الراكدة تستيقظ وتنهض وتتطور، ثم تزحف غازية العالم الإسلامي.

(الثاني) أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث، أن فئة من أبناء



المسلمين، يريدون خلع الأمة من دينها، وعزلها عن تراثها كله، باسم التطور.

❖ لقد برع المسلمون الأوائل في تسخير القوى الكونية بسلطان العلم لمصلحة الإنسان، فالإسلام يحث على اقتباس كل إنتاج علمي واختراع مادي<sup>(١)</sup>، بشرط ألا يخرج ذلك عن دائرة الحلال في مجال عطائه وتفاعله مع الإنسان.

ثانياً: أمراض العقل: يقول علي جريشة: إنه سمع بعض الدعاة يقولون: «لسنا بحاجة إلى التخطيط، إنا متوكلون على الله» فيجيب: قلت: بل متوكلون لا متوكلون! «وعاصون لله لا طائعون» - «إن من أمراض العقل التي تصيب الدعاة - قلة التخطيط» وإن أعداءنا يخططون ويعدون العدة على أعلى مستوى، وذلك من أجل هدم البناء والقضاء على وجودنا، ونحن نقف موقف المتفرج الأبله، الذي ينتظر الضربة، ولا يدافع عن نفسه، وعرضه ودينه... «ثم يزعم أن هذا قضاء الله، وإنا له صابرون، وعلى العهد قائمون»<sup>(٢)</sup>...».

❖ ومن الأمراض أيضاً إعجاب كل ذي رأي برأيه، وهذا ما يتنافى تماماً مع وجوب إعادة الأمر إلى الله تعالى ورسوله، مما يعني رد الأمر إلى العلماء الأجلاء الذين يفصلون به على ضوء الكتاب والسنة.

ثالثاً: الخطأ في فهم الأوامر والنواهي: لقد فهم البعض استحالة أن يأذن الله تعالى للناس أن يضعوا لأنفسهم بعض التنظيمات أو التشريعات التي تنظم جانباً من شؤون حياتهم، معتمدين في ذلك على ما قاله المرحوم أبو الأعلى المودودي في كتابه المصطلحات الأربعة: «ومما يقتضيه توحيد السلطة العليا أن يكون جميع ضروب الحكم والأمر مرجعه إلى مسيطر قاهر واحد وألا ينتقل منه جزء من الحكم إلى غيره...».

(١) د. يوسف القرضاوي - بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين - مؤسسة الرسالة - ط ٢ - ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م - ص ١٠٥ - ١٠٩.

(٢) علي جريشة - دعاة لا بغاة - دار البحوث العلمية الكويت - ط ١ سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م - ص ١١٨ - ١١٩.

❖ يقول المرحوم حسن الهضيبي - المرشد العام للإخوان المسلمين: إن هذا فهم خاطيء، ومن يقل بذلك فإنما يجعل من عقله حدا لسلطان الله تعالى «ويجعل عقله حاكما على الله عز وجل ومشئته وهو بذلك يقع في المحذور»<sup>(١)</sup>.

إن الله تعالى قد ترك للبشرية أموراً تنظمها وفق اجتهادات العقل، على شرط أن يبقى ذلك في إطار مقاصد عامة وغايات محددة، فلا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، وما عدا الفرض والحرام، فكل شيء مباح، والحرام معلوم ومحدد إما بالاسم أو الطريقة المؤدية إليه، وللمسلمين أن يسنوا من الأنظمة في لوائح وقوانين لوضع الحلول، وتنظيم أمور الحياة في شتى ضروبها، إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لم يضعاً تشريعاً مفصلاً لتنظيم المرور في الشوارع العامة، ولم يضعاً قوانين للوقاية الصحية، ومقاومة الآفات الزراعية، وتنظيم استعمال مياه الري، وقوانين التعليم وتنظيم المهن المختلفة، كالطب والهندسة والصيدلة، والشروط الواجب توفرها فيمن يريد مزاولتها، وكذا في بناء الجيوش وتنظيمها والمصانع وكيفية تأهيلها.

«ولا يجوز لأحد أن يزعم أن تشريعات تنظيم المرور في هذه الحالة من تشريع الله عز وجل، إنما هي تشريعنا واجتهادنا تنفيذاً لمقصد عام، أمرنا الله تعالى به، وهي تشريعات وقوانين تتبدل وتتغير حسبما تقتضيه الحاجة بتغيير وسائل المواصلات»<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: اختراق صفوف الدعاة بواسطة عناصر تدسها أجهزة المخابرات المعادية للمسلمين، وليس غريباً أو مستبعداً إمكان تصنيع أفراد أو مجموعات يمكن إيصالها إلى أماكن العمل، وذلك بفضل ما يقدم لها من دعم وتسهيلات، إضافة إلى الحماية الأمنية التي تتمتع بها بالرغم من المواقف المتعنتة والمناوئة لتلك الجهات، مما يزيد من تمسك الجهات بها والالتفاف حولها.

(١) المرجع نفسه ص: ٧٢.

(٢) حسن الهضيبي - المرجع السابق - ص: ٧٤.

## الدولة في حصار جماعة الإخوان المسلمين:

أثناء عملية الاعتقال الأولى التي تمت لقادة الجماعة في مصر عام ١٩٥٤م، تحدث مدير السجن مع المرشد العام حسن الهضيبي وسأله عن سبب اختلافهم مع جمال عبدالناصر مع أنهم هم درع الثورة وعامل نجاحها؟

أجابه الهضيبي بقوله: إذا أجبتك فهل تخبر جمال عبدالناصر بذلك: فقال: نعم - قال: قل له لقد خلعنا الملك فاروق وأحللنا مكانه ملكا آخر<sup>(١)</sup>.

لقد تبذرت الأحلام، واستحالت الطموحات إلى مأساة، واقتصر دور الإسلاميين في مصر - باكورة العمل الإسلامي في العالم - على خلع نظام الملك فاروق الذي كان بالإمكان العيش معه، ولو بقليل من الدراية والحكمة، وكان ممكنا إسقاط حكومة وتأليف أخرى، والقيام بمظاهرة «هذا إذا كان ذلك مجديا» أو رفع عرائض واحتجاجات.. وتم التمكين لملكية جديدة جاءت على رماح الإسلاميين، وثمره جهدهم وجهادهم، وخاتمة أعمالهم، لكنها ملكية لا ترحم الأطفال، ولا تهتز مشاعر ولايتها لصراخ النساء، ولا لكل ويلات التعذيب، والاعتداء على عفة البنات واغتصابهن.. وأقامت «مقصلة» لإعدام باكورة أدمغة الأمة الإسلامية التي تحاول النهوض من تحت ركام الاحتلال الأوربي «الإنجليزي.. الفرنسي..»، وكممت أفواه الناس، وقضت على كل مظهر من مظاهر الحريات... وأخيرا أضاعت قضية المسلمين الكبرى.. فلسطين.

## الشرك نفسه لم يتغير:

في بداية القرن الحالي للميلاد كانت صورة الخلاص عند دعاة الإصلاح إزالة السلطان، أي سلطان كان، عبدالعزيز... مراد.. الخليفة عبدالحميد الثاني، محمد رشاد وحيد الدين خان.. الخلافة «١٩٢٤م»

(١) هذه الرواية قصها صالح بو رقيق، أحد قادة الجماعة، بعد الإفراج عنه في أيام أنور السادات، وقد أمضى في السجن حوالي ستة عشر عاما.

وأعقب ذلك حكم الاتحاد والترقي في ظل سلطان لا سلطة له، ثم في ظل أتاتورك والعلمانية المطلقة.

وفي منتصفه عند بزوغ شمس النصف الثاني من هذا القرن «١٩٥٢م» قضى الإصلاحيون على الملك.. أي ملك، فاروقا كان أم غيره..... لتؤول السلطة إلى علمانية أخرى وأتاتورك آخر..... وهذا ما سيبينه البحث عند الوقوف على كل نقلة وعلى كل حالة تغيير في الحياة السياسية المعاصرة.



## المبحث الثالث:

## الحركة الإسلامية والتغيير في دولة غير جمهورية مصر العربية

### أولاً: العراق

لم يكتب للإسلاميين في العراق أن يظهرُوا على الساحة السياسية كما حصل في بعض الدول العربية الأخرى، فقد كان التيار الإسلامي ضحية مبكرة لاستبداد الأحزاب القومية، التي وصلت إلى السلطة إثر انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨م على يد الجيش، الذي أطاح بالنظام الملكي، وجعل عبدالكريم قاسم «من الشيوعيين» رئيساً للجمهورية المعلنة، غير أن الحكم الجديد، وتحت شعار تحرير فلسطين والتصدي للإمبريالية وتحقيق الوحدة العربية والعدالة الاجتماعية، قضى على كل مظاهر الحرية والديمقراطية المعلنة في دول العالم الثالث، ومع أن العراق عرف قادة أجلاء في العمل الإسلامي مثل أمجد الزهاوي رحمه الله تعالى الذي توفي عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م<sup>(١)</sup> وكان من ثمار نشاطه تأسيس جمعية التربية الإسلامية التي فتحت

(١) انظر - فتحي يكن - الموسوعة الحركية - المجلد الأول - مؤسسة بيروت - ط ١ - سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - ص ١٣٧ - يؤثر عنه أي عن الزهاوي رحمه الله تعالى عندما قام وفد بزيارته إبان حكم عبدالكريم قاسم - وكان عمره يناهز التسعين سنة، قال لهم: إني باق في العراق ولن أهاجر، ولو بقيت حبيس منزلي، إن مجرد وجودي يعني الكثير بالنسبة للمسلمين في العراق.

لها مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية، وكذلك فإنه رحمه الله تعالى أسس جمعية الإخوة الإسلامية، لتعمل على جمع كلمة المسلمين، ونشر الثقافة الإسلامية بينهم على الصعيد الشعبي العام.

ومن رواد العمل الإسلامي الشيخ محمد محمود الصواف رحمه الله، مؤسس الحزب الإسلامي في العراق.

غير أن الساحة العراقية لم تخل من شباب التيار الإسلامي المنتشر على طول الساحة وعرضها، وبعد أن تخلص المرحوم عبدالسلام عارف من عبدالكريم قاسم وأرسى حكما انتعشت فيه رياح الحرية، وحيث الحرية والعدالة تنبت البراعم الغضة، إلا أنه قضى بحادث سقوط طائرته فخلفه شقيقه عبدالرحمن عارف الذي عرف خلال رئاسته للجمهورية العراقية بالطيبة وحبه للمسلمين، وطيبة قلبه جعلته يوكل رئاسة الحرس الجمهوري إلى أحد الضباط: اللواء عبدالرزاق النايف الذي استغل مركزه وتعاون مع جماعة ميشال عفلق «أحمد حسن البكر وصادم حسين...» الذين كانوا خارج البلاد واشترك معهم في انقلاب ضد الرئيس عبدالرحمن عارف في عام ١٩٦٨م وطلعت الصحف تعلن عن مجلس ثورة مشترك في العراق بين الإسلاميين وحزب البعث العربي الاشتراكي «جناح ميشال عفلق» برئاسة أحمد حسن البكر وأوكلت رئاسة الوزراء إلى اللواء عبدالرزاق النايف، ووزارة الدفاع إلى ضابط من الإسلاميين هو إبراهيم الداود، وبعد أحد عشر يوما بالتمام تخلصت جماعة عفلق من الذين أعادوهم إلى العراق. وسلموهم السلطة، فتم وضع عبدالرزاق النايف في السجن، وبقي وزير الدفاع إبراهيم الداود في الأردن حيث كان يقوم بزيارة لقطاعات عسكرية عراقية مرابطة هناك، ثم أطلق سراح عبدالرزاق النايف ونفي إلى خارج البلاد وتم اغتياله في لندن بعد ذلك.

وأما أحمد حسن البكر فقد استقال عام ١٩٧٩م من رئاسة الجمهورية ليخلفه صدام حسين الذي لعب دورا، ستستمر بصماته السوداء شاهدة على ما اقترف من إثم بحق الأمة وكان آخرها احتلاله للكويت عام ١٩٩٠م.

وهكذا يقع أمل الأمة وحملة راية الإصلاح في الشَّرْك ويجعلون من جهادهم وأجسادهم جسر عبور لسيطرة فرد أو جماعة لا فرق . . . والنتيجة هي نفسها أتاتورك جديد . . .

إن إبراز هذه الحقائق المؤلمة على مسار العمل الإسلامي منذ سقوط الخلافة إلى اليوم هو كما قال الدكتور يوسف القرضاوي تحت عنوان: التبصير بالحقائق لا التخدير بالأحلام: «وإيماننا بالشعور وقوة الجماهير لا يعني أن نضلّلها عن الحقائق المرة وأن نخدرها بالأمني الفارغة.

إن على دعاة الحركة الإسلامية ومفكرها أن يصارحوا الأمة بأمراضها، ولا يكتمونها عنها، وأن يبصروا الشعوب بالحقائق وإن كانت مرة، لا أن يخدروها بالأحلام الوردية، دون أن يسلكوا لتحقيقها أي سبيل.

والقرآن يقول لمن جعلوا الجنة حكرا عليهم بلا إيمان ولا عمل ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ويقول الإمام علي كرم الله وجهه لابنه الحسن: إياك والاتكال على المني، فإنها بضائع النوكى «أي الحمقى» وكما يجب أن نبصر الناس بمرارة الواقع علينا أن نبصرهم بأخطار المستقبل، حتى يوطنوا أنفسهم على احتمال آلامه، ولا يتوهموا أنه ورد لا شوك فيه، وأن السماء ستمطر عليهم فيه سمنا وعسلا دون أن يكذب منهم اليمين أو يعرق الجبين . . . فحينما ينادي الإسلاميون: الإسلام هو الحل، ولا صلاح لنا إلا بالإسلام، والإسلام هو سفينة الإنقاذ مما نتخبط فيه من مشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية، يتصور جماهير الناس، أن مجرد رفع هذا الشعار، وتأييد أصحابه ودعائه في الانتخابات . . . سيحل المشاكل المعلقة بعصا سحرية أو معجزة سماوية<sup>(١)</sup> إن المؤمنين المتقين هم الذين يأخذون بالأسباب . . .

(١) راجع د. يوسف القرضاوي - أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة - بيروت -

مؤسسة الرسالة - ط ١٣ سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م - ص ٥٨ - ٦٢.

## ثانياً: مصير الدولة في أدبيات وسلوك الإسلاميين في الجزائر:

### دولة الجزائر بعد الاستقلال:

لقد كان قرار الدولة الفرنسية التي احتلت الجزائر عام ١٨٣٠م أن تضمه نهائياً إليها، والفضل بعد الله عز وجل في إفشال ذلك المشروع، إنما كان لجمعية العلماء، التي كان لها شرف إحياء الثقافة العربية الإسلامية، ومن ثم قيادة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي حتى تحقق الاستقلال عام ١٩٦٢م.

غير أن ثمرة ذلك الجهاد المرير في حماية المسلمين في الجزائر من الضياع، قد تعرضت لعملية انحراف لغير صالح مدرسة جمعية العلماء، يقول راشد الغنوشي: «ورغم أن الأساس الفكري والثقافي للثورة الجزائرية قد أرساه قادة جمعية علماء الجزائر، ومعظمهم متخرج من جامعة الزيتونة بتونس إلا أنه بسبب أخطاء في الممارسة السياسية، وتوسيع المشروع الوطني على نحو شاركت فيه فئات متعددة قد تخرج جانب كبير منها من المدرسة الفرنسية، وبعضهم انفصل عن الجيش الفرنسي، لم يلبث ميزان القوى بقيادة الثورة الجزائرية أن مال لصالح المتكونين على النهج الفرنسي<sup>(١)</sup>».

إن السبب في تجيير السلطة بعد الاستقلال إلى التيار اليساري يعود إلى:

أولاً: العلاقة التطابقية بين الحزب الشيوعي في الجزائر والحزب الأم في فرنسا.

ثانياً: تأثير القيادة السياسية في مصر، إبان حكم الرئيس جمال عبدالناصر، التي كان لها دور كبير في توجيه قادة الثورة في الجزائر نحو المنظور الاشتراكي.

ثالثاً: الدعم العسكري والمعنوي الذي كانت تقدمه الدول الاشتراكية

(١) راشد الغنوشي - نظرات حول الديمقراطية في المغرب العربي - السنة الأولى - رمضان



لحركات التحرر من الاستعمار ومن بينها الجزائر «بغض النظر عن الدور الخطير الموكول إلى المعسكر الاشتراكي في جر العالم الإسلامي إلى الجنوح عن الخط السوي، والذي ليس مجال مناقشته الآن<sup>(١)</sup>. ويمكن إضافة سبب رابع وأساسي، غفل عنه الباحثون أو أشاروا إليه بطرف خفي، كأن يقول الغنوشي بأن المشروع السياسي الإسلامي للدولة لم يكن قد تبلور عن جمعية العلماء بعد، وكذلك عدم تأمين احتياطي مستقبلي لأي عمل اجتماعي وسياسي واقتصادي ودعوى، حيث ألقى أصحاب العاطفة الإسلامية كل ثقلهم في سبيل المعركة من أجل دحر الاحتلال الفرنسي - لكن غاب عن أذهانهم إعداد جيل لما بعد النصر أو حتى الهزيمة.

إن أية مجموعة أو فئة تدفع بكل عناصرها إلى خط المواجهة بحيث تضعهم على خط واحد متواز، تضع مستقبلها أمام مخاطر جسيمة، في حالتها النصر أو الخسارة.

إن واجب العمل الجهادي بشموليته أو القتل بشكل خاص يقضي بالتحرك أرتالا أرتالا، فرتل للمواجهة وآخر قيد التخرج وثالث ما زال في طور الإعداد... ورابع ما زال في غيض الأرحام، وهذا الشكل من المواجهة يحمي الوجود من المفاجأة وبالتالي من الانقراض.. أو الخسارة لأمد طويل.

فالتحرك بشكل سليم ومدرّس فيه وجاء لجنة من عاديّات الزمان..

ومن أجل ذلك، فقد نجح سارقو الانتصارات، الذين كانوا يختبئون في الخطوط الخلفية أو على مقاعد الدراسة في جامعات فرنسا في إخراج الدولة الجزائرية الوليدة وفق النمط الشرقي للمعسكر الاشتراكي، فكانت: «الجمهورية الشعبية الجزائرية» بكل ما في هذا النموذج من سيطرة للدولة على المجتمع والاقتصاد والسياسة، وقهرها للمخالفين لها وملئها الحياة بالشعارات الفضفاضة، واتجاهها نحو التصنيع - انسياقا وراء النماذج الغربية.

(١) راشد الغنوشي - المرجع السابق - بتصرف ص ٥٥.

## تطور مراحل الأزمات في الجزائر:

بدلاً من إدخال الجزائر في سوق التصنيع والتنمية الزراعية وتطوير وسائل الإنتاج، فإن حكومة جبهة التحرير وجهت اهتمامها للإفادة من الثروات الطبيعية الهائلة الموجودة في البلاد مثل البترول والغاز، وهذا ما أدى إلى سيادة الاتكالية في الشعب الذي أصبح عالة على الدولة.

وفي مقابل ذلك شهدت الجزائر نمواً ديموغرافياً هائلاً<sup>(١)</sup> في الوقت الذي تنتشر فيه الأمية ويتراكم العجز الإداري وإهمال قطاع الزراعة وانحيار أسعار البترول، وفي حالة من الفشل كهذه لم يعد أمام السلطة إلا أن تلجأ إلى القمع والعنف للجم حالة التملل في صفوف الشعب: إن مجتمع الشباب لم يعد يحركه خطاب سياسي مهترى، ما فتئ يردد أسطوانة «أمجاد الثورة وبطولاتها»، واستثار أعضاء جبهة التحرير بالثروات والسلطة جعل من العسير إطلاق أية مبادرة فردية، أو الإقدام على أية إصلاحات سياسية، من شأنها الحد من الاتكالية والسماح بإتاحة فرصة أكبر للمشاركة السياسية الواسعة.

ولهذا فقد فشلت محاولات الرئيس الشاذلي بن جديد في القيام بأية إصلاحات اقتصادية وسياسية، فكان نتيجة لذلك «انفجار الخامس من أكتوبر ١٩٨٨ الذي كاد يلغي الدولة جملة بل لقد مرت على الجزائر أربعة أو خمسة أيام بدون دولة<sup>(٢)</sup>» ولو كان هناك فئة منظمة لأمكنها أن تسيطر على البلاد بدون أية مقاومة.

## الرئيس الشاذلي بن جديد ورغبته في الإصلاح:

حاول الرئيس الشاذلي بن جديد التخلص من القيادات السيئة، وفتح المجال أمام الصحافة الحرة، حتى وصل الأمر بالصحيفة الرسمية لأن تأخذ دورها في النقد والتوجيه، أكثر من أية صحيفة معارضة في بلد آخر، ومن الحريات التي أطلقها إفساح المجال أمام المعارضة كي تعبر عن رأيها

(١) لقد أصبح الذين أعمارهم تقل عن العشرين سنة يشكلون ٧٠٪ من الشعب الجزائري.

(٢) راشد الغنوشي - المرجع السابق - ص ٥٥.

بالطريقة التي تراها، وهذا مغاير تماماً لما هو معمول به في دول العالم الثالث، ومن بين الأحزاب الجديدة التي برزت في الجزائر كانت «الحركة الإسلامية» التي حظيت بشرعية وجودها.

والمعركة الكبرى في المغرب العربي هي ضد الغرب بكل مضامينه الثقافية واللغوية الزاحفة على إفريقيا، ولدولة الجزائر كان شرف السبق في التعريب الذي كان أمل الرئيس السابق بومدين، وحركة التعريب التي لم تعد تعترف باللغة الفرنسية حتى لغة ثالثة أزعجت فرنسا والموالين لها ثقافة وسياسة «والولاء الثقافي في المغرب العربي للفرنسية يؤدي إلى ولاء سياسي للأم فرنسا» وكرد على هذا التطور الخطير في وجه الفرنسيين فقد قام المواليون لها بتحريك الخلافات العرقية، وذلك للنيل من انسجام الشعب الجزائري، فالبربر يشكلون جزءاً كبيراً من الشعب، وهؤلاء مع أن أصولهم عربية إلا أن فرنسا عملت على ترسيخ أصول أوروبية لهم.

تلك هي المشاكل المنظورة، أما الكامنة منها فهذه ستوضحها الأيام بعد ذلك، وصدقت توقعات الغنوشي عندما قال: «سنرى مقدار استقرار الدولة في الجزائر ونجاح التجربة الديمقراطية التي يخشى عليها اليوم أن تواجه بردود أفعال وبانفجارات مع فقدان القدرة على التحكم»<sup>(١)</sup>.

## التيار الإسلامي في الجزائر:

الفروج من نصت الأرض:

الجهة الإسلامية في قيادة الجماهير:

يحار الباحث أحيانا في تحديد المنطلقات الأساسية لـ «جبهة الإنقاذ» الإسلامية في الجزائر، والحيرة هذه مردها إلى عدة منابع هي:

أولاً: التيار الإسلامي التابع لجماعة الإخوان المسلمين الذي لا يميل إلى العنف، أو الصراع مع الآخرين وفق ما هو معروف من الأحداث المعاصرة.

(١) راشد الغنوشي - المرجع السابق - نيسان ١٩٩٠م - ص ٥٨.

ثانياً: تيار الحركات الاحتجاجية، التي تضع سياساتها وبرامجها وفق ما يسميه د. حسن الترابي نظرية «التفاعل مع المجتمع».

ثالثاً: التطور العكسي الذي شهدته جبهة الإنقاذ في الجزائر بحيث ابتدأت بفكرة التفاعل مع المجتمع وانتهت إلى حمل لواء الدولة الإسلامية بطريقة مباشرة دون المرور بالمؤسسات التحتية للمجتمع.

وفي تشرين الأول «أكتوبر» ١٩٨٨م، دخلت مجال التعددية السياسية، وفتحت حوارات مع الرئاسة «الشاذلي بن جديد» والأحزاب الأخرى المحسوبة على تيارات الاعتدال مثل أنصار أحمد بن بن بلا، ورابطة الدعوة وحركة «حماس» وحتى جبهة التحرير.

وهكذا فازت الجبهة في الانتخابات البلدية في حزيران «يونيو» ١٩٩٠م، عندما أعلن رئيسها عباس مدني بأن البلديات هي اللبنة الأولى للدولة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

وإلى قريب من هذا يذهب الغنوشي في تحليله لتلك المرحلة، حيث إنه يرى بأن التيار الإسلامي التقط المبادرة في أعقاب انتفاضة ٥ تشرين الأول ١٩٨٨م: «.. أعني عباسي مدني وعلي بلحاج التقط المبادرة، وسرعان ما كسبا المد الجماهيري الهادر غضبا دونما سياسة واضحة، وسرعان ما كسبوه بشعارات الإسلام، التي التحم فيها لأول مرة.. بشكل واضح، الديني مع السياسي».

وبعيداً عن الحركات السابقة في مجال العمل الإسلامي، حركة المجتمع الإسلامي «حماس» بقيادة الشيخ محفوظ النحناح، وحركة النهضة الإسلامية بزعامة الشيخ جاب الله، مضى الشيخ عباسي مدني، بعد أشهر من الانتفاضة السابقة الذكر إلى تشكيل الجبهة حيث الجماهير التي «مثلت البداية الحاسمة لتحول القوى الشعبية لصالحهم ١٩٨٩/٢/٨»، وكانت الشرارة الأولى

(١) الأفكار مستقاة بتصرف من: مجلة الأسبوع العربي - يشير البكر - استعمل عباس

مدني... العدد ١٧٣١ - ١٤/١٢/١٩٩٢ - ص ١٠.

في الصدامات مع السلطة والمشاكل مع التيارات الإسلامية الأخرى<sup>(١)</sup>. وكان الصعود مرة أخرى إلى صدارة القيادة في الجزائر عندما فازت جبهة الإنقاذ بالأغلبية الساحقة في المرحلة الأولى من الانتخابات التشريعية «كانون الأول - ديسمبر ١٩٩١م».

### الجيش في مواجهة جبهة الإنقاذ الإسلامية:

يبدو أن المسار الديمقراطي الذي فتح بابَه الرئيس الشاذلي بن جديد لم يرق لقادة الجيش المرتبطين بعلاقة متينة مع فرنسا، والذين يعتبرون امتداداً للعهد السابق حيث كانت السيطرة للتيار اليساري منذ استقلال البلاد.

ومما زاد من اندفاعهم في مواجهة نجاح الجبهة في الانتخابات التشريعية استغاثة النخبة العلمانية، التي فزعها المد الإسلامي، وقد عبرت عن ذلك في مسيرة قام بها هؤلاء عقب فوز الجبهة، وكذلك فإن بعض الدول المجاورة للجزائر لم ترتح لما حدث وكذا الدول الغربية، وفي مقدمتها فرنسا، التي حرضت صحفها الجيش على حماية الديمقراطية، وهذا يعني في مصطلحهم إلغاء نتائج الانتخابات الحرة، وهذا من غرائب النهج السياسي للدول الغربية التي تعتبر نفسها مصدرة للديمقراطية<sup>(٢)</sup>.

ويضاف إلى هذا السبب سبب آخر، وهو عدم استعمال الحكمة من قبل قادة جبهة الإنقاذ «عباسي مدني وعلي بلحاج..» في طرح أهداف الجبهة من جهة، وفي تعاملهم مع الرئيس الشاذلي بن جديد من جهة أخرى.

(١) قد يستغرب المرء عندما يجد الظاهرة نفسها تتكرر، بحيث تكون حركة إسلامية قبلاً قد خبرت الساحة وجذرت عملها بشكل هادئ ومدروس - وتمكنت من كسب طمأننة الجماهير الأخرى لها، ودخلت في ناموس الحركة الاجتماعية، فإذا، وبصورة غير متوقعة تأتي إلى الساحة حركة جديدة أشد شراسة، وأكثر استقطاباً للجماهير، وأول ما تقوم به إنهاء من كان قبلها بطريقة أو بأخرى!!

(٢) راجع، راشد الغنوشي - الحريات العامة في الدولة الإسلامية مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٣م - ص ٢٧٧.

لقد جاهر قادة الجبهة بأن التغيير الجذري سيحدث في الجزائر بدءاً من المطالبة بانتخابات رئاسية، أي أن على الرئيس الشاذلي بن جديد أن يستقيل، وانتهاء بتغيير الدستور، وهذا ما أخرج الرئيس ابن جديد، وأفقده السيطرة وضبط كل الأوراق في يده كرئيس للبلاد.

وفي لقاء تم بين رئيس الجمهورية «بن جديد» وممثلي قيادة الجبهة، قدم الشاذلي عرضاً يقضي بالتمكين للجبهة، من تشكيل الحكومة والشروع في تطبيق البرنامج الذي أعلنته وصوت على أساسه الشعب لصالحها، مقابل عدم المطالبة باستقالة الرئيس وإجراء انتخابات رئاسية في تلك المرحلة، وإبقاء وزارتي الدفاع والخارجية في يد من يختارهم الرئيس «هذه إحدى الروايات»، وفي كل الأحوال فقد أبدى الرئيس استعداداً للتعايش مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ، لكن هذا الاتفاق لم يبصر النور أولاً، لأن بعض أعضاء قيادة الجبهة رفض ذلك، وثانياً بسبب اطلاع قادة الجيش على أسرار الاجتماع، الذي عرفوه بواسطة شريط فيديو تم تصويره بسرية بتدبير من الجنرال توفيق المسؤول العام لمخابرات الأمن العسكري واللواء العربي بلخير، وتم توزيعه على باقي جنرالات القيادة العسكرية للنواحي الأربعة في الجزائر.

وبعد أسبوع من الاجتماع تم جمع أكثر من ١٥٠ توقيعاً من طرف كبار العسكريين «لواء، عميد، عقيد» يطالبون أو على الأصح يصرون بموجب تلك العريضة على الرئيس الشاذلي كي يستقيل، ولقد أقيمت من منصبه بعد أن أرغم على حل المجلس الشعبي الوطني الذي يمثل السلطة التشريعية بحيث أضحت البلاد في فراغ دستوري تام، عندها، وكما هو مخطط، تمت دعوة المجلس الأعلى للأمن، والمكون من وزير الدفاع، ووزير العدل، ووزير الخارجية، ووزير الداخلية ورئيس الجمهورية «غير الموجود...» وتم إعلان حالة الطوارئ في البلاد، وإلغاء المسار الانتخابي، ودخلت البلاد في مأزق يصعب الخروج منه<sup>(١)</sup>.

(١) هذه المعلومات مستقاة من بعض عناصر الحركة الإسلامية في الجزائر في حوارات متعددة هذه خلاصتها.

## فرصة تم تفويتها:

إن من طبيعة الإنسان ألا يفكر بما فعله غيره معه، بل أن يحاسب نفسه ويسألها عما ارتكبت من أخطاء، ومحاولة البحث في جمع الأخطاء المرتكبة من جانب التيار الإسلامي لا تعني إطلاقاً تحميله كامل المسؤولية، كما أنه لا يجوز أن يدعى الإنسان نفسه أو لمن يحب العصمة والتنزه عن كل خطأ أو زيغ... عندما حاولت الحكومة في عهد الشاذلي بن جديد أن تلتف على جبهة الإنقاذ في المرحلة الانتخابية الثانية، وذلك بسن قوانين انتخابية جديدة، فهم منها أنها سترجح كفة مرشحي جبهة التحرير، قاد عباسي مدني مظاهرة لم تشهد لها البلاد مثيلاً، وأعلن إضراباً شل الحركة في البلاد، ولم يتوقف حتى تم الاتفاق مع حكومة أحمد الغزالي على إلغاء تلك القوانين المستحدثة، وإعادة العمال المطرودين إلى أعمالهم، وتحديد موعد جديد للانتخابات النيابية «المرحلة الثانية» وهذا ما عطل تنفيذه انقلاب الجيش، لقد أثبتت الأيام أن الإصرار على الفوز بكامل أعضاء المجلس النيابي تقريباً كان أمراً مبالغاً فيه، وأنه لم يكن من المصلحة إبعاد فرقاء آخرين عن ساحة المشاركة مثل حزب جبهة التحرير، التي اتخذت قادتتها موقفاً طيباً إن في شخص الشاذلي بن جديد عندما كان رئيساً للبلاد، أو حين رفضت أهم الأطراف السياسية في البلاد مفاوضة السلطة العسكرية في غياب كل من عباسي مدني وعلي بلحاج، ولم يقتصر هذا الموقف على جبهة التحرير الوطنية بل فعل مثل ذلك ثمانية أحزاب وطنية، وجبهة القوى الاشتراكية إضافة إلى أعداء المشروع الإسلامي في الجزائر، الحزب البربري الذي صرح رئيسه سعيد سعدى أنه لا مانع من محاوراة الإسلاميين... وكذا موقف الضباط من رتبة عقيد وما دون<sup>(١)</sup>...

## حمام الدم في الجزائر إلى أين؟

عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ

(١) مجلة المجتمع - الكويت - ١ رجب ١٤١٤ - ١٤ ديسمبر ١٩٩٣. السنة ٢٤ العدد ١٠٧٩

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ هَذَا الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ... الحديث<sup>(١)</sup>.

لقد هلك المسلمون شرقا وغربا للانتصار الخيالي غير المتوقع الذي حققه المسلمون في الجزائر، وهم حديثو عهد بالتححرر من الاحتلال المباشر من قبل فرنسا «١٨٣٠ - ١٩٦٢ م»، وأيتام شهدائهم لم يبلغوا سن الشباب بعد... وكان بعد ذلك الخير شر، وسيكون بعده خير إن شاء الله تعالى: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

في الوقت الذي حسب فيه المؤمنون أن فجراً جديداً قد أشرق على الجزائر، إذا بها تغرق في ليل مظلم من الفتن والقتل... فالجيش الذي كان يتباهى بمجده العريق في مقارعة المحتلين الفرنسيين تحول إلى قاتل لأهله وإخوانه الذين بذل الدم لتحريرهم من قبل.

وحملة الراية الإسلامية من مختلف المجموعات العاملة على أرض الجزائر، أصبحوا هدفاً لمن لا يرى في العمل إلا حمل السلاح وانتهاج العنف كوسيلة لتحقيق غايته، وأية غاية لقد وصل بهم الأمر إلى حد قتل الدعاة العاملين بحجة عدم تأييدهم للعنف المسلح.

في الأسبوع الأول من ديسمبر ١٩٩٣ م، أقدم مسلحون على اختطاف الشيخ محمد أبي سليمان من أجل الضغط على حركة حماس التي تحركت باتجاه الحوار مع السلطة، والشيخ المذكور هو رئيس جمعية الإرشاد والإصلاح الجزائرية<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء، مختصر صحيح البخاري للزبيدي، منشورات دار النفائس بيروت رقمه «١٥٠٦».

(٢) مجلة المجتمع - الكويت - الثلاثاء ٢٤ جمادي الآخرة ١٤١٤ هـ، ١٢/٧ - ١٩٩٣ - العدد «١٠٧٨ السنة - ٢٤ - ص ٤٧».



ثم أقدمت المجموعات الإسلامية المسلحة على قتل الشيخ الحسن بن سعد الله النائب الثاني لرئيس الجمعية، ورئيس تحرير مجلة الإرشاد، ويحسن بالباحث أن يثبت ما قاله أحد علماء العصر الشيخ يوسف القرضاوي في رسالة وجهها إلى المسلمين في الجزائر: «أبعث إليكم - أيها الإخوة الأعزاء بهذه الرسالة الحزينة بعد أن هزني النبأ الفاجع بمقتل أخينا الفاضل النبيل الحسن بن سعد الله النائب الثاني لرئيس جمعية الإصلاح والإرشاد، ورئيس تحرير مجلة الإرشاد، أمام منزله بست رصاصات قضت عليه في الحال، رحمه الله وتقبله في الشهداء المرضيين عند ربهم.

وقبل ذلك قتل إخوة له من الملتزمين بالإسلام، والدعاة إليه ولا ذنب لهم نعلمه إلا أن يقولوا ربنا الله، ورسالتنا هي الإسلام!» وللتاريخ يجب إثبات هذه الرسالة<sup>(١)</sup>.

وفي أثناء كتابة هذه الصفحات كانت وسائل الإعلام العالمية تتناقل أخبار خطف الطائرة الفرنسية في مطار هواري بومدين في الجزائر وعلى متنها ٢٢٠ راكبا، غالبيتهم من الجزائريين والباقيون من الفرنسيين تقريبا، وأحداث الطائرة استمرت من مساء يوم السبت في ٢٤ ديسمبر حتى مساء الاثنين في ٢٦ من الشهر نفسه، ولقد مارس المختطفون وهم أربعة ذات الأساليب التي كانت تتبعها الفصائل الثورية الاشتراكية، أو الماركسية في السنوات المنصرمة، وذلك بقتل رهائن وإلقاء جثثهم على مدرج المطار، وعملية القتل تتم على مشهد ومرأى من ركاب الطائرة، ثم تعمم وسائل الإعلام صور الضحايا على ساحة الكرة الأرضية بكاملها.

والخطر في هذا الحدث تمثل بتبني الجماعة المسلمة «كتائب الموقعين بالدم» لهذه العملية، وتعليل ما حصل على أنه انتقام من السلطات الفرنسية التي تساعد حكومة الجزائر، وفي أثناء المفاوضات سربت وكالات الأنباء

(١) الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، الأمان - العدد ١٢٨ - ٢٨ تشرين الأول ١٩٩٤، بيروت - ص ٢٤ - ٢٥ انظر نص الرسالة في الخاتمة + البيان الذي وقع أصل النص ص ٢٠٠.

مطالب الخاطفين في البداية وهي إطلاق سراح عباسي مدني وعلي بلحاج من السجن .

ليس من السهولة الاقتناع بأن خطف الطائرة الذي انتهى بمهاجمتها في مطار مارسيليا في فرنسا حيث ظهرت قوات الأمن الفرنسية وهي تقاوم الشر «!!» المتجسد في الإسلاميين، وأياً كان الأمر، فالعالم كله وحتى المسلمون منه سوف يشمئزون لهذا التصرف، لكن النتيجة ستكون على حساب وجودهم ودينهم بينما غيرهم يسجل ضربات قاسية للأحلام التي تدغدغ مشاعر من يريد للإسلام أن يعود للوجود، أو لمن ينتظر المخلص القادم<sup>(١)</sup>...

ومما زاد الأمر غرابة أنه في يوم الثلاثاء تمّ اغتيال أربعة رهبان ثلاثة منهم فرنسيون والرابع بلجيكي في تيزي أوزو في الجزائر، ولقد اعتبر ذلك ردة فعل على اقتحام الأمن الفرنسي للطائرة وقتل الخاطفين الأربعة وتحرير الركاب، وهذا أمر يزيد من شكوك المسلم حول الجهة التي تقف وراء هذا المسلسل من الأعمال غير المتناسبة مع الشريعة الإسلامية ولا مع تاريخ المسلمين .

### الوقوع في الشرك:

إن قراءة أحداث العالم الإسلامي منذ أكثر من قرن هي نفسها لا تتغير، وإن تغيرت أسماء المشاركين في الحدث، وذلك بحكم قصر عمر الإنسان، غير أن الاستمرارية للمنهج الذي يحكم مسرى الأمور ما زال وكأنه كائن خالد لا يموت... ولا بأس من إعادة الذاكرة إلى خواتم أيام الدولة الإسلامية في العهد العثماني، أو ما حصل في مصر في أواخر الأربعينات وبقيّة الخمسينات... وقد يكون استباقاً لمراحل البحث

(١) حدث اختطاف الطائرة الفرنسية يوم السبت ٢٤/٢/١٩٩٤م، وانتهى يوم ٢٦/٢/١٩٩٤ وكانت النتيجة المادية قتل الخاطفين الأربعة، وتسعة جرحى من الأمن الفرنسي وعدد من المدنيين الركاب «١٣»، وكان الخاطفون قد أعدوا ثلاث رهائن بالرصاص.

الاستشهاد بما حصل للمسلمين في أفغانستان حيث قاوم المسلمون هناك الاتحاد السوفياتي سابقا، وبعد الانتصار استدار هؤلاء المجاهدون على بعضهم البعض في دوامة من العنف والافتتال الداخلي، حتى بات المسلمون الذين ضحوا بكل شيء دفاعا عن دينهم وحربا ضد الإلحاد الشيوعي لا يجدون تفسيراً ولا هدفا لكل شلال الدم الذي أهدروه دفاعا وقتالا «للكفر»...

### ونظرة مماثلة إلى الجزائر، يمكن ملاحظة المشهد نفسه:

أولاً: شعب الجزائر امتلك العقيدة «الثورية»<sup>(١)</sup> المستمدة من مبدأ الجهاد والاستشهاد في الإسلام، وتوفر لها شعار والهدف: إقامة دولة إسلامية، كما توفر لها قوة الحجة المتمثلة في إقدام الطغمة العسكرية على إلغاء نتائج الانتخابات، كما توفر لها الرغبة العارمة في التغيير «والنقمة» الشاملة على النخب العلمانية التي قادت البلاد، وكانت أغنى دولة ومنها نبتت أعظم ثورة فحولتها إلى بلد فقير بائس.

ثانياً: يقول الشيخ راشد الغنوشي: ويزيد اليقين وضوحاً بإمكانية انتصار الثورة عدم ممانعة الظروف الدولية لتغيير إسلامي أصبح وشيكاً في الجزائر، وتصريحات الأمريكيين والإنجليز والألمان والطلّيان مؤيدة للحوار والتغيير في الجزائر.

ويصور السلطة الحاكمة في الجزائر بأنها معزولة دولياً إلا من المساعدة الفرنسية، التي ما زالت ترغب في هضم الجزائر، ويحدوه الأمل أي الغنوشي المحتم فيقول: «وفي الجزائر ثورة دقت ساعة إعلان انتصارها».

إن الصورة التي رسمها الشيخ راشد الغنوشي مشابهة في أساسياتها لما كان قائماً في أفغانستان «أيام الجهاد...!!».

(١) مصطلح «الثورية» استعمله راشد الغنوشي الذي يقتبس البحث عنه هذه الصورة للواقع، انظر: فلسطين المسلمة العدد التاسع، السنة الثانية عشرة - أيلول ١٩٩٤م - ص ٣٤.

وأما صورة الواقع التي تؤكد السقوط في «الشرك» أي الفخ فيمكن قراءتها من لوحة للواقع رسمها رئيس حركة النهضة الإسلامية في الجزائر الشيخ عبدالله جاب الله، إذ يقول: «لقد علمنا الشرع التريث والتبيين في المسائل التي لا يتوفر لنا فيها الدليل القاطع والخبر اليقين، والأوضاع التي نعيشها في البلاد من المسائل التي يخفى على أكثر الناس دليلها أو خبرها اليقيني» ومن أجل ذلك فإنه ينصح بعدم الاندفاع في الحكم على واقع الجزائر، خاصة من قبل من يعيشون آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأولادهم وأموالهم، سبب ذلك أن الواقع الذي وصلت إليه البلاد أصبح مخيباً للآمال والطموحات، ويصفه الشيخ عبدالله جاب الله: «.. من أمسى لا يظن أنه سيصبح، وإذا أصبح لا يظن أنه سيمسي، وإذا خرج من بيته قاصداً عمله لا يظن أنه سيصل إليه، وإذا خرج من عمله وقصد بيته لا يظن أنه سيبلغه، فقد انعدم الأمن وعظم الخطر وصار أمن الأشخاص والممتلكات مهدداً باستمرار».

وفي رقصة الموت هذه، فإن السلطة الحاكمة والمغتصبة للسلطة من جهتها لا تقبل وجود محايد، وكأنها تريد للجميع أن ينخرطوا في دوامة العنف «وتعالت أصوات السلطة ودعاة القطيعة مع دين الأمة وموروثها الحضاري والثقافي داعية للتميز والانحياز إلى طرف من الأطراف».

هذه هي الصورة التي آل إليها الوضع في الجزائر بعد الانتصار الذي حققه الإسلاميون، وفق المنهج الديمقراطي مما أدى إلى هجمة عليهم. لا بل على كل الجزائر، وفي الوقت نفسه لم يقف الفريق الآخر «الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعات المشاركة لها» موقفاً حكيماً يدع الخير الذي يربو عليه الشر كما أمر رسول الله ﷺ فكان نجاح مخطط تدمير المسلمين في الجزائر.

### والسؤال الذي يطرح نفسه هو:

لقد خرج المسلمون مقاتلين ضد الفرنسيين وحرروا بلادهم بالرغم من مليون ونصف شهيد، كل ذلك يخرج من تحت الاحتلال الفرنسي، وفي

ظل جبهة التحرير الوطني: تنامي الشعور الإسلامي إلى الحد الذي جعل مرشحي هذا يسيطرون على ٨٥٠ بلدية و٣٦ ولاية، ثم على الأغلبية الساحقة لأعضاء المجلس النيابي.

وإذا كانت الثورة ضد الفرنسيين أنجبت كل هذا الزخم من المد الإسلامي، فهل الثورة الداخلية في الجزائر اليوم ستخلف وراءها مجتمعا أكثر تمسكا بالإسلام واندفاعا إلى التضحية في سبيله؟ أو بعبارة أدق إلى أين يسير الناس في الجزائر؟

إن رفض فريق أساسي من العاملين في مجال الدعوة الإسلامية في الجزائر، والذين لهم تاريخ عميق في هذا المجال للعنف الدائر على أرض الجزائر سيشهد أن الإسلاميين خرجوا من تحت الأرض كما سماهم راشد الغنوشي فرئيس حركة المجتمع الإسلامي محفوظ النحاح وكذلك رئيس حركة النهضة الإسلامية أو حزب النهضة الشيخ عبدالله، وكل النخب العلمية في المجتمع الجزائري وخارجه، ورسالة الشيخ يوسف القرضاوي شاهد على ذلك، وكل هؤلاء لا يرون جدوى من دوامة العنف، والتجارب أثبتت بأن الجماهير العفوية والحركات التي تجاري عواطف المتحمسين تكون أكثر عرضة للاختراق... واندساس العدو فيها، إن قادمات الأيام ستكشف عما هو مختلف فيه الآن... أو ما زال مجهولا، لكن قراءة الماضي التي يؤيدها الحاضر تقول: ... إنه السقوط في الشرك.

### ثالثاً: مصير الدولة الإسلامية في أفغانستان:

- قادة فصائل الجهاد دفنوا الحكم الإسلامي وحثوا عليه التراب.

- الشيوعيون يعودون للتحكم في الساحة بفضل تحالفهم مع المجاهدين.

«الثورة الأفغانية ضد الحكم الشيوعي بدأت بشعار الدفاع عن الدين في بلد يتمسك فيه الناس بدينهم تمسكا عميقا وشبه عفوي في الوقت ذاته، وربما كانت أفغانستان في العهد الملكي من البلدان الإسلامية النادرة التي تشل فيها أي حركة على الإطلاق في الشارع متى حان موعد الصلاة،

والواقع أن هذه الظاهرة التي استمرت إلى حد معين خلال الحكم الشيوعي تقلصت جدا في زمن دخول «المجاهدين» إلى كابول<sup>(١)</sup>.

إن الجهاد في أفغانستان شكل قبلة لكل محب لمجد غائب، لطالما طال انتظاره، حتى إن الكثيرين كانوا يحسبون أن أبواب الجنة مقفلة في كل مكان إلا في أفغانستان، وبالدعم الهائل من قبل المسلمين في العالم كله وفي مقدمتهم المملكة العربية السعودية والكويت ودول الخليج، وكذا باكستان التي كانت الموئل ومركز الانطلاق لفصائل الجهاد... وبرضى ودعم من الدول الغربية المناوئة للمعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي، وبتعاطف من قبل المسلمين داخل الجيش الروسي الذين كثيراً ما انضم بعضهم إلى المجاهدين... وبدعاء النساء والأطفال وتضرعهم لله تعالى كي ينصر المجاهدين... مضت فصائل الجهاد في حربها ضد النظام الشيوعي في أفغانستان المدعوم من قبل الاتحاد السوفياتي مباشرة.

وبعد انهيار النظام الشيوعي وسيطرة المجاهدين على السلطة، دخل قادة هذه الفصائل في حرب داخلية، تقطعت فيها الأرحام، ودكت المساجد وتهدمت المآذن، وسقط الآلاف من القتلى والجرحى، في حرب لا تحكمها شريعة ولا عادات ولا تقاليد، كل شيء فيها أصبح مباحاً، وحتى الشيوعيون عادوا إلى الساحة من البوابة الواسعة، بل لا مانع من أن يعودوا لحكم البلاد مرة أخرى بوجه علماني «!!»..

وفي تحليل سياسي كتبته مجلة المجتمع الكويتية<sup>(٢)</sup> يمكن تلخيص مراحل الصراع، ومعرفة شعار الدولة الإسلامية الذي طالما حلم به المسلمون في أفغانستان والعالم:

«لن أدخل كابل، لن أوقف القتال ضد مسعود ورباني، ولا تصالح

(١) مجلة المجتمع - الكويت الثلاثاء - ٢٩ رجب ١٤١٤ هـ - ١١/١/١٩٩٤ م - العدد: ١٠٨٣ - السنة ٢٤ - ص ٢٨ - ٩٢.

(٢) مجلة الأسبوع العربي - قادة المجموعات المسلحة يتقاتلون عبر دويلات متعددة، العدد ١٧٩٠ - الإثنين - ٢٠ شعبان ١٤١٤ هـ ٣١/١/١٩٩٤ م ص ٨.

قبل أن تخرج ميليشيا دوستم من العاصمة، هدفنا الأساسي هو تطهير كابل من الميليشيا الأوزبكية وفلول العناصر الشيوعية التي ما تزال على الوضع في كابل».

كان ذلك هو رد زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار عندما سئل عن دواعي رفضه للتعاون مع بقية القادة الأفغان في إدارة الحكم، وكان ذلك في مايو ١٩٩٢م - وذلك غداة دخول المجاهدين إلى العاصمة كابل، وفي الوقت نفسه وجه السؤال إلى برهان الدين رباني كي يطرح وجهة نظره حول شروطه للمشاركة في السلطة فأجاب:

«إن أفراد الميليشيا الأوزبكية التي يرأسها دوستم هم إخواننا، وقد عفونا عنهم وعن غيرهم من الشيوعيين، وهم لا يشكلون خطراً علينا، بل يدعموننا في إقرار نظام الحكم الإسلامي الجديد».

كان ذلك أيام حكم صبغة الله مجدي، وخاض يومها قلب الدين حكمتيار حرباً ضد مجدي لأنه متخالف مع أحمد شاه مسعود ومع عبدالرشيد دوستم قائد الميليشيا الشيوعية، وبعد ذهاب مجدي من الحكم، ومجيء برهان الدين رباني إلى الرئاسة وقلب الدين حكمتيار إلى رئاسة الوزراء. فقد تحالف هذا الأخير مع دوستم ومجدي ضد سلطة الرئيس برهان الدين رباني، وتم استخدام الأسلحة التي اختزنها الشيوعيون من قبل لمحاربة المجاهدين، خصوصاً طائرات «ميغ» وطائرات الهليكوبتر وصواريخ «سكود» الشهيرة السوفياتية الصنع، وهكذا عادت كابل للتدمير مرة أخرى - كل ذلك من أجل أن يستقيل رباني<sup>(١)</sup>!!!.

لقد انهار التحالف السابق الذي ضم رباني ودوستم والشيعة الأفغان ومجدي والشيوعيون من الأصل الطاجيكي، وظهر تحالف جديد يضم دوستم وحكمتيار والشيعة الأفغان، ومجدي بالإضافة إلى القوى الشيوعية

(١) راجع - مجلة الأسبوع العربي - ١٩٩٤/١/٣١م - المرجع السابق - ص ٤.

من البشتون الذين ينتمي إليهم حكمتيار عرقياً<sup>(١)</sup>، وأعلن هذا التحالف هدفه الأساسي وهو إسقاط رباني وإقامة حكومة محايدة في البلاد...

لقد أعلن التحالف الجديد الثورة الشعبية ضد النظام في كابل برئاسة رباني، ودارت حرب هي الأشرس من بين الحروب التي عرفتها كابل خلال هذا القرن.

ولقد أيد البروفسور سياف زعيم الاتحاد الإسلامي الرئيس رباني في قتاله ضد المعارضين، وهذا ما أدى فيما بعد إلى تعرض قوات سياف المحايدة عملياً إلى هجوم من قوات حكمتيار في جنوب البلاد وآخر في شمال البلاد على يد قوات القائد الشيوعي دوستم...

وهكذا بدلاً من أن تصبح أفغانستان دولة إسلامية قوية تساعد المسلمين في طاجكستان وآسية الوسطى عموماً بحكم ما يربط بينها وبينهم من روابط العقيدة والقرباة، وأن تصبح عمقاً استراتيجياً لباكستان، فقد تحولت على يد المجاهدين إلى نقطة إحباط، وعامل يأس، لكل مسلم طامح لاستعادة عزه المفقود في الوقت المعاصر، يقول الفريق حميد جول مدير المخابرات الباكستانية السابق والمشهود له برؤيته الموضوعية إزاء الأزمة الحالية بحكم تجربته الطويلة هناك: «قلبي مع دماء الشهداء التي أهدرت

(١) القوى المتصارعة حالياً في أفغانستان تتوزع وفق الخريطة القبلية على الرغم من موجات التهجير التي اقترنت بها الحرب.

– قبائل البشتون: شرقي وجنوب غربي كابل وهم ركيزة «الحزب الإسلامي» بقيادة حكمتيار ومجموعة منشقة بقيادة يونس خالص.

– الطاجيك: وهم في الشمال الشرقي بقيادة أحمد شاه مسعود ويعتبرون في الدرجة الثانية بعد البشتون.

– الأقلية الثالثة «الهزارا» وهي في معظمها شيعية إثنية عشيرة على المذهب الجعفري أصلهم من مناطق الجبال الوسطى يطالبون بـ ٣٥٪ من مراكز الحكم مع أن تعدادهم يساوي ١٥-٢٠٪.

– الأوزبك: الأقلية الرابعة يتزعمهم عبدالرشيد دوستم يسكنون مزار شريف شمالي البلاد.



منذ ١٤ عاما هي عمر سنوات الجهاد الحقيقي، وأسفي على هذا الواقع المحزن الذي تعيشه أفغانستان اليوم، آمالنا العريضة التي تعلقنا بها تبددت وأصبحت حلما صعبا، فالصراع الدائر اليوم قد تجذر في الأعماق ولن يكون الحل العسكري هو الوسيلة العملية لإنهاء هذا الصراع، بل على العكس إنها ستعمق الهوة بين الأطراف الرئيسة المتحاربة..» وقال خبير عسكري: «.. بحكم تجربتي الطويلة في أفغانستان لا أرى سوى التسوية السلمية الموضوعية سبيلاً لإنهاء الأزمة الأفغانية، أما الحل العسكري فيضاعف من الأزمة وسيمنح الفرصة للعناصر الخبيثة من الشيوعيين وغيرهم أن ينفخوا في نار الفتنة الحالية<sup>(١)</sup>...».

إن دوستم القائد الشيوعي له عاصمته الخاصة «مزار شريف» وإدارته الخاصة وتلفزيونه الخاص ومطاره المدني والعسكري المرتبط بشكل مباشر بجمهورية أوزبكستان التي تقدم له دعما عسكريا واقتصاديا كبيرا بحكم العلاقات العرقية التي تربطه بهم وهو ذو الأصل الأوزبكي.

وكذلك فإن القوات المعادية للفكرة الإسلامية في أفغانستان تحتفظ بقوتها بينما يستنزف كل من حكمتيار ورباني قوتهما، وسوف تنقض هذه القوة في الوقت المناسب وتسيطر على السلطة، وستجد الفرصة مناسبة بسبب الإحباط المتولد عند الأفغان من إمكانية توصل القيادة الحديثة إلى اتفاق بينها<sup>(٢)</sup>... والبديل هو القوى الشيوعية والعلمانية التي تنسق مع قوى خارجية تترصد الشر بالبلاد.

لقد ضعف الأمل في قيام دولة إسلامية في أفغانستان، تلك الدولة «الأمّل» التي يحتاجها المسلمون في آسيا الوسطى عامة وفي طاجيكستان خاصة أكثر من أي وقت مضى.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه على الأفغان، كما على الجزائريين..

(١) مجلة المجتمع الكويتية ١١/٤/١٩٩١م المرجع السابق - ص ٢٩.

(٢) مجلة المجتمع الكويتية ٢٥/١٠/١٩٩٤م - ص ٢٣.

هو ذاته: «من مخلفات النظام الملكي السابق خرجت الجماهير ترفض الشيوعية بكل أشكالها ولو كان وراءها الاتحاد السوفياتي بكل ما يملك من ترسانة عسكرية وجيوش، وتشكلت فصائل الجهاد، وسالت الدماء تهدر في وديان أفغانستان، وصدرت الكتب وهي تقص كرامات المجاهدين الأفغان التي كان ينشرها الشهيد عبدالله عزام رحمه الله، «الذي استشهد غدرا في بيشاور مع بعض أبنائه»، وتمكنوا من إسقاط النظام الشيوعي، والآن بعد حكم قادة «الجهاد» ما هو مستقبل شعار الدولة الإسلامية في أفغانستان؟ هل ما زالت الأمل المرتجى؟ أم أنها أصبحت ذكرى أسى وعامل إحباط؟ ويبقى الأمل بالله تعالى كبيراً<sup>(١)</sup>.




---

(١) كتابة هذا البحث كانت قبل استلام الطالبان للحكم في أفغانستان وقبل الحرب التي شنتها أمريكا على أفغانستان بعد ١١ سبتمبر وقبل الحكم الحالي للرئيس الأفغاني كرزاي - وهذه المرحلة قصة أخرى بينا بعضها في كتابنا نقوش على جدار الدعوة.

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والمكرمات، وتنتهى المهمات والرحلات، وأنا هنا في نهاية المطاف أقول: إننى لا أعرف كتاباً تريت في نشره ومحضته وعرضته على أهل الفضل من أهل الدعوة مثل هذه الرسالة، ولعل ذلك راجع إلى موضوعنا من جهة، ولكونى قد أعدمت في السابق - من ناحية أخرى - كتاباً سطرته في «السياسة الشرعية والنظرة الواقعية» ظل حياً عندي في مكتبى لأكثر من خمس سنوات، ثم قررت شطبه من قاموسى لا لكونه ضعيفاً في فكرته ومبناه، ولكنها الخشية من أن يفهم على غير مراد كاتبه، وكتابى هذا أقر أننى نحيث عنه ما يعدله من الأوراق التي كتبتها وسطرته، ثم وجدتها قد تحدث جدلاً يصرف الناس عن هدف الكتاب ورسالته وغاية البحث ومراده، فصرفت النظر عنها وجعلتها في طي مسودات كتبى.

ونحن هنا في نهاية المطاف نخلص إلى النتائج الآتية:

**أولاً:** أن الأمم تدور بين الضعف والقوة بحسب أخذها أو تركها للسنن الكونية والشرعية في بقاء الأمم وتدميرها.

**ثانياً:** إن قوة الأمم لا تخلو من ضعف وكذلك ضعفها لا يخلو من قوة.

**ثالثاً:** أن الأمة الإسلامية في تسلسلها تحقق فيها حديث النبى ﷺ الذي رواه حذيفة رضى الله عنه حيث قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةً أَنْ يُدْرِكْنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ

اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: مَا دَخَنُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بَعِيرَ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، دَعَا عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعْصُ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

رابعاً: أنه لا يخلو زمان يمر على أمة محمد ﷺ لا يكون فيها شخص أو مجموعة تجدد هذا الدين وترجعه إلى نقائه وصفائه.

خامساً: أن داء هذه الأمة ليس من خارجها ولكنه من داخلها، كما ورد في الحديث «سألتُ ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألتُ ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألتُهُ ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألتُهُ ألا يجعلَ بأسهم بينهم فَمَنَعَنِيهَا»<sup>(٢)</sup>.

سادساً: إن تصور بقاء الأنموذج النبوي في المدينة في العصور والأزمنة من بعد وفاته وخلفائه من بعده نوع من ضروب الخيال، وقد أخبر ﷺ عن وجود الفتن من بعده، وتغير الوالي كم ذكرنا في الحديث السابق في أول البحث «سَتَكُونُ خِلَافَةٌ رَاشِدَةٌ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ...» الحديث.

سابعاً: على الحركة الإسلامية أن تعيش واقعها، وتتعامل معه بمنهجية تراعي فيها الطبيعة البشرية، وحبها للجاء والسلطان، وهذه الكينونة البشرية واقع لكل إنسان وإنما تختلف بالدرجة، فلا يتصور أن حاكماً سيتترك سلطانه

(١) فتح السلفية ١٣/٣٥.

(٢) مسلم ١٨٩.

للدعاة بمجرد الاعتماد على مبدأ العزل الموجود في كتب الفقهاء، فهذا لا نعرفه على مدى أربعة عشر قرناً في الأمة الإسلامية، كما أن تطبيق الأحكام الشرعية عند الحكام مرهون بضمان عدم زوال الحكم، وإلا فتاريخ التأويل متكرر في الأمة في معظم تاريخها، وعلى الدعاة أن يستفيدوا من وجود التوجه الإسلامي في العالم الذي تسمح به بعض الأنظمة في عالمنا الإسلام.

**ثامناً:** إن المشروع الإسلامي هو شركة مساهمة خيرية، كل من فيه خير يساهم في تحقيقه، فهذه الشركة ليست حكراً على أحد، ولكنها نسب يتفاضل الناس فيها كبناء المسجد تشترك القرية بكاملها فيه ومع هذا يظل هناك المؤذن وهناك من يكثر سواد المسلمين في المسجد ولكن في النهاية ما من شخص فيهم إلا وله مساهمة في بناء المسجد.

**تاسعاً:** التعامل مع الواقع لا يعنى الرضى به، بل المسلم يسعى دائماً للأحسن وفق القاعدة الشرعية ﴿لِيُبْلِغُكُمْ أَئْتِكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

**عاشراً:** من خلال التتبع لأقوال العلماء في موضوع السياسة الشرعية نرى أنها تدور حول موضوع المصالح والمفاسد والموازنات الفقهية، وفي هذا سعة للأمة، حيث التغيرات التي تحدث في الأزمنة وللأشخاص لا تتوقف ما تعاقب الليل والنهار ومن هذه الأمور:

□ مقولة شيخ الإسلام في تعارض الحسنات والسيئات، يقول رحمه الله: إن ثبت أن الحسنات لها منافع وإن كانت واجبة كان في تركها مضار، والسيئات فيها مضار، وفي المكروه بعض حسنات، فالتعارض إما بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما، فتقدم أحسنهما بتفويت المرجوح، وإما بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما: فيدفع أسوأهما باحتمال أدناهما، وإما بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما: بل فعل الحسنة مستلزم لوقوع السيئة، وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة، فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة. اهـ.

وقد ذكر العلماء لهذه القاعدة أمثلة كثيرة وتطبيقات متنوعة في أبواب الفقه.

١ - للتعامل مع أبجديات الفهم السياسي للإسلام لا بد من التدارس لأنواع الفقه التي ذكرها الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله:

أ - فقه السنن .

ب - فقه مراتب الأعمال .

ج - فقه الاختلاف .

د - فقه الموازنات .

هـ - فقه الأولويات .

وللوصول إلى تحقيق هذه الأنواع لابد من تكامل فقه الشرع وفقه الواقع، لنحصل على الموازنة العلمية السليمة البعيدة عن الغلو والتفريط .

□ الرقى في تعامل الدعاة مع مجتمعاتهم من أجل إنجاح المشروع الإسلامي، وقد ذكر الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي كلاماً جميلاً في ذلك فقال: لا بد للحركة الإسلامية أن تسعى سعياً حثيثاً، لتمد أشعتها إلى كل شرائح المجتمع وطبقاته، وأن تمتد أفقياً عن طريق تغذية الصلوة الإسلامية العامة حتى لا يبقى ركن في الحياة الاجتماعية إلا وصل إليه صوت الحركة، وبلغته رسالتها، وكان لها فيه جنود وأبناء، ووراءهم أضعافهم من الأنصار والمؤيدين والمساندين .

وإنما يتم ذلك عن طريق عمل دعوى وإعلامي، مخطط منظم يستفيد من وسائل العصر، وإمكانات العلم، وتكنولوجيا الإعلام الحديث، ويقتبس من أدوات الغرب والشرق كل ما يخدم دعوته، ويحقق هدفه «والكلمة الحكيمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها» .

ولا بد للحركة أن تستعين بفنيين متخصصين في مخاطبة العامة والخاصة، والاستفادة من علوم النفس والاجتماع والسياسة والإعلام، وتجنيداً لخدمة أهداف الحركة ورسالة الإسلام .

بل لا بد للحركة أن تخطط من اليوم لإعداد دعاة معاصرين وإعلاميين

مؤمنين بسمو دعوة الإسلام وشمولها وعالميتها وتوازنها، قادرين على إن يبلغوها إلى الناس بلغة العصر، ومنطق العالم.

□ على الحركة أن تدخل في حوارات دائمة في المسائل المستعصية وخصوصاً في مسائل السياسة الشرعية وكل ذلك من أجل الإثراء من الجانب الفكري والنظري لنحصل بعد ذلك على أرضية متفق عليها نسير في ضوئها، وهذا الحوار لا يتم إلا بفتح كل النوافذ على العمل الإسلامي بأهدافه ووسائله ومراحله.

وذلك في ضوء الواقع المعاصر حتى لا نقع بين التهويل والتهوين، وتأتى أهمية الحوار في الفقه السياسي لأنه لم يأخذ حقه من البحث والتعمق، كما في فقه العبادات والمعاملات.

□ وفقه السياسة الشرعية فيما يصلح الراعى والرعية باب واسع ومتحرك فعلى سبيل المثال: رأينا أن النبي ﷺ قسم خبير بعد فتحها بين المقاتلين ولم يفعل ذلك عمر رضي الله عنه عندما فتح سواد العراق، حيث رأى أن الأصلح في زمنه غير ذلك، وجادله كثير من الصحابة في ذلك، ولا سيما أن رأي عمر يخالف ظاهر عموم آية سورة الأنفال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقال عمر في ذلك: رأيت أمرا يسع أول الناس وآخرهم، وقال: أتريدون أن يأتى آخر الناس وليس لهم شيء؟!

أي أنه راعى مصلحة الأجيال القادمة، وهذا نوع من التكافل الرائع بين أجيال الأمة بحيث لا يستمتع جيل على حساب جيل أو أجيال لاحقة، واستند عمر في ذلك إلى آيات سورة الحشر التي أشارت إلى قسمة الفيء بين المهاجرين والأنصار: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠].

وعلى الإمام ابن قدامة الاختلاف بين صنيع عمر وصنيع الرسول الكريم، بأن النبي ﷺ فعل ما هو الأصلح في زمنه، وعمر فعل ما هو الأصلح في زمنه.

□ فتح الحوار مع عقلاء الحكام، كما يقول الشيخ د. يوسف القرضاوي حفظه الله.

□ في الحوار في مسائل السياسة الشرعية نسترشد ببعض القواعد المعينة للوصول للرأى الصحيح ومنها ما ذكر الشيخ يوسف القرضاوي:

أ - النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال بغض النظر عن الأشخاص كما قال علي بن أبي طالب: «لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله»

ب - احترام الاختصاصات، كما قال القرآن: ﴿فَتَسَلُُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]، ﴿فَتَسَلُّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، فللدين أهله، وللاقتصاد أهله، وللعسكرية أهلها، ولكل فن رجاله، وخاصة في عصرنا، عصر التخصص الدقيق، أما الذى يعرف في الدين والسياسة، والفنون والشئون الاقتصادية والعسكرية، ويفتي في كل شيء، فهو في حقيقته لا يعرف شيئاً.

ج - القدرة على نقد الذات، والاعتراف بالخطأ، والاستفادة منه وتقويم تجارب الماضي تقويماً عادلاً، بعيداً عن النظرة «المنقبية» التي تنظر إلى الماضي على أنه كله مناقب وأمجاد!

د - استخدام أحدث الأساليب وأقدرها على تحقيق الغاية والاستفادة من تجارب الغير حتى من الخصوم، فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق الناس بها.

هـ - عدم التعجل في إصدار الأحكام والقرارات وتبني المواقف، إلا بعد دراسة متأنية مبنية على الاستقراء والإحصاء، وبعد حوار بناء، تظهر معه المزايا، وتتكشف المآخذ والعيوب.

و - تقدير وجهات النظر الأخرى، واحترام آراء المخالفين في القضايا ذات الوجوه المتعددة، في الفقه وغيره، ما دام لكل دليله ووجهته، وما دامت المسألة لم يثبت فيها نص حاسم يقطع النزاع، ومن المقرر عند



علمائنا: أن لا إنكار في المسائل الاجتهادية، إذ لا فضل لمجتهد على آخر، ولا يمنع هذا من الحوار البناء، والتحقيق العلمي النزيه في ظل التسامح والحب.

**الحادي عشر:** عدم موالاته غير المسلمين: يقول الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَعِزِّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨). وعند موالاته هؤلاء فإن المصير يكون خذلاناً وعلى أسوأ ما يؤول إليه الحال مهزوم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥).

وكل ما على المسلم فعله أن لا يخرج عن الأطر الشرعية في هذا المجال لأنه لا يجوز للمسلمين خاصتهم أو عامتهم اتخاذ الكفار أولياء بدلاً من المؤمنين.

**الثاني عشر:** المسلمون ما زالوا هم الأقوى في العالم: يجب ألا يدخل الشك إطلاقاً إلى نفوس المسلمين في مشارق الأرض ولا في مغاربها في قوتهم واستمرار استعدادهم لريادة الكون وإحكام السيطرة عليه وفرض نظام عالمي عادل مخلص للناس مما هم فيه من ظلم وإفساد، وإن الضعف الذي يلاحظ الآن ومنذ عشرات السنين إنما مرده للوضع الداخلي السيئ الذي يعيشه، وإن سر الغلبة عليهم إنما يكمن في ذاتهم ولا يأتي من الخارج، والدليل على ذلك من الواقع ومن إخبار الرسول ﷺ بذلك:

أ - قوة المسلمين كامنة في دينهم والتزامهم فهم يستندون إلى إرث الشرعية الإسلامية التي أبقتهم ألف سنة ونيف في صدارة المجتمعات البشرية.

ب - إن المسلمين ما زالوا يمتلكون خمس اليابسة وما حوته من بحار، كما أنهم يمتلكون الطاقات الأولية الأساسية في هذا العالم مثل النفط والمعادن والمياه ومواطن الزراعة.

ج - إنهم الطاقة البشرية التي تمتلك الحيوية لما فيهم من شباب، بينما المجتمعات الأخرى باتت تنوء بالكهولة والشيخوخة التي تصل إلى حد ٦٠٪ وأكثر، وبعضها يكاد ينقرض لولا الهجرات الوافدة التي تجدد الحياة وتضمن استمرارها.

د - إن المسلمين ما زالوا مغلوبين بواسطة بعض الصناعات التكنولوجية العسكرية، إلا أن هذا الجانب بات بالإمكان تلافيه بعدما أصبح عندهم من يستطيع أن يصنع وينافس إذا ما توفرت لهم الأجواء الملائمة.

هـ - إن حديث رسول الله ﷺ يُؤكِّدُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يُغْلَبُونَ بِقُوَّةٍ غَيْرِهِمْ وَإِنَّمَا بِاخْتِلَافِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأَعْطَيْتِ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ عَامَّةٌ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةً عَامَّةً، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، أَوْ يَبْنِ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»<sup>(١)</sup>.

و - ما زال العالم يخترن ومضات عن تاريخ المسلمين وعدلهم، وما زال السهم يدور في خلد كل قارئ أو سامع..

الثالث عشر: الاهتمام بالجانب التربوي: قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

إن طريق النور في تناول اليد، ومعية الله تعالى مع المؤمنين وما على

(١) صحيح مسلم، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، الحديث رقم: ٧١٥٢.

هؤلاء إلا أن يلهجوا بذكر الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

لقد آن الأوان كي يقتنع الراغبون في طاعة الله عز وجل بأهمية ذكر الله تعالى وجعل القلب معلقاً بحبه ثم بحب نبيه ﷺ، والزهد بالدنيا بعد امتلاكها كي تتحقق لهم البيعة في سبيل الله ويستذكرون بما قاله سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما كان يستبسل في القتال بالرغم من عزله من القيادة «إِنِّي أَقَاتِلُ لِرَبِّ عُمَرَ».

إن القرآن الكريم لا يخلق إلا بجناحين: التزكية والحكمة. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فلا بد من تربية الجوارح وما تختزن من أحاسيس، والفؤاد وما حوى من الهوى.. وعندما تتحقق تربية رهبان الليل - فرسان النهار، يصبح المسلمون على موعد قريب مع الفجر المرتقب.

إن هذه التربية الربانية يجب مواكبتها بـ:

١ - منهج سياسي متوافق مع أهداف الشريعة الإسلامية بحيث يتمكن من استيعاب كل المشاكل ووضع كل الحلول اللازمة، وعندها يصبح الحكم للنص لا للشخص أو الأشخاص، ويحرس ذلك مجلس شورى يؤلف أعضاؤه خلاصة عباقرة المسلمين والملمين بخبرات العالم..

٢ - مناهج تعليمية منتجة وغير مقتصرة على الاستهلاك فقط، وكي يحدث ذلك فإن على العلماء المسلمين واجب تخليص الكتب الإسلامية من كل دخيل عليها من مخلفات الأمم البائدة أو الموجودة.. وإعادة المنهج الإسلامي إلى تألقه المستقى من كتاب الله عز وجل ومن سنة رسوله ﷺ وجهد الصحابة والتابعين.

٣ - يجب أن تشخص الأبصار إلى الأهداف التي وضعتها الشريعة، وكل سبيل لا يوصل إلى ذلك يجب استبعاده، فلا قدسية إلا لكتاب الله عز وجل ولحديث رسوله الكريم.

٤ - ليقدم المسلمون أنفسهم للعالم دعاء خير ورحمة.. ويزيلوا كل الشوائب والطعنات التي ألحقها أعداء الإسلام من جهة والمسلمون الجهلاء من جهة أخرى.

الرابع عشر: وهي النتيجة الكبرى في البحث والتي ظهرت في حركة التاريخ من خلال استعراضنا للدول والحركات حيث ظهر جلياً أن الأمة على أطوار التاريخ كانت تنشد الأحسن وتتوق نفوس رجالها إلى المعالي، فينشدون دولة الإسلام كما في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وهذا مطلب شرعي أصيل لا خلاف فيه، ولكن إن لم يتحصل هذا الأمر فهل ننتقل إلى ما هو شرعي وممكن؟ الجواب يتضح بمسألة فقهية بسيطة يعرفها الأطفال في مدارسهم وهي مسألة الوضوء والتيمم فالوضوء في الصلاة بصفته المنصوص عليها واجب شرعي لمن أراد أن يصلى أو مندوب لمن أراد أن يمس القرآن على اختلاف في المسألة، وهذا أمر مجمع عليه عند الأمة ولكن إن عدم الماء أو حال دون استعماله عدو في الخارج أو مرض في داخل المتوضىء يؤخر الشفاء أو يزيد من المرض، هنا في مثل هذه الحالة ينتقل الحكم من الوضوء بالماء إلى التيمم بالتراب أو ما يقوم مقامه وهذا انتقال من الواجب إلى الممكن، وهنا نقول إنه صحيح، أن الانتقال من الواجب إلى البدل يجعل البدل واجباً، فمن المقرر أن بدل الواجب واجب في وقته، بإقامة الخلافة على نهج النبوة كما في عهد الأئمة الأربعة أمر واجب، والانتقال إلى البدل عنه لعوائق داخلية أو خارجية في الأمة لا يسقط الواجب الأصلي، مع ضرورة الأخذ بالبدل الواجب حتى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجه، وحتى لا تضع المقاصد الخمسة التي جاءت الشريعة لتحقيقها، وهذا الواجب البديل إنما هو الممكن في وقته، وهذا الذي هو ما جاءت به النصوص الشرعية، واقتضته الأصول والقواعد الفقهية، والشريعة الإسلامية مبنية على المقاصد والمعاني المأخوذة

من النقل الصحيح والعقل الصريح، فمن الآيات قول الله تعالى: ﴿فَأَقْوَ اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومن القواعد الشرعية: «المعسور يسقط بالميسور» وكذلك «لا تكليف إلا بمقدور» ومن المقرر أن الشريعة جاءت لرفع الحرج عن الناس، ولذلك نرى أن النصوص إنما جاءت لبناء مجتمع طاهر متأخ متحاب يشعر كل فرد فيه أن له حقا وعليه واجبا وإن كان هناك شر ولا بد عولج الأمر بما لا تترتب عليه مفسدة أعظم، وهذه المقاصد هي التي بنى عليها الشاطبي موافقاته، وهذا منهج سلفي أصيل، فالإمام أحمد في مسألة الخروج على الحكام، لم ينظر إلى قواعد الشرع في دفع أعظم المفسدتين، وارتكاب أخف الضررين وتحصيل أعظم المصلحتين، ثم أسقط هذه القواعد على مسألة الخروج على أئمة الجور فإن كان الفقهاء قد اختلفوا وانقسموا إلى مذهبين مذهب الصبر ومذهب السيف فالإمام أحمد حسم المسألة في أن الأمر متعلق بالمصالح والمفاسد وهذه المسألة فصلها الإمام الشاطبي في موافقاته فجزى الله الجميع كل خير ولا حرمن الله علمهم وفهمهم.

وعوداً على بدء في الفائدة الثانية عشرة وبعدما ذكرنا في موضوع الوضوء والتيمم والآيات والقواعد الفقهية نقول: إن نشدان الواجب أمر لا بد منه حتى لا تضيع الأصول والقيم التي بني الإسلام عليها ولكن عند تعذر الوصول للأحسن لا يمنع من الوصول لما هو حسن، والأمر متعلق بالأئمة ككل لا بالحاكم فقط، فلذلك قيل: كما تكونون يولى عليكم، ويروى أنه قيل لعلي رضي الله عنه: ألا تحكم بما حكم به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؟ فقال: اتئونى برجال كالذين كان يحكمهم أبو بكر وعمر وأنا أحكم بما كانا يحكمان به رضي الله عنهما.

أخي القارئ: إن هذه النتائج التي استخرجناها من مجموع تطواننا في تاريخ الدولة لا نريدها أن تدخل في الأحكام الجاهزة والسهام المسمومة، فهذه أمر أصحابها إلى الله هو حسبهم ونعم الوكيل، كما أن هذا المبحث لا علاقة له بالعبارات الدعوية العامة: لا لقاء في منتصف الطريق، لا نرضى بأنصاف الحلول، الركون إلى الدنيا مقبرة الدعاة.. وغيرها من العبارات التي

ظلم بها أصحابها، عندما تعامل معها أناس لا فقه لهم ولا دراية ولا عيش بالواقع ولا استشعار لمعاناة الأمة والدعاة، بل هي أبراج عاجية باردة مرفهة أو سجون طاغوتية حارقة، والبرودة الصاقعة تفسد على المتوضىء الضوء، ومن الفقهاء من أبطل الضوء بالماء البارد أو الحار الذي يمنع إسباغ الضوء!!

وأخيراً فالحركات الإسلامية والمفكرون فيها ومن خارجها الجميع مدعو لأن يعيد النظر في كثير من أدبيات الحركة، فالمحذور في إعادة النظر وإمعان الفكر هو التعرض للثابت الذي جاء به صريح القرآن والسنة والإجماع وأما ما سوى ذلك فالأمة مدعوة للتفكير والنظر والمراجعة بين الحين والآخر فيما هو من نتاج البشر، والأمر كما قال الإمام مالك رضي الله عنه «كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر» وأشار إلى قبر النبي ﷺ، ثم إن كان الإمام الشافعي الحجة نظر في فقهه الذي كتبه في العراق بعد ذهابه إلى مصر، فهل ننظر نحن فيما هو بين أيدينا من تراث وفق الله السابقين إليه، ونقلوه إلينا بعلمهم ودمائهم وجهادهم ننظر فيه لا لنغمرهم حقهم ونتعالى على مقولاتهم بل لنراجعها فما وجدناه يؤدي إلى النتيجة التي يريدونها أصلناه وثبتناه، وما رأينا أن تكلفته كبيرة ونتاجه قليل، تمسكنا بالهدف وعَيَّرنا في الوسيلة، وظننى أن هذا هو الذي يرجوه من سبقنا بالإيمان والجهاد.

والله موفق للخير والحمد لله رب العالمين.

كتبه

الشيخ د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

١٢ من ربيع الأول سنة ١٤١٩هـ

ملحق (١)

## الرسالة الموجهة

من الباحث إلى العلماء الأفاضل بين يدي البحث  
ورسائل الرد من العلماء والمشايخ التي تمت  
استشارتهم قبل الكتابة في هذا البحث







## الرسالة الموجهة من الباحث إلى العلماء الأفاضل بين يدي البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد بن عبدالله وعلى  
آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فاسمحوا لي يا ملح الأمة أن أكتب لكم هذه الكلمات أريد منكم  
النصح والإرشاد، فما خاب من استخار واستشار.

شيخنا الكريم.. حفظه الله ونفع به، فإنني عازم على الكتابة في  
موضوع يهم الدعوة وأصحاب الحركة الإسلامية، ويعتبر من مباحث السياسة  
الشرعية والتي الخوض فيها يكون على حذر، فالكتاب يعالج مسألة مهمة<sup>(١)</sup>  
في قضية أساسية من قضايا العمل الإسلامي «الدولة والحكم» وهي من  
الأمر التي يكثر فيها الجدل، وتختلف فيها الجماعات، وتتهم فيها النيات،  
ويوثق ويضعف الدعوة بحسب آرائهم وأقوالهم فيها، والكتابة في هذا  
الموضوع في الأطر العلمية والمنهجية المتسمة بالإنصاف يغضب عليها  
الحاكم، ولا يرضى عنها المحكوم، ولكنها أمانة التبليغ التي تدفع بالإنسان  
أن يعلن في الناس ما يعتقد أنه حق «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» والخرج من الكتابة  
في هذا الموضوع ليس وليد اليوم فقط، بل هو قديم قدم التاريخ الإسلامي

(١) حركة الدولة الإسلامية في التاريخ منذ البداية إلى السقوط، مع ذكر محاولات إعادة  
البناء الإسلامي للأمة.

الذي يحكي لنا قصصاً تبين أن هناك فحولاً من العلماء كتبوا في موضوع الدولة ولم ينشروا ما كتبوا، بل أخرج تلاميذهم ما كتبوه بعد وفاتهم ومن هؤلاء «الإمام الماوردي» في كتابه «الأحكام السلطانية».

لهذا الأمر، رأينا قبل الكتابة في بحثنا «الدولة الإسلامية بين الواجب والممكن» أن نستشير بعضاً من رجالات الدعوة قبل الكتابة، ثم بعد ذلك نرسل ما كتبنا إلى العلماء أصحاب العمل والتنظير والتقعيد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لنستفيد من ملاحظاتهم وتصحيحاتهم وتوجيهاتهم، من أجل ذلك تم الاتصال بكم قبل كتابة البحث، والأمر لا زال فكرة وكذلك مخاطبة العلماء من أمثالكم الكرام من المفكرين والدعاة مرسلين إليهم برسالة نذكر نصها لاحقاً، فإن كان منهم نصح قبلت النصيحة منهم، وتم الدعاء لهم، ومن حالت أشغاله عن الرد فاعتبر رسالتنا كأنها لم تأت فدعونا الله له أن يعينه ويبارك له في وقته، ورسالتنا للجميع نصها هو:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد الأمين ﷺ.

وبعد؛ فأسال الله أن يعيننا وإياكم على رسم الطريق الصحيح لشباب الدعوة وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

الشيخ الفاضل ..

منذ سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية ومجاميع الدعوة تتجمع وتتحرك في اتجاه واحد، هو إقامة الدولة الإسلامية.

وهذا الاتجاه يتم إنزاله على مجاميع الشباب من خلال أدبيات الحركة الإسلامية بكل الوسائل المتاحة والممكنة.

وكان المسيطر خلال الفترة السابقة أن المشروع الإسلامي لا بد أن يتم من خلال الحركة الإسلامية، فحدد بالمشروع الحركي الإسلامي.

وننتج عن ذلك صراع بين السلطات القائمة والحركات الإسلامية،

باعتبارها منافسة لها على السلطة، وعاملة على سلب الحكم منها، وتطور الصراع وتجذر، وأصبح من مستلزمات العلاقة بين الحركات الإسلامية والأنظمة التي تتواجد تلك الحركة معها في بلد واحد.

وذلك الصراع أدى إلى تأخير هذا الهدف (هدف إقامة الخلافة الإسلامية على يد الحركة الإسلامية) مما جعل هذه الغاية أمنية من الأمنيات، بعيدة عما هو ممكن، وعما هو متاح، ولذا فقد أصبح لازماً على الحركة الإسلامية أن تنظر بعين الواقع الممكن وهي تبحث عن أمنيته في نجاح المشروع الإسلامي في العالم.

وإن الناظر في المكر العالمي والتخطيط الاستراتيجي للأعداء، يلاحظ أنهم يستخدمون كل الوسائل لتحطيم الإسلام ذاته، فضلاً عن تحطيم الحركات الإسلامية الداعية له، من أجل ذلك يثيرون الخلافات المصطنعة، والصراعات المفتعلة بين الحركات الإسلامية والسلطات القائمة في البلاد الإسلامية، وخصوصاً التي جعلت منطلقاتها الأساسية منطلقات إسلامية من حيث الأصول والمفاهيم، فهل نفوت الفرصة على الأعداء، ولا نساق في تيار الحماس العام، ثم نعود نعض أصابع الندم حيث لا ينفع الندم؟ ومن أجل الإثراء في هذا الموضوع عزمت على الكتابة في موضوع الدولة الإسلامية من حيث الواقع والممكن والواجب.

وإني آمل أن تكتب جواباً لهذه الرسالة فيها رؤيتكم المفصلة لما جاء في هذا الخطاب وستكون رسالتكم مقدمة للكتاب في المستقبل بإذن الله، وجزاكم الله خيراً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

## وبعد إرسال هذا الخطاب كانت ردود العلماء الكرام على رسالتنا كالآتي:

□ أولاً: الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله:

قال في رسالته: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فأحمد الله إليكم، وأرجو أن تكونوا بخير من الله ونعمة وعافية  
سابقة، أسأل الله أن يمدكم بمدده الحميد، ويسدكم إلى الطريق الرشيد،  
إقامة دينه وشريعته على ما يحب ويرضى.

إن اهتمامكم الصادق بهذا الموضوع من أهم الواجبات، وأعظم فروض  
الكفاية الملقاة على كواهل المفكرين والداعين إلى الله تعالى بقولهم  
وسلوكلهم ونشاطهم، أرجو أن توفقوا في إنجازاه وإبرازه، ويكون كتابكم  
مفتاح باب الخير في موضوعه، إن الأعداء يزرعون النزاع بين الأخ وأخيه،  
ويتقنون المداخل والمشارب، حتى يحسنوا للإنسان اقتناعاً تاماً بوجود قتل  
أخيه أو أبيه، والتاريخ حافل بشواهد ذلك البلاء، فاهتمامهم وتفريقهم بين  
الحاكم والمحكوم من المسلمين أهم عندهم، لأنه يفني بعضهم بيد بعض  
كما شاهدتم وسمعتهم، والأعداء يفرحون بذلك دون مباشرة ذلك، وربما  
قاموا بإظهار المساعدة للغالب في أول الأمر ولو كان من غير فكرتهم، فلذا  
وذاك صار الدعاة المخلصون اليوم بحاجة إلى توعية حكيمة صادقة. وهناك  
البعض من حكام المسلمين يصعب تفهمهم هذا المقصد النبيل، لما في  
نفوسهم من حب السيطرة والحكم، ولما في نفوس بعضهم من المجافاة

والعداء للإسلام ظاهراً أو باطناً، ولما يمرحون من رفاهيات وملذات وشهوات مكنهم الحكم منها في أنفسهم، ويقلبون الأقوال على النقيض بإعلامهم وإعلام الأصدقاء لهم من الأعداء، فالمسلك صعب ووعر، والقبول له من العلمانيين والإباحيين والمتغربين وسادتهم أصعب، فانظروا ضخامة ما تتوجهون إليه، واجتهدوا في حسن العرض وسلامته دون تزلف لبعض الحكام ودون تعسف على بعض الحكام، فالنصيحة هذه غالية جداً، فلا تضيع بتشنج أو تزلف أو تعسف.

(كَلَّا طَرَفَنِي قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ)

وليس عندي ما أقدمه لكم من الفكر والتخطيط، ولكنني سأدعو الله تعالى أن يسدّكم أتم التسديد، ويفتح لكم قلوب العباد، ويمدكم بالصون والعون، والحمد لله الذي آتاكم نصاعة الفكر، وخشوع الذكر، وأعوان الخير كالأخ أبي عبدالله القطان وإخوانه الكثيرين المخلصين، وتقبلوا أطيب تحياتي، واذكروني بصالح دعواتكم، والله يرفعكم ويتولاكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتبه

أخوكم/ عبدالفتاح أبو غدة



## □ ثانياً: الشيخ/ مناع القطان رحمه الله:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

تحتاج الحركة الإسلامية العالمية إلى وقفة، تراجع فيها تاريخها منذ نشأتها إلى الوقت الحاضر، وتتعرف على مواطن القوة ومواطن الضعف، وعلى الأسباب المباشرة وغير المباشرة، التي آلت بها إلى وضعها الراهن، لتقرأ ما وراء هذا كله، مما تُسفر عنه الدراسة الواعية الفاحصة، وقد أصبحت الحركة في منعطف وعر المسالك على الصعيد العالمي والصعيد المحلي .

فعلى الصعيد العالمي، اتجهت أنظار الغرب إلى الإسلام، وتفرغت له، فلا يشغلها شاغل سواه، وقد كانت قبل انهيار الاتحاد السوفيتي يشغلها مع الإسلام الشاغل الأكبر، وهو الخطر الشيوعي، ولا تعطي الإسلام اهتماماً كبيراً فأصبح الاهتمام اليوم بالإسلام، ولا شيء سواه، لأنه مبعث الخطر المستقبلي في نظرهم، لما يشهده العالم في أنحاء شتى من كفاح إسلامي مسلح يرفع راية الجهاد في سبيل الله، ويضرب أروع الأمثلة في التضحية والفداء، وهذا هو مضمون كتاب أصدره الرئيس الأمريكي الأسبق «نيكسون» تحت عنوان «انتهزوا الفرصة» حذر فيه العالم الغربي من ارتياعه لزوال الشبح السوفيتي المخيف، وغفلته عما هو أشد خطراً وهو الإسلام، ويعبر الغرب عن هذا التوجه الإسلامي بالأصولية .

وعلى الصعيد المحلي، وقعت الحركة الإسلامية في صراع مع سلطات الحكم وتفاوت هذا الصراع - فوصل في بضع البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية، في حوادث القتل، وأعمال العنف، وأصبحت صورة الدعوة الإسلامية في الجماعات المتعددة بنزعاتها المتباينة صورة دموية مفرعة، ولا يقبلها العقلاء المنصفون، ولا تفرق سلطات الحكم بين جماعة وأخرى، للتواصل بين الجماعات كلها، المتشدد منها والمعتدل، والتعاطف القائم فيما بينها، بل سرت مقولة تزعم أن المعتدلين هم مكمّن الخطر، لأنهم يعملون عن تخطيط مستقبلي بعيد المدى، ولا يعطون فرصة للسلطة حتى تضربهم وتبطلش بهم، كما تصنع مع الجماعات الأخرى العنيفة، ولم يصدر من

الحركة المعتدلة من المواجهة للسلطة بالقوة ما يبرر ضربها أمام الرأي العام. ومن ناحية أخرى، فإن الصراع الدموي الذي يوجد اليوم في عدد من البلاد الإسلامية بين بعض الجماعات الإسلامية وسلطة الحكم، ينسحب على الحركة الإسلامية المعتدلة، باعتبار أنها صاحبة السبق في الدعوة الإسلامية الشمولية، التي تهدف إلى تحكيم الشريعة الإسلامية في شؤون الحياة كلها - وإقامة دولة إسلامية تعيد سيرة الخلافة الإسلامية الراشدة - وأنها كذلك قامت في الماضي بحوادث عنف وأسهمت في حركات الجهاد ومقاومة الاستعمار بنصيب وافر، في مشاركتها بالمتطوعين في ميادين القتال، واستشهاد عدد كثير من أفرادها.

والحق، أن الحركة الإسلامية في مشاركتها القتالية الجهادية في فلسطين أو قناة السويس أو أفغانستان، أو غيرها، كانت في موقف يفرض عليها الإسلام ذلك، وهي تعلن في شعارها: «الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا» فلا معنى لسكوتها عن موقف من مواقف الجهاد الإسلامي المفروض سوى أن يكون هذا اتخاذاً.

وحذر الحركة الإسلامية في أنها لم تلق بثقلها الجهادي كله، لم يكن مانعاً من أن يكشف عن هويتها، ويشير المخاوف لدى العالم الغربي وسلطات الحكم المحلية على السواء.

ويحسب على الحركة الإسلامية المعتدلة من جانب آخر، أنها تعجلت الثمرة وأرادت أن تجنيها قبل أن يحين قطافها، في الإصرار المصحوب بالأسباب لإقامة الدولة الإسلامية بمسيرة تاريخية في مواقف محسوبة عليها.

في ضوء ما سبق، فإني أرى أن نفرق بين الأسلوب الدعوي التربوي، والهدف الأسمى الذي نسعى إليه في الدولة الإسلامية العالمية الواحدة.

فالأسلوب الدعوي أسلوب تربوي مرحلي، يجلي مفاهيم الإسلام الصحيحة، وأهدافه البعيدة، ويغرس في النفوس غيرة تبعث على العمل الإسلامي المتواصل في كل مجال بالقدر الممكن فيه، وإن لم يكن هذا القدر كافياً، ويخضع هذا للمرحلية في أسلوب الدعوة قوة وضعفاً، وسيرة

الرسول ﷺ حافلة بالمواقف التي تشهد بالمرحلية، بل إن التدرج في التشريع الإسلامي خير دليل على ذلك.

بدأت الدعوة سراً ثم أمر ﷺ بأن يصدع بها، وكان الإيذاء له ولصحابته، فالتمس ما يؤمن ظهره، ويحمي أصحابه لدى من يقبل ذلك وإن لم يكن مسلماً، ذهب إلى الطائف يلتمس النصرة، وهاجر أصحابه إلى الحبشة ووافى الناس في الموسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم، ولم يقابل الأذى بمثله، وكان يقرأ القرآن الكريم يتنزل عليه بما فيه تسلية له، ويأمره بالصبر ويبشره بحسن العاقبة، ثم كانت الهجرة والإذن بالقتال، واقتصر القتال بادئ ذي بدء على من يقاتل، دون من يسالم.

والمحققون من العلماء يرون أن هذه المرحلة غير منسوخة، بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من الظروف بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة «التوبة»، فيجوز للمسلمين أن يعملوا بحكم أي مرحلة منها - إذا كانت ظروفهم فيها مشابهة للظروف التي كان عليها أمر المسلمين الأوائل - والقول بغير هذا يؤدي إلى مواجهة الواقع بما لا يكافئه، وبالتكليف بما هو فوق الطاقة، ولكنه لا يجوز نسيان الأحكام الأخيرة ويجب في برامج التربية أن تكون هذه الغاية واضحة، وأن تبيت النية، ويؤخذ في الأسباب الممكنة لإعداد العدة، حتى يمكن الأخذ بأحكام المرحلة الأخيرة، وهذا هو ما أبداه ابن القيم في الزاد.

ومن مقتضيات الأخذ بهذه المرحلة أن تتعامل الحركة الإسلامية مع سلطات الحكم بما ينهي الصراع بينهما، وينزع فتيل الخصومة، ويحقق تعاوناً ثمرانياً بالقدر الذي يساعد على إفساح المجال للدعوة والتربية والتوجيه والإصلاح، ويزيل المخاوف والشكوك التي تساور رجال الحكم، حتى يرفعوا يدهم عن الحركة ويطمئنوا إلى مسالمتها ونبذها العنف والشدة.

ولا يعد هذا ممالاً، ولكنه منهج دعوي مشروع، يقتضي أثر الدعوة الأولى من سيرة الرسول ﷺ، وهو الأسوة الحسنة لأئمة، والشباب المتحمس الغيور من حقه علينا أن نرشد، ونهدي من روعه، ونعمق فهمه،



حتى يدرك مغزى هذه السياسة الدعوية الحكيمة، ولا ينبغي أن يكون هذا الحماس أداة ضغط على قيادة الحركة، فتنساق وراءه بالإثارة التي تشحن الأجواء بالعداء، فضلاً عن استخدام القوة.

والأحكام العامة التي اعتاد نفر من أعضاء الحركة الإسلامية أن يطلقها بتفكير الحكام والحكومات أو تعميم «لوصف الجاهلية» هذه الأحكام لا بد من إعادة النظر فيها، وكبح جماح نزوات إطلاقها.

ومساعدة الحكومة القريبة من الإسلام، والعمل من خلال مؤسساتها، يؤدي إلى تنامي الحركة الإسلامية، ويقرب الشقة بين الواقع والأمل، حتى يصل الأمر في نهايته إلى كيان إسلامي في دولة مسلمة، وإذا توافرت الدواعي أمكن الوصول إلى كيان إسلامي موحد، في صورة من صور الاتحاد.

ولا بأس فيما أرى من السعي إلى وجود حوار مع بعض الدول الغربية ذات النفوذ العالمي بطريق من الطرق لتخفيف حدة عدائها للحركة الإسلامية، والتعامل معها بأسلوب حضاري مقبول، يطرح المشروع الإسلامي طرحاً مناسباً لحياة العصر، تقبل فيه الحركة الإسلامية الرأي الآخر، وتجادله بالتي هي أحسن، حتى تقيم عليه الحجة، وليس هذا ببعيد في التوجه العالمي الجديد.

وبهذا النهج الدعوي نستطيع بتوفيق من الله أن نحرز نجاحاً مطرداً في الوصول إلى الهدف الأسمى الذي نرجوه لمستقبل الأمة الإسلامية الواحدة، والدولة الإسلامية العالمية.

هذا ما أراه، وما أظن الذين يعرفون تاريخي الدعوي منذ أكثر من خمسين عاماً، جهاداً وسجناً ومشاركة قتالية في فلسطين وقناة السويس يضعوني في موضع التهمة أو الوهن، وهي مشورة أقدمها مخلصاً متحرراً عن خبرة وتجربة، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه

الشيخ/ مناع القطان

## □ ثالثاً: الشيخ الدكتور صالح بن حميد - إمام المسجد الحرام ورئيس مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية

أخي الفاضل والزميل الكريم فضيلة الأستاذ الدكتور/ جاسم مهلهل  
الياسين دام بالله موفقاً محفوظاً، محفوظاً منه بالعناية والرعاية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد. فأرجو الله لكم دوام الصحة  
والعافية والاستقامة على ما يرضيه.

أخي الفاضل: اطلعت على مؤلفكم القيم: - الإسلام والدولة وقرأتها  
وأعجبت بمحتواه، كما أدهشني حسن استعراضكم لتاريخ المسلمين من  
خلال خلفائهم وملوكهم والتحويلات التي واكبت الأمة في مسار هذا التاريخ  
الطويل، وجهود الأعداء الدائبة المنظمة التي لا تكل مما تبلورت آثاره  
ونتائجه في صور الاستعمار التي ناءت بكاهلها على الأمة، ثم حركات  
التحرير التي أمطمت اللثام عن كثير من واقعها وسيء آثارها، ثم عرجتم على  
الحركات الإسلامية المعاصرة، وقد كان وقوفكم عند الحركة الإصلاحية التي  
قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وما قيض الله له من مؤازرة  
الإمام محمد بن سعود رحمه الله، ثم ما تمخض عن ذلك وتبلور من قيام  
هذه الدولة بتاريخها المتين، الذي أبنتم الحديث عنه أحسن إبانة، وإن  
جهدكم في الكتاب لمتميز وسبركم للأحداث - بسطاً وطياً - لجلي وإن  
شخصيتكم المسلمة الغيورة قد انساحت وانداحت في ثنايا كلمات الكتاب  
وسطوره في غيرة حرة على الإسلام وأهله، فأتأبكم الله وبارك جهودكم.

وقد رغبت - أخي الفاضل - أن أقدم لهذا الكتاب بمقدمة، وقد كنت  
أقدم رجلاً وأؤخر أخرى حتى صح مني العزم على الاعتذار، وما ذلك إلا  
لأنني رأيت أن كتابة مقدمات الكتب من غير صايعها تعني أول ما تعني تركية  
كاتب التقديم لنفسه وهذا ما لا تحمده لي ولا أحبه لنفسه، كما تعني  
الحكم على الكتاب من هذا المقدم، وإنه لغبن للنفس أن يقوم مغبون  
ليحكم على جهود الفضلاء وهم قد سهروا الليالي في قلب المصاد  
وتمحيص الأفكار وسبر الآراء.

لأجل هذا أرجو من أخي المفضل عذري في ذلك مع تقديم أسفي الحار لتأخر الجواب مع كثرة اتصالكم وتواصل مندوبيكم.

ولعلي أشفع بما يجعل اعتذاري يحظى ببعض القبول لدى أخ نبيل مثلكم بهذه التصويبات التي لمحتها وأنا أقلب صفحات الكتاب فأرجو التكرم بالاطلاع عليها، والأخذ بما ترونه ملائماً منها، والله يراكم ويسدد على طريق الحق والخير والهدى خطاكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتبه الشيخ

الدكتور صالح بن عبدالله الحميد

ملاحظة:

وقد سجل الشيخ حفظه الله ملاحظات قيّمة تم الأخذ بها كلها وللشيخ أفضل الدعاء.



## □ رابعاً: الشيخ/ راشد الغنوشي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كنت أمني النفس بلقائكم، لأشكركم على جهودكم المباركة في خدمة الدعوة الإسلامية عامة وقضية الإسلام والحركة الإسلامية في تونس «البوسنة الصامتة» جزاكم الله عن الإسلام وأهله كل خير.. وقد يكون اللقاء مناسبة أساساً لتداول وجهات النظر حول التحديات الهائلة، التي تواجه دعوة الإسلام عامة، لا سيما بعد نهاية الحرب الباردة في المعسكر الآخر وتمحض الكيد للإسلام وأهله حتى جاءت رسالتكم الكريمة دالة على تعذر مجيئكم هذه المرة مستدركة بعض ما فات من اللقاء إذ بادرتم - جزاكم الله خيراً - باقتحام المعضلة الأساسية في الحركة الإسلامية ألا وهي منهاج التغيير، وقدمتم في جرأة ووضوح رؤية علمية مؤصلة لحل هذه المعضلة، تتلخص كما فهمت من خلال الرسالة في الاكتفاء من المأمول من إعادة بناء دولة الإسلام في صورتها المثالية المبتغاة بالممكن - انطلاقاً من منهاج إصلاحي ينصب على بعض الأنظمة التي تأسست على منهج الإسلام أساساً وبدل التصادم معها الذي قد يفضي إلى إخفاق الإسلام على المستوى الرسمي أو على المستوى الشعبي أي الحركة الإسلامية، أجدى من ذلك وأكثر اقتصاداً: التصالح بين الدعاة والرعاة والتعاون على العودة بكل الأنظمة إلى طريقتها الأولى في خطوات متدرجة صوب المثال المنشود بما يوفر الدماء والأرواح والأموال، تزكية للموجود وتحسينا له والتخلص من سلبياته حسب الممكن، دونما تعسف على الواقع ولا تورط في صدام وعنف، ليس مستفيداً منهما على وجه التحقيق أحد من أطراف النزاع، وإنما فقط أعداء الإسلام المتربصون حتى يهلك بعضهم بعضاً ويؤول الأمر إلى قوى علمانية تابعة تجهز اليوم لاستلام ما تبقى من بلاد الإسلام، وهو نهج معروف سلكه الشيوعيون في مصر ولا يزالون للإيقاع بين الدولة والإخوان.. وكان الأمر ذاته سافراً في تونس يوم أن جاء ابن علي وأطلق سراح الإسلاميين، وانخرطوا مع نظامه في تفاوض في اتجاه مصالحه تضع معها الحرب أوزارها، ويحل التعاون والوفاق بين الطرفين محل التكايد. لقد رأى

الشيوعيون في ذلك السعي الطامة الكبرى فتجندوا لإفشاله.. وهم اليوم بيدهم مقاليد الفكر والتربية والثقافة، ويمعنون في تجفيف ينابيع الإسلام، ويتربعون على أشلاء الإسلاميين والديمقراطية - دافعين البلد بقوة ودأب إلى اللاعودة، حتى تتحول الدولة إلى ملهى في البحر المتوسط يستباح فيه كل شيء - تلك خطتهم في كل مكان تنطلق من إدراكهم بيقين العجز الكامل عن مواجهة الإسلام من خلال صناديق الاقتراع.

فما بقي أمامهم غير عصا الدولة وجرافاتها، يكيدون للمؤمنين لسحقهم تحتها، حتى وإن اقتضى الأمر الدفع إلى حرب أهلية، تذهب بوحدة البلد وتسلمه للقوى الخارجية، كما حصل في الجزائر، إذ الحكم الإسلامي هو السوء الذي ما بعده غيره! وأصوات العلمانيين الجزائريين اليوم وأصوات إخوانهم السودانيين صريحة في استصراخ القوى الدولية لمنع الخيار الإسلامي وضرب الإسلام بعصا الدولة لأنهم يائسون من الفوز عبر صناديق الاقتراع ومناقشة الإسلاميين أمامه.

ومقتضى ذلك أن الصدام مع معظم الدول القائمة لن يفضي ضمن الظروف الراهنة إلى تحقيق المشروع الإسلامي كثقافة وشعائر ودعوة ومؤسسات شعبية تنهض بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيقاً للحد الأدنى من الإسلام المتمثل في قواعده الخمس.

ولذلك كان المطلب الأساسي للداعية الأول عليه الصلاة والسلام بعد أن أعرض أهل مكة عن الإسلام، كان هو كما لخصه عليه السلام في هذا الشعار الواضح «خلوا بيني وبين الناس» إنها دعوة الجميع إلى توفير حرية التعبير للجميع، وكذا سائر الحريات التي تضمن حياة الفرد وكرامته واختياراته العقيدية. وفي هذا السياق كان ثناؤه عليه السلام استعداداً لتوقيع حلف الفضول الذي منع التظالم بين العرب ومناصرة المظلوم، معلناً عليه السلام استعداده لتوقيع حلف مماثل، وهو ما يشبه التعاقد اليوم بين الإسلاميين وغيرهم، على وضع تتأتى فيه الحريات والحقوق للجميع على قدم المساواة.

وإذا كان التصادم حتى مع الدول العلمانية ينبغي تجنبه ودرؤه بكل السبل الممكنة المشروعة - ما كانت الحريات الأساسية ومنها حرية الدعوة متوفرة - فهو مع الدول الإسلامية من باب أولى، والمقصود بالدول الإسلامية هنا تلك التي تتبنى في غير موارد الإسلام شريعة عليها لها. . وتسمح له بأن يتغلغل في شعاب التربية والتوجيه والإدارة والتشريع. . في الحياة الخاصة والعامة للمواطنين وتشجع على ذلك. . وتقيم المؤسسات لخدمته ولا تعتبر سلطة في الدولة تعلق سلطته. . ولا ينزع وصف الإسلامية عن مثل هذه الدول ما عساها تأتيه من مظالم، ويقع فيها من ضروب خلل في سلوك الحاكمين ما بقيت المشروعية العليا والولاء للإسلام. . فضروب المظالم والإخلال قد خالطت وحتى غلبت على الدول التي حكمت المسلمين فيما بعد عصر الراشدين. ولم يحمل ذلك علماء الإسلام أن يسلبوا الشرعية الإسلامية من تلك الدول وأن يتحللوا من بيعتها. بل استمروا يؤكدون ولاءهم لها حتى وهم يثنون تحت أسواط جلاذيتها كما حصل مع الأئمة الأربعة وغيرهم من العلماء والصالحين، بل ظلوا يعتبرون فتنه الخروج عنها الشر الأعظم الذي ينبغي دفعه، بتأكيد الولاء لها ما أقامت الصلاة رمزاً بشرعية الإسلام العليا. . أما مظالمها فتعالج بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . أي بالمنهج الإصلاحية. الذي هو المنهج الأصلي للدعوة الإسلامية في بسط الإسلام ودفع المنكرات وإقامة الشرائع. . إن الإصلاح أي التغيير المتدرج بالحسن هو المنهج الأصلي للدعوة الإسلامية كما عبر عنه لسان الأنبياء شعيب عليهم السلام ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]، وفي قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وجاءت الرواية عن رسول الله ﷺ أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.

وفي القرآن دعوة صريحة للنبي ﷺ وكل من سار على نهجه داعياً إلى الله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدْلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

وذلك كلما توفرت أقدار من الحريات الإنسانية تسمح لدعاة الإصلاح أن ينهضوا برسالتهم - وإن في أضيق نطاق - أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر سواء كان ذلك في ظل دولة إسلامية ناقصة تعترف بمشروعية الإسلام العليا مع ارتكابها مظالم وضروباً من التقصير، أو في ظل دولة ديمقراطية علمانية تعترف بالحريات الأساسية ومنها حرية الاعتقاد والتفكير والتعبير. إن الشر الأعظم بعد الشرك بالله هو الدكتاتورية هو الظلم بل ليس الشرك إلا نوعاً من أنواع الظلم ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وإن إقامة العدل بين الناس ودفع الظلم الهدف الأعظم لبعثة الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فمع العدل تدور دعوة الإسلام ولاء وبراء.. وأيما طريق ينفتح أمام الداعية لإقامة العدل أو السير إليه بتدرج يحفظ ما هو قائم منه وينمي، يحفظ الأنفس والأعراض والوفاق والتضامن، ويدراً التباعد والتدابير والتقاتل، ويعمل على وحدة الصف فهو أدعى للتمسك به وإيثاره عن سبيل المغامرة والمصارعة إلى ردود الأفعال، القضية التي كثيراً ما كانت منبئة فلا هي رفعت المنكر وأقامت الحق، ولا هي استبقت على الأنفس والأموال وروابط التضامن ومساحات الإصلاح المتاحة، وصدق رسول الله ﷺ «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» ولربما تدرج ضمن هذا الوصف كثير من خطط التغيير التي اعتمدتها الحركة الإسلامية المعاصرة من خلال انخراطها المتعجل في مواجهات خاسرة، جرت كوارث عليها وعلى الأوطان وعلى الحريات العامة والأرواح، بسبب فهم فطير ونظر قصير وحساب مختل لموازين القوة، وقلة تبصر في حكمة الشريعة المؤثرة لنهج الإصلاح والتدرج، عن نهج المغامرات والطفرة.. استبقاء لما هو قائم من الخير وتنميته دون ضجيج، سبيلاً لمحاصرة المظالم والمنكرات والتخلص منها في أناة، وذلك بعد أن يكون الرأي العام قد نضج وغدا تياراً جارفاً، وتهياً لاستحقاق وحماية المشروع الإسلامي في شكله الأمثل.. ودون ذلك أهوال وعقابيل كؤود.. لا تعالج بغير الدأب والمثابرة والحكمة والمصابرة الطويلة على تأهل واستجماع الوعي العام والتضحيات الجسام، وقبل ذلك وبعده

عون من الله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٤] يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [٥] وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [٦] يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ [٧] [الروم: ٤ - ٧].

إن الواقع الراهن للدعوة الإسلامية سواء من حيث مستوى نضجها - المحدود - بالنظر إلى مستوى التأهل الشعبي بالقياس إلى جملة موازين القوة الداخلية والخارجية، لا يسمح للحركة الإسلامية في أغلب مواطنها أن تتطلع حيال العشرية القادمة لأكثر من الحفاظ على مكاسبها وتطويرها في تودة، الأمر الذي يجعل أهم مطالبها الممكنة تتمحور حول صيانة الهوية الإسلامية ودعمها، والارتفاع بمستوى أسلمة المجتمع ودعم مؤسسته الأهلية وممارسة ما أمكن من الضغوط على الدول القائمة من أجل المحافظة على التشريعات الإسلامية والامتناع عن الاستدراج إلى حمأة العنف.

وسبيل ذلك الدعوة إلى الحريات العامة والخاصة والعمل على صيانة الوحدة الوطنية من التفكك، متعاونين مع جميع القوى والتيارات على التقدم نحو مصالحات شاملة بين التيار الإسلامي وغيره من التيارات على أرضية الحريات العامة، وكذلك بين الدولة والمجتمع، وبين سائر شعوبنا ودولنا، كل ذلك من أجل درء مخططات التفكك والحروب الأهلية المؤدية للهيمنة الصهيونية على المنطقة، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الشيخ/ راشد الغنوشي





### □ خامساً: الشيخ الدكتور صلاح الصاوي مدير الجامعة الأمريكية المفتوحة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ. أما بعد..

فكثيرة هذه الجهود التي تبذل في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه لإقامة دولة الإسلام، فمنذ غروب شمس الخلافة وانفراط عقد الأمة الإسلامية وقيام كياناتها السياسية على أساس العلمانية، لم تفتقر جهود العاملين المجدين لنصرة هذا الدين عن العمل الدؤوب لتحقيق هذا الهدف، والسعي الحثيث للوصول إلى هذه الغاية.

وعلى الرغم مما تشهده الساحة الفكرية على الصعيد الإسلامي من أوجه الخلاف المتعددة، التي قد يبلغ بعضها مبلغ التناقض التام، إلا أن هذه الغاية كانت ولا تزال موضع إجماع من المشتغلين بالعمل الإسلامي كافة، وكم أريق في سبيلها من دماء، وكم غرر من أجلها بأنفس وأموال!

ولعل من نافلة القول أن نذكر بأن دولة الإسلام المنشودة ليست هي هذه العصا المعجزة التي نضرب بها الحجر فيتفجر عيوننا، أو التي نشق بها طريقاً في البحر يبساً، فنعبر بها هوة التخلف التي صنعتها عصور الانحطاط والاستعمار، فتختفي المظالم في غمضة عين، وتتوارى المشكلات في لحظة، وتتبوأ الأمة مكانتها في قيادة العالم قبل أن يرتد إلى أحدا طرفه، ولنعتبر في ذلك بتاريخ الدول الإسلامية ذاتها، فقد تعاقبت عليها أطوار من المد والجزر والقوة والضعف، ولم تكن دائماً على النموذج الذي كانت عليه أيام الراشدين، لقد تألقت حتى كانت غرة في جبين الزمان، وتراجعت حتى كانت عبئاً على الإسلام والمسلمين، وبلغ الأمر ببعض قادتها أن يقتلوا إخوانهم الرضع مخافة أن ينازعوا أولادهم من بعدهم وراثته الملك!! ولم يكن مجرد الإعلان عن مرجعية الشريعة وقيام الدولة على أساس من الإسلام بعاصم وحده من التراجعات

في أزمنة التراجع والاعتلال! وإن كان مثل هذا الإعلان هو أول الطريق إلى الهوية الإسلامية وأحد معالمها الأساسية.

بل لنعتبر في ذلك بمؤسساتنا الإسلامية التي تمحض القرار فيها للإسلاميين والتي لا ينازعهم في قيادتها أحد، لقد بورك بعضها حتى كان كتلة من الإخلاص والعطاء تحمل شعاع الأمل إلى نفوس المؤمنين والمؤمنات، وغشي الخلل بعضها حتى بلغ مبلغ الفتنة التي تصد الناس عن سبيل الله وتغرى بعض العاملين فيها على تفضيل العمل في مؤسسات علمانية بل في مؤسسات اليهود والنصارى عن العمل في هذه المؤسسات! إن إقامة الدولة الإسلامية لا يعني نهاية المطاف بالنسبة للعمل الإسلامي بقدر ما يعني بداية مرحلة جديدة من مراحل العمل الجاد والكدح المتواصل، وإذا كان الجهاد يتخذ في مرحلة الاستضعاف صورة الدعوة واستفاضة البلاغ فإنه يتخذ في هذه المرحلة صورة الكدح لإعادة البناء وإعادة التعمير: تعمير الإنسان الذي أحالته العلمانية إلى حطام! وتعمير المنشآت الوطنية التي أحالتها العلمانية إلى وكالات للمنشآت الأجنبية الغازية

### عزيزي القارئ:

إن هذا الكتاب الذي نتشرف اليوم بتقديمه، والذي طوف به كاتبه المفضل في آفاق الدولة الإسلامية من الأنموذج والمثال بكل ما فيه من شموخ وربانية، إلى الواقع والتاريخ بكل ما فيه من مد وجزر، ثم إلى الأمانة التي ينشدها العاملون للإسلام في واقعنا المعاصر بكل ما تحمله من خيال وواقعية، يحمل إليك هذا الكتاب دروساً بليغة من كل هذه المجالات بدءاً من فقه دقيق للنصوص والآثار وانتهاءً بقراءة واعية لدروس التاريخ والواقع ليضع بين يديك فيما أحسب باقة من الدروس والعبر نشير إلى بعضها فيما يلي: -

- معالم الأنموذج السياسي الإسلامي الذي تشرّب إليه أعناق العاملين للإسلام وتهفو إليه أفئدتهم.

- الواقعية في التعامل مع مشروع الدولة الإسلامية، والقبول بما يتسنى تحقيقه من الخير، والتعاون مع ما هو متاح من ذلك بالفعل، أخذاً بسنة التدرج التي قامت عليها مسيرة الكون والإنسان والحياة.

- إن الميسور لا يسقط بالمعسور، وإنه لا تجمل الزهادة في المتاح تشوقاً إلى غير المتاح فلا ندرك المتاح ولا غير المتاح.

- ألا نعلق على مشجب غياب الدولة الإسلامية قصور أو تقصير مؤسساتنا الإسلامية المعاصرة، لا سيما ما يمكن تقويمه ولا يحتاج تداركه إلى شوكة دولة، أو منعة نظام وسلطان.

إن هذا وغيره مما يمكن أن تقف عليه أخي القارئ من خلال تدبرك في هذه الدراسة التي صاغ عقدها رجل من رجالات الدعوة إلى الله عز وجل، عرفته ساحاتها آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وصادعاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم، فدونك هذه الصفائف فإن لك فيها - في بابها - غناء بل ثراء، ثم توجه معي إلى الله عز وجل أن يجزي كاتبها خير ما جوزي به الهداة الناصحون إنه ولي ذلك والقادر عليه.. آمين

كتبه الشيخ  
د. صلاح الصاوي



□ سادساً: نموذج لرسائل جاءت طلب أصحابها عدم ذكر أسمائهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فقد وصلتني رسالتك وفهمت مضمونها ودعوت الله أن يوفقك حيثما كنت وأن يجعلني وإياك وإخواننا مفاتيح للخير مغاليق للشر أينما كنا. أخي الكريم:

إن الخلافة الراشدة بعد الخلفاء الراشدين المهديين رضي الله عنهم، ما تكررت في التاريخ ولن تتكرر مرة أخرى، فمنذ عهد الدولة الأموية إلى سقوط الخلافة العثمانية، في كل هذه الفترة الاسم: اسم خلافة إسلامية، والواقع أنه عهد جبري عاض كما أخبر النبي ﷺ.

والخلافة كما تعلم تقوم على اختيار الخليفة من أهل الحل والعقد والشوكة في الأمة عن رضا وطوعية. كما تعتمد على الشورى في كل أمر ذي بال، والخليفة ناظر على بيت المال لا يحق له منه إلا ما يحق لسائر الرعية، أو فرضه له أهل الحل والعقد، والخليفة أو الإمام لا يولى في المناصب ذوي قرابته وفي الأمة من هم أولى منهم إلخ.

نعم الأمة في تلك الفترة أمة إسلامية وحكامها مسلمون وأحكامها الشرعية نافذة، وإن كان الحكم فيها جبرياً كما هو معلوم عند أهل السنة والجماعة، رغم تبذير السلطان أموال الأمة وعدم استشارة أهل الرأي والصالح، واستبقائه لأهل الفسق والإلحاد.. وقرأ التاريخ أو قلب صفحاته على الأقل فستجد ما أقول.

أخي العزيز:

إن إقامة الخلافة الإسلامية ليست هدفاً ولا غاية - كما تراه بعض الحركات الإسلامية - اللهم إلا لو أمكن للخلافة الراشدة أن تعود وهيئات! إن الحركات الإسلامية ودعاتها يعيشون المثالية والخيالية لما ينشدونه في مجتمعاتهم اليوم، وذلك لأسباب منها ما يأتي:

١ - أن البيئة التي ظهرت فيها الخلافة الراشدة لصيقة بعهد النبوة وتختلف

كلياً عما نعيشه اليوم في كل شأن من شئون حياتنا العامة والخاصة، يقول أنس بن مالك «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه سمعته من نبيكم ﷺ».

٢ - ثم إنه من المتعذر في هذا العصر أن تجتمع في شخص واحد (كإمام) الصفات القيادية: الدينية الشرعية والسياسية الفكرية وأهلية الاجتهاد، ولو فرض أن وجد، فإن الأمة لن تجتمع عليه، لأنها لم تعرف حقوقها نحوه ولا حقوقه نحوها، فكيف يحمل مسئوليتهم وهو يمنعهم أن يقولوها أو أن يقولوا بعضها؟ وكيف يختارون من هذا حاله؟ ثم أين القوة التي تؤثر على عامة العالم الإسلامي حتى يتفقوا عليه إماماً؟

٣ - لا ينبغي أن يغيب عن البال أن عامة العلماء الربانيين المجتهدين من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، والعز بن عبد السلام، والإمام النووي، والحافظ ابن حجر، والشوكاني، ومحمد بن عبد الوهاب، و... كلهم عاشوا في زمن تمزق الخلافة ونهبها من الطامعين، ولم يجعلوا أمر إفاقتها أو إعادتها هدفاً أو غاية، بل اكتفوا بالدعوة والتعليم تحت إمارة صغيرة أو كبيرة يطبق فيها شرع الله حسب المستطاع وأعطوها حكم الخلافة والإمامة، وهذا دليل عملي منهم على تعدد الخلفاء والدول الإسلامية إذا تعذر الاجتماع، أفيتعذر ذلك في أزمان شريفة ماضية ويمكن أو يجب في أزمان موبوءة حاضرة؟

٤ - إن الحركات الإسلامية في مناداتها لإعادة الخلافة صراحة أو ضمناً. اعتمدت على حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه في مسند أحمد (٢٧٣/٤): «تَكُونُ النَّبُوءَةُ فِيكُمْ.. ثُمَّ خِلَافَةٌ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ.. ثُمَّ مُلْكًا عَاصًا.. ثُمَّ مُلْكًا جَبْرِيًّا.. ثُمَّ خِلَافَةٌ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ»، والحديث لم يصح سنده ولا متنه.

أما من حيث السند، فإن فيه (حبيب بن سالم) قال فيه البخاري: (فيه نظر)، ومعلوم عن أهل العلم أن سكوت البخاري عن توثيق الراوي هو جرح، فإذا صرح بجرحه فهو أشد. وقال فيه ابن عدي: أسانيد فيه

اضطراب، ومع هذا صححه الألباني وهذا من غرائبه، أما ضعفه من حيث المتن: فحديث النعمان يتعارض مع حديث (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم...) وإذا كان القرن (٥٠ و ١٠٠) سنة فستكون الخلافة الثانية التي هي على منهاج النبوة سنة (٢٥٠ أو ٥٠٠) سنة للهجرة والكل يعلم ما في هذه العهود! ولا يظهر على النص البلاغة النبوية التي أوتى النبي ﷺ جوامعها، حيث فرق بين الملك الجبري والعاض ولا فرق بينهما فكل ملك جبري هو عاض وبالعكس... وإذا كانت الخلافة الأولى التي هي على منهاج النبوة - هي خلافة الخلفاء الراشدين فإن الخلافة الثانية - هي عندما ينزل عيسى بن مريم عليه السلام ويحكم بشريعة محمد ﷺ حينئذ يضرب العدل والأمن في الأرض حتى ترعى الذئب مع الغنم.

يا أبا معاذ:

إن الكتابة في الموضوع الذي أشرت إليه في رسالتك لا أراه مناسباً، إذ ليس فيه كبير فائدة، فلو كتبت في موضوع «حكم الخروج والعصيان» وأصله في الشرع واستعرضت أمثله الواقعية لتطبيقه لكان أولى، أو لو كتبت في تحديد من هم «أهل الحل والعقد في الإسلام» هل يدخل فيهم النساء والمستأمنون من الكفار ورؤساء الأحزاب والقبائل؟ أو رؤساء الأحزاب والجماعات العلمانية على القول بالتعددية السياسية؟ أقول لو كتبت في مثل هذه الموضوعات لكانت أكثر فائدة وأعادت شباب الحركات الإسلامية إلى الواقعية بدلاً من الخيال والمثالية، التي أنتجت العداوات المستمرة بين هذه الحركات القائمة اليوم.

أخي العزيز:

الواجب على العلماء والدعاة في كل زمان أن يحسنوا التعامل والمعايشة مع واقعهم ويسعوا في تطبيق الشريعة في المكتسبات الممكنة والمتاحة وأن ينسقوا مع إخوانهم العلماء والدعاة في كل مكان ما أمكن ذلك، مستوحين هدى ربهم وسنة نبيهم ﷺ وفهم الصالح وسيرتهم مع حكامهم، وفي التاريخ أكبر عظة إذ فيه العبر والدروس، وكفى به واعظاً.

أخي الكريم:

هذا ما بدا لي في موضوع رسالتك وإن كنت لا أحب أن تشير إلى اسمي مطلقاً، وأرى أن تعرض ما تكتب في هذا الموضوع أو غيره على ما ترى من العلماء والدعاة قبل أن يرى النور، وإذا رأيت أن تبعث لي شيئاً من كتابتك تلك فأنا على استعداد لقراءتها وسأخلصك النصح إن شاء الله.

وفقنا الله وإياك إلى كل خير ونفع بك الإسلام والمسلمين

وصلّى الله على نبينا محمد وصحابه أجمعين.







ملحق (٢)

## حقائق تحتاج إلى تفكير





## حقائق تحتاج إلى تفكير

### ١ - قصة مجيء محمد علي إلى الحكم:

إثر خروج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠٢، انتفض الأهالي ضد المماليك بسبب فساد حكمهم وجورهم، وتزعم الانتفاضة علماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ عمر مكرم وانهار المماليك.

كان انهيار المماليك في مصر نتيجة هزائمهم المتتالية أمام الفرنسيين ثم بسبب تصارعهم على السلطة إثر جلاء الفرنسيين والإنجليز عن مصر سنة - ١٨٠٢ - ١٨٠٣.

كانت القوى المتنافسة على حكم مصر آنذاك ثلاثا هي: الخلافة العثمانية وفرنسا وإنجلترا، وكانت الأطراف العلية تعتمد كل منها على واحدة من هذه القوى، حيث انقسم المماليك إلى أطراف ثلاثة: استند أولها إلى فرنسا وثانيها إلى إنجلترا وثالثها إلى العثمانيين، وكان ذلك يعكس ضعف هذه الأطراف وعجزها على حسم الصراع بشكل أو بآخر لصالحها.

وقد تسبب احتدام الصراع بين هذه الأطراف وانعدام استقرار الأوضاع إلى ضياع مصالح العامة من الأهالي، والتي لم تكن طرفا في هذا النزاع بقدر ما كانت المتضرر الأول منه، إذ كان ذلك يتم على حسابها، وهي التي تدفع الثمن من أمنها ومالها وعرضها وكرامتها ودمها، في هذه الظروف ظهر محمد علي بك والعلماء، أما الأول فكان من الطامحين إلى السلطة في إطار الشرعية السياسية الإسلامية، ألا وهي الخلافة العثمانية، وأما العلماء

فكانوا يمثلون الأهالي الذين قصدوهم يشكون إليهم ظلم المماليك وجورهم، لم يكن العلماء طلاب سلطة وما كانوا يطمحون إليها ولم يسعوا إليها بأي شكل من الأشكال لكنهم كانوا غير راضين عما وصل إليه الوضع من ترد.

في ذلك الحين كان محمد علي قد ارتقى قائدا للحامية الألبانية إثر اغتيال آخر قادتها، وكان محمد علي - الذي ولد في مدينة قولة المقدونية ١٧٦٩ وكان والده من أصل ألباني - قد جاء إلى مصر في إطار وحدة عثمانية مقاتلة من مقدونيا لمقاومة الجيش الفرنسي، ثم قام محمد علي بتجاوز المراحل بسرعة عجيبة إذ تم ارتقاؤه في سلم الهرم العسكري في مدة قصيرة جدا ليتقلد قيادة أهم وحدة عثمانية مقاتلة وهي القوة الألبانية في أقل من سنتين، في بداية الأمر تحالف محمد علي مع أحد قادة المماليك وهو عثمان بك البرديسي المحمي من طرف فرنسا ضد الوالي العثماني أحمد باشا الذي لم يتمكن من البقاء على رأس الولاية أكثر من يوم وليلة، ويعتبر أحمد باشا ثاني الولاة العثمانيين منذ خرج الفرنسيون من مصر، أما الوالي الأول فقد تم التخلص منه بانتفاض الحامية الألبانية التي ينتمي إليها محمد علي والتي كانت آنذاك تحت قيادة طاهر باشا، وذلك بسبب عجز الوالي عن دفع رواتبهم حيث فر الوالي العثماني بعد أن فشل في مهمة إعادة ترتيب شئون الولاية الإدارية والمالية، وكذلك بسبب فشله في القضاء على قوة المماليك، خلف الوالي محمد خسرو باشا قائد الحامية الألبانية طاهر باشا الذي وقع اغتياله فيما بعد من طرف الانكشارية.

هكذا نرى كيف تحولت الحامية العسكرية الألبانية إلى قوة رهيبة يمكن أن تكون إحدى دعائم السلطة، وهكذا أيضاً وجد محمد علي بك - وهو ضابط في الثلاثين من عمره - نفسه على رأس القوة العسكرية وهي من أهم الأطراف في التنافس على الحكم، ولئن كان محمد علي ذكياً وطموحاً ونشيطاً إلا أنه لم يكن يمتلك المؤهلات السياسية اللازمة لتحمل المسؤوليات الكبرى في الدولة، كما أنه لا يمتلك الشرعية التي لا تكتسب إلا من طرف الباب العالي أو بتزكية من طرف الأهالي والذين يمثلهم وينطق

باسمهم المشايخ والعلماء، تواصلت فترة الصراع بين الفرقاء في مصر والتي سادت فيها فوضى ومظالم ما بين ١٨٠٣ و ١٨٠٥، وظل محمد علي طوال هذه الفترة يشحذ كل أسلحته، ويركز نفسه ويعقد التحالفات الواحدة تلو الأخرى للوصول إلى السلطة وإقامة العرش الوراثي.

إثر انهزام الوالي العثماني وفراره من حكم البرديسي لمدة شهر لكنه أجحف في الضرائب مما أثار نقمة الناس، فانتفضوا ضد المماليك وخرجوا إلى الشوارع، كما طلبوا من العلماء التدخل لوضع حد لسياسة المماليك القاسية.

كان محمد علي يبحث عن دعم من طرف الأهالي وأهل الحل والعقد، فانتهاز هذه الفرصة وانضم إلى جبهة العلماء والغازبين ثم دخل في مقاومة المماليك وواجههم عسكرياً حتى أجلاهم عن القاهرة، ساهم إثر ذلك في تعيين وال جديد على مصر - خورشيد باشا - نلاحظ هنا كيف أنه في الوقت الذي كانت سلطة محمد علي ونفوذه وإشعاعه يزداد كان يبدو وكأنه غير طامع في السلطة أو متكالب عليها، يدخل هذا في استراتيجيته لغزو الحكم، كان يرى أن الوقت ما زال غير مناسب وأن الظروف لا زالت غير مهيأة، لذلك يبدو وكأنه دفع بالوالي الجديد في إطار اختبار قوة واستعداد الأطراف المقابلة والخليفة لقبول قيامه بدور سياسي دون أن يتورط بصفة مباشرة فيما قد يترتب على ذلك من تبعات، إلا أن الوالي الجديد والذي كان قبل ذلك محافظ الإسكندرية يعلم أن أهم منافسيه لا يوجد في صفوف المنهزمين بل بين من عملوا على إيصاله إلى حكم مصر وعلى رأسهم محمد علي نفسه، لذلك عمل على إبعاده من مصر بطلب تعيينه من طرف الخليفة العثماني والياً على جدة، كان في هذه الأثناء محمد علي - قد وطد العلاقة أكثر فأكثر مع أهم قوة سياسية صاعدة ألا وهي العلماء، رفض هؤلاء عملية إبعاد محمد علي - عن مصر باعتباره ضماناً عسكرية وأمنية ضد الوالي خورشيد من جهة، وما قد يطرأ فيما بعد من جهة أخرى باعتبار أن الأوضاع تبدو غير مستقرة، دخل محمد علي في مواجهة أخرى مع الوالي اعتماداً على العلماء كقوة سياسية لها شعبية من جهة، وكلمتها مسموعة لدى

السلطان العثماني من جهة أخرى، خاصة وأنهم كانوا حريصين على تعيين وال عثماني ولم يشككوا أبدا في شرعية الوجود العثماني في مصر أو ولاء مصر إلى السلطان.

في يوم ١٢ مايو من سنة ١٨٠٥ اجتمع العلماء في إطار مجلس الشرع بدار المحكمة الكبرى - أي بيت القاضي - واتخذوا مجموعة من الإجراءات الأمنية والسياسية والاقتصادية تصب كلها في خانة تحديد سلطة الوالي وتأكيد مرجعيتهم فيما يخص الشأن العام، وفي اليوم التالي أجمع علماء القاهرة على عزل الوالي خورشيد وتعيين محمد علي مكانه.

كان محمد علي - ينتظر مثل هذا اليوم إلا أنه أبدى عدم رغبته في تسلم مقاليد السلطة، يفهم ذلك في إطار خطة في غزو الحكم وعدم تحمل مسؤولية عزل الوالي الذي كان قد أقره السلطان في منصبه، كان محمد علي لا يريد أن يبقى في موقف المتآمر المتكالب على الحكم كمن سبقه من الأصوليين، خاصة وأن الوالي خورشيد لم يستسلم إلى عملية خلعه من طرف العلماء، وتمسك بموقعه بحجة أن ذلك ليس من مشمولات العلماء، إنما هو من صلاحيات السلطان نفسه، كما تطورت المواجهة بينه وبين العلماء إلى معركة دامية، إذ تحصن مع جنوده بالقلعة في حين حاصره الأهالي بأمر من المشايخ الذين كان يتزعمهم نقيب الأشراف الشيخ عمر مكرم، ودام الحصار مدة شهرين، يقول المؤرخ الجبرتي في ذلك: «واجتهد السيد عمر أفندي النقيب وحرص الناس على الاجتماع والاستعداد، وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد علي، ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والواجقليّة، والكل بالأسلحة والعصي والنبابت، ولازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات يسرحون أحزابا وطوائف، ومعهم المشاعل ويطوفون بالجهات والنواحي وجهات السور (ذكره د. عمر عبدالعزيز عمر في دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص ١٥٩) ومما يروى أن حوارا دار بين ممثل الوالي خورشيد والشيخ عمر مكرم حول الطرف الذي له حق خلع الوالي شرعا جاء فيه ما يلي: «كيف تعزلون من ولاء السلطان عليكم وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَ وَأُولَى

أَلَا أَمْرٌ مِنْكُمْ؟ [النساء: ٥٩] كان جواب الشيخ عمر مكرم: «أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم (أى الوالي خورشيد)، وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة، وهذا شيء مألوف من زمان، حتى الخليفة والسلطان إذا سار في الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونهم «رد ممثل الوالي»: وكيف تحاصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا ذلك؟ فرد عمر مكرم: قد أفتى العلماء بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة (ورد هذا الحوار في تاريخ الجبرتي الجزء الثالث، ص ٣٣١) كانت زعامة العلماء لعملية الخروج على الوالي وخلعه ثم محاصرته في القلعة لا جدال فيها، وبدا الشيخ عمر مكرم القائد الأعلى الذي ترد منه وباسمه الأوامر إلى الأهالي والتي كانت تلقى بالصيغة التالية: «حسب ما رسم السيد عمر أفندي والعلماء لجميع الرعايا».

لكن ما هو موقف الحامية الألبانية التي كان يتزعمها محمد علي؟ رغم موقف محمد علي الإيجابي من حركة العلماء والأهالي، ورغم أنهم عينوه والياً عليهم ورفضوا قرار السلطان بإسناده ولاية جدة في محاولة لإبعاده وتمسكوا به مطالبين بعدم خروجه من مصر، رغم كل ذلك فإن الجنود الألبان لم يقاتلوا إلى جانب الأهالي بحماسة، قد يكون السبب في ذلك أن جنود الوالي المخلوع خورشيد والمحاصرين في القلعة هم من الألبان مثلهم، يذهب المؤرخون إلى أن محمد علي لم يتمكن من دفع مرتبات جنده في تلك الفترة مما جعل ولاءهم إليه ومشاركته في دعم التمرد على الوالي خورشيد مهزوزة إلى حد ما، وإن الذي يهمننا هنا أن وصول محمد علي - إلى ولاية مصر لم يكن بفضل قوته العسكرية بقدر ما كان رهن جهود وإرادة العلماء ومن ورائهم الأهالي.

لقد عمل محمد علي - على كسب ثقة العلماء بإظهار بعض الصفات الحميدة في شخصيته والتي كان يعلم أنها ضرورية فيمن يرضى عنه العلماء من المرشحين للسلطة، وسعى إلى الولاية بطرق ملتوية دون أن يتجرأ على طلبها مباشرة، بعد ذلك قدم إلى العلماء مجموعة من الوعود جعلتهم

يطمئنون إليه، ورد في تاريخ الجبرتي «أن محمد علي - كان يداهن السيد عمر سرا ويتملق إليه، ويأتيه ويراسله، ويأتي إليه في أواخر الليل وفي أواسطه مترددا عليه في غالب أوقاته حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاهدة والأيمان الكاذبة على سيره بالعدل وإقامة الشرع والإقلاع عن المظالم، ولا يفعل أمرا إلا بمشورته ومشورة العلماء، وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه وهم قادرون على ذلك...»، ومحمد علي كان في الحقيقة ينافق العلماء ويحاول استثمار شعبيتهم للوصول إلى السلطة ثم التخلص منهم، وقد تم له ذلك إثر إفشال الإنزال الإنجليزي في مصر سنة ١٨٠٧ والذي كان فيه للشيخ عمر مكرم دور هام ومحدد، إثر تأكد محمد علي أن العلماء أصبحوا قوة لها ثقلها السياسي وشعبيتها وبالتالي لن تتركه ينفرد بالسلطة، خاصة وأنه بقى أجنبيا عن مصر حتى ولو كان في النهاية عثمانيا، هذا إلى جانب أن الذين خلصوا البلاد من المماليك هم العلماء والأهالي وليست السلطة العثمانية.

عمل محمد علي - في اتجاهين اثنين: الأول تمثل في التفريق بين العلماء والمشايخ ليخلص من بعده إلى ضرب عمر مكرم ونفيه، والثاني هو إضعاف المكانة الاقتصادية وبالتالي الاجتماعية لفئة المشايخ والعلماء وذلك بإلغاء نظام الالتزام والذي كان بيدهم ويمثل قاعدتهم الاقتصادية كفئة اجتماعية.

لقد ذهب محمد علي - إلى أكثر من ذلك إذ حطمت سياساته الاقتصادية والتي تمثلت في امتلاك الدولة للمقدرات الاقتصادية لمصر سواء في مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة طبقة الرأسمالية الوطنية الناشئة ومنعها من بناء ذاتها كطبقة بإمكانها التصدي لكل ما لا يتفق مع مصالح الوطن ومصالحها، مما جعل مصر تصبح في النهاية سوقا للبضائع الأوروبية ثم تسقط في مخالب الاستعمار الأوروبي.

من جهة أخرى فإن العلماء بعدم تصديهم للسلطة وتقديمها لمحمد علي - ساهموا عن غير قصد في إضعاف مكانة الخلافة وإن كانوا في حقيقة



الأمر أوفياء لها ولم يشككوا أبداً في شرعيتها، ذلك أن محمد علي بعد أن رأى ازدياد قوته - ببناء جيش قوي للوقوف أمام أطماع الأوروبيين واتسع مجال نفوذه حتى وصل شمال اليمن والحجاز والسودان أراد أن يبني لنفسه امبراطورية تمتد على كل المشرق العربي، حينها تجرأ على الخلافة وسعى إلى التوسع على حسابها (بين ١٨٣١ و ١٨٤١) ودخل معها في حرب حول منطقة الشام انتهت بتدخل القوى الأوروبية سنة ١٨٤٠ مما وفر لبريطانيا تعة لتحتل عدن، وطرح ما سمي بالمسألة الشرقية في مؤتمر برلين.

كانت نتيجة كل ذلك، أن أعطى محمد علي - الفرصة لأعداء الأمة الإسلامية لمزيد من التدخل في شؤونها على حساب الخلافة الإسلامية مما زاد في إضعافها.

## ٢ - زعماء الإصلاح قبل الحرب العالمية الأولى:

كما سرقت جهود الأمة على مستوى الحركات الشعبية كذلك سرقت جهود علماء الإصلاح من مفكري المسلمين، وهذا واضح في السيرة الدعوية التي خاضها الشيخ محمد رشيد رضا والتي وصل في نهايتها إلى ما سنعرفه من خلال الأسطر التالية:

تتلذذ الشيخ رضا على يدي المصلح الشيخ محمد عبده، بعد أن تأثر بالعروة الوثقى وأصبح إثر وفاة عبده وارثاً لفكر الجامعة الإسلامية والمدرسة الإصلاحية، وجعل المنار لسان حالها. كان للرجل عن طريق صحيفته إشعاع في كامل أنحاء العالم الإسلامي فقد قدم خدمة جليلة للاتجاه السلفي بنشر أفكاره، وهذا ما شهد به عبده نفسه، لكن من هو الشيخ رشيد رضا؟ وما هي مواقفه من الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية؟ ولد رشيد رضا ١٨٦٥ بقرية القلمون وهي إحدى قرى طرابلس وشمال بيروت وهو ينحدر من سلالة أشراف وعائلة مجد وعلم، تقلدت مشيخة القرية لمدة طويلة، تلقى رشيد رضا تربية دينية خالصة وتعليماً إسلامياً فنبغ في الفقه وأجاد اللغة وقرأ كثيراً للمتصوفة وخاصة الإمام الغزالي في (المنقذ من الضلال) حصل على الإجازة في علوم الدين من المدرسة الوطنية من بيروت سنة ١٨٨٣

ومنها بدأ يكتب في الصحافة ويدرس في المساجد، تخلص عن الطريقة بسرعة بعد أن عاش أهلها في إطار حلقة النقشبندية في طرابلس، تأكد اتجاهه المعادي للطريقة إثر اكتشافه لآراء الأفغاني فيها من خلال كتاباته في العروة الوثقى التي كان يقرأها منذ أن كان طالبا، وحاول الاتصال بالأفغاني عندما كان هذا الأخير بالأستانة وذلك عبر أحد أصدقائه، وكاتب رشيد رضا الأفغاني في ذلك قائلا «إنني أسير كتابي هذا ليكون مستسما عواطفكم ومستجديا مكارمكم في قبولي لديكم مريدا يتلقف الحكمة وتلميذا يقوم ببعض الحكمة» ولم يتمكن في النهاية من الاتصال المباشر بالإمام لكن حصل له التعرف المباشر على الشيخ محمد عبده الذي جاء إلى لبنان منفا من مصر إثر مساندته أحمد عرابي باشا في ثورته سنة ١٨٨٢، إلا أن ارتباط رشيد بالشيخ محمد فعلا عندما عاد هذا الأخير إلى بيروت من باريس إثر توقف العروة الوثقى عن الصدور وذلك سنة ١٨٨٥، كان رشيد رضا في هذه الفترة يحضر الدروس التي كان يلقيها الشيخ في المدرسة السلطانية بين سنة ١٨٨٥ و ١٨٨٩.

مثلت هذه الدروس التي حضرها رشيد رضا إلى جانب قراءته للعروة الوثقى البوابة التي دخل منها الحركة الإصلاحية السلفية في نهاية القرن الماضي، وأصبح للشباب رشيد رضا نشاط سياسي معارض للسلطنة العثمانية، في التيارات السياسية النشطة والمعادية بشكل أو بآخر للخلافة العثمانية، والتي كانت الشام أرضا خصبة لنموها وتوالدها، باعتبار التنوع الثقافي والديني الذي يزخر به، وتركيز القوى الاستعمارية على توظيف ذلك واستثماره في صراعها ضد الخلافة العثمانية، لقد استدعى تنامي نشاط المعارضة ضد السلطنة حملات من القمع وتشديد الرقابة من طرف أجهزة الشرطة ضد العناصر الفاعلة سياسيا في مواجهتها للسلطنة العثمانية، وفي نفس الفترة ازداد توجه السلطة نحو المزيد من المركزية الإدارية كرد فعل على المطالبة بتشريك العرب في السلطة المحلية وإدارة الشام، خشية انتشار المطالبة بالانفصال عن مركز الخلافة.

أمام التضيق المتزايد على العناصر النشطة والتي كان من بينها الشباب

رشيد رضا - قرر هذا الأخير مغادرة سوريا إلى مصر وكان قد حدث في ذلك الشيخ عبده سابقا قبل رجوعه إلى وطنه والذي يبدو أنه شجعه على المضي في هذا الطريق، من جهة أخرى لم يتمكن رشيد رضا - من إصدار صحيفة خاصة به في بلاده لتكون استمرارا للعروة الوثقى التي كانت قد توقفت عن الصدور في باريس. كانت عائلة رشيد رضا في السابق - محل قمع السلطة العثمانية لكنها ستتعرض إلى مزيد من الإزعاج من طرف الإدارة العثمانية بسبب فرار رشيد رضا إلى مصر.

أسس في مصر صحيفة المنار (سنة ١٨٩٢) وكان يريد لها امتدادا لتيار الجامعة الإسلامية ومعبرة عن أفكار شيخه محمد عبده، لكنه حدد لها موقعها بين بقية الصحف ووجهتها السياسية كالتالي (عثمانية المشرب، حميدية المنهج، تحامي عن الدولة العلية بحق وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق وتحمي المطاعن الشخصية..... (المنار، العدد الأول، مارس ١٨٩٢) إن أغلب التيارات المعارضة في ذلك العهد لم تكن تشكك في شرعية الخلافة العثمانية، كما أنها لا توجه أصابع الاتهام إلى شخص الخليفة بقدر ما كانت تعارض سياسات بعينها، وتطالب بإجراء إصلاحات في إطار الخلافة، لم يشذ الشيخ رشيد رضا عن هذا النهج، ولعل ذلك يعود إلى تكوينه وتربيته وإلى الحركات والرجال الذين تأثر بهم، إن تنامي دعاة التتريك والطورانية في صفوف النخب التركية من الشباب الذين تلقوا تعليمهم في الغرب وتبني الباب العالي لسياسة المركزية المفرطة في إطار مقاومته للحركات المعارضة التي كان الاستعمار يسعى إلى ركبها واستثمار رصيدها لإضعاف الخلافة بالنخب العربية - وخاصة الإسلامية منها - إلى إعلان اعتزازها بعروبتها مع تأكيد ولائها للخلافة رغم معارضتها لبعض سياسات الخليفة وعدائها للاستعمار ومن والاه من العثمانيين عربا كانوا أو غير عرب، إلا أن تطور الأحداث حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سيثبت أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل الدفاع عن الخلافة ومعارضتها في الآن نفسه، خاصة في المرحلة الحرجة التي كانت تمر بها الخلافة، إذ كانت تتكالب عليها القوى الإستعمارية كتكالب الأكلة إلى قصعتها، وتستعد

لتقسام تركة الرجل المريض، حسب التعبير الغربي في نهاية القرن التاسع عشر، كيف ستتطور مراحل الشيخ رشيد رضا - لتصب في النهاية في خانة المعادين للخلافة ويجد نفسه في نهاية المطاف قد تحالف تقريبا مع أغلب خصوم الخلافة في الداخل وبالتالي تقديم الخدمة التي كان الاستعمار يبغيها وهي إضعاف الخلافة من الداخل لإسقاطها فيما بعد والتخلص منها نهائيا؟

كان الالتقاء الأول مع خصوم الخلافة يتمثل في تبني بعض مقولات القومية العربية - وإن كانت بمضامين إسلامية في بداياتها - والتي يتبنى بعضها المسيحيون العرب ولكن من منطلقات ولأهداف متناقضة تماما، كانت المنطلقات النظرية للقوميين العرب من مسيحي المشرق العربي (لا يوجد شك لدى المؤرخين أن القومية العربية نشأت في أوساط المسيحيين في لبنان) هي نفسها من منطلقات النزعة الطورانية لدى الأتراك وهي التي تتأسس على مبادئ القومية الأوروبية حسب ما ظهرت في القرن الثامن عشر.

لم تكن هذه الأخيرة من بين المصادر التي اعتمدت من طرف إسلامي الدعوة القومية العربية في نهاية القرن التاسع عشر، لأنهم لم يدعوا إلى إقامة دولة قومية على أنقاض الخلافة، وما كانوا يعملون لصالح القوى الاستعمارية الأوروبية أو بتنسيق معها، لا بد من الإشارة هنا إلى أن الجمعيات العربية التي كانت تنشط في الشام وتعارض السلطان عبد الحميد كانت على اتصال وثيق بالقنصل الفرنسي (بيكو) في بيروت، أما الجمعية اللامركزية فلها علاقة بكشنر القنصل البريطاني في مصر.

كان الكواكبي ورشيد رضا وغيرهما من المسلمين يؤكدون على أهمية العرب في بناء الدولة والنظم الإسلامية وحمل الرسالة المحمدية، إن إبراز مكانة العرب واللغة العربية في التاريخ الإسلامي يستبطن اتهامها إلى عوامل الضعف والفساد الذي أصاب الدولة والنظم الإسلامية وجعلها في النهاية لقمة سائغة أمام الاستعمار إنما تعود إلى تسرب عناصر بشرية مختلفة (إن لم نقل دخيلة) وسيطرتها على الخلافة مع احتفاظها بتقاليد وقيم ما قبل

الإسلام، إن النقد الذي كان يملأ صفحات المنار سواء على لسان الشيخ رشيد نفسه أو الكواكبي لم يكن موجهاً فقط إلى الخليفة وحاشيته ولكن أيضاً إلى الأتراك بصفة عامة، بل نلاحظ لدى الكواكبي الإصرار على تسميتهم بالمغول الأتراك وما يعنيه ذلك من استرجاع على مستوى الذاكرة التاريخية لجرائم المغول والتتار في حق الأمة الإسلامية.

يجب النظر إلى ذلك ضمن سياق الصراع مع الطورانية التي تريد تهميش دور العرب داخل الخلافة العثمانية بتغليب العنصر التركي في أجهزة الدولة، مع الشيخ رضا والكواكبي وأمثالهما - وهم من الجيل الثاني من الحركة الإصلاحية - والذين تجمعوا حول المنار والشيخ محمد عبده في مصر، مع هؤلاء حدث تحول نوعي في الوعي والمطالب من حركة الجامعة الإسلامية إلى حركة القومية العربية بمضامين إسلامية، هنا لا بد من الإشارة إلى خطورة الانخراط في صراع قومي داخل الخلافة التي كانت تعاني من تكالب القوى الأروبية وتتعرض إلى مؤامرات التقسيم والتشردم وما ينتج عن ذلك من ضعف الإسلام والمسلمين وذهاب ريحهم.

لم يكن خافياً على الشيخ رشيد رضا الذي حرص على التأكيد على عثمانية ولائه للسلطان والخلافة بل سعي أحيانا إلى إعلان اختلافه عن الكواكبي في هذا المجال، لذلك لاحظ أثناء نشره لكتاب الكواكبي «أم القرى» على صفحات المنار أن «في القسم السياسي من الكتاب كلاماً لبعض أعضاء الجمعية في الدولة العلية - أيدها الله تعالى - فحذفه عند الوصول إليه لأنه يؤلم أكثر الناس ولا ينبغي أن يعرفه إلا الخواص»

بقى الشيخ رشيد رضا يعارض على صفحات المنار التيارات والجمعيات التي تفرق بين الترك والعرب، إلا أن عثمانيته لم تمنعه - فيما بعد - من الاقتراب من أكثر الأتراك عداوة للخلافة وللعرب وتعصبا للطورانية وهم جماعة الاتحاد والترقي، بدأ التحول العلني على الأقل للشيخ رضا - من مناصر للجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية إلى منضو في حزب معارض لها في بداية هذا القرن وذلك عندما أسس بعض أصدقائه «جمعية الشورى

العثمانية» بالقاهرة (من بين مؤسسي هذه الجمعية نذكر صديق الشيخ رشيد رضا رفيق العظم والذي كان هو أيضاً لاجئاً في مصر) تحولت هذه الجمعية سنة ١٩١٢ إلى حزب اللامركزية ومن بين أعضاء هذا الحزب نذكر أيضاً محب الدين الخطيب واسكندر عمون وهذا الأخير كان مسيحياً لبنانياً، لم يقف الشيخ رشيد رضا عند هذا الحد بل تجاوزه إلى مساندة جمعية الاتحاد والترقي التي انقلبت على السلطان عبدالحميد وأعلنت أنها ستعيد العمل بالدستور، تحول بعد ذلك الشيخ رشيد رضا من مطالب باللامركزية مع القوميين العرب من مسيحيي الشام إلى حليف للانقلابيين على الشرعية وهم العسكريون الطورانيون العلمانيون، وإن ادعوا الإصلاح على أساس دستوري، ويجدر التذكير هنا بتاريخ جمعية الاتحاد والترقي التي تعتبر امتداداً ووريثاً لجمعية العثمانيين الأحرار، والتي كانت تنادي بإقامة نظام سياسي برلماني يقتدي بالأنظمة الأوروبية آنذاك، كان رجال هذه الجمعية «العثمانيين الأحرار» على اتصال بالقوى الدولية الاستعمارية وخريجي الجامعات الأوروبية كما كان أغلبهم من الناحية الاجتماعية ينتمون إلى الفئات الاجتماعية التي ارتبطت مصالحها مع الخارج، كانت هذه الجمعية وراء دستور ١٨٧٦ الذي وضعه مدحت باشا ومن لف لفه وقبله السلطان عبدالحميد مكرهاً، لما في ذلك من تفريق للسلطات، وبالتالي فتح الأبواب على مصراعيها أمام التدخل الأجنبي عبر تعداد مراكز القوى والأقليات، تأسست جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٨٨٩ ومن رحم هذه الأخيرة ولدت «تركيا الفتاة» التي عقدت أول مؤتمر لها في باريس سنة ١٩٠٢ وتمكنت تركيا الفتاة من تنظيم جيش سري في صالونيك زحف على الآستانة سنة ١٩٠٨ منقلباً بذلك على الخليفة عبدالحميد الثاني.

تعتبر جمعية العثمانيين الأحرار وما تفرع منها من تنظيمات على نقیض - من الناحية العقائدية - مع طروحات الجامعة الإسلامية وحركات الإصلاح التي ينتمي إليها الشيخ رشيد رضا وتربى على أفكارها، ذلك أن الجمعيات التركية كانت تتبنى تصوراً علمانياً للإصلاح يرمي إلى إنقاذ ما تبقى من السلطنة بالأخذ عن الغرب في مجال النظم والتشريعات والقيم مع الاعتماد

في كل ذلك على العنصر التركي مما يعني في نهاية المطاف القضاء على الخلافة كنظام سياسي والحد من الاعتماد على الشريعة في الشؤون العامة أو الأحوال الشخصية.

ساند الشيخ رشيد رضا الحركة الانقلابية وجند قلمه لإبداء النصيحة لقياداتها انطلاقاً من قناعاته وأفكاره الإصلاحية، في إطار نظام سياسي إسلامي برلمان دستوري لامركزي، إلا أن الشيخ تبخرت آماله عندما لاحظ أن الاستبداد لم ينقض مع السلطان عبدالحميد، وأن السلطة الجديدة أقامت نظاماً شديداً المركزية، كما أنها سعت إلى استبدال المحاكم المستحدثة «المسماة: العصرية أو مدنية أو حديثة» بالقوانين والمحاكم الشرعية، لم يكن ذلك بإلغاء المحاكم الشرعية ولكن كان بإهمالها وعدم إصلاحها وإحداث المحاكم اللاشرعية، وهي مراهنه من طرفهم على القضاء التدريجي على المؤسسات الإسلامية ومن ثم تعطيل العمل بالشريعة الإسلامية، ومن جهة أخرى تواصل عجز السلطة العثمانية في عهد الانقلابيين أمام تكالب القوى الاستعمارية على البلاد الإسلامية باحتلال أجزاء منها مثل ما حدث سنة ١٩١١ مع طرابلس الغرب عندما قام الطليان بالاستيلاء عليها.

أدرك الشيخ رشيد رضا خطورة السياسات الاتحادية في هذا المجال خاصة عندما نشر الإنذار الذي وجهته الحكومة الإيطالية للاتحاديين لكي تعمل على إفساح المجال أمام قواتها دون التعرض لها واستجابت فعلاً الحكومة الاتحادية لذلك إذ انسحب الوالي التركي بأمر منها وانتهى بذلك الوجود العثماني في ليبيا، تبين للشيخ آنذاك عمالة الاتحاديين للقوى الدولية ومما كتبه في هذا الخصوص ما يلي «طرابلس الغرب مملكة عظيمة لم تحصن الثغور فيها ولا أقيمت فيها معدات الدفاع لحفظها من الأجنبي... بل كان فيها من العسكر والسلاح فبادرت إيطاليا إلى احتلالها...» (المنار ديسمبر ١٩١١) ووجه لهم التهم صراحة وحملهم كذلك التفریط في شط العرب للإنجليز.

لقد لمس الشيخ عن كثب عدم احترام الانقلابيين وأعوانهم للدستور

وحقوق الرعية، وعنصرية سياستهم تجاه الملل غير التركية وخاصة العرب عندما زار سوريا سنة ١٩٠٩، لذلك أصبح يتعرض لعبث العسكريين وقادة الانقلاب بالدستور وكشف عن عدم استقرار الحكومة والمجلس، ولم يجده نفعاً المطالبة بوفاق بين الملل التي تتكون منها رعية الخلافة العثمانية وذهبت مطالبته بالحفاظ على الطابع الإسلامي للسلطة والتعليم والقضاء أدراج الرياح (انظر المنار شهر يناير ١٩١٣، مقال: مخادعة الاتحاديين للأمة).

بعد أن ساند الشيخ الاتحاديين ورحب بانقلابهم على الخليفة أصبح يرى فيهم ملاحظة وصلوا إلى الحكم بكيد يهود صالونيك وأن جملة أعمالهم كانت فساداً وتخريباً للدولة وشئون العمران في كافة المقاطعات (محمد صالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا ص ١٧٥)، لقائل أن يقول: إن هذه الخلافة انفرط عقدتها ولم يبق منها إلا الشكل، صحيح هذا ولكن الخلافة تبقى باستمرارها شكلاً من أشكال وحدة الكيان السياسي للأمة ولو كان ظاهرياً أو ضعيفاً في انتظار تصحيح المسار وترميم البنية، إن ضعف الخلافة لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال حجة من أجل إسقاطها.

ما هو المخرج الذي سيلجأ إليه الشيخ بعد أن يؤس من الاتحاديين وثبت له أنهم ليسوا أهلاً لثقتهم؟ هل أدرك الشيخ وغيره من المصلحين حقيقة التحولات التاريخية قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى؟

الجواب على هذه الأسئلة سنستنتجها انطلاقاً من تطور واتجاه مواقف الشيخ رشيد رضا في هذه الفترة، إلا أن موقف الشيخ جاء في إطار تحول عام في التحليل السياسي للنخب في المشرق العربي، إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا هذه الحرب إلى جانب ألمانيا، من جهة أخرى تواصل تجاهل الاتحاديين الاستجابة لبعض المطالب الإصلاحية التي تقدم بها العرب في ولاية المشرق كما تجاهلوا نداءات بعض الزعماء العرب مثل الشريف حسين والي الحجاز مما جعل هذا الأخير يميل في النهاية إلى بريطانيا، خاصة إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأدى يأس النخب العربية في المشرق من إنجاز الاتحاديين للإصلاحات المرجوة إلى الالتفاف



حول الشريف حسين الذي بدأ يفكر في الاستقلال عن الخلافة في إطار دولة عربية تجمع الولايات العثمانية في المشرق ويكون هو ملكا عليها إلا أن الإشكال الذي طرح أمام الشريف حسين والقوميين العرب الذين اتصلوا أو التحقوا به ابتداء من سنة ١٩١٥ هو كيفية تحقيق ما سمي بالاستقلال عن تركيا وأساليب وإمكانات إنجاز ذلك. من هنا جاءت ورطة التعامل مع بريطانيا والوقوع في شباك العمالة للاستعمار وخيانة الأمة بالمساهمة في تفتيت وحدتها وتمزيقها من أجل وهم الدولة العربية، لقد كان الاستعمار البريطاني على وعي تام بما يريده العرب ولكنه ومنذ القرن التاسع عشر كان يخطط لاقتسام تركة الرجل المريض مع بقية القوى الاستعمارية الأوروبية، لذلك استغلت بريطانيا العرب ففصلتهم عن الخلافة وحرضتهم ضدها بإشعال فتنة ما سمي بالثورة العربية الكبرى في الحجاز في الوقت الذي كان توقع فيه سنة ١٩١٦ مع بقية الدول الأوروبية مثل فرنسا وروسيا على اتفاقية (سايكس بيكو) واقتسمت بمقتضاها المشرق العربي مع فرنسا، إلا أن العرب لم يكونوا على علم بهذه الاتفاقية حتى نهاية عام ١٩١٧م، إن الدارس لهذه الحقبة التاريخية يتعجب من الثقة العمياء التي وضعها الشريك حسين ومن تجمع حوله من العرب في وعود بريطانيا أثناء المحادثات السرية التي جرت بين مكماهون والشريف حسين.

ماذا كان موقف الشيخ رشيد رضا من التحالف المشبوه للشريف حسين مع بريطانيا ضد الخلافة العثمانية؟

بدأت علاقة الشيخ رشيد رضا بالشريف حسين سنة ١٩٠٨ لكنها لم تكن علاقة مباشرة ولا اتخذت الطابع الرسمي أو المتواصل بينهما، تمثلت هذه العلاقة في لقاء جمع الشيخ في القاهرة بأمين سر الشريف حسين: «مصطفى بك» وذلك في شهر يوليو، كان هذا اللقاء فرصة للشيخ رضا ليقدم للشريف حسين بعض نصائحه الإصلاحية، إلا أننا لا ندري هل وقفت العلاقات والاتصالات بينهما أم تواصلت بشكل من الأشكال وذلك لندرة المعطيات لدى المؤرخين في هذه المسألة، وإن كان الأمر سيتغير مع إعلان الشريف حسين الثورة على الخلافة بدافع ومؤازرة من طرف بريطانيا ويتخذ

الشيخ رشيد رضا من ذلك موقفا إيجابيا، إذ نشر في المنار المنشور الذي أعلنه الشريف حسين إثر انتصاره على القوات التركية في الحجاز وعبر عن استحسانه لذلك (انظر المنار ٢٨ سبتمبر ١٩١٦)، ورأى في حركة الشريف حسين عملاً مشروعاً ضد «الملاحدة من الاتحاديين» وتأيدا من طرف سيد العرب - أي الشريف حسين - لطلاب الإصلاح من العرب -، لاحظ هنا أنه لا يرى في «الثورة العربية» سوى عدائها للاتحاديين ويغيب عنه الجانب الآخر منها وهو أنها جاءت في إطار تأمر استعماري على الخلافة الإسلامية لا تنفع فيه حسن نوايا العرب والشريف حسين، أو عدالة قضيتهم مع الاتحاديين، ذهب بعض المؤرخين إلى أن المقيم البريطاني العام في القاهرة اتصل بأعضاء حزب اللامركزية ومن بينهم رشيد رضا للتثبت من موقفهم من اندلاع حركة عربية انفصالية عن الخلافة العثمانية، فكان موقفهم ايجابيا، بل أبدوا استعدادا لمؤازرة مثل هذه الحركة (راجع سليمان موسى في كتابه الحركة العربية، ص ١٦٠) لتأكيد موقفه من حركة الشريف حسين، إثر النجاح الذي حققته في بدايتها التقى الشيخ رشيد رضا بالشريف حسين بالحجاز وألقى بين يديه خطبة مجد فيها عمله السياسي ضد الأتراك وأشاد بحكمه المحافظ على مصالح العرب.. (محمد صالح المراكشي، تفكير محمد رشيد رضا ص ١٥٦ - ١٥٧)، من خلال دراسة خطب وتوصيات الشيخ وفيما يخص الموقف من حكومة الشريف حسين يتبين لنا أنه كان يرمي إلى دعم حكم قوي ومستقل في الحجاز لمنع تسرب القوى الاستعمارية إليه وتجنبيه الصراعات والنزاعات على أساس أن الحجاز هو المركز الروحي للأمة باعتبار وجود المقدسات على أرضه، لم يكن الشيخ على علم بالطموحات السياسية الحقيقية للشريف حسين ولا هو على علم بمخططات بريطانيا في المنطقة وخاصة ما تضمنته سايكس بيكو لسنة ١٩١٦ والعلاقات السرية المتواصلة بين بريطانيا والشريف حسين، لقد كان هذا الأخير يريد من وراء ثورته العربية أن يبني مملكة تمتد على كل الأراضي العربية في المشرق على حساب الخلافة العثمانية، تبين ذلك للشيخ رشيد رضا عندما بدأت جيوش الشريف حسين المدعومة من طرف القوات

البريطانية تتجاوز حدود الحجاز في اتجاه بقية أطراف الجزيرة العربية ثم في اتجاه الشام، عندما وصل الأمر إلى هذا الحد أعلن الشيخ إدانته للشريف حسين وأوضح أن مساندته لثورة شريف مكة كانت مشروطة، وازدادت حدة معارضة الشيخ رشيد رضا للشريف حسين عندما ثبت له أن الثورة العربية ليست سوى مؤامرة بريطانية عربية ضد تركيا ودخل في مواجهة مع الأجهزة الدعائية للشريف حسين، مثل جريدة «القبلة» كما واجه الشيخ رشيد رضا الدعاوى التي ذهبت إلى توفير الغطاء الشرعي لحركة الشريف حسين وسلطته باعتبار أصله القرشي فكان رده على ذلك أن شريف مكة لم تتوفر فيه أيا من الشروط الأساسية الأخرى المطلوب توافرها في الخليفة كالعلم والاجتهاد والاستقلال، لأنه أقام حكمه على حماية قوة نصرانية، كما أدان الشيخ رشيد رضا الذين ساندوا الشريف حسين من الساسة والعسكريين في الشام والذين بايعوه ملكا وفتحوا بذلك الباب أمام الاستعمار الإنجليزي.

إلا أن تراجع الشيخ رشيد رضا عن دعمه للشريف حسين جاء متأخرا باعتبار أن جيوش الثورة العربية المدعومة من طرف القوى البريطانية والتي تعمل بتنسيق تام مع القوات البريطانية الأخرى في المشرق العربي، كانت تتسابق للسيطرة على الممتلكات العثمانية في الشام وشبه الجزيرة العربية، وشكل ذلك ضربة قاضية للوجود العثماني في المنطقة، وخطوة نحو انهزام الخلافة في الحرب العالمية الأولى، وما سببته على ذلك من سقوط تام للخلافة الإسلامية فيما بعد على يدي مصطفى كمال أتاتورك، إن إدانة الشيخ رضا للشريف حسين وكشفه لعلاقته ببريطانيا مهدت له الطريق لمساندة المبادرة التي سيقوم بها الأمير عبدالعزيز بن سعود انطلاقا من نجد ضد الشريف حسين، رحب الشيخ رضا بتنامي نفوذ الدولة السعودية على حساب سلطة الشريف حسين في الحجاز واعتبرها «خدمة للملة الإسلامية والأمة العربية» كما ذكر أن الدافع لفتح الحجاز من طرف الجيش السعودي هو تأمين فريضة الحج ومنع الإلحاد والظلم في الحرم وقطع عروق ونفوذ الأجنبي» (ذكره محمد صالح الماكشي، ص ٦١١).

انطلق الشيخ رشيد رضا من مساندة نقدية للخلافة العثمانية ليتقلب في

موقفه ويساند خصومها الواحد تلو الآخر من ترك وعرب ليجد نفسه في كل مرة قد ابتعد سياسياً عن المبادئ التي انطلق منها باعتبار أن الطرف الذي يساند ليس هو المأمول ولا المؤتمر على مصير الأمة بل يكتشف في نهاية المطاف أنه تحالف مع أعداء الأمة المتعاونين مع الاستعمار.

### ٣ - نماذج بعد الحرب العالمية الأولى والثانية:

لقد شهد العالم العربي ابتداء من الحرب العالمية الأولى ما يسمى بالدولة القطرية، وذلك على أنقاض الخلافة العثمانية إثر انهزامها ثم إلغائها من طرف مصطفى كمال أتاتورك، وفي إطار الدولة القطرية انتصبت أنظمة ملكية شكلت نوعاً من الاستمرارية للإدارة العثمانية المحلية، ثم من جهة أخرى، وبداية من نهاية الثلاثينات، حصلت بعض الأقطار العربية على استقلالها عن الاستعمار، فحكمتها أيضاً أنظمة ملكية، وفي نفس الفترة شاع في العالم العربي شكل آخر من أشكال الوصول إلى السلطة وهو عمليات الانقلابات العسكرية، والتي حدثت أولاً في العراق سنة ١٩٣٦ ثم تتالت بعد ذلك في أقطار أخرى.

وكذلك حدثت انقلابات مدنية على أنظمة ملكية دون اللجوء إلى العسكر وبطرق وصفت بالسلمية والدستورية مثلما حدث في تونس بعيد الاستقلال.

وبعد هذه النظرة العامة لما وقع في العالم العربي من انقلابات يتبادر إلى الذهن مجموعة من الأسئلة تجدر الإجابة عنها في مثل هذا البحث وهي الأسئلة التالية: لمصلحة من يقع الانتقال بشكل انقلابي من نظامي ملكي إلى نظام جمهوري؟ ثم بإعانة من أو بإيعاز من أي جهة؟ ما هو دور الاستعمار في هذه الانقلابات؟ كيف تصب الانقلابات الجمهورية في خانة الاستعمار حتى ولو كانت معادية له في الظاهر؟ في أي ظروف يتم تعاون الإسلاميين مع الانقلابيين؟ لماذا كان الإسلاميون هم الضحية الأولى والأهم للأنظمة الانقلابية؟

وهنا سنتناول بالدراسة التجربة التونسية التي هي أكثر التجارب علمانية بعد التجربة التركية الكمالية، ولأنها أيضاً عرفت انقلاباً جمهورياً مدنياً على نظام ملكي عريق عرف في الأربعينات من هذا القرن بشدة عداته للاستعمار، هذا إلى جانب أنه من الأنظمة الملكية التي حاولت بناء دولة عصرية مع الحفاظ على الأسس والبنى الإسلامية للمجتمع والدولة و حيث طرح الوزير خير الدين الإشكاليات التي كان على الفكر الإسلامي أن يتعامل معها في عصر النهضة محاولاً التصدي لتسرب الاستعمار، الذي كان قد انتصب في الجزائر منذ سنة ١٨٣٠، وكانت تونس من أكثر الأقطار الإسلامية المرشحة لإقامة الدولة والمجتمع الإسلامي الحديث لولا إحهاض التجربة من طرف الإستعمار بإبعاد الوزير خير الدين ثم باحتلاله للبلاد سنة ١٨٨١.

#### ٤ - تونس المستقلة: من الملكية إلى الجمهورية العلمانية بإعانة فرنسا:

عرفت تونس نظام البايات منذ دخول العثمانيين إليها في القرن السادس عشر، والعائلة التي تمكنت من الحكم لمدة طويلة تقدر بما يناهز القرنين والنصف هي العائلة الحسينية (استلم حسين بن علي السلطة سنة ١٧٠٦ وجعلها وراثية)، كان الحاكم الحسيني يلقب بالباي - وهي رتبة إدارية عثمانية تأتي مباشرة بعد الداوي في السلم الإداري العثماني - ويعتبر الباي والياً من ولاية السلطان العثماني، إلا أنه كان يتصرف في داخل ولايته وتجاه رعيته على أساس أنه ملك، ولما احتلت تونس من طرف فرنسا سنة ١٨٨١ أبقت سلطة الحماية على العائلة الحسينية في الحكم حتى استقلال البلاد سنة ١٩٥٦ حيث جاء النظام الجمهوري إثر إلغاء حكم البايات من طرف بورقيبة سنة ١٩٥٧ وذلك في إطار مجموعة من الإجراءات التي قدمت على أساس أنها إصلاحية في إطار سياسة التغريب والتحديث التي سلكها النظام الجديد، ثم اتخذت مجموعة من الإجراءات الجريئة التي أحدثت في البلاد تحولات عميقة انعكست بصورة سلبية على المجتمع والدولة وتسببت في أزمات سياسية واجتماعية وثقافية خطيرة لا زالت تلقي بظلالها على أوضاع البلاد وهنا نرجع إلى ما ذكرناه، ما هو دور الإسلاميين في وصول بورقيبة إلى السلطة؟

إن الشائع لدى كثير من الناس وخاصة في المغرب العربي أن (بورقية) وصل إلى الحكم بفضل نضاله الوطني ضد الاستعمار، تلك الفكرة التي أشاعها بورقية عن نفسه وتاريخه وهي الصورة التي نحتتها له وسائل الإعلام وأجهزته الدعائية منذ انفراده بالسلطة وفرضه لنظام الحزب الواحد والزعيم الأوحده، وذلك في إطار إقصائه لغيره من القيادات الوطنية سواء منهم الأحياء أو الأموات، لقد استبعد العديد من الشخصيات الوطنية المنافسة له وخاصة من ذوي الاتجاه العروبي والإسلامي من ساحة العمل السياسي عن طريق التصفية الجسدية والسياسية كما قام بتهميش غيره من القيادات التاريخية لحركة التحرير الوطنية من الذين قضوا نحبهم في الجهاد ضد المستعمر وذلك بإنكار دورهم وعملهم وطمس آثارهم، ثم عمد إلى تاريخ البلاد الحديث والمعاصر بالشكل الذي يسحب الوطنية من الكثير من رجال تونس ويقدم للقراء والنشء أنه «صانع تونس وباني مجدها» وأنها لم تنجب غيره منذ ملوك البربر الذين قاوموا الغزو الروماني، ونسجت حول شخصه الأساطير من نوع أنه ذكر سابقاً أنه سيظهر من المنستير (مكان ولادته) رجل كبير فيه الدول تحير...»

وهنا نذكر أن (بورقية) لم ينطلق في عمله ضد الاستعمار من لا شيء، كما أنه لم يكن مؤسساً للحركة الوطنية بقدر ما هو وارث لعمل غيره، لقد مارس اللصوصية السياسية للوصول إلى سدة الحكم وذلك بالتسلط على المنظمات الوطنية التي ولدت قبل دخوله مجال العمل ضد الاستعمار أو التي ظهرت خارج دائرة نفوذه وسعى إلى إخضاعها لإرادته، فمن المعروف أن العمل الوطني انطلق ضد الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت جنود فرنسا أرض تونس، وقد اتخذ هذا العمل أشكالاً عديدة وبقى محصوراً في الصفوة ولم يصبح عملاً شعبياً إلا قبيل الحرب العالمية الأولى، فإثر هذه الحرب تشكل حزب وطني تزعمه الشيخ المصلح عبدالعزيز الثعالبي ثم تأسست سنة ١٩٢٤ أول نقابة تونسية مستقلة عن النقابات الفرنسية وتزعمها المجاهد محمد علي الحامي، أما الشيخ الثعالبي فمعروف أنه زيتوني الثقافة من الذين تأثروا بحركة الإصلاح وأفكار الأفغاني

وعبده، خاصة وأن هذا الأخير كان قد زار تونس مرتين في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي، والتقى بالعديد من علماء الجامعة الزيتونية، ومن رحم هذه الأوساط ظهرت بواكير العمل الوطني المناهض للاستعمار في بداية هذا القرن، أما محمد علي الحامي فهو الشاب الذي التحق سنة ١٩١١ بالمجاهدين في طرابلس الغرب لمقاومة الغزو الإيطالي ومنها انتقل إلى تركيا ليخوض معارك الحرب العالمية الأولى مدافعا عن الخلافة وهو في ذلك «مدفوع بأحاسيسه الإسلامية» كما يقول على لسان رفيقه «الطاهر الحداد» في كتابه عن العمال التونسيين، وكانت محاور نضال الرجال والمنظمات تتمثل في المطالبة بالاستقلال وتحسين الأوضاع المعيشية للأهالي وحماية كيان الشعب التونسي وتأكيد هويته العربية الإسلامية في مواجهة محاولة طمسها من طرف المستعمر، وقد كانت أغلب المعارك السياسية التي خاضها الحزب والنقابة الوطنية والأهالي الذين التفوا حولهما هي رفض التجنيس والتصدي لمصادرة الأراضي بصفة عامة وخاصة أراضي الأوقاف، نظرا لما لها من قدسية، وحماية التعليم في جامعة الزيتونة الإسلامية من الإصلاح الاستعماري المزعوم، الذي يرمي إلى تغيير البرامج والمقررات التعليمية، ليحد من تخريجها لأجيال معتزة بهويتها الثقافية ومقاومة لتسلطه على البلاد والعباد وخاصة طلاب الجامعة الزيتونية حيث قاموا بعدة إضرابات تصل إلى حد الاصطدام بقوى «البوليس» الاستعماري من أجل القضايا الوطنية، بل كانت العديد من حملات الاحتجاج ضد السياسات الاستعمارية تنطلق من ساحة الجامع الأكبر فيلتف حولها الأهالي، وتتحول شوارع الحاضرة إلى ساحات للمعارك بين الطلاب والأهالي من جهة، والجنود الاستعماري من جهة أخرى، هذه هي وضعية الساحة الوطنية لما عاد بورقيبة من باريس سنة ١٩٢٧ مشبعا بثقافة غربية وترافقه زوجة فرنسية.

أدرك بورقيبة أن الأهالي لا يمكن أن يلتفوا حول أي زعيم وطني إلا إذا تبنى ثقافتهم وانطلق في نضاله التحرري من منطلقات عروبية إسلامية حتى ولو رفع شعارات تهتم بالأوضاع المعيشية أو تقتصر على المسائل الوطنية دون وضوح المنطلقات الحضارية التي لا بد وأن تتميز وتباين مع

الثقافة الاستعمارية، وأدرك أيضاً أن ذلك هو الذي يفسر شعبية ونجاح الشيخ الثعالبي والشاب محمد علي الحامي في بداية العشرينات من هذا القرن وذلك أيضاً ما يقف وراء فشل بعض الأحزاب الأخرى مثل الحزب الشيوعي التونسي الذي تأسس هو أيضاً في نفس الفترة التي ظهر فيها الحزب الحر الدستوري التونسي الذي تزعمه الشيخ الثعالبي وكان أغلب رجاله من خريجي الزيتونة.

لم يجد بورقيبة بدا من أن يسير على نهج الثعالبي، لكن مع محاولة الانحراف بالمسار شيئاً فشيئاً، حيث انشق مع بعض رفقائه عن الحزب الذي عملوا فيه منذ عودتهم من فرنسا في نهاية العشرينات وأسسوا حزب ضرار في شهر مارس ١٩٣٤، انضم إلى هذا الحزب العديد من مناضلي الحزب الأول الذي أسسه الشيخ الثعالبي إثر الحرب العالمية الأولى وذلك نظراً إلى كون الحزب هدأت حركته بفعل ما تعرض له من قمع وإبعاد للعديد من قياداته، وعلى رأسهم الشيخ الثعالبي، الذي اضطرت السلطات الفرنسية إلى مغادرة البلاد سنة ١٩٣٢ وهنا تجدر الإشارة إلى أن انضمام بعض المشايخ من علماء الزيتونة إلى ما سمي بالحزب الدستوري الجديد المنشق سنة ١٩٣٤ جاء نتيجة التزام بورقيبة بشكل منافق بالمحاور النضالية التي عبأ حولها الأهالي في بداية الثلاثينات من هذا القرن والتي تتعلق كلها بمسألة الهوية الثقافية المستهدفة من طرف السلطات الاستعمارية، إذ اطمأنت إلى وضعها في تونس فراحت تعدد من انتهاكات لمقدسات الشعب التونسي مستفزة مشاعره، وبالتالي استنهضت فيه مخزونه الجهادي، فخرج في موجات احتجاجية مدنية، متمثلة في سلسلة من المظاهرات والاضطرابات، التي اتخذت في كثير من الأحيان طابعاً عنيفاً، دافع بورقيبة عن مسألة الحجاب سنة ١٩٢٩، ولزم الصمت تماماً عندما نشر الطاهر الحداد كتابه الشهير حول المرأة في الشريعة والمجتمع ودعا إلى السفور مما أثار نقاشاً حاداً بين العلمانيين والأوساط الإسلامية والمحافظة بصفة عامة، إلا أن (بورقيبة) لم يشارك في هذا النقاش وكان ذلك من أجل إخفاء ما كان يصرح به في بعض المجالس الخاصة من أفكار علمانية، كان يعلم جيداً أنه لو



أعلنها صراحة لما تمكن من الزعامة التي كان يطلبها، ثم ساير سلسلة المظاهرات المنددة بالتجنيس والمتجنسين الذين اعتبروا مرتدين ورفض الشعب التونسي دفنهم في مقابر المسلمين، وكان يرى بأمر عينه أن هذه المظاهرات خرج أغلبها من مساجد وجوامع المدن التونسية، كما انضم بورقية إلى الذين ساندوا طلاب الجامعة الإسلامية في إضرابهم سنة ١٩٣٣ وكتب ما مفاده أن آخر معاقل الصمود ضد الاستعمار هو الجامع الأعظم، وأن التعليم الزيتوني هو القاعدة الصلبة في حماية الخصوصيات العربية الإسلامية للشعب التونسي.

هكذا تمكن أبو رقية من كسب مساندة بعض العلماء والطلبة بعد أن استقطب جانبا مهما من الأهالي، لذلك نجد أن معظم الذين خرجوا في مظاهرات ٩ ابريل ١٩٣٨ هم من طلاب وأساتذة الجامع الأعظم، ومن بينهم أيضاً كان القتلى والجرحى والمعوقون وفي إثر الحرب العالمية الثانية، عندما سافر بورقية إلى المشرق العربي واستقر بمصر لمدة زمنية، لقي الدعم من طرف الحركة الإسلامية هناك على أساس أنه زعيم وطني لبلد إسلامي يبحث عن استقلاله وانعتاقه من ربة الاستعمار، ففتحت له منابرها ودور أنشطتها ووقع احتضانه على هذا الأساس، إلا أن الصراع بين الإسلاميين والخط الذي كان يتزعمه بو رقية في حزب الدستور بدأ في الظهور في بداية الخمسينات عندما تم الحديث عن المشاركة في السلطة في إطار حكومة استعمارية يتم تقاسم المناصب فيها مع وزراء فرنسيين، وهذا الصراع يمثل موقف الطرفين من الاستعمار والإصلاحات المطالب بها في ظله، فطلاب الجامعة الزيتونية - ممثلين في منظماتهم صوت الطالب الزيتوني - والتيار الإسلامي بصفة عامة يرون وجوب فرض إصلاحات دون المشاركة في السلطة الاستعمارية ويلتقون مع غيرهم من الوطنيين في بعض الأحزاب الأخرى في المطالبة بالاستقلال التام، وعدم الدخول في مفاوضات ما يسمى بالاستقلال الداخلي، كان هذا التيار مدعوما من طرف الحزب الدستوري الأول ومكتب المغرب العربي بالقاهرة والذي كان يشرف عليه الشيخ عبدالكريم الخطابي.

كان هذا المكتب يرى ضرورة التنسيق بين حركات التحرير في المغرب العربي حتى لا تنفرد فرنسا بكل قطر على حدة، في حين كان حزب الدستور الجديد (أي حزب بورقيبة) يفكر على عكس ذلك تماما وخاصة (بورقيبة) الذي صرح منذ نهاية الثلاثينات أنه لا يمكن أن يتحقق الاستقلال إلا في إطار المشاركة والتعاون مع فرنسا، وعلى هذا الأساس دخل في مفاوضات مع حكومة الجبهة الشعبية التي وصلت إلى السلطة في فرنسا سنة ١٩٣٦، حيث لم يكن بورقيبة يؤمن في يوم من الأيام بالقطيعة مع فرنسا الاستعمارية سواء على المستوى السياسي أو الثقافي، وكان يؤكد على أن العلاقة مع فرنسا والحضارة الغربية ستبقى متميزة، وأنه يجب على تونس وأهلها أن يولوا وجوههم صوب الغرب وليس صوب الشرق، وكان يقول منذ الثلاثينات في بعض المجالس الخاصة (حسب ما يرويه الشيخ المجاهد محمد الصالح النيفر رحمه الله) إنه (بورقيبة) «لا يراهن على حصان خاسر» ويقصد به الإسلام، في حين كان يراهن على فرنسا، أما علاقة القضية التونسية بقضايا المغرب العربي التحررية فإنه لا يرى موجبا لربطها ببعضها، خاصة وأن الجزائريين كانوا أكثر تشددا في التعامل مع الاستعمار، لذلك صرح مرارا أنه غير مطالب بجر «العربة الجزائرية» إذا كانت تأبى السير، أي إذا كانت تأبى التفاوض والتعامل سلميا مع السلطة الاستعمارية والرضا بما يحققه ذلك ولو كان زهيدا.

وقد تبنى بورقيبة خطابا سياسيا وثقافيا ضمنه بعض المحتويات الإسلامية كما ساند وتزعم بعض التحركات الشعبية المناهضة للسياسات الفرنسية وذات المطالب المتعلقة بالهوية العربية الإسلامية، كان ذلك أساسا من أجل استقطاب أوسع قاعدة شعبية له على حساب خصومه من الأحزاب الوطنية الأخرى، والتي كان لبعضها منطلقات إسلامية واضحة، قامت على أساسها منذ بدايتها، وذلك مثل حزب الدستور الأول الذي أسسه كما ذكرنا الشيخ الزيتوني وأبو الحركة الوطنية التونسية إثر الحرب العالمية الأولى.

والملاحظ أنه قد استمر التحالف بين بعض العلماء وحزب (بورقيبة) طوال الثلاثينات والأربعينات، وتجلى ذلك بوضوح في مؤتمر ليلة القدر سنة

١٩٤٧ والذي كان في الحقيقة عبارة عن جبهة تونسية ضمت أهم الفعاليات الوطنية ضد المستعمر، إلا أن الصدام بدأ كما ذكرنا في بداية الخمسينات عندما شارك حزب بورقيبة في حكومة ائتلافية في إطار السلطة الاستعمارية وطلب من الجميع الانصياع لأوامر الحكومة وفك الاضرابات، والكف عن الاحتجاجات ضد السلطة الاستعمارية، اتضحت نوايا حزب بورقيبة في كيفية التعامل مع الإسلاميين والإسلام - مسلحة مهمتها التعرض للعلماء والنشيطين من طلاب الزيتونة وتعنيفهم.

لما انطلقت حركة المجاهدين المسلحة ١٩٥٣ ضد الوجود الاستعماري في البلاد كان من بين قيادتها العديد من الإسلاميين الزيتونيين وكان الدور المشبوه الذي قام به حزب (بورقيبة) هو الوشاية بهم وتسليمهم للسلطة الاستعمارية بعد أن طالبهم بمغادرة الجبال وإلقاء أسلحتهم والكف عن العمليات العسكرية ضد الأهداف الاستعمارية.

تفجر الصراع على أشده بين الجناح العربي الإسلامي في الحزب الدستوري والجناح العلماني الموالي للغرب ثقافيا إثر قبول بورقيبة لما سمي سنة ١٩٥٥ الاستقلال الداخلي والتخلي عن المطالبة بالاستقلال التام، واعتبر ذلك من طرف الوطنيين الإسلاميين والعروبيين أنه خيانة للقضية الوطنية والمغربية باعتبار أن سعي فرنسا إلى التفريط النسبي والشكلي لوجودها في كل من تونس والمغرب جاء إثر اندلاع الثورة الجزائرية في بداية شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤، لذلك فإن القبول من طرف بورقيبة باختيار فرنسا الانفراد بالثورة الجزائرية للقضاء عليها، لما رأت فرنسا أن مجريات الأحداث في البلاد تسير ضد الجناح الموالي لها ثقافيا والقابل بشكل من التعاون معها، قررت إسناد ما سمي بالاستقلال التام لبورقيبة وأصدقائه في الوقت الذي اندلعت فيه معارك في طول البلاد وعرضها بين الوطنيين الإسلاميين والعروبيين من جهة - الذين رفضوا الصيغة التي توصل لها بورقيبة مع فرنسا فيما يخص الاستقلال مع التعاون مع فرنسا واحتفاظها ببعض القواعد العسكرية - والميليشيات البورقيبية التي كانت مدعومة من طرف الجيش والشرطة الفرنسية، هكذا تمت عملية سحق المعارضة الإسلامية قبل استلام

تام للسلطة من طرف بورقيبة ورفاقه، كما تبين أيضاً الدور المشبوه للسلطة الفرنسية في تغليب الطرف الذي يضمن لها مصالحها في المنطقة وإقصاء كل من يعارض ذلك.

والآن ما هي السياسات التي سينفذها بورقيبة إثر تسلمه السلطة من الإدارة الفرنسية؟ وإلى أي مدى كانت هذه السياسات وطنية ومسايرة لطموحات الشعب التونسي في الحياة الكريمة المتنافسة مع ثقافته العربية الإسلامية؟

لقد بادر بورقيبة بعد أن تخلص من المعارضة العروبية الإسلامية - التي وقع تصفيتُها جسدياً باعتقال رموزها - إلى تنظيم انتخابات صورية أعلن إثرها إلغاء الملكية وتبني النظام الجمهوري (٢٥ يوليو ١٩٥٧) ثم اتخذ مجموعة من القرارات التي سميت بالإصلاحات وكانت الغاية منها تغريب المجتمع وعلمنة الحياة السياسية، وبدأ بالإصلاحات المشؤمة بالجامعة الزيتونية التي عمل النظام الجديد ابتداء من إبريل ١٩٥٦ على إعادة النظر في وظيفتها التعليمية وحولها شيئاً فشيئاً إلى كلية للشريعة وأصول الدين بعد أن كانت جامعة تدرس بها كل العلوم ولها استقلالية تامة عن أنماط التعليم الأخرى التي سادت، سواء قبل دخول فرنسا أو بعدها، ثم في مرحلة ثانية وبسرعة عجيبة وقع تحويل المعاهد الزيتونية إلى مدارس للتعليم العام وإلحاقها بمؤسساته وذلك لتجفيف منابع الجامع الأعظم، ثم تحول هذا الأخير إلى جامع تقام فيه الصلاة فقط إلى اليوم ويحتفل فيه رسمياً بالأعياد الدينية استجداء لشرعية دينية للنظام مفقودة منذ البداية ولمجرد ذر الرماد في العيون.

وفي إطار ضرب المقومات الحضارية للشخصية التونسية وقع إلغاء الأوقاف وإلحاقها بممتلكات الدولة بمقتضى أمر صادر في شهر مايو ١٩٥٦، ومقتضى أمر ثان صادر يوم ١٨ يوليو من نفس السنة تم منع استحداث أحباس جديدة وفي يوم ٣ أغسطس من نفس السنة ألغيت المحاكم الشرعية وعوضت بما يسمى المحاكم المدنية، والتي هي في

الأصل استمرار للمحاكم الفرنسية السابقة، وامتداد لهذه الانتهاكات الموجهة للشريعة الإسلامية السمحاء، وبإرادة واضحة لتحدي الأسس الإسلامية التي كان يقوم عليها المجتمع التونسي تم يوم ١٠ أغسطس ١٩٥٦ الإعلان عن مجلة الأحوال الشخصية والتي عطلت بشكل مفضوح ونزق مجموعة من الأحكام الشرعية فيما يخص الحياة الزوجية كمنع الطلاق إلا بإذن من المحكمة ومنع تعدد الزوجات... ثم تجرأ فيما بعد على الدعوة إلى السفور وكان بورقيبة في جولاته في المدن والقرى التونسية يطلب من النساء مباشرة نزع السفساري<sup>(١)</sup> عنهن وقد يمد يده ليكشف عن وجه امرأة أو عن شعرها، ثم أباح الاختلاط بدون أي قيد أو شرط في المدارس والمؤسسات العمومية بصفة عامة، ثم دعا إلى إفطار رمضان والمجاهرة بذلك، واتخذ من الإجراءات ما يحمي ويشجع من أفطر أو أراد الإفطار في حين وضع العديد من العراقيل أمام من تمسك بالصيام من موظفي الدولة والجيش الوطني.

كما أنه لم يشترط في الدستور التونسي أن يكون دين الرئيس هو الإسلام، ولم ينص صراحة على أن دين الدولة هو الإسلام، وجاءت الصيغة التي تعرضت إلى هذه المسألة غامضة يفهم منها أن دين البلاد التونسية هو الإسلام وأن لغتها العربية ولكن لا يعني ذلك أن الدولة تتبنى الإسلام كدين والعربية كلغة، وجاءت كل القوانين لتؤكد ذلك إن أغلبها وضعي مستمد من الدساتير والقوانين الغربية، أما اللغة الأولى في البلاد فإنها الفرنسية ولا زالت المواد العلمية إلى اليوم تدرس بهذه اللغة، وحدث في السنوات الأخيرة تراجع حتى عن الجرعات المحدودة التي وقعت في الثمانينات في مجال التعريب، وتبقى تونس إلى اليوم من بين الأقطار العربية القلائل التي تعطل أسبوعيا يوم الأحد عوضا عن يوم الجمعة.

كما أن بورقيبة قد تهجم مرات عديدة في خطبه على الرسول عليه الصلاة والسلام، واعتبر القرآن الكريم جمعا لما كان سائدا في الجزيرة

(١) السفساري: نوع من غطاء الرأس عند النساء التونسيات.

العربية من خرافات وأساطير، كما حاول بورقيبة مرات عديدة إعادة النظر في قانون الميراث للتسوية بين الذكر والأنثى.

وقد ترتب على هذه السياسات انعدام الاستقرار السياسي للبلاد بين ١٩٥٦ و ١٩٦٢ باعتبار أنها لقيت معارضة شديدة من طرف الأوساط الزيتونية سواء منها العلمية أو السياسية أو العسكرية وسواء منها في الداخل أو الخارج، كما أنها تسببت في طمس الشخصية التونسية ببعديها العربي والإسلامي وإصابتها بالتشويه إلى حد الانفصام مما انعكس على مستوى السلوكيات الفردية والجماعية وكان من مظاهر ذلك اهتزاز الأسرة وارتفاع نسبة الطلاق وتزايد الإجرام وانتشار مظاهر التفسخ الأخلاقي بكل أنواعه.

إن المقارنة بين التجربة الجمهورية التي انطلقت سنة ١٩٥٧ والنظام الملكي في تونس (ملك العائلة الحسينية دام حوالي قرنين ونصف) تؤكد لنا مجموعة من الاستنتاجات التي حصلت لنا من خلال دراسة مقارنة للتجارب الجمهورية والملكية في العالم العربي، وكذلك النتائج السلبية لتعامل الإسلاميين وبعض العلماء مع هذه الأنظمة، على أساس أن النظام الجمهوري أقرب إلى النمط الإسلامي في الحكم حسب اعتقادهم:

اتسم الحكم الحسيني باحترامه للأسس الشرعية، التي كانت تقوم عليها الدولة بمختلف أجهزتها، والمجتمع في مختلف تنظيماته وسلوكياته، بل استمد جانبا من شرعيته كسلطة ونظام حكم من تطبيقه للشرعية الإسلامية، رغم المآخذ التي يمكن أن يؤاخذ عليها في بعض الجوانب، والناظر لا يجد في سجل تاريخ الحكم الحسيني دعوة أو عملاً ما يعمل على نقض الشريعة الإسلامية أو تعطيلها، كما أن النظام قد أولى العلماء ودور العلم أهمية كبرى وكان يستشيرهم في خصوص شئون الدولة.

من جهة أخرى كانت العلاقة بين العلماء والسلطة في ظل الملكية تقوم على الاعتراف والاحترام المتبادل، إذ قبل الباي باستقلالية العلماء ودور العلم عن الدولة رغم أن هذه الأخيرة كانت تمول في جانب المؤسسات التعليمية التي كانت أيضاً تعتمد على تمويل ذاتي لها باعتبار اعتمادها على

موارد الأحباس، لذلك كان العلماء يمثلون سلطة في المجتمع قائمة بذاتها وكانت مهمتها توجيه المجتمع من الناحية الفكرية والقيمية مع التزامها بحدود المجال الذي تعمل فيه واحترامها لمجال السلطة السياسية، كما أن القضية الاجتماعية التي كانت سائدة في ظل الحكم الملكي في تونس تعود إلى اتفاق الجميع - الأهالي والعلماء والسلطة - وذلك حول المشروع المجتمعي والذي كان يتلاءم والهوية العربية الإسلامية والانتماء الحضاري للشعب التونسي، وهذا أيضاً ما يفسر الاستقرار السياسي الذي كان سائداً في ظل النظام الجمهوري فإنها واجهت منذ تأسيسها إلى اليوم أزمتين شرعية، ولم تتمكن من فرض نفسها على المجتمع وخصومها السياسيين إلا بالحديد والنار، والمتابع للأوضاع في تونس يرى أن المحاكمات السياسية كانت دورية، سواء بسبب صراعات بين الأجنحة داخل الحزب الحاكم أو إثر انتفاضات شعبية معادية للسياسات المتبعة... إلخ.

لقد ضاعت في ظل الجمهورية كل الحقوق، وديست كل القيم من طرف الأجهزة المسؤولة عما يسمى بحفظ النظام، رغم التبجح بمقولات جوفاء نحو «دولة القانون» وحقوق الإنسان وفصل السلطات عن بعضها ودولة المؤسسات... إلخ، والحقيقة هي أن الدولة ليست حديثة إلا تظاهرياً ولكنها علمانية في العمق وأن المؤسسات ليس لها من الحداثة سوى التسمية أما آلياتها وأدائها فينم على أنها دولة دكتاتورية تسلطية، لم تترك أي مجال خارج دائرة نفوذها وأنها تراقب وتسيطر على ضمائر الناس، وقد اتضح أن «أبو رقية» في تونس جاء من فرنسا ليركب الموجه العالية موجة الإسلام، فيستميل الإسلاميين ويتبنى مطالبهم، وينال تأييدهم، ليكون هو أول من ينقلب عليهم بعد ذلك، حيث ألغى جامعة الزيتونة وحولها إلى كلية للشرعية فقط ذرا للرماد في العيون، وألغى الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية، وأبطل كثيراً من الأحكام الإسلامية المتعلقة بالأحوال الشخصية، ولم ينص الدستور على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام وأباح الإفطار في رمضان بل وجاهر به، وفي عهده ديست كل القيم وتم تغريب المجتمع التونسي.

هذا الذي ذكرناه في تونس يتكرر في الأنظمة الثورية الانقلابية في

العراق وليبيا والجزائر وغيرها من البلاد فهي ليست بأقل سوءا في الانقلاب على الإسلاميين بعد أن وصلت إلى سدة الحكم بمساندة ودعم الحركات الإسلامية التي دافعت عن هذه النظم ووقفت إلى جوارها، آملة منها أن تعمل على إقامة نظام الإسلام في البلاد ولكن سرعان ما تبين لها أنها واهمة، وأن الوهم زين لها ما ليس متاحا ولا صحيحا، فلم تزد هذه الأنظمة إلا بعدا عن الإسلام، وانحرافا عن الخط المستقيم، وارتقاء في أحضان الشرق تارة والغرب تارة أخرى، وتبيدا لثروة الأمة والدخول بها في متاهات أضاعت الأرض واستسلمت للعدو، ورضيت بما لم ترض به النظم السابقة على الثورات الانقلابية، فلما عارض الإسلاميون ذلك زج بالآلاف منهم في السجون والمعتقلات، وحوكم بعضهم وأعدم آخرون، وخفت الصوت الإسلامي، وعلا الصوت العلماني، وأدرك الإسلاميون أن حظهم مع أنظمة الحكم الانقلابية فاق حد الخداع، ووصل إلى الضرب حتى إزالة النخاع.





## ملحق (٣)





## انقلاب الضباط الأحرار يخلص بريطانيا من الملك فاروق:

جاء انقلاب مجموعة من الضباط الأحرار على الملك فاروق في فترة هيجان شعبي وطني ضد الوجود البريطاني في مصر والسودان وكانت هناك قوى سياسية وطنية تعمل على تخليص البلاد نهائياً من الاستعمار وتطالب بإصلاحات سياسية واقتصادية دون التشكيك في شرعية الملكية، خاصة وأن فاروق أعلن نفسه ملكاً على مصر والسودان، مما يعني تبنيه للقضية الوطنية والمسألة السودانية، فوجدت نفسها في ورطة أمام جمع الملك للقضيتين وتبنيه لهما معاً، وأصبحت تطالب بإلغاء ملكيته على السودان أو التنحي، وبالتالي فإنها تدعم كل من يزيحه عن الحكم وهي المهمة التي قام بها الضباط الأحرار في انقلاب يوليو ١٩٥٢ لم تتحرك القوات البريطانية ولم تقم بأي شيء مناوئاً للانقلابيين وهي الرابضة في السويس، هذا بالنسبة لبريطانيا العظمى فماذا عن موقف أمريكا؟

## انقلاب يوليو الأمريكي:

يعلم مؤرخو الانقلاب أن الضباط الأحرار كانوا على اتصال بالمخابرات الأمريكية (كان الاتصال بين المخابرات الأمريكية وتنظيم الضباط الأحرار يتم عن طريق - علي صبري - الذي يشتغل بمخابرات سلاح الطيران المصري) كانت السفارة الأمريكية على علم بأنه توجد عملية ما يرتب لها الضباط (أعلم الضباط الأحرار المخابرات الأمريكية بالانقلاب قبل حدوثه بأسبوع أي بتاريخ ١٩ يوليو) كما بادر الضباط ومنذ الساعات الأولى للانقلاب إلى إعلام السفارة الأمريكية (أبلغ علي صبري - السفارة الأمريكية نبأ الانقلاب الساعة الرابعة صباحاً من يوم ٢٣ يوليو وأكد لها أن النظام الجديد يضمن سلامة أشخاص وممتلكات الأجانب المقيمين في مصر) لم تستغرب السفارة الأمر وتبنت مهمة إقناع البريطانيين بجدوى الانقلاب، كانت أمريكا تبحث هي أيضاً عمن يمسك الأمور بيده حتى لا يؤدي الوضع إلى ثورة وطنية معادية للاستعمار دون أن تتمكن من توجيه القائمين عليها الوجهة التي تريدها، كما أنها كانت تلاحظ تراجع الاستعمار التقليدي في المشرق

العربي وتقدم الاتحاد السوفيتي وكانت أمريكا ترى أن فرنسا وبريطانيا عاجزتان عن التصدي للزحف الروسي لذلك كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على احتلال المواقع التي قد تتركها بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط في إطار ما أطلق عليه «الاستعمار الجديد» الذي يتمثل في تنصيب أنظمة طيبة وتابعة للقوى الاستعمارية تنوب عنها في تنفيذ أغراضها، دون أن تضطر هذه القوى للنزول بجيوشها لاحتلال المستعمرات هكذا ظهرت عبارات من نوع «ثورة يوليو الأمريكية» لدى البعض، إن العلاقة المشبوهة للانقلابيين بالقوى الدولية الاستعمارية ستتأكد فيما بعد عندما توقع مصر على اتفاقية الجلاء مع الإنجليز يوم ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ والتي كانت تنص على إمكانية استعمال الأراضي المصرية من طرف القوى البريطانية إذا ما وقع الاعتداء على بعض الدول الحليفة لبريطانيا في المنطقة (الفقرة الرابعة من الاتفاق)، هذا يعني بقاء ضمنيا للقواعد العسكرية البريطانية في مصر.

### **أمريكا جهزت مصر بإذاعة صوت العرب وأنقذت عبدالناصر من السقوط في حرب السويس:**

أما فيما يخص الأمريكان فإنه كان لهم شرف تجهيز مصر سنة ١٩٥٤ بتجهيزات الإرسال الإذاعي لمحطة صوت العرب التي ستعتمد كأداة رئيسية للدعاية المصرية في العالم العربي، كما قام الأمريكان بإقناع الإنجليز أن الانقلاب الناصري هو المخرج الوحيد من الأزمة التي نشبت بينهم وبين القصر إثر إعلان فاروق نفسه ملكا على مصر والسودان، كما أننا لا ننسى الدور الأمريكي في إنقاذ نظام عبدالناصر إثر العدوان الثلاثي على مصر في إطار أزمة قناة السويس سنة ١٩٥٦، إن الدارس لوقائع حرب السويس يلمس بوضوح انهزام النظام المصري وتراجعهم وكان بإمكان القوات البريطانية والفرنسية التي كانت تتقدم نحو القاهرة إسقاط عبدالناصر لولا الضغوط الأمريكية والسوفياتية عبر الأمم المتحدة.

### **التأميم سياسة فاشلة والتنمية من مشمولات المجتمع لا الدولة.**

إن التحول الذي حدث في التوجه المصري من المعسكر الغربي إلى

المعسكر الشرقي لم يكن اختياراً استراتيجياً بقدر ما كان رد فعل على تلكؤ الأمريكان والغرب عموماً في مسألة تمويل السد العالي، كان عبدالناصر يقول: إن الشيوعية خطر ولكن الاستعمار أخطر منها، لكن أن يتحول عبدالناصر من متحالف مع الغرب إلى متحالف مع الشرق ليس هو المهم بالنسبة لنا طالما أن علاقاته هذه لم يستفد منها المجتمع ولا الدولة المصرية بقدر ما كانت في كل الحالات تخدم مصلحة القوى الاستعمارية والفئة المتنفذة في البلاد.

لم تستفد مصر كثيراً من السياسات الناصرية باعتبار أن الاشتراكية والتأميم لم تكن نتيجته سوى القضاء على طبقة الرأسمالية الوطنية التي تكونت نواتها منذ ما قبل محمد علي - والتي ضربت للمرة الأولى من طرف هذا الأخير ثم تشكلت من جديد واستطاعت أن تفلت إلى حد ما من الانقراض في ظل الاستعمار البريطاني، وجاء انقلاب الضباط الأحرار ليقضي عليها ويعطل الدور التنموي الذي كان من المفروض أن تقوم به، لقد ثبت بطلان أيدلوجية الدولة الوطنية التنموية إذ عجزت هذه الأخيرة في إحداث النقلة الحضارية والإقلاع الاقتصادي والرخاء بتحملها لكل أعباء مقاومة التخلف وتصديها لهذه المهمة بصورة فورية، وكأن التقدم هو من مهام الدولة وحدها دون بقية مكونات المجتمع من قطاع خاص، ومجموعات محلية، ومنظمات حرفية وقطاعية، عجزت الدولة في ظل الانقلابيين عن القيام بالمهام التي كانت تقوم بها بعض فئات المجتمع بتنسيق أو بمعزل عن الدولة، وكانت نتيجة هذه السياسات تضخم جهاز الدولة إلى حد حولها إلى إدارة ثقيلة تعطل سير الحياة أكثر مما تسهلها، مصابة بالفساد في كل مستوياتها قاضية على المبادرة الفردية، تحولت الطبقة السياسية بمفعول ما تجمع بيدها من نفوذ وأدوات السلطة إلى طبقة اجتماعية تكونت ثروتها من استغلالها لمواقعها في جهاز الدولة لا من تعاطيها نشاطاً ما فكانت بذلك طبقة طفيلية.

استغل الضباط انتفاضة الوطنيين ضد بريطانيا لتحقيق الانقلاب، حسب مذكرات السادات كانت مهمة الانقلابيين تتمثل في مقاومة الاستعمار والعرش

والإقطاع وإقامة حياة ديمقراطية حرة، أما مقاومة الاستعمار فإننا بينا العلاقة التي كانت للضباط مع المخابرات الأمريكية واتفاقية ١٩٥٤ مع بريطانيا لكننا نريد أن نضيف هنا أنه لم يكن للضباط دور يذكر سنة ١٩٥١ و ١٩٥٢ عندما كان الوطنيون يقاومون القوات البريطانية في القناة والإسماعيلية، كان للوفد والإخوان والبوليس المصري جولات مع العساكر البريطانيين كما شهدت مصر حركة عصيان مدني إذ غادر آلاف العمال مواقع عملهم في المعسكرات البريطانية وكانت المظاهرات تجوب شوارع أهم المدن تنظمها القوى الوطنية المعادية للتواجد البريطاني، دامت هذه الحركة ثلاثة أشهر (١٩٥١ - ١٩٥٢) ولم يكن حقيقة للضباط الأحرار دور مباشر، كانت المواجهة التي قادها الوفد والإخوان مع القوات البريطانية والتي وصلت حتى حرب العصابات قد اندلعت شرارتها لما مورست ضغوط غربية ضد الحكومة المصرية في شهر أكتوبر ١٩٥١ لانضمامها إلى سياسة الأحلاف التي كان ينتهجها الغرب في البحر الأبيض المتوسط، توافق رفض الحكومة الوفدية لسياسة الأحلاف هذه مع تراجعها عن اتفاقية مصر وبريطانيا المتمثلة في معاهدة ١٩٣٦، (معلوم أن هذه المعاهدة تسمح لبريطانيا بالاحتفاظ بقواعد عسكرية بمنطقة قناة السويس).

إن إلغاء هذه المعاهدة وإعلان فاروق نفسه ملكا على مصر والسودان والدخول في مواجهة مع البريطانيين في مصر يكذب ادعاءات الانقلابيين أنهم الوحيدون الذين يعملون على التخلص من الاستعمار باعتبار أن القوى الوطنية دخلت مرحلة تصفية الوجود البريطاني في حين كان الضباط يخططون للانقلاب وتسلم السلطة مما أجل التخلص من القوات الاستعمارية، وفتح مصر بشكل آخر للاستعمار الجديد، ماذا كان يفعل الضباط الأحرار عندما كان الإخوان المسلمون وغيرهم من القوى الوطنية الصادقة يخوضون المواجهة مع القوات البريطانية في نهاية ١٩٥١ وبداية ١٩٥٢؟ ما هو الدور الحقيقي الذي كان للضباط الأحرار في تلك المواجهة؟

أولا أنهم لم يشاركوا في المواجهة إلا بصورة غير مباشرة، ثانيا اكتفى الجيش المصري بتدريب المتطوعين وتسليحهم فقط، كان الضباط يريدون

استغلال الوضع المتفجر لإنجاز انقلابهم الذي كان مخططاً له سابقاً أن يتم سنة ١٩٥٥، هكذا قام الضباط باستثمار مجهود غيرهم لصالحهم ولصالحهم فقط رغم أنهم أوهموا العديد من التنظيمات الوطنية أنهم على اتفاق تام في الأهداف مما جعل العديد من الوطنيين ينظرون إلى حركة الضباط على أنها ثورتهم.

### الضباط على اتصال بكل الأحزاب والجماعات:

كان الضباط على اتصال بالإخوان وبعض التنظيمات اليسارية كما كان بعض الضباط مثل ناصر - على علاقة منذ شبابه مع تنظيم مصر الفتاة، كان بعض الضباط الأحرار على علاقة بالإخوان منذ بداية الأربعينات (تحديداً سنة ١٩٤١)، وكان أبرزها الذين اتصلوا بالإخوان هو أنور السادات، وعبد المنعم عبدالرؤوف ثم الملازم كمال الدين حسين الذي كان يعمل في سلاح المدفعية، وكان السادات هو مندوب الاتصال بين الضباط الأحرار - الذين لم يشكلوا تنظيمًا حقيقياً إلا سنة ١٩٤٩ - والإخوان سنة ١٩٤٥ و١٩٤٦، أما زمن المواجهة مع القوات الإنجليزية سنة ١٩٥١ وبداية ١٩٥٢ فقد كان عبدالناصر نفسه على علاقة بعبدالقادر عودة من الإخوان.

إلى جانب علاقاتهم بالإخوان كان الضباط على اتصال بتنظيمات أخرى، كالشيوعيين وكان ممثل الضباط هو خالد محي الدين، واعتقد الشيوعيون مثل غيرهم أن الضباط الأحرار أعضاء بتنظيمهم، بل أكثر من ذلك تشير بعض المصادر إلى أن الشيوعيين سجلوا اسم عبدالناصر في قوائم المنتظمين لديهم، من جهة ثالثة كان الضباط الأحرار على اتصال بحزب الوفد عن طريق ثروت عكاشة.

وتشير العديد من المصادر إلى أن عبدالناصر كان على علاقة مع أكثر من حزب وتنظيم وعلى اتصال بشخصيات عديدة اختلفت انتماءاتها، في حين كان يخفي عن زملائه العديد من هذه العلاقات ويستعملها للاطلاع على مواقف ومخططات هذه الأحزاب، كان لا يصرح بنواياه وحساباته، إلا أن المهم في كل ذلك أنه كسب ثقة الشخصيات والأحزاب التي كان الضباط

على اتصال بها واستثمرها لصالح الانقلاب، وكانت الشعارات التي رفعها الانقلابيون ليست إلا من قبيل الطعم الذي يريد به استدراج الأحزاب والشعب لتأييده، إنها شعارات كاذبة والمثال الصارخ على ذلك مسألة الديمقراطية.

### هل أمن الضباط يوماً بالديمقراطية؟

عندما حدث انقلاب الضباط كانت تعيش في ظل نظام ملكي، مع وجود برلمان منتخب، وحكومة مسؤولة أمامه، وتعددية حزبية وحرية إعلام منقطعة النظير في العالم العربي، وهنا يطرح السؤال عن طبيعة وخصوصيات النظام الديمقراطي الذي ينوي العسكريون إقامته في مصر على أنقاض النظام الملكي البرلماني التعددي السابق؟ الجواب على هذا السؤال لا يكون إلا بدراسة طبيعة نظام الحكم الذي أقامه الانقلابيون وإن كانت توجد لدينا بديهية مفادها أن الديمقراطية لا تولد أبداً من رحم الانقلابات بصفة عامة والعسكرية منها بصفة خاصة.

انتصب في مصر على مراحل نظام عسكري ديكتاتوري وإن خلع الضباط ابتداء من سنة ١٩٥٦ الذي العسكري ليحكموا على أساس صفتهم المدنية، ولكن بعقلية وأساليب سلطوية، في الحقيقة انكشف الوجه الدكتاتوري لمجموعة الضباط الأحرار منذ الأيام الأولى، وإن حاولوا إخفاء ذلك بتعيين وزارة مدنية كان على رأسها علي ماهر - شديد العداء للإنجليز مما يرضي ويطمئن العديد من الأطراف الوطنية والملك، وبعض القوى الأجنبية، كان علي ماهر بالنسبة للضباط عبارة عن واجهة تعتمد عليها لفترة ما، وفعلاً لم يبق على رأس الوزارة أكثر من شهر، إذ عزل لقوة شخصيته وشدة عدائه للإنجليز، في نفس الإطار وإثر التخلص من علي ماهر - أرغم الضباط الملك فاروق على التنحي لصالح ابنه الذي وضع تحت وصاية هيئة مكونة من ثلاثة أشخاص من بينهم أحد الضباط الأحرار.

كان الضباط الأحرار في الأشهر الأولى من حكمهم يفكون حلقات المجتمع السياسي السابق الواحدة تلو الأخرى في اتجاه سيطرتهم التامة على



السلطة والمجتمع، إلا أن مستقبل علاقة الضباط بالمجتمع وحقه في التعبير والاحتجاج والمطالبة خارج القنوات الرسمية والصيغ المقررة له مسبقا ستتكشف بمناسبة إضراب عمال مصنع الغزل بكفر الدوار، جاء هذا الإضراب الذي قام به حوالي عشرة آلاف عامل بعد ثلاثة أسابيع فقط من انقلاب الضباط، وكان العمال يطالبون من زمان بتحسين أوضاعهم المعيشية والمهنية، فما كان من السلطة الوطنية الجديدة إلا أن واجهت المضربين بإطلاق النار عليهم فقتل بعضهم وأعدم الآخر فيما بعد مع إيقاف حوالي ٢٠٠ عامل. ومهما كانت منطلقات العمال المصريين السياسية أو الفكرية - وإن كان الإضراب احتجاجا على تباطؤ الإدارة في تلبية المطالب الملحة - فإن قمع الإضراب بتلك الوحشية ينم عن تصور الضباط لدور الشعب على اختلاف فئاته في الحياة السياسية والاجتماعية، وهو تصور يتنافى والشعارات التي رفعها الضباط والمتمثلة في الديمقراطية.

إثر حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ استعان الملك فاروق بالجيش ونشر يومها الضباط الأحرار ما يلي: مهمة الجيش هي العمل على استقلال البلاد وإن وجود الجيش في شوارع القاهرة إنما هو لإحباط مؤامرة الخونة، لكننا لا نقبل ضرب الشعب، ولن نطلق رصاصة واحدة على مظاهرة شعبية، يجب أن يفهم الجميع أننا مع الشعب الآن ومع الشعب دائما (المصدر: منشورات الضباط الأحرار) هذا ما كان يعلنه الضباط الأحرار قبل انقلابهم أما بعده مباشرة فإنهم تعاملوا بالطريقة التي بينها سابقا مع العمال المضربين.

سيتأكد في الأشهر التي تلت الإضراب اتجاه الضباط نحو تحديد مؤسسات المجتمع الأهلي من خلال علاقة السلطة بالأحزاب والنقابات، ومن جهة أخرى تخلت عن الواجهة المدنية لحكمها بتنصيب ضابط على رأس الوزارة هو نجيب وإن كان هذا الأخير أكثر الضباط شعبية، والذي سيرتقي ليصبح أول رئيس للدولة لكنهم سيتخلون عنه عندما ابتدأ الصراع مع الأحزاب ويظهر أن نجيبا لم يكن في يوم من الأيام من مجموعة الضباط الأحرار وإن كان قريبا منهم.

سبقت عملية حل الأحزاب التخلص من بعض رموزها في إطار ما سمي بتطهير الأحزاب وهو الطلب الذي توجه به الضباط إلى الأحزاب وكان في الحقيقة الغاية منه إضعافها بإحداث صراعات في داخلها تجعلها غير قادرة على مقاومة السلطة الجديدة، كانت في مصر في بداية الخمسينات أحزاب وتنظيمات سياسية عريقة وقوية ولها شعبيتها ونشاطاتها وهذا لا يمكن للنظام الجديد تجاهله وذلك مثل جماعة الإخوان وحزب الوفد الذي كان يتزعمه النحاس.

كان للأحزاب والنقابات موقف إيجابي من الانقلاب على أساس أن الجيش سيعود إلى ثكناته ويسلم السلطة إلى المدنيين وتتواصل بعد ذلك الحياة الديمقراطية، وكان ذلك وهما باعتبار أن الضباط سيخلعون الزي العسكري، ويبقون في السلطة على أساس أنهم مدنيون، فهدمت الأحزاب والنقابات ذلك سنة ١٩٥٤ فطالبت نقابة المحامين والصحفيين بوضع حد للحكم العسكري بإعلان الحريات والحكم الديمقراطي وعودة العسكر إلى الثكنات، وأدى ذلك إلى مواجهة بين الضباط والصحفيين كانت نتيجتها حل النقابتين.

إن عملية التطهير هذه كانت قد انطلقت في صفوف الجيش منذ الأيام الأولى للانقلاب ثم طالت أجهزة الدولة والأحزاب لأن الضباط الأحرار لا يتصورون أنفسهم يحكمون البلاد فقط بل أصبح الولاء هو المعيار الوحيد لتحمل المسؤولية، وإثر محاولة تأزيم الأحزاب بخلق صراعات في داخلها عمدت السلطة الجديدة في مرحلة ثانية إلى منعها كما منعت المظاهرات والإضرابات وحلت النقابات والجمعيات وانتهت بذلك الحياة الديمقراطية لتحل محلها الدكتاتورية.

معلوم لدى الجميع أنه في ظل هذه الدكتاتورية ولدت الإدارة الثقيلة والفسادة وتعمق التخلف في المجالات سواء منها التعليمية والتربوية أو الاقتصادية والاجتماعية، إذ بقيت البنية التحتية الضرورية للتنمية متخلفة جدا، والمقارنة اليوم بين الخدمات في المغرب الأقصى الملكي والجزائر

الجمهورية تبين بوضوح أن الأنظمة العسكرية الانقلابية لم تنجح في تحقيق ما رفعته من شعارات رغم ما أتيح لديها من إمكانيات مادية ضخمة ولا مجال للمقارنة بين الثروة البترولية التي تمتلكها الجزائر وموارد المغرب الأقصى، أما العراق فإنه وجه كل طاقاته لتطوير أسلحة الدمار التي استعملها في النهاية ضد شعوب عربية ومسلمة - الغزو العراقي الآثم على الكويت وجيرانها - وضد شعبه بالذات وترك الشعب العراقي في غذائه وأدوائه رهنا للخارج، كما أنه لا مجال للمقارنة بين البنية التحتية لدول الخليج اليوم والأقطار العربية النفطية المحكومة من طرف العسكريين، ألم يكشف بعض المسؤولين الجزائريين النزهاء أن ديون الجزائر تعادل ما قبضه بعض المرتشين في أجهزة الدولة من الشركات الأجنبية ووضعوه في حساباتهم في البنوك بالخارج! . في الوقت الذي كان عبدالناصر يبحث عن قروض من البنوك الدولية لتمويل بعض المشاريع الخيالية في مصر كان يجد ملايين الدولارات ليمول التدخل المصري في اليمن إثر الإطاحة بالإمامية سنة ١٩٦٢، أما على المستوى السياسي فإن القمع الوحشي للمعارضين في مصر لم يشهده أي بلد عربي، كما لم يعرفه المصريون في عهد الملكية، ولا يستغرب ذلك من نظام جمهوري انقلابي عسكري كان زعيمه يمارس لاغتيال حسين سري عامر يوم ٧ يناير ١٩٥٢ وهو الضابط الذي نافس نجيباً مرشح الضباط الأحرار لرئاسة نادي الضباط يوم ٦ يناير ١٩٥٢؟ وهذا يذكرنا بأن ممارسة الاغتيال السياسي تلزم العقلية الانقلابية لدى العسكريين العرب، هنا لا بد من التذكر أن صدام حسين الدكتاتور العربي الآخر تورط هو أيضاً سنة ١٩٥٩ في محاولة اغتيال عبدالكريم قاسم، تفاقمت في الحقيقة ظاهرة الاغتيال السياسي في العالم العربي مع ازدياد عدد الأنظمة والحركات الانقلابية ولا يخفى على أحد أن وحشية هذه الأنظمة في تعاملها مع معارضيها وشعوبها تعود إلى أن القائمين عليها دخلوا عالم السياسة متسلقين الجدران أو من الأبواب الخلفية، عاملين على تحويل الأقطار التي يحكمونها إلى ثكنات سكانها من الجنود شعوبهم إذا ما تمردت عليهم معاملة العسكر لعدوه في الحرب بل يتجاوزون ما تسمح به أخلاقيات الحرب باعتبار أنهم

ينكلون بأناس عزل شر تنكيل، إن التعذيب والمعاملات غير الإنسانية التي يتعرض لها المعارضون في سجون الجمهوريين الانقلابيين الذين جاؤوا لتوفير نظام الحرية والديمقراطية إلى غير ذلك من الشعارات ليدكرنا بممارسة أعتى أعداء الإنسانية في العصور الحديثة، ألم يصل الأمر بصادم حسين - إلى استعمال الأسلحة المحرمة دولياً ضد أبناء شعبه؟

### (حادثة حلبجة على الأكراد والعراقيين):

كم عالم وشيخ أهين أو عذب أو قتل أو شرد في أحسن الأحوال من طرف الأنظمة الجمهورية الانقلابية؟ إن القائمة طويلة طويلة جداً، بل أكثر من ذلك أن العلماء والدعاة إلى الله الذين تمكنوا من النجاة بشكل أو بآخر من أنظمة السوء الدموية هذه ووجدوا الرعاية والأمن لدى الأنظمة الملكية.



## المصادر والمراجع

- أ -

□ أولاً: القرآن الكريم.

□ ثانياً:

- ١ - إبراهيم أحمد العدوي، رشيد رضا أعلام العرب «٣٣»، مصر ١٩٦٤م.
- ٢ - إبراهيم عبدالرحمن آل خميس، آل سعود، دار النجاح، بيروت سنة ١٩٧٢م.
- ٣ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٨٢م.
- ٤ - ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥/١٩٧٨م.
- ٥ - ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- ٦ - الحافظ ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٧، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.
- ٧ - الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط٥، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ٨ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٩ - أبو يعلى، الأحكام السلطانية.
- ١٠ - أحمد السباعي، تاريخ مكة، مصر ١٣٨٢هـ.
- ١١ - أحمد أمين، زعماء الإصلاح، مكتبة النهضة، مصر، ط٣، ١٩٧١م.

- ١٢ - أحمد بن حجر آل بن علي، الشيخ محمد عبد الوهاب، من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية ١٣٩٩هـ.
- ١٣ - أحمد ربيع عبد الحميد خلف الله، الفكر التربوي وتطبيقاته لدى جماعة الإخوان المسلمين، مكتبة وهبة، مصر، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ١٤ - أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧م.
- ١٥ - إسماعيل إبراهيم أبو شريعة، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٨١م.

## - ب -

- ١٦ - بشير محمد سعيد، في السياسة السودانية، الخرطوم، ط ١، ١٩٩٣م.
- ١٧ - بنت الشاطيء، نساء النبي، دار الكتاب، بيروت، ١٩٦٩م.

## - ت -

- ١٨ - تقي الدين أحمد بن تيمية، السياسية الشرعية، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
- ١٩ - تقي الدين بن تيمية، رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق صلاح الدين المنجد.
- ٢٠ - ت.أ. لورنس، مذكرات، أعمدة الحكمة السبعة، المكتبة الأهلية، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٧١م.

## - ج -

- ٢١ - جمال الدين الأفغاني، العروة الوثقى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ٢٢ - جورج أنطونيوس، يقظة العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٧، ١٩٨٢م.
- ٢٣ - جمهورية السودان، الاستراتيجية القومية الشاملة، ١٩٩٢ - ٢٠٠٢م، مجلد ١، ط ٢ سنة ١٩٩٢، مطبعة جامعة الخرطوم.

## - ج -

- ٢٤ - حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، منشورات جامعة بيروت العربية، ١٣٩٨هـ/١٩٨٧م.
- ٢٥ - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، دار النهضة المصرية، ط٧، ١٩٦٤م.
- ٢٦ - حسن البنا، مجموعة رسائل، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٢٧ - حسن الترابي، الحركة الإسلامية في السودان، الخرطوم، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- ٢٨ - حسن الهضيبي، دعاة لا قضاة، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ٢٩ - حسين مؤنس، الحضارة، عالم المعرفة «١»، الكويت، صفر ١٣٩٨، يناير ١٩٧٨م.

## - خ -

- ٣٠ - خالص جبلي، في النقد الذاتي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- ٣١ - خير الدين التونسي، مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق معن زيادة، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.
- ٣٢ - خير الدين الزركلي، الأعلام «قاموس»، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.
- ٣٣ - راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- ٣٤ - الإمام الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، تحقيق إبراهيم بركة، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٤١٤هـ/١٩٩٢م.
- ٣٥ - زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، دار النهار، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.

## - س -

- ٣٦ - سليمان الطماوي، عمر بن الخطاب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٠م.
- ٣٧ - سليمان موسى، الحركة العربية «١٩٠٨ - ١٩٢٤م»، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

٣٨ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ط ٥، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.

٣٩ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصر، ط ١، ١٩٥٢م.

### - ش -

٤٠ - الشاطبي، الموافقات، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ «٤ مجلدات».

٤١ - الشهرستاني، نهاية الإقدام، تحقيق: ألفرد جيوم، بدون تاريخ، بدون مكان نشر.

### - ص -

٤٢ - صلاح شادي، صفحات في التاريخ، الكويت، ط ٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤٣ - صحيح البخاري، منشورات دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، يدخل في محمد إسماعيل.

### - ط -

٤٤ - طامي البقي، التطبيقات العملية للحسبة في المملكة العربية السعودية، رسالة دكتوراه، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م الطائف، الجمعية الخيرية بترية.

٤٥ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ.

٤٦ - طعيمة الجرف، نظرية الدولة والأسس العامة للتنظيم السياسي.

### - ع -

٤٧ - عبدالحميد الأنصاري، الشورى وأثرها في الديمقراطية، القاهرة، ط ١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٤٨ - عبدالحميد الثاني، السلطان، مذكراتي السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٤٩ - عبدالرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الأمصار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

٥٠ - عبدالرحمن بن عبدالله آل الشيخ، مشاهير علماء نجد وغيرهم، دار اليمامة، ط ٢، ١٣٩٤هـ.

٥١ - عبدالفتاح ساير داير، القانون الدستوري.



- ٥٢ - عبد القديم زلوم، كيف هدمت الخلافة، دار الأمة للطباعة والنشر، بيروت، ط ٣، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ٥٣ - عبد الكريم زيدان، السنن في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ٥٤ - عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، وزارة المعارف السعودية في المملكة العربية السعودية ١٣٨٧هـ.
- ٥٥ - علي الطنطاوي، محمد بن عبد الوهاب، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٦١م.
- ٥٦ - علي جريشة، دعاة لا بغاة، دار البحوث العلمية، الكويت، ط ١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ٥٧ - علي عبد الحليم محمود، رسائل التربية عند الإخوان المسلمين، دار الوفاء، مصر، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

## - ف -

- ٥٨ - فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٤، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٥٩ - فتحي يكن، المسألة اللبنانية من منظور إسلامي، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة، بيروت، ط ١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ٦٠ - فتحي يكن، الموسوعة الحركية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ٦١ - فتحي يكن، الأيدز الحركي، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- ٦٢ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

## - ل -

- ٦٣ - لورانت شايري، السياسة وأقليات في الشرق الأدنى، ترجمة ذوقان قرقوط، مكتبة مدبولي، مصر، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

## - م -

- ٦٤ - المسعودي، مروج الذهب، دار الأندلس، بيروت، ط ٥، ١٩٨٣ م.
- ٦٥ - أبو الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مطبعة السعادة، مصر.
- ٦٦ - الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.
- ٦٧ - مايلز كوبلان، لعبة الأمم، ترجمة إبراهيم جزيني، بيروت، ١٩٧٠ م.
- ٦٨ - محمد بن علي الشوكاني، نيل الأوطار، مطبعة الحلبي، الطبعة الأخيرة.
- ٦٩ - محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي، دار النفائس، بيروت، ط ٦، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.
- ٧٠ - محمد رشيد رضا، نظام الحكم الإسلامي مقارناً بالنظم المعاصرة، دار الفكر، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣ م.
- ٧١ - محمد رشيد رضا، مجلة المنار، مصر.
- ٧٢ - محمد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩ م.
- ٧٣ - محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية، دار البيان، الكويت، ط ٢، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م.
- ٧٤ - محمد فاروق النبهاني، نظام الحكم في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.
- ٧٥ - محمد فؤاد إبراهيم وغيره، المعرفة، سويسرا، تم الإنتاج في بيروت.
- ٧٦ - محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م.
- ٧٧ - محمود حلمي، نظام الحكم الإسلامي مقارناً بالنظم المعاصرة، دار الفكر، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٣ م.
- ٧٨ - مصطفى الرافعي، الدعوة والدعاة في الإسلام، دار الشمال، لبنان، ط ١، ١٩٧٧ م.
- ٧٩ - مصطفى طورات، أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خوجه، دار السلام، ط ١، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م.
- ٨٠ - مصطفى محمد الطحان، الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا وألمانيا الغربية، ط ١، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.

- ٨١ - مصطفى محمد الطحان، القومية بين النظرية والتطبيق، دار الوثائق، الكويت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- ٨٢ - معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١١٥ تموز ١٩٨٧م.
- ٨٣ - منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، بدون ناشر، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ٨٤ - المجلس القومي للإعلام الخارجي، الخرطوم، الكتاب الأبيض، الزج باسم السودان في محاولة اغتيال الرئيس المصري.
- ٨٥ - المملكة العربية السعودية، تنظيم الأعمال الإدارية في الدوائر الشرعية، رقم ١٠٩ في ١٣٨٢/١/٢٤هـ.
- ٨٦ - المملكة العربية السعودية، النظام تركيز مسؤوليات القضاء الشرعي، ط٤، الرياض، ١٣٩٨هـ.
- ٨٧ - المملكة العربية السعودية، مجلس الوزراء نظام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولائحته التنفيذية، الرياض، ط١، ١٤١١هـ.
- ٨٨ - المملكة العربية السعودية، نظام ديوان المظالم ومذكراته الإيضاحية، المرسوم الملكي رقم م/٥١ تاريخ ١٤٠٢/٧/١٧هـ الرياض.
- ٨٩ - المملكة العربية السعودية، وزارة الإعلام، تاريخ حضارة التنمية.
- ٩٠ - المملكة العربية السعودية، مجلس الوزراء، شعبة الخبراء، نظام مكافحة الغش التجاري ولائحته التنفيذية، ط٢، الرياض ١٤٠٣هـ.
- ٩١ - المملكة العربية السعودية، سياسة التعليم، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

## - ي -

- ٩٢ - الشيخ د. يوسف القرضاوي، بينات الحل الإسلامي وشبهة العلمانيين والمتغربين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ٩٣ - الشيخ د. يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ٩٤ - بيانات الإخوان المسلمين في مصر:
- نص البيان، القاهرة، ٢٧ جمادى الآخرة ١٤١١هـ الموافق ١٣ يناير ١٩٩١م.
- البيان المؤرخ ١٩٩١/٣/٢م.

- ٩٥ - بيانات الإخوان المسلمين في سوريا:
- برقية بعث بها نائب المراقب العام للإخوان المسلمين في سوريا: عدنان سعد الدين البيانوني للرئيس العراقي.
- نداء من الإخوان المسلمين في سوريا ١٩٩١/١/٢١ م.
- بيان صادر من العراق في رجب ١٤١١ هـ، ١٩٩١/١/٢١ م.
- ٩٦ - بيان صادر عن الحركة الإسلامية في تونس بتاريخ ١٩٩١/١/٣٠ م.

### □ المجلات والدوريات والجرائد:

- ٩٧ - جريدة الأيام، الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب - دمشق.
- ٩٨ - جريدة الحياة - لندن.
- ٩٩ - مجلة التقوى - لبنان.
- ١٠٠ - مجلة الإنسان.
- ١٠١ - مجلة القدس العربي.
- ١٠٢ - مجلة المجتمع - الكويت.
- ١٠٣ - مجلة الأسبوع العربي.
- ١٠٤ - مجلة الأمان - بيروت.
- ١٠٥ - مجلة فلسطين المسلمة.
- ١٠٦ - مجلة لواء الإسلام.
- ١٠٧ - مجلة المحلة - لندن.
- ١٠٨ - مجلة عكاظ - السعودية.
- ١٠٩ - مجلة الرابطة الإسلامية.
- ١١٠ - ملحق المجلة العربية «صحيفة أم القرى».
- ١١١ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط١، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨ م.
- ١١٢ - مجلة الدراسات العربية الإفريقية، العدد الرابع/الخامس.





الموضوع	الصفحة
---------	--------

محتويات الكتاب	٥
مقدمة	٩
إهداء	١١
اسمحي لي يا أماء:	١٣
تقديم الكتاب	١٥
مدخل	١٩

## الفصل الأول:

مراحل تطور الدولة الإسلامية	٨٧
المبحث الأول: ملامح الدولة الإسلامية في زمن النبوة	٨٩
المبحث الثاني: الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين	١٠١
المبحث الثالث: الدولة الإسلامية في عهد الأسر المالكة	١١٥
المبحث الرابع: النظرية السياسية في الإسلام «الخلافة»	١٣٩

## الفصل الثاني:

حركات إصلاحية ودولة إسلامية	١٥٥
المبحث الأول: واقع وتاريخ الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب	
«١١١٥ - ١٢٠٦هـ» «١٧٠٣ - ١٢٩١م»	١٥٧
المبحث الثاني: الدولة السعودية والحركة الوهابية	١٧٣

الموضوع	الصفحة
---------	--------

المبحث الثالث: دعوات وحركات عاشت بين الإصلاح والدولة نماذج من التاريخ	١٨٧
---	-----

### الفصل الثالث:

الحركات الإسلامية وواقعنا المعاصر	٢٢١
-----------------------------------	-----

المبحث الأول: انهيار الدولة العثمانية	٢٢٣
المبحث الثاني: جماعة الإخوان المسلمين في مصر نحو إعادة الحكم الإسلامي	٢٣٣
المبحث الثالث: الحركة الإسلامية والتغيير في دولة غير جمهورية مصر العربية	٢٦٥
الخاتمة	٢٨٧

ملحق (١)	٢٩٩
----------	-----

ملحق (٢)	٣٢٥
----------	-----

ملحق (٣)	٣٥٧
----------	-----

المصادر والمراجع	٣٦٩
------------------	-----

